سلسلة
ذاكرة الكتابة
73

إبراهام لنكولن

هدية الأحراج إلى عالم المدنيّة

محمود الخفيف

الهيئة العامة لقصور الثقافة

ابراهام لنكولن

إهـــــــداء ٢٠٠٧

الأستاذ الدكتور / محمد عبد القادر الخفيف

جمهورية مصر العربية

ابراهام لنكولن

محمود الخفيف

الهيئة العامة
لقصور الثقافة

ابراهام لنكولن

إهـــداء الكتاب

إلى روح فقيد مصر الأستاذ محمد صبري أبي علم باشا . . .

إلى روحك الطاهرة فى رياض الخلد أيها العظيم الراحل أهدى كتابى هذا الذى كثيراً ما سألتنى عنه . . لقد كنت أول من حبّب إلىّ « لنكولن » ، وذلك بمحاضرة لك عنه وعيتها وأكبرتها ، فلما تناولت القلم لأكتب كان لنكولن أول شخصية درستها ، وكان شخصك الحبيب فى خاطرى أبداً ، وقد غدوت فى وطنك أحد أعلامه ... ولن أنسى ما حييت ما كان من عذوبة روحك وجمال تواضعك يوم كاشفتك بإهداء كتابى هذا إليك ... ولم يكن يدور بخلدى أن ينشر الكتاب وقد طواك الموت وأنت نابغة جيل ورجاء أمة ؛ ولكنك خالد فى قومك خلود لنكولن فى قومه ، ولن تزال حياً فى أمة وهبتها حياتك فأحبتك وأكبرتك .

والسلام عليك من :

الوفى الذاكر إلى يوم يلقاك

محمود الخفيف

ابن الكوخ

فى جانب من جوانب ولاية كنتكى ، هنالك فى تلك البطاح المترامية من العالم الجديد حيث تنمو الغابات والأحراج وألفاف النبات الوحشى ، كان يقوم سنة ١٨٠٩ كوخ من تلك الأكواخ المتخذة من الكتل الخشبية الشوهاء ، تلك الأكواخ المتواضعة التى تراها العين متناثرة هنا وهناك على مقربة من الغابات ولا ترى غيرها فى تلك الأصقاع البرية مساكن للناس .

وكان لا يختلف ذلك الكوخ عما يقرب منه أو يبعد عنه من الأكواخ إلا فى سعته أو ضيقه فقد كانت تقام كلها على نمط واحد من أنماط البناء كما كان يعيش ساكنوها فى الغالب على صورة واحدة من صور المعيشة ...

كان لا يزيد على أربعة أمتار فى مثلها ، ليس فيه من متاع إلا بعض القدر والآنية لحفظ الطعام والماء ، وبعض الوسائد المتخذة من جلد الحيوان والمحشوة بورق الشجر أو بريش الطير ، وبعض الكراسى والمناضد الخشبية الساذجة التى صنعها بيده توماس لنكولن صاحب هذا الكوخ وقد اقتطع أخشابها كما اقتطع أخشاب الكوخ من الغابة القريبة بفأسه التى ترى معلقة أثناء الليل على جدار كوخه إلى جوار بندقية صيده .

فى هذا الكوخ فتح أبراهام لنكولن عينيه على نور الحياة فى اليوم الثانى عشر من شهر فبراير عام ١٨٠٩ ؛ وفى هذه البيئة ولد الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الأمريكية .

وضع الوليد كأنه فرخ من أفراخ الطير على فراش من القش المغطى بالجلد إلى جوار أمه ، وكانت تألم الأم أشد الألم من الرياح تنفذ إليها وإلى وليدها صافرة خلال الثقوب الطويلة بين كتل الخشب كلما هبت العاصفة من ناحية الغابة .

واضطر الوالد أن يبقى بالكوخ أياماً حتى تستطيع زوجه أن تستأنف عملها بالمنزل إذ لم يكن هناك غيره إلى جوار امرأته سوى ابنتهما التى تكبر الوليد بعام واحد ؛ وأخذ الرجل يحلب الأبقار بنفسه ويوقد النار فى الموقد ويعد الطعام، وكان

لا يبتعد عن الـكوخ إلا ساعة أو بعض ساعة عله يرجع بقليل من الصيد يقدمه طعاماً إلى زوجه الواهنة .

وكان يخفف عنه عبء حياته إقباله على مهد ابنه وتطلعه بخياله وهو ينظر فى وجه ذلك الابن إلى اليوم الذى يستطيع فيه أن يحمل الفأس أو البندقية إلى جانبه فى الغابة فيكون له خير عون على مشاق الحياة التى كان يحياها بين الأحراج ؛ وما كان له فى ابنه أبعد من هذا الأمل أو ألذ منه ، وماذا عسى أن يرجو النجار الذى يعمل وحيداً فى الغابة من ابنه الأول غير هذا الرجاء الحلو ؟

درج الطفل فى هذا الـكوخ حتى بلغ الرابعة من عمره ، تلك السن التى لا يفتأ فيها الأطفال يسألون عن كل ما يحيط بهم ولـكنه لم يجد حوله كثيراً مما يجتذبه ليسأل عنه ، فهذه فأس أبيه التى يقطع بها الأخشاب ، وهذه بندقيته التى يراها على كتفه كلما عاد من الغابة وفى يده صيد ؛ على أنه يرى أباه أحياناً وقد أتم صنع بعض الـكراسى وبعض الأسرة الخشبية وراه يحملها إلى حيث تستقر فى أكواخ بعض الجيران فيعجب لذلك ويتساءل ولا يكاد يفهم ما يلقى إليه من إجابة !

وكانت الغابة أو كان الجانب المحيط منها بالـكوخ هو نهاية ما يصل إليه خيال الطفل يومئذ من هذا الوجود وحسبه الآن من الوجود أن يلعب فى هذا الجانب من الغابة وإن لم يكن له فيه من رفقة سوى أخته سارا .

على أنه بدأ ينظر إلى الغابة نظرة الرهبة والدهشة معاً فقد أخذ يسمع عن السكان الأصليين أولئك الهنود الحمر الذين ينقضون على السكان البيض فيقتلونهم كلما ظفروا بهم وهو لا يفهم لم يقتلونهم ؛ ثم هو يخشى غوائل الحيوانات المفترسة التى كانت تتحدث أمه عنها أحياناً ؛ وكلما مد بصره فى تلك المساحات الهائلة أخافه الفضاء وحده ولو لم يكن فيه شىء من بواعث الخوف .

على أن الغلام فى هذه السن الباكرة يرى الحياة من قرب رؤية مباشرة ، فهو ينمو كما ينمو وحشى النبات فى ذلك الأقليم ، ويرى بعينيه وخياله الصلة بينه وبين بيئته ، يتغذى من ثمار الشجر ويضطجع فى مهد من أوراقها الجافة ويلتحف بجلود الحيوانات ويشرب ألبانها ؛ وهو يعيش فى أحضان الطبيعة حيث يرهف حسه ويعمق خياله ويقوى وجدانه وتنبسط نواحى نفسه الصغيرة وتستشف ما فى هذا

السكون العجيب من جمال وسحر وتستشعر ما فيه من سر ورهبة .

أليس يرى من كثب كيف تطعم الأسرة وكيف تكتسى ؟ أليس يرى التعاون بين الوالدين وما ينتج من اطمئنان وراحة ؟ أليس يرى الكدح فى سبيل العيش كلما أبصر أباه يهوى بفأسه على الأشجار أو كلما رآه مقبلا من الغابة وبندقيته على كتفه وفى يده طائر أو حيوان يدفعه إلى أمه فتتلقاه فرحة وتذهب لتعد الطعام ؟

وفى سن الخامسة يتسع مجال الحياة أمام عينيه بعض الاتساع فقد انتقلت الأسرة قليلا نحو الشمال وأقامت كوخها الجديد على مقربة من طريق عام كان يربط بين مدينتين ، وهناك كانت تقع عينا الغلام على بعض العربات غادية رائحة ، وعلى قوم يتجهون أبداصوب الغرب يحملون من الأمتعة ما لم ير مثله من قبل ، وإنه ليعجب أن يرى ملابس بعضهم من نوع آخر غير ما يلبس ، وتخبره أمه أنها متخذة من الصوف فينظر فى دهشة إلى وجهها ثم يتجه ببصره إلى ملابسه الجلدية المهوشة ويتمنى بينه وبين نفسه أن لو كانت له ولأبيه ملابس من ذلك الصوف .

وفى السابعة من عمره يصحب أباه إلى الغابة حيث بدأ الصبي يؤدى نصيبه من العمل فيساعد الأب الذى يقطع الأخشاب ويصنع منها الأثاث ويبيعه ويكسب من وراء ذلك نقوداً لا بد منها للأسرة ، وإنه لفخور الآن بمساعدة أبيه لا يحفل تعباً فى تلك المساعدة وإنه ليباهى بها أخته وإن كانت هى أيضاً لتؤدى نصيبها من العمل فى مساعدة أمها ؛ ولكن هل كانت « سارا » تستطيع أن تسوى الخشب وتجره وترتبه ؟ وهل كانت تستطيع أن تحمل الصيد إلى الكوخ كما كان يفعل « أيب » الصغير ؟

كان لا ينقطع عن العمل إلا فى أيام الآحاد إذ يجلس وأمه وأخته وأباه أمام الكوخ فيستمع فى شغف ولذة لما تلقى أمه من أقاصيص وما تتلو من حكايات كان أكثرها مشتقاً من الأنجيل .

كان الغلام ينتقل ببصره وخياله من أمه إلى أبيه ، وكانت أمه فى أقاصيصها جادة تحس نفسه الصغيرة شيئاً من الحزن يطوف بنفسها ويتسرب إلى حكاياتها ؛ أما الأب فكان يميل إلى الفرح والفكاهة ويتدفق إذ يحكى تدفق من لا تنطوى نفسه على شيء مما تنطوى عليه نفس الأم ، وما كان شيء من ذلك ليخفى على فطنة الغلام .

وأحدثت القصص الدينية أثرها فى نفس الصبى وظلت عالقة بلبه وخياله وجرت فى كيانه مجرى الدم فى عروقه واختزنت حافظته ألفاظها بنصها حتى ليتحرك بها لسانه وإن لم يقصد .

وثمة شيء جذبه إلى أمه وإن كان ليحب مرح أبيه وطلاقة روحه ، وذلك هو معرفتها القراءة والكتابة ثم رغبتها فى أن يتعلم الصبى على الرغم من مجادلة زوجها إياها فى ذلك إذ كان يرى الصبى أحوج إلى الفأس منه إلى القلم ، وحجته أنه لا يعرف من الكتابة إلا أن يرسم اسمه ومع ذلك فهو يكسب بفأسه ما يقيم أود أسرته .

وجاء فى تلك الأيام بعض ذوى قرباهم فأقاموا إلى جوارهم واستأنس الغلام وأخته بالقادمين وأقبلا على خالتهما وخالها يستزيدانهما الأنباء والأقاصيص وازداد الصبى تعلقاً بخالته إذ علم أنها تقرأ وتكتب كأمه وتحبذ مثلها أن يتعلم « أيب » القراءة والكتابة على الرغم من معارضة أبيه .

وبدا للصبى يوماً فسأل عن أسرته وأين نشأت وممن انحدرت ؟ ولكنه سمع ردوداً مبهمة لم ترو ظمأ نفسه أو لم يتسع لها خياله ، وبدا أبوه فى حيرة من أمره فهو إن أجاب ابنه على قدر ما يفهم ظل تساؤله قائماً وإن أطال وفصل لم يقو الصبى على متابعته .

وهل كان يستطيع الصبى أن يدرك أن أجداده الأولين جاءوا من انجلترة منذ مائة وسبعين عاما وأنهم كانوا من أوائل من انتجع الرزق فى هذه الأصقاع البرية وأنهم نزلوا أول ما نزلوا بولاية ماساشوست فى الشمال ، ثم انتقل بعض ذريتهم إلى ولاية فرچينيا ، ومن هؤلاء انحدر جده الذى سكن مقاطعة كنتكى حيث لا يزالون يقيمون ؟

لم يفهم الصبى شيئا من هذا فلا علم له بانجلترة ولا بالجهات الشمالية ولا الغربية ؛ ولكنه يرهف سمعه إلى أبيه إذ يقص عليه حكاية غريبة عن جده القريب ، فبينما كان أبوه وأخواه يساعدون أباهم فى الغابة كما يساعد « أيب » اليوم أباه ، إذ انطلقت رصاصة من بين الأدغال فأصابت ذلك الأب فخر صريعا لتوه وجرى الأخوان نحو الكوخ وتركاه وحده ، وبرز من بين الأشجار أحد الهنود الحمر وحمله يريد

أن يأخذه إلى داخل الغابة وبينما كان يقاوم ويصرخ عاد أحد الأخوين ببندقية من الكوخ وصوبها إلى رأس ذلك الهندى فأرداه

سمع الطفل ذلك الحديث وقلبه يخفق فرقا إذ رأى مبلغ ما أحدق بأبيه من خطر وهاله موت جده على تلك الصورة ؛ وماذا عسى أن يمنع أن يصيب أباه اليوم مثل ما أصاب جده بالأمس ؟ وبأى قلب يذهب إلى الغابة بعد اليوم ؟ ولكن أباه يفهمه أن هؤلاء الهنود قد أبعدوا صوب الغرب فلن يوجد فى الغابات منهم إلا عدد ضئيل لا خوف منه

وأخذت الأم تعلم ابنها وابنتها حروف الهجاء رسما ونطقا والصبى مبتهج بما يتعلم حتى جاء رجل إرلندى الأصل فأقام فى تلك الجهة مدرسة لتعليم الأطفال بنيت من كتل الخشب كما تبنى الأكواخ ، وأرسل الصبى إليها فيمن أرسل من أبناء الجيران وإنه ليطفر فرحا وغبطة ؛ وهناك كان الصبية يجلسون على الأرض فيدار عليهم كتاب واحد ويظلون طيلة نهارهم يتمرنون على نطق الحروف وتركيب الكلمات . ويسأل الصبى نفسه فى لهفة شديدة متى يستطيع أن يكتب ويقرأ كما تفعل أمه وخالته ؟

ولقد ظل أثر معلمه الأول ومدرسته الأولى مستقراً فى أعماق نفسه على مر الأعوام ؛ وثمة شىء آخر علق بنفسه وظل يذكره بعدها بأعوام وذلك هو الوعظ الدينى الذى كان يلقيه على الناس فى تلك الأصقاع أحد المبشرين تحت الأشجار أو فى كنيسة أقيمت كذلك على نمط الأكواخ ؛ ولقد رأى الصبى ذلك الواعظ ذات يوم يلقى حديثا طويلا على السامعين من غير أن يستعين بكتاب ، فعجب لذلك وأعجب بالرجل وقد كان ذلك أول حديث عام ينصت إليه خطيب الغد الذى سوف لا يجاريه فى قومه خطيب

ومما رآه الصبى كذلك يومئذ وأثر فى خياله وحير عقله ، قوم من السود كان أبوه يستوقفهم كلما مر أحدهم به فى الطريق العامة ويسألهم أن يبرزوا جواز مرورهم وكانت السلطات قد اختارت أباه ملاحظا للطريق ! وقد كان منظر هؤلاء السود وذلة نفوسهم مما يألم له الصبى ويدهش ، وكانت إجابة أبيه على اسئلته فى هذا الصدد مبهمة محيرة وهو لا ينى يتساءل ما ذنب هؤلاء وما عملهم وما أصلهم ولم كانوا

كذلك سوداً مضطهدين ؟ ولو تفتحت حجب الغيب لأبيه لرأى ابنه فى غد محرر هؤلاء العبيد ومخرجهم مما هم فيه من هوان ؛ ولقد بدأ عطفه عليهم فى تلك السن وأخذ بعدها يؤذيه منظرهم وينقبض خاطره كلما ذكر مذلتهم ؛ فهل كان يدرى الصبى أن القدر يعده ليكتب فى تاريخ الانسانية صفحة من أجل الصفحات بتحرير هؤلاء المساكين الأرقاء ؟ لم يكن يدرى من ذلك شيئا وحسبه أن يرثى اليوم لحالهم فنى هذا الرثاء خير بداية وإن لم يفكر بعد فى غاية

ما لبثت الأسرة أن رأت فى عميدها توماس لنكولن ميلا شديداً إلى الرحيل من كنطكى إلى حيث يسهل عليه كسب قوته وقوتها مع اليسير من الجهد ، وكان توماس من النفر الذين يضيقون بالجهد والذين يطلبون أكلاف العيش من أيسر سبلها ، وما فتىء يذكر لهم اسم ولاية انديانا مقرونا بالخير والبركة ويزين لزوجه الرحيل إليها

وذهب لخبرها بنفسه وعاد يتحدث إلى الأسرة عما رأى ؛ فالغابات مليئة بالصيد والجو جميل والناس أهل بر ومروءة ؛ وسرعان ما باع توماس لنكولن كوخه والأرض المحيطة به وأخذ يعد العدة للرحيل

ولما حزموا متاعهم توجهوا قبل الرحيل إلى بقعة من الارض قريبة ، وهنالك وقفوا جميعاً مطرقين ، أما الأب فكان يتجلد من أجل امرأته وأما الأم فقد كانت تتساقل الدموع على وجنتيها وهى تجهش بين آونة وآونة إجهاشة ينخلع لها قلب الصبي وترتعد لها أخته فتصرخ فيزيده صراخها ألما وحزنا ؛ فى تلك البقعة دفن الوالدان ابنا ثانيا لهما كان أصغر من « أيب » بعامين ، دفناه وقد فارق الحياة ولما يزل فى مهده وما أشد ما ترك ذلك الموقف من أثر فى نفس الصبي ، وما كان أعظم ألمه كلما ذكر بعد ذلك أنهم تركوا الطفل الدفين فى بقعة من الأرض لا يقوم عليها حجر ولا تميزها أية علامة ؛ ومن ذلك اليوم عرف الصبي لأول مرة معنى الحزن وذاق مرارته وانطوت عليه نفسه التى سوف تنطوى على كثير منه كلما مرت الأيام

وتوجه المسافرون صوب انديانا وقد حملوا متاعهم على جوادين أعدا لذلك وكان إيب يركب مع أبيه على ظهر أحد الجملين ، وتركب أمه وأخته سارا على الآخر وقضوا فى الطريق زهاء أسبوع يشقون فى سيرهم الأحراج ويجتازون بعض مجارى المياه ، فإذا جنهم الليل قام عميد الأسرة على حراستهم من دواب الغابة حتى ألقوا رحالهم آخر الأمر فى إنديانا بعد أن قطعوا زهاء تسعين ميلا

الولايات المتحدة

ما هذه الولايات المتحدة التى تتحدث عن غاباتها وأصقاعها البرية ؟ وما فصلها فى تاريخ هذا الوجود ؟

برزت الولايات المتحدة دولة من دول العالم على حين غرة ، فكان بروزها السياسى شبيها بما زعمه بعض الجغرافيين عن وجودها المادى ، إذ يقولون إن أمريكا أو الدنيا الجديدة قد برزت من تحت الماء فى حركة من حركات هذا الكوكب الذى نعيش فيه ! وما كان بروزها السياسى فى الحق إلا حركة من حركات الشعوب فى هذا المضطرب الواسع الذى نسميه العالم ؛ حركة لم يكن يظن أحد يوم بدأت أنها بالغة بعد ما بلغته

سمع الناس فى أوروبا قبل أن ترجف الراجفة فى فرنسا بسنوات قليلة عن أنباء عجيبة تأتيهم من وراء المحيط ؛ سمعوا عن الحرية يرف جناحاها الجميلان ويتهلل وجهها الأبلج فى تلك الربوع الفسيحة التى وجه كولومبس أنظار الدنيا القديمة إليها قبل ذلك بنحو ثلاثة قرون ؛ وسمعوا عن أختها الديمقراطية ترفع علمها وتشهر سلاح الأيمان واليقين ، سلاح جان دارك الخالد فى وجه الطغيان العبوس المربد ؛ وسمعوا عن مراكب من الشاى تقذف حمولتها في البحر وتلتهمها النيران ، وسمعوا عن جموع ثائرة تلتقى هنا وهناك هاتفة صاخبة ، وعن جنود تحشد خفافاً وثقالا ، ثم ما لبث الناس فى الدنيا القديمة أن علموا أن الحرب دارت رحاها بين انجلترة وأبناء هاتيك الولايات ، وأيقنوا أنها باتت من جانب أبناء الولايات حرب نصر أو فناء .

***

وكانت هذه الولايات قبل حرب الاستقلال مستعمرات جعلت منها العوامل الاقتصادية والاجتماعية قسمين : المستعمرات الشمالية والمستعمرات الجنوبية ؛ فكان الاختلاف بين القسمين مرده إلى الفوارق فى التربة والمناخ بين الشمال

والجنوب ولا دخل هنا للفوارق الجنسية إذ كان أثرها فى هذا التقسيم ضئيلا لايكاد يكون له وزن لأنها كانت فى ذاتها فوارق طفيفة أو أصبحت بفعل الزمن طفيفة.

وكانت مستعمرة مارى لاند من الوجهة الجغرافية هى الفاصل بين الشمال والجنوب فهى والمستعمرات الواقعة جنوبيها تكون القسم الجنوبى ؛ وما وقع شماليها فهو القسم الشمالى .

كانت الأرض فى الشمال على العموم أقل خصباً منها فى الجنوب ، وكان الناس وهم من النازحين الأوروبيين وبخاصة الأنجليز ، يزرعون مساحات منها تكفى لسد حاجاتهم مما يؤكل ، فكان الرجل يعتمد على معونة بنيه فحسب ومن ثم كان هؤلاء الزارعون فى الشمال فقراء ، ولم تنشأ هناك الملكيات الواسعة إلا فى حالات نادرة .

على أن ذلك لم يحل دون ظهور الطبقات والفوارق الاجتماعية ، فهناك فريق التجار من ساكنى المدن القريبة من المحيط ، وكان هؤلاء يصدرون إلى انجلترة حاصلات المستعمرات ويستوردون المصنوعات ليبيعوها لساكنى المدن ولمن يطلبها من الزارعين ؛ ولقد انحصرت الثروة فى أيدى هؤلاء التجار فكانوا هم الطبقة الأرستقراطية فى الشمال ؛ وكان الزارعون ينظرون إليهم نظرة الحقد والكراهية ؛ وفى هؤلاء التجار وأبنائهم انحصرت الوظائف الأدارية ووظائف الجندية إذ كان لهم قسط من التعليم يضاف إلى حظهم من الجاه ، وإن كان تعليمهم يومئذ محدوداً على قدر مستوى مدارسهم ومستوى معلميها .

أما فى الجنوب فكان الحال على خلاف ذلك ، إذ كانت الثروة فى أيدى الزارعين وسبب ذلك أن التربة أكثر خصباً وأن المناخ يساعد على زراعة الطباق وهو محصول كان يغرى تصديره إلى أوروبا بالأكثار من زراعته وكسب المال الموفور من هذه الزراعة ؛ ولقد كان ذلك سببا فى حاجة الزارعين إلى عدد عظيم من الأيدى العاملة فماذا يصنع أهل الجنوب ؟ لقد لجئوا إلى أمر أدى إلى خلق مشكلة من أعقد المشاكل وذلك أنهم أخذوا يستخدمون السود من العبيد ويستجلبونهم بكثرة من أفريقيا ، ولقد أخذ يزداد عدد هؤلاء السود منذ بداية القرن الثامن عشر .

وظهرت الفوارق الاجتماعية فى الجنوب أيضاً ، فهناك كبار الملاك وصغار الزارعين وكان صغار الزارعين فى الجنوب أشبه حالا بأمثالهم فى الشمال ، وكانوا كذلك ينظرون نظرة الحقد والكراهية إلى كبار الملاك الذين حصلوا على الأراضى بالزلفى إلى الحكام والتقرب إليهم بشتى الوسائل والذين استمتعوا هم أيضاً بالنفوذ والمناصب الهامة وأتيح لهم فى مدارسهم حظ من التعليم . . . أما العبيد فكان شأنهم شأن الماشية يحشرون فى حظائر كما تحشر الدواب ويساقون إلى العمل كما تساق الأنعام ، ومن كان هذا شأنهم فان يكون لهم موضع فى المجتمع ، وحسبهم أن يذكر سادتهم أنهم آدميون وقليلا ما كان هؤلاء السادة يلتفتون إلى هذا المعنى !

وكان صغار الزارعين فى الشمال وبخاصة النازحين منهم إلى الغرب على حدود الولايات أكثر الناس بؤسا وشقاء ؛ فكان عليهم أن يشقوا الأحراج ويقطعوا الأشجار ويزرعوا ما نتج عن ذلك من الأرض الفضاء ؛ وكان على الرجل منهم أن يفى بكل مطالب أسرته فعليه بناء الكوخ من الكتل الخشبية يسويها بفأسه ، وعليه زرع الأرض وتعهد الماشية ، وعليه إطعام الأسرة بما يصيب من صيد ، ومن أجل ذلك كانت الفأس والبندقية أغلى عنده من كل شىء ، وكان فرحه بالبنين عظيما إذ يكونون عدته فى هذا الكفاح المتواصل .

وكانت أكواخ هؤلاء الكادحين السذج تتناثر هنا وهناك على مدى البصر ، وكانوا يتعرضون لهجمات الوحوش وهجمات السكان الأصليين من الهنود الحمر فى تلك الأصقاع الغربية البرية التى كانوا يعيشون فيها على نحو أشبه بميشة آباء الإنسانية الأولين .

على أن حياة هؤلاء لم تخل من بعض المزايا فقد خلصت طباعهم من أوضار المدنية ورذائلها وغرس فى نفوسهم حب الاستقلال والاعتماد على النفس ، ودرجوا على الفطرة ينظرون إلى معانى الخير والشر نظرة خالية من أوضاع الفلسفة وفوضى المبررات والملابسات ، فجاءت لذلك نظرتهم هذه نظرة إنسانية تتمثل فيها الرجولة الحقة لم تفسدها النظرات والتأويلات .

وغرس فيهم الخوف المتواصل على مدى الزمن ألا يبالوا بمخوف وأن يلاقوا الشدائد والمحن صابرين أشداء ، فهم لكثرة ما يلاقون من شظف المعيشة لا يجدون

كبير فرق بين أوقات خوفهم وأوقات أمنهم ؛ وقد اكتسبوا كذلك من بيئتهم كما اكتسب أهل الصحراء الإيمان بالقدر والإذعان لأحكامه .

هذه هى الحال الداخلية للمستعمرات قبل حرب الاستقلال ، فأما أهل المدن فكانوا مترفين فى الشمال والجنوب كما رأينا ؛ التجار منهم وكبار الملاك فى رغد العيش سواء ؛ وأما الزارعون من ساكنى الأكواخ فكانوا يلاقون بؤس العيش راضين صابرين وإن كانوا يمقتون هؤلاء الأغنياء مقتا شديدا .

أما علاقة هذه المستعمرات بانجلترة فكانت حتى قبيل الثورة علاقة هادئة بل لقد كان السكان فى جملتهم الأغنياء منهم والفقراء ينظرون إلى انجلترة نظرتهم إلى الأم وكثيرا ما كانوا يسمونها « الوطن » إذ كان معظمهم قد هاجروا إلى أمريكا من هناك ، أما الأغنياء فكانو يحرصون على العلاقات التجارية بينهم وبين انجلترة ويعتمدون على أسطولها فى حماية متاجرهم ونقلها ، فهم لذلك موالون للتاج البريطانى ، وأما الفقراء فلم يكن لهم صلة بالسياسة واتجاهاتها اللهم إلا فئة قليلة ممن كانت لهم بالمدن علاقة ؛ وكان الأغنياء والفقراء جميعا يحرصون على أن تحميهم انجلترة من الفرنسيين فى كندا والأسبان فى فلوريدا .

* * *

وإذا كانت الحال كما ذكرنا فجدير بالمرء أن يتساءل ما الذى جر أهل هاتيك المستعمرات إلى الثورة على انجلترة وما الذى جمعهم على غرض واحد وكان بينهم من عوامل التفرقة فى الداخل ما أشرنا إليه ؟

لقد كان مرد تلك الثورة فى الجملة إلى نزعة من نزعات الحماقة منيت بها السياسة الإنجليزية فى فترة من الزمن فكان فى تلك السياسة من الحمق بمقدار ما يكون فيها من رشد فى بعض أوقاتها .

لقد رضى سكان المستعمرات بالكثير لتبقى لهم حماية انجلترة ؛ رضوا بقوانين الملاحة والتجارة التى فرضتها عليهم انجلترة . فلا تنقل متاجرهم إلا سفن انجليزية ولا تصل إليهم من سلع غير انجليزية إلا عن طريق انجلترة ليظل لانجلترة أجر النقل وربح التجارة .

وخرجت انجلترة منتصرة من حرب السنين السبع (١٧٥٦ — ١٧٦٣) وكانت ميادينها فى أوروبا وآسيا وأمريكا ؛ وظفرت من هذه الحرب بتوطيد نفوذها فى الهند وطرد الفرنسيين من كندا ولكنها وجدت نفسها وقد أثقلت الديون كاهلها.

ورأت أن جانباً من هذه الديون قد أنفق على الدفاع عن سكان تلك المستعمرات الأمريكية ، ورأى أهل المستعمرات أن انجلترة أنفقت ما أنفقت من أجل مصلحتها هى فحسب ؛ وأبت انجلترة إلا أن تحمل أهل المستعمرات جانبا من ديون الحرب. فعمدت إلى فرض ضريبة « الدمغة » على كل المكاتبات الرسمية فكانت هذه الخطوة أولى حماقاتها تجاه المستعمرات .

وشددت انجلترة فى تنفيذ قانون الملاحة والتجارة وكان الأمريكيون أثناء حرب السنين السبع قد لجئوا إلى تهريب بعض المتاجر ؛ وأخذت انجلترة أهل المستعمرات بالشدة فى وقت زال فيه خطر الفرنسيين من كندا وقلت الحاجة تبعاً لذلك إلى حمايتها فكانت فعلتها هذه فى تلك الظروف ثانية الحماقات .

وباتت الأنباء تنذر بعاصفة من عواصف السياسة فأهل المستعمرات يرفضون الأذعان لضريبة الدمغة فلا يجوز لبرلمان لا يمثلون فيه أن يفرض عليهم ضريبة وجرت على ألسنتهم كلمة قصيرة حاسمة « لاضرائب بغير تمثيل » ؛ ولكن الأنجليز من ناحية أخرى يتمسكون بأن الدفاع الأمبراطورى عن سلالة البريطانيين أينما وجدوا جعلهم يدافعون عن بعض تلك السلالة فى أمريكا فعلى هؤلاء قسط من نفقات هذا الدفاع .

وانتقلت المسألة بهذا من مظهرها الاقتصادى إلى مظهر سياسى خطير وأصر كل من الجانبين على أنه صاحب حق .

وألغى البرلمان قانون الدمغة ولكنه شفع هذا العلاج بطمنة ليته لم يقدم عليها وقتئذ وذلك أنه أعلن حقه فى فرض أية ضريبة تقتضيها المصلحة فى المستقبل ليحتفظ بحقه تجاه المستعمرات .

ولكن المسألة باتت عند الأمريكيين مسألة مبدأ سياسى لا مسألة نقود تدفع ، ولذلك نراهم يلجئون إلى العصيان والمقاومة عند ما لجأ الإنجليز بعد إبطال قانون الدمغة إلى فرض ضرائب على بعض المتاجر الخارجية .

فرض الإنجليز عام ١٧٦٧ ضرائب على ما يرد إلى المستعمرات من الزجاج والشاى والورق والرصاص وألوان التصوير وأشباهها ، وعارض الأمريكيون أشد المعارضة ولجأ الإنجليز إلى اللين فألغوا كل هذه الضرائب إلا ضريبة الشاى تقريراً لحقهم أيضاً وتثبيتاً لمبدأ سياسى لا يتزحزحون عنه .

ولكن الأمريكيين لا يتزحزحون هم أيضا ، فبدءوا المقاومة بالإضراب عن شرب الشاى ، ثم وقع حادث كان بمثابة الثقاب المشتعل يلقى على الحطب ، وذلك أن بعض الأمريكان تنكروا فى زى الهنود الحمر ودخلوا ميناء بوسطن وألقوا بما كانت تحمله ثلاث سفن من الشاى فى البحر ...

وثار الإنجليز وهم أهل صبر وتؤدة فكانت ثورتهم حينذاك كبرى حماقاتهم فقررت الحكومة البريطانية إقفال ميناء بوسطن ومحاكمة الثائرين أمام محاكم إنجليزية وألغت دستور ولاية مساشوستس عقابا لها على تمردها .

وائتمر الأمريكيون فى فيلا دلفيا عام ١٧٧٤ لينظروا ماذا يفعلون وكان مؤتمرهم هذا أولى خطواتهم نحو الاستقلال .

أعلن المؤتمرون حقوقهم وقرروا قطع العلاقات التجارية مع الإنجليز حتى تزول أسباب الخلاف ولكنهم قرروا فى صراحة أنهم ظلوا على ولائهم للتاج .

ولكن المشاجرات ما لبثت أن وقعت بين الجند البريطانيين وبعض الأمريكيين وعمدت انجلترة إلى القوة لتثبيت وجهة نظرها ؛ فلم ير الفريقان بدأ من الاحتكام إلى السيف بعد أن فشل الاحتكام إلى المنطق .

واشتعلت نار الحرب ، وجعلت القيادة لرجل أصبح من مفاخر أمريكا وذلك هو جورج وشنطون ، وجمعت الجند من مختلف الولايات وشاعت فى الأمريكيين حماسة أنستهم ما بينهم من أسباب الخلاف ؛ وائتمر زعماؤهم مرة ثانية فى فيلادلفيا عام ١٧٧٦ وفى هذه المرة أعلنوا استقلالهم عن انجلترة كاملا ، وبات السيف هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق هذا الغرض القومى العام .

وانتقل الأمريكيون تحت راية وشنطون من نصر إلى نصر ، وتقدم المتطوعون من الفرنسيين يشدون أزر الثائرين المجاهدين انتقاماً من إنجلترة ، وما زال الكفاح

متصلا والجهاد مريراً ، حتى تم للأحرار المجاهدين النصر يوم أرغم القائد الإنجليزى كورنوالس على التسليم لوشنطون فى مدينة يوركتون فى التاسع عشر من أكتوبر عام ١٧٨١ بعد صراع اتصل سبع سنوات .

وفى سبتمبر عام ١٧٨٣ لم تر إنجلترة بداً من قبول معاهدة فرساى التى نص فيها على اعترافها باستقلال مستعمراتها الأمريكية استقلالا لا قيود فيه ، وأصبحت كل مستعمرة ولاية حرة لا تربطها بتاج الامبراطورية أية تبعية ؛ فماذا عسى أن تكون علاقة هذه الولايات الحرة كل منها بالأخرى ؟ أتنفرد كل ولاية عن أخواتها أم ترتبط الولايات بعضها ببعض برباط يجمع شملها ؟ وأى ضروب الارتباط هو خير لها ؟ أتظل كما كانت فى ظل كفاحها من أجل الحرية ؟ ذلك ما كان يدور بخلد الساسة غداة الاستقلال .

لقد كسب الأمريكان استقلالهم تحت راية النجمت على صفحتها ثلاث عشرة نجمة وثلاثة عشر خطا تمثل الولايات الثائرة وعددها ثلاث عشرة ... وكان الأمريكان قبيل ظفرهم قد أقاموا لأنفسهم اتحاداً سنة ١٧٨١ ، كما كان يشرف منهم على الحرب منذ اشتعلت نارها مؤتمر عام ؛ ولكن هذين لم ينص على استمرارهما إذا تم النصر .

والحق أن نفوذ ذلك المؤتمر العام قد تضاءل بعد الصلح حتى كاد ينعدم ؛ وذهب ذلك الاتحاد بذهاب الغرض من إقامته وهو المفاوضة ، كسلطة لها حق البت فيما يهم الجميع .

وصارت كل ولاية حرة فيما تأخذ أو تدع من الشئون ؛ ولكن الحال ما لبثت أن أوجبت الاتحاد ؛ فلقد أخذ يدب الخلاف بين بعض الولايات وبعض فى مسائل كثيرة كالدين العام ونظام الاسترقاق ، وإعانة الجند الذين سرحوا حسب شروط الصلح والالتزام بما يخص إنجلترة من حقوق وفق المعاهدة ، حتى لقد باتت انجلترة تخشى من سوء الحال وتندد بعدم وجود سلطة مسؤولة عن تنفيذ ما تم التعاهد عليه.

وكان كثيرون من بعيدى النظر يرون أن لا صلاح للولايات إلا أن يشملها نظام تسهر عليه سلطة مركزية ومن هؤلاء وشنطون بطل الاستقلال ؛ لذلك دعوا إلى عقد مؤتمر للنظر فى هذه المسألة ، وشهدت مدينة فلادلفيا اجتماعاً كبيراً كتلك

الاجتماعات التي رأتها قبل الاستقلال وكان زعيم المؤتمرين هذه المرة كذلك وشنطون.

وكان عمل المؤتمرين شاقاً إذ كان هناك من يغالون فيما سموه حقوق الولاية فأخافهم التفكير في إقامة اتحاد عام ظنوا أنه يسلب الولايات حريتها في العمل .

وبلغ من صعوبة العمل أن حار المؤتمر بين أمرين : أيمضى إلى إقامة نوع من التعاهد بين الولايات على أساس أن كلا منها سلطة مستقلة كما يكون التعاهد بين الدول تجاورت أو تباعدت ، أم يضم الولايات كلها في نطاق واحد ويجعل منها أمة واحدة ؟

ورأى بعد طول حيرته أن كلا الأمرين مردود ؛ فأولهما لا يفي بالغرض في الظروف القائمة وثانيهما في عداد المستحيلات .

وانتهى الرأي أخيراً إلى إقامة سلطة مركزية في شكل دولة تعاهدية : ونص الدستور الذي وضعه المؤتمرون على أن تبقى كل ولاية حرة في شئونها الداخلية ، ولا تتدخل السلطة المركزية إلا في مسائل الضرائب العامة وفيما يتطلبه الدفاع الحربي عن الجميع ، وفي مسائل المواصلات والبريد وأشباهها من الشئون التي تمس الولايات جميعاً

واختير وشنطون سنة ١٧٨٩ رئيسا لهذه السلطة المركزية وهي حكومة الولايات المتحدة وفق هذا الدستور . ونص الدستور على أن تكون مدة الرياسة أربع سنوات ، يجوز بعدها إعادة نفس الرئيس الذي خلت مدته إذا شاء الناخبون ، ويقوم إلى جانب الرئيس نائب الرئيس وهو كذلك ينتخب لمدة أربع سنوات ، ويتولى سلطة الرئيس في حال وفاته أو اعتزاله لأي سبب حتى ينتخب الرئيس الجديد .

وتنحصر السلطة التشريعية للاتحاد في مجلسين : مجلس النواب ومجلس الشيوخ ويختار أعضاء كل منهما من الولايات بطريق الانتخاب ويتألف منهما مجتمعين مجمع عام يسمى الكونجرس وينبغي أن ينعقد مرة في السنة على الأقل ويدعى إلى الانعقاد بعد ذلك إذا دعت الضرورة .

ويتولى الرئيس السلطة التنفيذية بعد أن يقسم أمام الكونجرس على الولاء للدستور ويصبح الرئيس الأعلى للقوات البرية والبحرية للاتحاد وكذلك لقوات الولايات المختلفة إذا اشتركت فعلا في حرب من أجل الاتحاد ؛ وله بمشورة مجلس

الشيوخ وموافقته سلطة تعيين الوزراء والسفراء والقناصل والقضاة فى المحاكم العليا وغيرهم من كبار الموظفين ؛ كما أن له حق الإشراف على أعمال الوزراء أو غيرهم من كبار رجال السلطة التنفيذية ، فيراجع أعمالهم ويطلب إليهم تقديم التقارير الشفوية أو الكتابية عما يرى من الشؤون .

وبهذا الدستور استطاع المؤتمرون أن يوفقوا بين المتمسكين بحق الولاية فى الحرية والراغبين فى الاتحاد ؛ ولما صار هذا الاتحاد حقيقة قائمة أصبح هم كل رئيس المحافظة عليه وتدعيمه ومقاومة كل ما من شأنه إضعافه أو فصم عروته ... وذلك لأنه لم تتم له حقيقته إلا بعد عواصف هوج كادت تأتى عليه ، ففى بعض المدن ألفت مظاهرات وحدثت اضطرابات بسبب العداء لدستور الاتحاد ، ورفضت بعض الولايات الاعتراف به وتمهلت بعض الولايات حتى ترى مدى نجاحه . . . وظل هذا الحال حتى تغلبت الحكمة وانتصر القائلون بالاتحاد وكان لشخصية وشنطون بطل الاستقلال أثر بعيد فى إدراك النجاح .
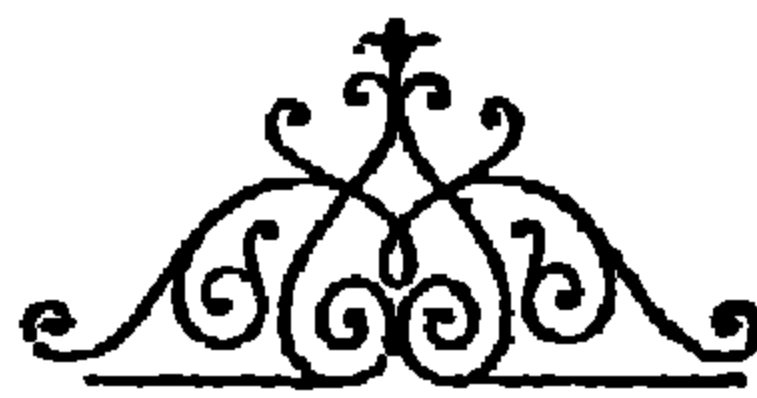
شمر توماس لنكوان عن ساعديه وأهوى بفأسه على الأشجار يقطعها ويشقها ويسوى فروعها حتى تم له إعداد ما يلزم من الأخشاب لأقامة كوخ تأوى إليه الأسرة ؛ ثم دعا إليه بعض جيرانه ليساعدوه على رفع تلك الأخشاب وقد شدت بعضها إلى بعض ؛ وكان رفع الأخشاب « عملية » يدعى إليها الجيران فيلبون فى سرور وإخلاص إذ قلما كانت تتاح لهم الفرصة لمثـل هذا الاجتماع ؛ ولذلك كان يجرى فى أمثاله من فنون اللهو والمزاح ومن ضروب اللعب والتندر بقدر ما يكون فيه من نصب ومشقة ...

وكانت الحياة هنا فى إنديانا أسهل منها فى كنطـكى إذ كانت الحيوانات موفورة فى الغابة لمن يطلب الصيد ؛ ولـكن مثل هذه المعيشة كانت مع ذلك بعيدة كل البعد عن أسباب الراحة إذا قيست إلى معيشة المدن ، وحسبك أن الملابس كانت ما تزال تتخذ من جلود الحيوانات إلا فى بعض الأحيان حيث كان يغزل الصوف وينسج فى الأكواخ ، وحسبك أن المساكن كانت هاتيك الأكواخ الحقيرة ، وأن تلك الأصقاع كانت تفتقر إلى سبل المواصلات وإلى مظاهر العمران من متاجر أو دور تعليم أو دور استشفاء إلا ما كان منها فى أبسط حالاته .

على أن الصبى كان مغتبطاً ببيته الجديد فى إنديانا فقد كان أوسع من ذلك الذى درج فيه بكنطـكى ، وكان له ولأخته سرير من الخشب فى ركن منه ، عليه حشية من الجلد ملئت بالريش وورق الشجر وكانت به بعض المناضد وبعض المقاعد

وكان الصبى يأنس بكثرة الجيران هنـا ، ويرى الحياة أكثر نشاطاً وأوسع مجالا : ولقد جاء بعض ذوى قرباه فأقاموا معهم حيث كانوا يقيمون وكان معهم شاب تبنوه فى نحو الثامنة عشرة ...

وكان كل امرىء يؤدى نصيبه من العمل لم يتخلف عن ذلك حتى الصغار؛ فهذا « أيب » وكان على نحافته غلاماً قوى الساعدين ، يبـذر الحب فى الربيع ويشترك فى الحصاد وقت الصـيف ويطعم الخنازير ويحلب الأبقار أكثر الأيام ،

ويتعهد سور المزرعة بالأصلاح إذا أمالت جوانبه الحيوانات ؛ ثم إنه إلى جانب ذلك قد بدأ يعاون أباه فى أعمال التجارة وهـذه أخته سارا تعاون أمها فيما لا يحسنه أيب من شؤون البيت .

وظل هذا حال تلك العشيرة مدة عامين ؛ ولـكن الزمن القاسي يأبى إلا أن تنتابهم حمى مروعة ناءت بالناس والدواب ، وحار فى أمرها الـكبار والصـغار وهم لن يجدوا طبيبا إلا أن يقطعوا نيفـا وثلاثين ميلا على الأقل ؛ وهل كانوا يستطيعون أن ينتقـلوا بضع خطوات ؟ ... لقد هدهم المرض فرقدت الأم ورقد كثير من الجيران وبعض ذوى القربى ومات جده لأبيه وجدته لأمه ثم حم القضاء فماتت الأم ! ورزىء أيب بأقوى صدمه من صدمات الأيام وأى صدمه ؟ لقد ضاقت فى وجهه الدنيا وأحس الغـلام معنى اليتم إحساساً قوياً وقد زاد وقعه فى نفسه ما فطر عليه من عمق الخيال واشتداد العاطفة ... لقد طالما وقف إلى جوار سرير أمه المحتضرة ينظر إلى الدموع تتساقل على وجه أبيه المصفار ، وقد أنهكته كثرة أعماله فى تلك الأيام فضلا عن حزنه ، إذ كان يقضى كل يوم معظم نهاره فى تسوية توابيت من الخشب لمن تطوى أعمارهم الحمى ... ؛ ولما أخذ يعد تابوتاً لزوجته وقف ابنه يساعده شارد اللب ، فى محياه وفى نظراته اليتم والبؤس ؛ ولقد ظل الصبي هناك أمام تلك البقعة من الأرض التى دفنت تحتها أمه حتى تناوحت من حوله رياح المساء ، ومشت فى الأفق ظلال الطفل ، وسكتت العصافير على الشجيرات القريبة ، فذرفت عيناه سخين الدمع وعاد وحده إلى الـكوخ كسير القلب موجع النفس يحس أنه غريب فى هـذا الوجود الواسع وهو يومئذ فى العاشرة من عمره .

أصبحت سارا الصغيرة ربة الأسرة بعد موت أمها ؛ وكانت سارا فى الثانية عشرة من عمرها فأخذت تخدم أباها وأخاها فيما يلزم لهما من شؤون البيت ، والرجل وابنه يحسان الوحشة كلما أويا إلى الـكوخ من عملهما فى الغابة أو فى المزرعة ، فلا الرجل ملاق نظرة الحنان والعطف ولا ابتسامة الشكر التى كانت بالأمس تضيء جوانب نفسه وتهون عليه متاعب عمله ؛ ولا الصبي واجد من يفتح له ذراعيه

ويضمه إلى صدره كما كانت تفعل أمه حين كانت تستقبله وتقبل جبينه وتنعته بالرجل الصغير وتشير مغتبطة إلى مستقبله .

ولم يطق الرجل صبراً على هذه المعيشه وقد مضى على وفاة زوجه عام ؛ فرحل عن القاطمة قائلا إنه قد يغيب أياماً ولـكنه على أى حال لن يطيل إلا مضطراً ...

غاب الأب أياماً ، فما أحس الصبي لغيابه وحشة كما أحس لغياب أمه ؛ أكان ذلك لأن غياب أبيه كان إلى حين وكانت إلى الأبد غيبة أمه ؟ على أنه يحس دائماً لغيبة أمه فى أعماق نفسه حزناً لن يفتر على الأيام ، حزناً دفيناً يمس خواطره جميعاً من بعيد مسًّا هيناً مرة ومساً شديداً مرات وسيبقى هذا الحزن الهادئ الدفين فى أعماق نفسه لا تنقص الأعوام منه شيئاً .

وإنه ليسمع همساً حوله أن أباه ما غاب إلا ليعود بزوج أخرى غير أمه ؛ فيستعيد الصبي ما سمعه من قبل عن امرأة الأب وما يكون فى قلبها من قسوة على غير بنيها ؛ وهل له أن يلوذ بعطف أبيه وإنه ليحس منذ وفاة أمه كلما خشن عليه إحساساً لم يكن يداخله من قبل ، فإن نظرة عطف أو كلمة حنان من أمه كانت تذهب بخشونة أبيه جميعاً .

ما باله تتنازعه الهواجس ويتحرك الحزن فى أعماق نفسه ؟ وما بال تلك الغابة المحيطة به تملأ اليوم خاطره بصور ينكرها خياله وإن ارتاحت إليها نفسه الحزينة ؟

أكان ذلك إرهاص نفس شاعرة ؟ إنه ليمد سمعه نحو الغابة إذا جنه الليل فينصت إلى زئير الوحوش وصراخها وإلى تناوح الريح وصفيرها وإلى هدير الأمواه فى الغدران المنحدرة وخريرها ، ثم إلى تلك الخشخشة القوية التى تشبه الصوت المنبعث من البحر تحدثها الأشجار إذ تعصف بها الرياح العاتية ؛ وإنه ليمد خياله نحو الغابة فيصور لنفسه ما تزدحم به ألفافها من وحوش وهنود وزواحف وأطيار وخلائق أخرى يتحدث عنها الناس حديثاً مبهماً ، وإنه ليخرج من هذا كله بمثل ما يخرج به راكب البحر أو جائب البيد من الشعور بضآلة الإنسان أمام عظمة الخالق ، ثم بالأذعان والضراعة والاستسلام ...

عاد توماس لنكولن فى عربة يجرها أربعة من الجياد القوية الممتلئة ؛ ونزلت من العربة سيدة يذكر الصبي أنه رآها فى كنطكى ؛ ونزل منها غلام وبنتان ،

وكانت السيدة هى زوج أبيه . ودهش أيب لما رأى من متاع جديد ! فقد رأى سرراً حقيقية وكراسى وخواناً ومائدة ومدًى وآنية وأشياء غيرها مما لم تقع عليه عينه من قبل بين جدران الكوخ ؛ وسرعان ما كوّن الصغار رفقة تربط بينها المودة والمحبة ، وكانت إحدى البنتين القادمتين تدعى « سارا » ففرح بذلك أيب وفرحت أخته سارا وما لبثا أن علما أن ربة البيت الجديدة تدعى كذلك « سارا » فكان لاسمها وقع طيب فى نفسيهما الصغيرتين ...

وما لبث أيب وأخته أن رأيا فى زوج أبيهما امرأة صالحة طيبة القلب رقيقة العاطفة حلوة الشمائل ذكية الفؤاد نشطة دؤوب تسهر على راحتهم جميعاً وتعنى بشؤون الدار كلها فى غير تبرم أو كلال ... وزادها محبة فى نفس أيب أن رآها فوق ما أولته من عطف تميل إلى تعليمه وإلى تعليم الصغار جميعاً وقد سمعها تجادل زوجها فى ذلك وتصر على أن يذهبوا عصبة إلى المدرسة ؛ وما زالت به تقنعه وقد كان فى بداوته يقدم الفأس على القلم ويضن بابنه وقد رأى قوة ساعديه ومهارة يده أن يرسله إلى المدرسة وهو أحوج ما يكون إلى عونه ... وقد تغلب رأيها آخر الأمر وسار الأولاد إلى المدرسة وكانت على مسافة ميل ونصف ميل من كوخهم .

وما كان أعظم فرحة الصبي بالذهاب إلى المدرسة فلقد كان شديد الرغبة فى تعلم القراءة وكانت تتأجج فى نفسه تلك الرغبة كلما رأى واعظاً يمر بهم أو أحد ماسحى الأرض أو رجلا من المشتغلين بالقانون والمحاماة ، وكان يتساءل بينه وبين نفسه لم لا يكون كهؤلاء الذين يقرأون ويكتبون ؟

وأقبل الصبي على تعلم الكتابة والقراءة إقبالا لم يعهد مثله فى نظرائه ؛ ولقد كان يعمد إلى قطع الفحم كلما عاد إلى الكوخ فيكتب بها على غطاء صندوق من الخشب تارة ، أو على ظهر محرك الوقد تارة أخرى ! وكان يكرر ذلك فى غير ملل مع صعوبة الكتابة بالفحم على مثل تلك الأشياء ، وأنى له المداد والورق إلا ماندر من قصاصات رديئة كان يضن بها على التمرن فلا يخط عليها إلا ما أحسن كتابته على الخشب ... وهكذا تعود الصبي أن ينقى عبارته من الحشو وأن يفكر ملياً قبل أن يكتب كيلا يثبت على الورق إلا ما تطمئن نفسه إليه .

ولم تشغله سعادته التى يجدها فى التعلم عن ذكرى أمه ، وكانت عادة القوم فى

تلك الأصقاع أن يقيموا حفلا دينياً لكل ميت خلال العام التالى لعام وفاته ؛ فهل يفوت الصبى إقامة هذا الحفل ؟ كلا فما تغيب عن قلبه ذكرى أمه الحبيبة وإن كان ليرى أباه فى شغل عنها ؛ وإن انشغال أبيه عن تلك الذكرى ليوجع نفسه ولكنه يزيده تعلقاً بها ورغبة فى إحيائها …

حار الصبى أول الأمر ماذا يفعل ، ولكن فيم الحيرة ؟ أوليس يستطيع اليوم أن يكتب ؟ فليتناول ورقة وليكتب إلى رجل من رجال الدين يعرفه فى كنطكى وأكبر الظن أن الرجل لن يحجم عن الحضور فإنه طيب القلب ولقد كان كثير العطف على أهل لنكولن ؛ وعلى الأخص ربة الدار … وهكذا كتب الصبى أولى رسائله .

ولشد ما أثلج فؤاده أن جاءه رد ذلك الرجل الصالح ينبئه أنه ملب دعوته عند أول فرصة يدنو به فيها عمله من إنديانا ... وسنحت الفرصة المرتقبة بعد أيام وحل بصقعهم ذلك الرجل الصالح وقد قطع فى سفره إليهم ما يربو على المائة ميل .

وتلقاه أيب ودموع الشكر والفرح فى مقلتيه وأذيع النبأ فى الجيرة وحدد يوم لذلك الحفل .

وفى صباح اليوم المحدد تجمع على مقربة من قبر أمه نحو مائتين من ساكنى الأكواخ المتناثرة فى تلك الجهة ، والتفتت أعين الجمع إلى حيث يقوم كوخ توماس لنكولن ، فإذا برجل الدين يمشى مشية الصالحين الأتقياء ووراءه توماس لنكولن يتبعهما أيب ثم أخته سارا وبعض الجيرة الأقربين ؛ وسلم الرجل وترحم على الميتة ودعا لها الله ؛ وكانت كلماته برداً وسلاماً على قلب الغلام ... وأحس بعدها كأنما طرح عن قلبه عبئاً كان يؤوده ويؤلمه ، وصار يشفى نفسه كلما ذكر أمه ما قاله القس عن شمائلها وما دعا لها به الله من دعاء .

وستنصرم بعد ذلك الأعوام وهو لا ينسى ذلك الصباح ولا ينسى ذلك القس الرحيم ولا كلماته الطيبات التى إلتأمت بها جراحات قلبه الصغير .

بين الفأس والكتاب !

ازداد إقبال الغلام على القراءة ولكن أباه لا يهش لذلك ولا يأبه له ، بل إنه ليقطع عليه أكثر الأحيان قراءته فيستصحبه إلى الغابة ليعاونه فيما كان يراه أجدى على الأسرة من عمل ؛ وهو يرى فيه الآن وقد ناهز الرابعة عشرة خير عون له إذ كان الفتى حاذقاً قوياً تحمل قوته على العجب ، ما رأى الجيران مثلها فيمن كان فى مثل عمره ؛ ورأى فيه أبوه فوق ذلك قدرة على الرماية تجلت له فى حادثة واحدة ولكنها كانت مقنعة ، وذلك أنه تناول البندقية ذات يوم وصوبها نحو فرخ برى فأصابه فى مهارة وخفة ... على أن الفتى قد امتلأ رعباً وندم على ما فعل ، وعافت نفسه مثل هذه القسوة فما رآه أحد بعدها يصوب سلاحاً إلى مخلوق ...

وما كان إذعان إبراهام لأبيه إذ دعاه ليصرفه عما مالت إليه نفسه ، فأنه ليختلس الساعات فيكتب ويقرأ تحدوه اللذة وتدفعه حتى أصبح قادراً على تناول الكتب ؛ وكان أول ما تناوله من الكتب الأنجيل ثم خرافات إيسوب وروبنسن كروزو ورحلة الحاج ؛ وكم كان لهذه الكتب من أثر فى خياله ووجدانه وذلك لأن نفسه أخذت تتفتح للحياة تفتح الزهرة للربيع ... وتاقت تلك النفس الزكية إلى تاريخ العظماء فقرأ حياة هنرى كلبى وحياة فرانكلن وحياة وشنطون بطل الحرية وزعيم الاستقلال ، ولقد أعجب كل الاعجاب بسيرة هذا الزعيم العظيم وبات مسحوراً بما طالع من مواقفه فى حرب الاستقلال وبما كان فى تلك الحرب من بطولة .

ومالت نفسه إلى تفهم أسرار الحياة وهو بعد فى السادسة عشرة فكان يطيل التفكر والتأمل وإن كان مسرح الحياة حوله غير حافل بما يثير العجب ، على أن فى الكتب من دواعى التفكر والنظر شيئاً ليس بالقليل ...

ووقعت فى يده ذات يوم جريدة قديمة كان قد لف بها بعض المتاع فقرأ فيها ما تعجب له ولم يفهمه حق الفهم ! ... فما تلك الانتخابات ؟ وما مسألة العبيد وأهل الجنوب؟ إنه ليسمع أشياء كهذه فى الكنيسة أحياناً وفى أحاديث الجيران أحياناً فيعجب بينه

وبين نفسه ! فتى يستطيع أن يعرف كنه هذه الأشياء على وجه اليقين ؟ وأعجب ما قرأه فى تلك الصحيفة القديمة هو أن أندرو جاكسون على وشك أن يظفر برياسة الولايات المتحدة وهو رجل من عامة الناس تحدى الأقوياء الأغنياء من منافسيه فما استطاعوا أن يهزموه !..

وكان للفتى نظرة نافذة إلى أعماق الأشياء ، لا ينصرف عما يقرأ حتى يتعمقه تعمقاً عجيباً ولا يدع مسألة حتى يفهمها حق الفهم ؛ وكان إلى رجاحة عقله ذا نفس تنفعل بطبيعة تكوينها للجمال والحق وتنفر من الأذى والشر ؛ لو رآه خبير بطباع البشر يومئذ لظن أنه خيال شاعر تنبسط جوانب نفسه وتتهيأ روحه لرسالة من الرسالات ... ولقد كان إبراهام يكتب الشعر فعلا يومئذ ويقرؤه على خلانه ؛ وصارت للشاعر بيرنز منزلة فى نفسه لا تسمو عليها غير منزلة شكسبير ؛ ولقد كان يكرر ما يعجبه ويكتبه فى سجل ويعاود النظر فيه ؛ وعرف ذلك عنه منذ تعلم القراءة فاستوى له من ذلك قدر من بليغ الكلام تأثرت به نفسه واستقام به لسانه .

هو الآن يتخطى السادسة عشرة ، طويل الجسم مديد القامة ، عريض الصدر ، تستوقف الأبصار نحافته كما يستوقفها طوله ، ولكنه على نحافته قوى البدن بلغ من القوة ما لم يبلغه من كان فى مثل سنه ؛ وكأنما تجمعت تلك القوة فى ساعده . فليست هناك دوحة تستعصى عليه إذا هو أهوى عليها بفأسه ؛ بذ أباه فى قطع الأشجار وتسوية الأخشاب ، وغالب أقرانه فى الغابة حتى سلموا بتفوقه مكرهين !

كانت هيئته وحشية بسبب شعره الأشعث المغبر وهندامه الساذج المتهدل وتقاطيع وجهه المسنون الذى يبرز فيه الأنف بروزاً شديداً حتى ليبدو أضخم من حقيقته ؛ ولقد وصفه أبوه فقال « إنه يبدو كقطعة من الخشب لم تسوها الفأس ولم تمسحها المسحة » ولذلك ما كان إبراهام يطمع وهو فى سن التظرف والأحلام أن تنظر إليه فتاة نظرة تملق أو فتنة ؛ وهل كان يتجه خياله إلى شىء من هذا ؟ ... ذلك ما لم يظهر عليه دليل حتى ذلك اليوم ...

وكان الفتى على قوة جسمه مضرب المثل فى دماثة الخلق وعفة اليد واللسان ، وكان موضع حديث القوم فى أمانته وسمو أدبه . تحدثت عنه زوج أبيه مرة

فقالت « لم يوجه إلى مرة كلمة نابية ، أو نظرة جافة ، ولم يعص لى أمراً قط ، سواء فى ذلك مظهره وحقيقة أمره » ؛ وكان يكره الكذب أشد الكره كما كان صريحاً لا يعرف الالتواء والنفاق فى أعماله أو فى أقواله كما كان يحب أن ينتصف من نفسه بنفسه .

روى عنه أنه استعار كتاباً عن وشنطون لمؤلف غير الذى قرأ له قبل ذلك حياة ذلك العظيم ، وكان من عادته أن يقرأ بقية النهار خلف الكوخ متى عاد من الغابة فإذا نزل الليل قرأ إلى جانب الموقد يثير لهبه بين آونة وآونة ، فأن زوج أبيه تحتفظ بالشمع لليالى الآحاد … فبينا كان يقرأ ذلك الكتاب ذات ليلة إذ هبطت نار الموقد فوضعه فى شق بين كتل الكوخ وذهب فنام ، فلما أصبح وجد المطر قد بلل الكتاب ؛ فاشتد أسفه وحمله إلى صاحبه وهو لا يقوى على الوقوف أمامه من شدة الخجل ، ولايدرى كيف يعتذر إليه ! ثم بدا له فعرض على صاحب الكتاب أن يأخذ ثمنه وسأله عن الثمن واقترح عليه فى مقابله أن يأجره الرجل ثلاثة أيام فى عمل من أعمال زراعته ! وقد تم له ذلك فطابت به نفسه وزاده غبطة أن قد أصبح الكتاب ملكا له …

وإن أقرانه ليلاحظون عليه شيئاً من الشذوذ يومئذ فهو يلقى فأسه أحياناً أثناء العمل فى الغابة ويخرج من جيبه كتاباً ويقرأ فى جهر كما يفعل الخطيب … وهو يضحك أحياناً بلا سبب ظاهر وقد يعلو فى ضحكه ويغلو فيه كل الغلو مبتدئاً بابتسامة ومنتهياً بقهقهة طويلة …

وهو على رقة عاطفته وكرهه للقسوة يؤدى للجيران إذا دعوه أعمال الجزارة فيقذ الخنازير فى جرأة وسرعة ويسلخها ويقطعها كأنه أحد مهرة الجزارين !

وبينا يرى الناس ذلك منه يجدونه يمد يد المساعدة للضعفاء والبائسين ؛ لقى وهو فى طريقه مع رفيق له رجلا ألقاه جواده وقد ذهبت بلبه الخمر فما زال به يوقظه وينهضه وهو لا يفيق ولا ينهض ، فتبرم رفيقه ، فعاتبه إبراهام قائلا إنه لا يستطيع أن يترك الرجل فريسة للبرد ، ثم حمله على ظهره حتى أدخله كنه وأقام إلى جانبه ردحاً من الليل …

وسمعه الناس مراراً يعلن عطفه على الهنود الحمر قائلا إنهم هم أصحاب تلك

الأرض وإنهم أخرجوا قسراً من ديارهم فهم لذلك جديرون بالعطف والرحمة .

ولم يقتصر على الأنسان عطفه فقد أظهر أكثر من مرة الرأفة بالحيوان ؛ فمن ذلك أنه وقف ذات يوم ينقذ كلباً وقع فى الثلج وقد ناله من جراء ذلك تعب عظيم ؛ ومنه أنه رأى بعض خلانه يلعبون بسلحفاة أوقدوا على ظهرها ناراً فعنفهم حتى أطلقوها ؛ وذهب فكتب من فوره فى الرفق بالحيوان وقرأ ما كتب على من صادف من الجيران ...

وكان على احتشامه وجده يحب كثيراً من ضروب اللعب كالمصارعة ومسابقة العدو ؛ كما كان يشهد الاجتماعات التى تنتظم عدداً كبيراً من الجيرة كحفلات الأعراس وسباق الخيل وأضرابها ؛ ولقد كان يبدو فيها مرحاً ضحوكا يطفر من جذل وحيوية فهل كان منقاداً لوعيه الباطن فهو يحاول أن يغيب فى هاتيك الأفراح مايهمس فى نفسه من هم ؟ أم أن حبه لتلك الطبقة التى ينتمى إليها من عامة الناس هو الذى كان يحبب إليه الاجتماع بهم وإيناس نفسه الحزينة بلقائهم ؟ الحق أن مرد ذلك إلى السببين معا ثم إلى عاطفة الشباب التى يشاركه فيها كل شاب ؛ ولقد كان الفتى محبباً إلى أقرانه ، يلتفون حوله ويصغون إليه ولا يكمل لهم سرور إلا إذا كان بينهم وإنهم ليحسون كلما تحدث إليهم توثب روحه وعذوبة نفسه ويشعرون شعوراً خفياً أنهم جميعاً دونه فى كل شىء إن جدوا وإن لعبوا ؛ وكان على مرحه وفتوته يكره أن يسف فما يكاد يذكر أحد أنه رآه يشرب الخمر أو يتناول شيئا من تلك الحشائش المخدرة التى يتناولها الناس وما رأى أحد منه سفهاً أو تبجحاً أو استهانة بشخصه أو استهتاراً بغيره . فلقد كان يعرض عن شطط غيره أو سفهه ولا يحب أن يؤلم أحداً

وكانت لا تلبث الهواجس أن تملأ فؤاده إذا خلا إلى نفسه بعد مرح أو لعب ؛ وتأبى الأيام إلا أن تزيد دواعى حزنه . فلقد تزوجت أخته الحبيبه « سارا » شابا من أسرة قريبة ، فرأى إبراهام زوجها يدل عليها وعلى أسرتها بثروته ثم رأى أنه وأهله يكلفونها أعمال الخدم ؛ ولقد صبر الفتى على مضض وإن نفسه لتنطوى على ثورة ، وإنه ليحس لأول مرة إحساساً لم يألفه طبعه وذلك هو النزوع إلى الشر ؛ ولكن عاطفة الخير تتغلب على نزوعه فيصبر منطويا على حزن جديد .

وتموت أخته الحبيبة وهى فى فراش الوضع ويتهامس الناس أنها ماتت مرهقة لم تمهل حتى تسترد عافيتها ؛ ويمتلىء قلب الفتى بالضغن والشر كما يمتلىء بالألم والحزن ويحس أن قد حان الوقت ليكايل هؤلاء القوم صاعا بصاع

وكأن إحساسه باليتم يزداد فى نفسه بموت أخته ، وإلا فما باله ولم يعد بعد طفلا يشعر مرة أخرى شعوراً قويا بالوحدة والوحشة كأنما كان يرى فى سارا أمه وأخته معاً.

ويتعود الفتى تحمل الآلام ، ويحمل على الصبر نفسه وتستقر الأشجان فى أعماق تلك النفس استقراراً ؛ ولكن ذلك الشر ينطوى على جانب من الخير أو هو ينتعش مافى نفسه من خير فأن شعوره بالرحمة والرأفة والحدب على المنكوبين يقوى فى نفسه ولا تزيده الآلام إلا قوة وتمكنا .

وهو ينفس عن نفسه بمطالعة الشعر ونظمه ، ينفق فى ذلك الساعات فيخرج منها وقد سرى عنه بعض الشىء ولكن كما يسرى النغم الحزين عن النفس الحزينة !

وزاد ضغنه على تلك الأسرة التى ماتت فيها أخته ، أنهم لم يدعوه إلى حفلة عرس أقاموها لأخوين من شباب الأسرة كانا يتزوجان ؛ فهو وإن لم يكن يودهم ، يجد فى عدم دعوتهم إياه إهانة ساء وقعها فى نفسه ؛ لذلك عول على الثأر فأتى أمراً كم ندم عليه فيما بعد فما ذكره إلا تلون وجهه .

وذلك أنه استأجر من نقل خفية سريرى العروسين كلا منهما إلى حجرة الآخر وقصدت كل عروس إلى سريرها ، فلما زف الزوجان كل إلى حجرته والخمر تلعب برأسيهما ورؤوس أهلهما، نام كل منهما إلى جوار عروس أخيه ، حتى أقبلت أمهما فتداركت الأمر فى آخر لحظة ؛ وجعل إبراهام هذا الخطأ موضوع قصة فكاهية تهكمية كتبها وألقاها فى كوخ أحد العروسين وسرعان ما فشى فى الناس أمرها واشتد إعجابهم ببراعة كاتبها وقوة فنه ... وهكذا يثأر الفتى أول ثأر بقلمه لا بساعده ...

وما كان لمثله أن يثأر إلا بقلمه ولسانه ، وأن يناضل إلا بقلمه ولسانه ، فهو يربأ بنفسه أن يفعل ما يفعله غير المهذبين ، وإن له من قوة ذلك اللسان ما يستغنى به عن قوة ساعده وبدنه

وإنه ليحس فى نفسه الميل إلى الدفاع عن المستضعفين ؛ ويحس بتزايد هـذا الإحساس يوماً بعد يوم ، وخيرما كان يمنى به نفسه يومئذ أن يكون محامياً يدفع الظلم عن المظلومين

قصد ذات يوم إلى جلسة قضائية فى بلد قريب ليتفرج وكان هذا أول خروج له من بيئة الأكواخ والأحراج البرية ... وقد أعجب فى هـذه الجلسة بدفاع أحد المحامين إعجابا شديداً حمله على أن يتقدم إلى ذلك المحامى مهنئا فاقتحمته عين المحامى وازدراه وهو لا يدرى أنه يزدرى رئيس الولايات المتحدة فى غد ! ... ولقد التقى ذلك المحامى بالرئيس لنكولن بعـد ذلك فى البيت الأبيض فذكره الرئيس الذى لا ينسى بدفاعه الجيد ولـكنه لم يذكر منه شيئا !

عاد إبراهام إلى كوخه وفى نفسه الإعجاب بالمحاماة وبشخص ذلك المحامى البليغ المتمكن من قضيته وأوجه حقه ؛ وإن كان ليخالجه شعور الغض من كبريائه ، وكم أمضه قبل ذلك ما رأى من تفاوت بين الطبقات لا تقره نفـسه لأنه لا يقره عقل

وكم رآه الناس بعد ذلك ينتصب خطيباً فيهم كلما أحس فى نفسه رغبة إلى أن يتحدث إليهم ، وكم سحرهم بيانه وأعجبتهم حماسته إلا والده فقد كان يضيق منه بذلك كما كان يضيق منه بالقراءة والانصراف عن معونته فى الغابة ، قال مرة فى تململ وهو ينظر إليه يخطب الناس «أكلما وقف إيب أقبل عليه الناس جماعات يسمعونه؟»

وإنه فى خطبه مثله فى قراءته ؛ يحسن فهم ما يتحدث عنه فيحسن الإبانة عنه والأقناع به ؛ ولسوف تلازمه هذه الصفة ما عاش؛ قال مرة يخاطب أحد مرؤوسيه فى البيت الأبيض وقد راح ذلك المرؤوس يقص عليه نبأ حادثة لم يحسن فهمها « إن هناك أمرا واحدا تعلمته ولم تتعلمه وإنه لينحصر فى كلمة : تلك هى الإحاطة » ثم ضرب الرئيس المنضدة بقبضته يؤكد الكلمة ويكررها قائلا « الأحاطة » .

وتاقت نفس الفتى إلى دراسة القانون ولـكن أنى له المـال الذى يشترى به الـكتب ؟ أنى له المال فى تلك الجهة وهو لا يكاد يراه رأى العين ؟

ثم إنه ليشعر شعوراً قويا برغبته فى أن يرفع قيمة نفسه فماذا هو فاعل ؟ أيبقى فى الغابة ؟ وماذا فى الغابة غير التجارة ؟ ومتى كانت التجارة سبيل من يطمح ؟

على أنه كان فى طموحه متأثرا بثقته فى نفسه أكثر مما يتأثر بتلك الأحلام التى تطوف بقلوب الشباب فى مثل تلك السن ، ومن العجب حقا أن يداخله الطموح فى تلك البيئه وهو النجار ابن النجار الذى يعرف القليل عن جده لأبيه وقد كان كذلك قاطع أخشاب ؛ ولا يعرف شيئاً عن جده لأمه !

أيبقى مع أبيه فى الغابة ؟ وإذا ترك الغابة فأى سبيل يتخذ ؟ ذلك ما كان يحيره أشد الحيرة وهو يهدف للثامنة عشرة .

وفكر ذات يوم أن يتجر فصنع بفأسه قاربا وملأه بأشياء تافهة جمعها من الغابة وظن أنها مما يباع فى الأسواق ، وسبح بقاربه إلى بلدة قريبة ولكنه باع مافيه بثمن زهيد ؛ بيد أنه حدث أثناء رجوعه أن حمل فى قاربه رجلين ومتاعهما من الشاطىء إلى حيث أدركا قاربا بخاريا فى عرض النهر؛ وما كان أعظم دهشته إذ ألقى إليه كل منهما بقطعة من الفضة تساوى نصف ريال وما كان أشد فرحته بذلك؛ أشار إلى ذلك الحادث يوما وهو فى منصب الرياسة يخاطب صديقه ووزيره سيوارد فقال« إنى لم أكد أصدق عينى ؛ ربما رأيت ذلك يا صديقى أمراً تافها أما أنا فأعده أهم حادث فى حياتى . لقد كان من العسير على أن أصدق أنى أنا ذلك الفتى الفقير قد كسبت ريالا فى أقل من يوم ؛ لقد اتسعت الدنيا أمام ناظرى وتبدت لى أكثر جمالا وازداد أملى كما ازدادت ثقتى بنفسى منذ تلك اللحظة » .
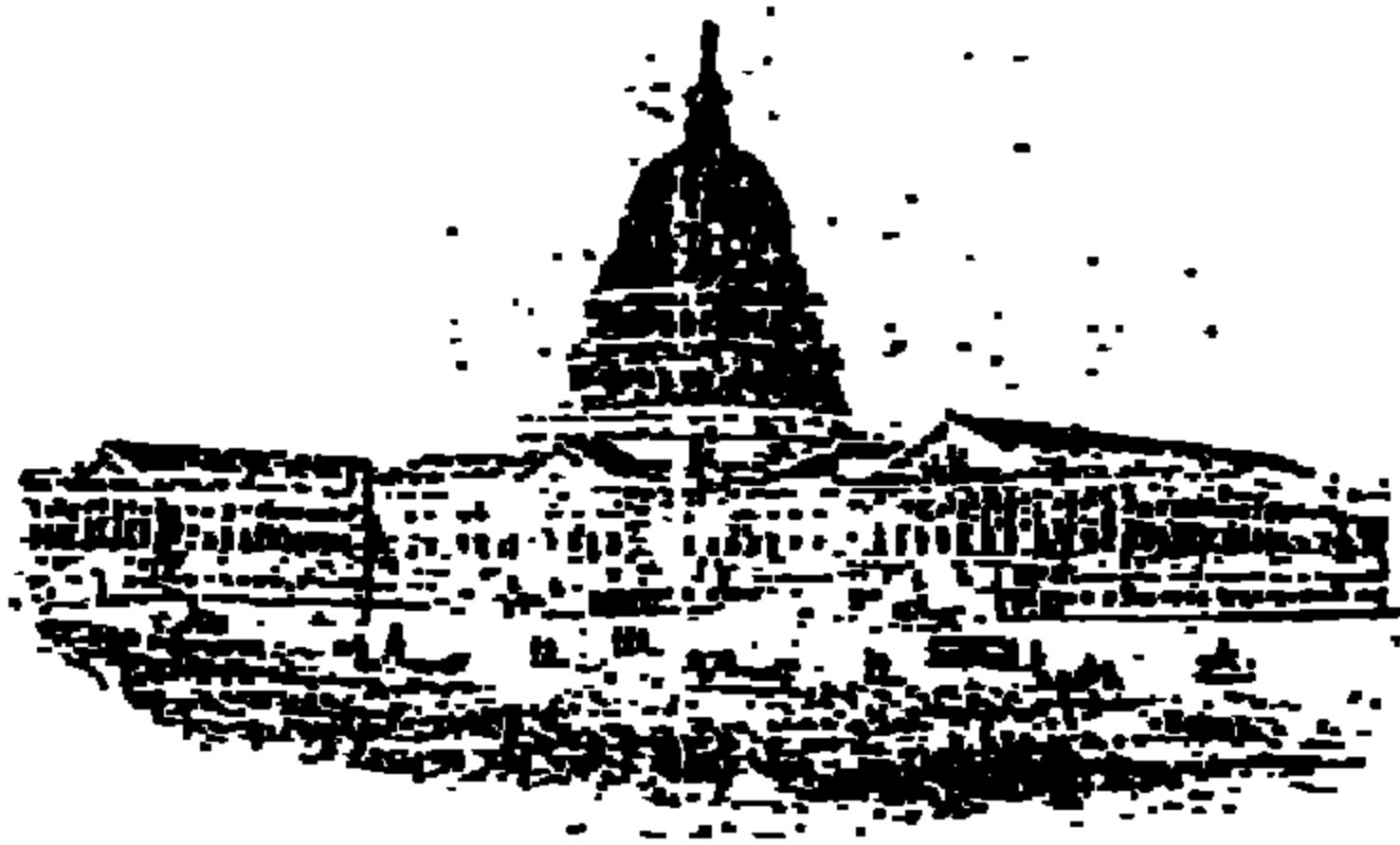
ما كانت الفاقة لتعوق ابن الأحراج عما كانت تتوق نفسه إليه ، وهيهات أن تركن النفس الكبيرة إلى دعة أو ترضى بمسكنة . ها هو ذا فتى الغابة فى التاسعة عشرة لا يذكر أنه منذ قوى على حمل الفأس كان كلا على أحد ؛ بنى نفسه بنفسه كأحسن ما تبنى النفوس ، غذاء جسده من قوة ساعده وغذاء روحه من توقد ذهنه وبعد همته ...

ساقت إليه الأقدار عملا خرج به من الغابة وقضى أياما فى دنيا الحضارة ؛ فلقد استأجره أحد ذوى الثراء وقد تناهى إليه من حديثه ما حببه إليه ، ليذهب ببضاعة له فى قارب إلى حيث يبيعها فى مدينة نيو أرليانز ؛ وقبل الفتى وإن قلبه ليخفق وإن نفسه لتتنازعها عوامل الخوف والأمل؛ ولم لايخاف وهو لم يرحل مثل تلك الرحلة الطويلة من قبل ، ولا عهد له بالمدن وعشيتها وأهلها ؟ ولكنه قبل وتأهب للرحيل ، وما كان حب المال هو الذى حفزه إلى القبول ولكن رغبته الشديدة فى رؤية الدنيا وهو كما رأينا تواق إلى المعرفة لهج برؤية الحياة فى بيئة غير بيئة الأحراج ...

وخرج معه فتى من أهل تلك الجهة ليعاونه واتخذا سبيلهما فى نهر الأهايو ومنه إلى ذلك النهر العظيم المسيسبى أبى الأمواه كما كان يدعى حتى بلغا مدينة نيو أورليانز بعد أن قطعا زهاء ثمانمائة وألف ميل رأيا خلالها على الضفتين حيوانات وأشجارا وأناساً تخالف ما ألفا فى إقليمهما .

وكانا أثناء رحلتهما يأويان إلى الشاطىء أثناء الليل على مقربة من القرى فيصغى إيب إلى أحاديث الناس ونوادرهم وتختزن ذاكرته العجيبة تلك الأحاديث ويستخرج منها من المعانى ما يفسر له بعض آرائه أو ما يكون موضوعا لرأى جديد .

وظل صاحبه زمناً طويلا وهو لا ينسى شجاعة إيب فى حادث وقع لهما ذات ليلة ؛ فقد أويا إلى الشاطىء على مقربة من مزرعة من مزارع قصب السكر ، فبينما كانا نائمين فى قاربهما إذا بهما يستيقظان على حركة أيد تعبث ببضاعتهما فهب إيب

فإذا هو يرى زنجيا على حافة القارب فعاجله إيب بضربة بالمجداف ألقت به فى الماء ، فوثب إليه آخر من الشاطىء فضربه كذلك فلحق بالأول ، وجاء ثالث فكان نصيبه نصيب سابقيه ورابع فما كان أحسن حظاً ، وخامس فلقى أسوأ مما لقوا ، ثم فروا جميعاً فتعقبهم إيب وصاحبه فإذا بهما حيال سبعة من الزنوج واشتدت المعركة بين الجانبين حتى هزم هؤلاء السود ولاذوا بالمزرعة وعاد إيب ورفيقه إلى القارب ولكنه أصيب بجرح فوق عينه اليسرى سيظل أثره هناك طيلة حياته .

بلغ إبراهام وصاحبه مدينة نيو أورليانز فها هو ذا يرى مدينة كبيرة لأول مرة ! وأية مدينة هى ؟ إنه يرى فى الميناء من المراكب الضخمة المحملة بالبضائع ما لم تقع على مثله عينه من قبل ، وإنه ليرى شوارع فسيحة وقصوراً عالية وأنماطاً من المركبات الفخمة وأفواجاً من الرجال والنسوة تبدو عليهم مظاهر النعمة والبهجة ؛ ما هذه الدنيا العجيبة الصاخبة المزدحمة ؟ ألا ما أبعد حياة الغابة عن هذه الحياة ... يا عجبا ! هذه قضبان من الحديد تنساب عليها عربات تجرها قاطرة ، لقد سمع عن مثل هذا من قبل فها هو ذا يراه أمام ناظريه

على أن شيئاً يهمه ويأخذ بمجامع لبه أكثر مما تهمه تلك الأشياء جميعاً ، وذلك هو تلك الجموع السود تساق أمامه كما تساق الدواب ، ينتظم كل فريق منها أو كل قطيع سلك طويل ؛ وإنه ليدرك من نظراتهم ومن حركاتهم أنهم لم يألفوا بعد حياة المدينة وأغلب الظن أنهم جلبوا إليها لساعتهم ؛ أهؤلاء هم الذين قرأ عنهم فى بعض الجرائد القديمة ، والذين سمع أحاديث عنهم فى الكنيسة من قبل ؟ إلى أين يساقون ومن أين جئ بهم ؟ إنه ينظر فتقع عيناه على لافتات فهذه تعلن عن استعداد صاحبها لشراء العبيد بثمن طيب ! وتلك عن بيع هؤلاء لحساب من يريد بيعهم ! وأخرى تعد بمبلغ مغر يدفع لمن يرد هارباً منهم أوصافه كيت وكيت !...

إنه يريد أن يفهم أمر هؤلاء السود ويحيط خبراً بتاريخهم وعملهم وحظهم من الحياة فى هذه المدينة الكبيرة ، ولكنه فى شغل بما جاء له عن هذا فليترقب حتى تسنح فرصة أخرى .

باع بضاعته وباع القارب وعاد هو وصاحبه فى قارب بخارى إلى الغابة بعد أن غاب عنها ثلاثة أشهر ؛ عاد وقد اكتسب عن الحياة خبرة تفوق ما اكتسبته

الـكتب منها ، ثم إنه ينال خمسة وعشرين ريالا أجراً على عمله الذى أداه على خير وجه

* * *

لم يكد يمضى عام ونصف عام بعد عودته من رحلته حتى هاجرت الأسرة إلى مقاطعة أخرى هى مقاطعة إلينوى فلقد أرسل بعض ذوى القربى هناك يصفون ما فى تلك المقاطعة من رغد وجمال ؛ وهذا الرجل توماس لنكولن لا يسمع عن رغد إلا طمع فيه لـكثرة ما يعانى من شظف العيش ؛ ذلك هو الذى رحل به من كنطـكى إلى إنديانا وهو الذى يرحل به اليوم من إنديانا إلى إلينوى ، فما أسرع ما أجاب ؛ باع مزرعته وباعت زوجه مزرعة كانت لها فى كنطـكى وحزما متاع الأسرة ووضعاه على ظهر عربة وهم فى رحلتهم اليوم يعتمدون على قوة إيب فلم يعد صغيراً يركب خلف أبيه كما فعل قبل أربعة عشر عاماً أثناء رحيلهم من كنطـكى ، وإنما هو اليوم شاب مكتمل القوة يسير على قدميه ويعنى بالمتاع كما يعنى بقطيع الماشية الذى يأخذونه معهم إلى إنديانا فى رحلة بلغت مائتى ميل قطعوها فى أسبوعين .

ويفـكر الفتى فى عمل مجد يعمله أثناء الطريق ، وهل ثمة غير التجارة ؟ أولم يحذقها فى رحلته إلى نيو أورليانز ؟ لذلك يشـترى الشاب بريالاته خيطا وإبراً ودبابيس ومشابك ونحوها ، ويبيع ذلك لساكنى الأكواخ التى يمر بها فما يبلغ الوطن الجديد إلا وقد ضوعف ماله وهو بذلك فرح شديد الفرح يتذوق ثانية لذة الـكسب ولذة الثقة فى نفسه ، ويسأل نفسه أى الطريقين يختار ليعول نفسه وقد شارف الحادية والعشرين ؛ أيظل نجاراً زارعاً أم يترك ذلك إلى التجارة ؟ ولـكن نفسه تحدثه بأشياء غير ذلك جميعاً فهو واثق من قدرته على الـكلام وليس ينقصه إلا دراسة القانون ليكون محامياً ينتصف للمظلومين فما أحب ذلك إليه ...

ولـكن ليودع ذلك الآن فإن عليـه أن يبنى الـكوخ الجديد وأن يسور المزرعة الجديدة وأن يتعهد أثناء ذلك الماشية فما يجدر أن يلقى من تلك الأعباء على عاتق أبيه إلا بقدر ما يطيق ...

أهوى الفتى بفأسه على الأشجار فى قوة تلفت الأعين إليـه وكان اليوم أقوى من أبيه ساعداً وأكثر جلدا ؛ وجعل يسوى الأخشاب وجه النهار ويأتى بالثيران لتجرها

إلى حيث يقام الـكوخ آخره ؛ فلما تم له ذلك نشط فى بنـاء الـكوخ حتى أتمه كما شاءت زوج أبيه من نسق ، فجاء كوخاً فسيحاً مقسما تقسيما جميلا ...

وعمد هو وابن عمه چون هانـكس إلى مزرعة فأحاطاها بسور وأقبلا على الزراعة فى بقعة لم تطأها قدم إنسان قبلهما ليوفرا للأسرة ما تتطلبه من قوت ؛ وليس ثمة ما يضايقه إلا انصرافه عن القراءة بسبب ما هو فيه من جهد متصل ...

وإنه ليخشى أن يطول انصرافه عن القراءة فها هى ذى شهرته فى القاطمـة الجديدة تؤدى إلى استئجاره فى كثير من الأعمال ، وهو يكره أن يرفض لأنه يحب أن يجود بمعونته أبداً ثم إنه يكسب أجراً على ما يقوم من عمل وعليـه اليوم أن يكسب ثمن قوته وثمن ملابسه على الأقل ...

وإن حديث هـذا الشاب وشجاعته ليشيع فى الجيران حتى ليرغب كثيرون فى رؤيته ، وإن شخصيته لتأسر كل من رآه ، فالناس معجبون بقوته ومهارته وبجدته ، وإنهم إلى ذلك يرتاحون منه إلى شمائل أخرى يحسونها وإن لم يلتفتوا إلى التفكير فيها ، فحديثه محبب إليهم لا يملونه ، وإنه لذو مقدرة فائقة على سرد الأقاصيص والنوادر ، يتدفق فى عذوبة وفصاحة وجذل ... وإن كانت لتغشى جذله أحياناً غواش من الحزن كما تغشى السحب السماء الصافية داكنة مرة خفيفة مرة أخرى ، ثم لا تلبث السحب أن تنقشع فيعود لوجهه ضياؤه ولحديثه بهجته ، وهو فى كلا حاليه ساحر قوى السحر بعيد الأثر فى نفوس سامعيه ...

وهو إذا فرغ من عمله وقلما يفرغ ، يكتب لهذا رسالة أو مظلمة ، ويقرأ لذاك كتاباً جاءه من صديق أوقريب ، ويعين غيرهما فى زحمة عمله ، ثم ينفلت إلى مزرعة أبيه أو إلى أخشابه التى يسويها ليبيعها بدريهمات ...

والناس فى هذه القاطعة وأمثالها يعيشون على حالة أشبه بحال البداوة أكثر التفاخر بينهم بالقوة والشهامة ، وقلما تفاخروا بثروة إذ يندر أن توجد الثروة ، لذلك كانت قوة إيب كما كانت شهامته كفيلة بأن تطلق لسانه بالفخر ، ولـكنه لا يتحدث عن نفسه أبداً ، وإنه ليخفض جناحه للناس إلا إذا تحداه ذو وقاحة كما حدث مرة إذ صارع أحد المدلين بقوتهم من شباب تلك الجهة ، ولقد علمه إيب كيف يهابه ويستخذى منه ، والناس يعجبون من ذلك الشاب النحيف وما يبدى من قوة .

ثم إنهم يرونه ذات مرة يقذف بنفسه فى الماء إذ أخذت عيناه رجلين يغالبان الموج وقد خارت قوتهما أو كادت فأدركهما ونجاهما من الغرق ...

وإنه كثيراً ما يجد منجاته فى تلك القوة فقد تحطم زورق يحمله مرة وكان البرد شديداً والماء يوشك أن يتجمد فلم يحل ذلك بينه وبين أن يسبح مسافة طويلة مشى بعدها مسافة أطول منها حتى التجأ إلى كوخ أحد الفلاحين فلبث عنده نحو أسبوعين يعاونه فى أعماله ؛ وما دعاه إلى أن يلبث عنده فى الواقع إلا كتاب فى القانون وجده لديه وكان هذا الفلاح من قبل قاضياً ، فلم يدع الفتى ذلك الكتاب حتى قرأه ووعاه .

ولكن إبراهام على الرغم مما يحسه من طيب العشرة وما يتمتع به من حسن السمعة برمٌ بالعيش هنا لا يطيق صبراً على البقاء فى هـذا المجال الضيق ؛ وإنه ليكدح كدحاً عنيفاً ثم لا يصيب من الأجر إلا دريهمات ، وأى أجر أحقر من سروال من القماش الردىء يحصل عليه فى مقابل آلاف من شرائح الأخشاب كان يقدم أربعمائة منها ليحصل على قيد ذراع من ذلك القماش ؟

إن نزعة استقلالية تسيطر على تفكيره اليوم ؛ وإن شعوراً بالرغبة فى الهجرة ليلح عليه إلحاحاً شديداً وإنه لجدير بالاستقلال فما اعتمد منذ حداثته إلا على نفسه ؛ فكر لنفسه وتأمل فى حياة الناس وفى مظاهر الطبيعية ، وسافر فوق الماء ، وتاجر فى مدينة كبيرة ، وقرأ الكتب ، واستوعب كثيراً من القصص والأمثال ، وتعود أن يتعمق الأشياء وأن يديرها فى ذهنه مرات وأن يقابل بين الأشباه وينظر فى المتناقضات ؛ ثم إنه يطابق بين ما يقع تحت بصره وما يطرق سمعه من حياة الناس على ما يقرأ ، ومن كان هذا شأنه فهو عصامى فى أوسع معنى لتلك الكلمة ، والعصامى لا يقف عند حد ، فما يزال يرتقى حتى يصل إلى القمة أو حتى يصبح هو نفسه قمة من القمم .

إذاً فمجال الحياة فى الغابة يضيق عن همته ، وحسبه ما استوعب هنا من تجارب وما خبر من سلوك النـاس فليخرج إلى عالم المدنية وليضرب فى الأرض فما كانت الهجرة إلا سبيل المجد

وإنه ليفضى بتلك الرغبة إلى من حوله من الشباب فيكدرهم إعتزامه المغيب

عنهم ،وما منهم إلا من يحب ذلك الشاب الطيب القلب الذى تعبر عيناه عن أمانته وإخلاصه كما يعبر لسانه عن أدبه ودماثته ؛ ويشير بعض خلانه إلى أبيه وكيف يتركه فى الغابة وحده فيذكر الفتى تلك الحقيقة ويفكر ويطيل التفكير حتى ليكاد يركن إلى البقاء ...

* * *

شاءت الأقدار أن يذهب إبراهام فى رحلة ثانية إلى نيو أورليانز فقد استأجره بعض الجيران وقد نمى إليه أنه القوى الأمين الذى يحسن أن يتعهد بيع تجارته ، فخرج وفى صحبته ثلاثة رفاق فى قارب من صنع يديه ، وقد جعل الرجل له ستة عشر ريالا فى الشهر أجراً على عمله كما جعل لرفقائه كذلك بعض المال نظير معونتهم

ولقد وقع للفتى فى هذه الرحلة حادث كان بمثابة امتحان جديد لهمته وسرعة خاطره ؛ وذلك أن القارب قد اصطدم بحاجز صخرى عند بلدة نيوسالم فتعلقت مقدمته على الصخر وانحدرت مؤخرته حتى اغترف من الماء وأوشك أن ينقلب بحمله وملاحيه فى النهر ؛ وتجمع خلق كثير على الشاطئ ، فمنهم من يصيح بمن فى القارب يقترح وسيلة النجاة ومنهم هازلون يتخذون من الحادث ملهاة فهم يضحكون ويسخرون فى سماجة وقحة ؛ ولكنهم جميعاً لا يتقدمون بمساعدة؛ على أنهم لا يلبثون أن يجدوا ذلك الفتى الطويل الذى يبدوا لأعينهم كالمارد يتقدم فى خفة ومهارة فينقل بعض بضاعته إلى مقدمة القارب حتى تعلو المؤخرة ، ثم يثقب فيها بعض الثقوب فيخرج منها الماء ، وإذ ذاك يقفز فى اللجة ويستعين برفاقه وببعض الحبال حتى يجنب القارب ذلك الحاجز الصخرى ثم يسد الثقوب ويعيد توزيع البضاعة على ظهر القارب فيسبح فى هدوء ويتخذ سبيله كأنه لم يعقه عائق والقوم على الشاطئ يلوحون له بأيديهم ، وقد انقلبوا جميعاً معجبين به فلا هازل بينهم ولا ساخر ؛ وشاع حديث ذلك المارد فى نيوسالم كلها ...

وقضى الفتى ورفاقه فى مدينة نيوأورليانز زهاء شهر ؛ ولما فرغوا من أمر البضاعة اتخذ الفتى سبيله إلى أسواق الرقيق يدرس حالها من كثب فهو لم ينس ما تركه حال العبيد من أثر فى نفسه منذ زيارته الأولى ، وإنه ليهتم لهذا الأمر أكبر الاهتمام ويقلبه فى خاطره على كافة وجوهه ؛ فهل كان يدرى ابن الغابة أنه

سوف يخطو بالإنسانية خطوات واسعة نحو النور بتحرير هؤلاء العبيد وفك أصفادهم ؟ كلا ! ما كان يدور بخلده يومئذ شيء من هذا .

رأى ويا لهول ما رأى ! رأى فى تلك الأسواق جماعات من السود ذكوراً وإناثاً جيء بهم كالقطعان قسراً من مواطنهم مقرنين فى الأصفاد إلى حيث يباعون كما تباع الماشية ، يلهب النخاسون جلودهم بالسياط ويسوقونهم كما تساق الأنعام كأنهم لا يمتون إلى البشرية بصلة !

وأخذت عيناه فيما رأى فتاة جميلة المحيا مرهفة القوام يعرضها الباعة على المتفرجين نصف عارية كما لو كانوا يعرضون فرساً كريمة ؛ وقد افتتن بقوامها وقسمات وجهها الشاهدون ، وإبراهام تتحرك نفسه من أعماقها ويتألم ماوسمه الألم . وصفه أحد زميليه فقال : « رأى لنكولن ذلك فكأن قلبه يدمى . لم تتحرك شفتاه أول الأمر وظل صامتاً ومشت كدرة الهم فى وجهه فبدا كريه المظهر ؛ وأستطيع أن أقول وانا به عليم أنه كون لنفسه فى تلك اللحظة رأياً فى مسألة العبيد . . . فلقد التفت إلى قائلا : إنى أكره أن أكون عبداً ، ولكنى أكره كذلك أن أكون من ملاك العبيد ، ولئن قدر لى أن أسدد ضرباتى إلى هذا النظام فسأضرب بشدة » . . .

ويروى أنه فى هذه الرحلة مر بعرافة سوداء فنظرت إليه وقالت : « أيها الفتى إنك ستكون يوماً ما رئيساً للولايات المتحدة ويومئذ سوف يتحرر جميع العبيد » فهل كانت كلمات العرافة كلمات القدر تجرى على لسانها فى تنبؤ عجيب ؟

وألقى إبراهام نفسه فى المدينة تحيط به أسباب الغواية ولكن هل كان لنفس مثل نفسه حصنتها الشدة وعصمتها الفاقة وطهرتها حياة الغابة من أوشاب المدنية وأوضار الترف ، أن تزل أو ترق إليها غواية ؟

إنه ما فكر أثناء إقامته فى المدينة إلا فيما جاء له ، ثم إن تفكيره بعد بيع البضاعة قد انصرف إلى هؤلاء العبيد فكان يملأ وقت فراغه ؛ ولقد كان يعنى أشد العناية بالاستماع إلى المجادلين فى مسألة امتلاك العبيد ، فيرهف أذنيه كلما تطرق الحديث إلى تلك المسألة ويتتبع الحجج التى يدلى بها كل متكلم . يفعل ذلك فى أناة وفى غير تحيز كما يستمع القاضى الذى يتلمس وجه الحقيقة فى قضية من القضايا . . .
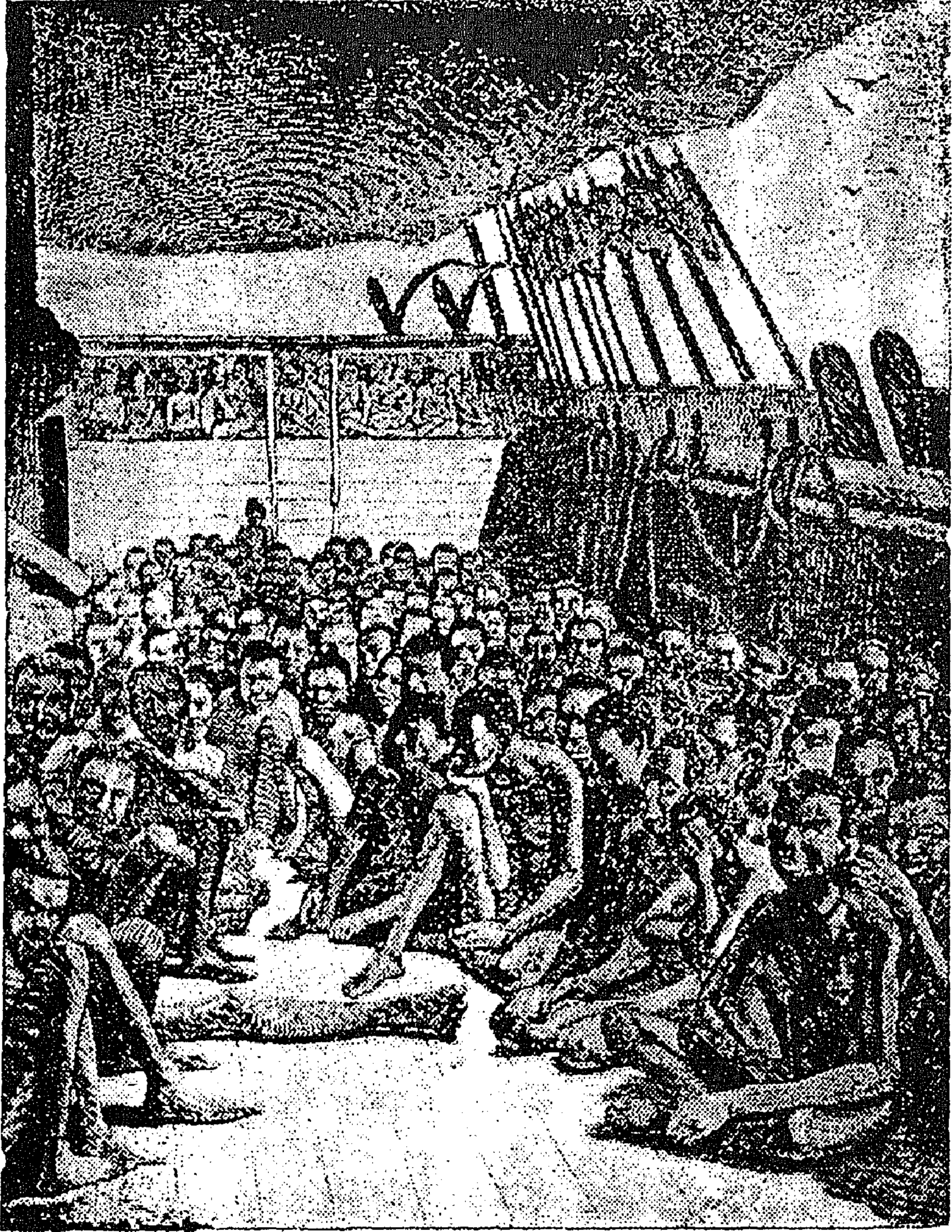
جماعات من السود يساقون كما تساق الأنعام

ما ذا يقول هؤلاء الجنوبيون؟ يقولون ما ذا يريد أهل الشمال باستنكارهم حق امتلاك العبيد ؛ وهل يفهم هؤلاء البسطاء من التجار وقاطعى الأخشاب وكتبة المصالح والحراثين نظاماً توارثناه عن أجدادنا ؟ وماذا عسى أن يصنع هؤلاء الشماليون إذا حرر العبيد هنا فلم نجد من يزرع القطن ويجمعه ؟ أنى لهم بعد ذلك القطن الذى يغزلونه وينسجونه ؟ ثم أليس حال العبيد الآن خيراً مما لو منحوا الحرية ؟ ألسنا نعلمهم النظام والطاعة وقواعد المسيحية فنخرجهم من حال الهمجية الى المدنية ؟ ثم إننا نطعمهم ونعنى بكسائهم ونسكنهم مساكن صالحة ؛ ولو أننا تركناهم وشأنهم لما انقطعت بينهم المنازعات وهم أهل قسوة وجهالة . وإننا ما نقسو عليهم أحياناً إلا لنصلحهم ونعودهم الهدوء والنظام …

ذلك منطق أهل الجنوب ولكن ذلك الشاب الغريب فى مدينة نيو أورليانز ، القادم من الغابة يحس للمسألة وجهاً آخر فى أعماق نفسه لا يمت إلى المنطق ولا إلى المبررات الاقتصادية بصلة … وجهاً آخر يحسه ولا يستطيع أن يجريه مجرى الجدل … إنه يكره هذا النظام ولن يقدر على أن يحمل نفسه على إقراره وليقل أهل الجنوب ما اشتهوا أن يقولوا فلن يستطيعوا أن يزيلوا من أعماق نفسه هذا البغض الشديد لنظام امتلاك العبيد وبيعهم أو شرائهم … على أنه ينتظر فريعا تتكشف له من أوجه المسألة ما لم يقع حتى اليوم عليه …

وعجل الفتى بالعودة ، فضجيج المدنية وزحمتها ومفاتنها وزينتها ، كل أولئك يكدر خاطر ابن الغابة ؛ ثم إن منظر هؤلاء السود فى غدوهم ورواحهم وفى أسواق بيعهم وشرائهم مبعث ألم لنفسه وحزن لوجدانه فإلى الغابة فى غير إبطاء …

بائع فى دكان
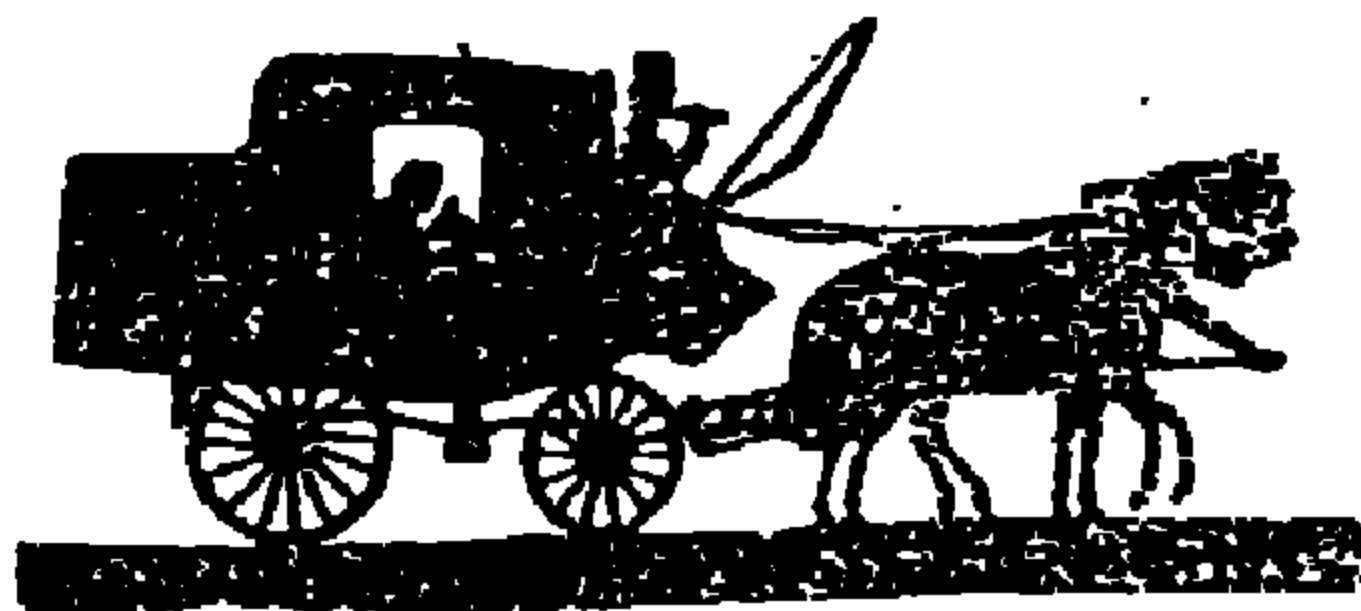
لم يلبث إبراهام فى كوخ أبيه بعد عودته إلا أياماً ، ثم خرج منه ومن الغابة ليضرب فى الأرض ولتلتق به الأقدار فى مجاهل الغيب ، فلن يعود إلى الغابة نجاراً ولن تمسك قبضته الفأس بعد اليوم ...

كان أول ما ساقته الأقدار إليه من عمل أن فتح له ذلك الرجل الذى استأجره فى رحلته الثانية إلى نيو أورليانز ، دكاناً فى مدينة نيوسالم ليبيع الناس ما يطلبون نائباً عنه ، فقد وثق من أمانته ومهارته ...

ولقد قطع إبراهام المسافة إلى تلك المدينة ماشياً فما يملك قارباً أو حصاناً ، وهناك أعد الدكان بنفسه فصنع الرفوف اللازمة والمناضد وغيرها بيده ورتب البضائع فى أمكنتها ثم جلس ينتظر القادمين من طالبى تجارته .

وسرعان ما اجتذب الناس بشمائله فتوثقت الألفة بينه وبين جميع من خالطوه ، وعلى الأخص من شهده منهم فى حادث النهر يوم تعلق به قاربه على الحاجز الصخرى

وأذاع فى الناس صيته حادث آخر غير حادث القارب ، وذلك أن صاحب الحانوت ما فتئ يذكر للناس قوة إبراهام وشدة عريكته ، وكانت المصارعة فى تلك الأصقاع البرية مما يتنافس فيه الشبان وبخاصة ذوى الفتوة منهم ، وسرعان ما نمى أمر ذلك الشاب الذى يبيع فى الحانوت إلى جماعة من الفتيان فى البلدة كانوا يجعلون العربدة هويتهم والشغب مسلاتهم ؛ وكان على رأسهم فتى مفتول الساعدين شديد المراس يقال له آرمسترنج ؛ فجاؤا عصبة إلى إبراهام يسخرون منه ويتحدونه أن ينازل زعيمهم وهو يعرض عنهم وتأبى عليه نفسه أن يحفل بهم ، ولكنهم يسرفون فى التحدى والقحة ، فيخرج إليهم ويسير إلى قائدهم فى هدوء وثبات ، وتحمى المصارعة بين الفتيين ويجد إبراهام من خصمه أنه يريد أن يعمد إلى الحيلة حتى تتم له الغلبة فى غير تحرج من مخالفة أصول المصارعة ، ولكن إبراهام يستجمع قوته ويرفع خصمه ويلقى به بعيداً فيتدحرج على الأرض كما تتدحرج الكتلة من الخشب ، والفتية لا يصدقون أعينهم من الدهش ، ولكنهم يتهمون

الدكان حيث كان يبيع لنكولن وترى الدكة الخشبية التى كان ينام عليها
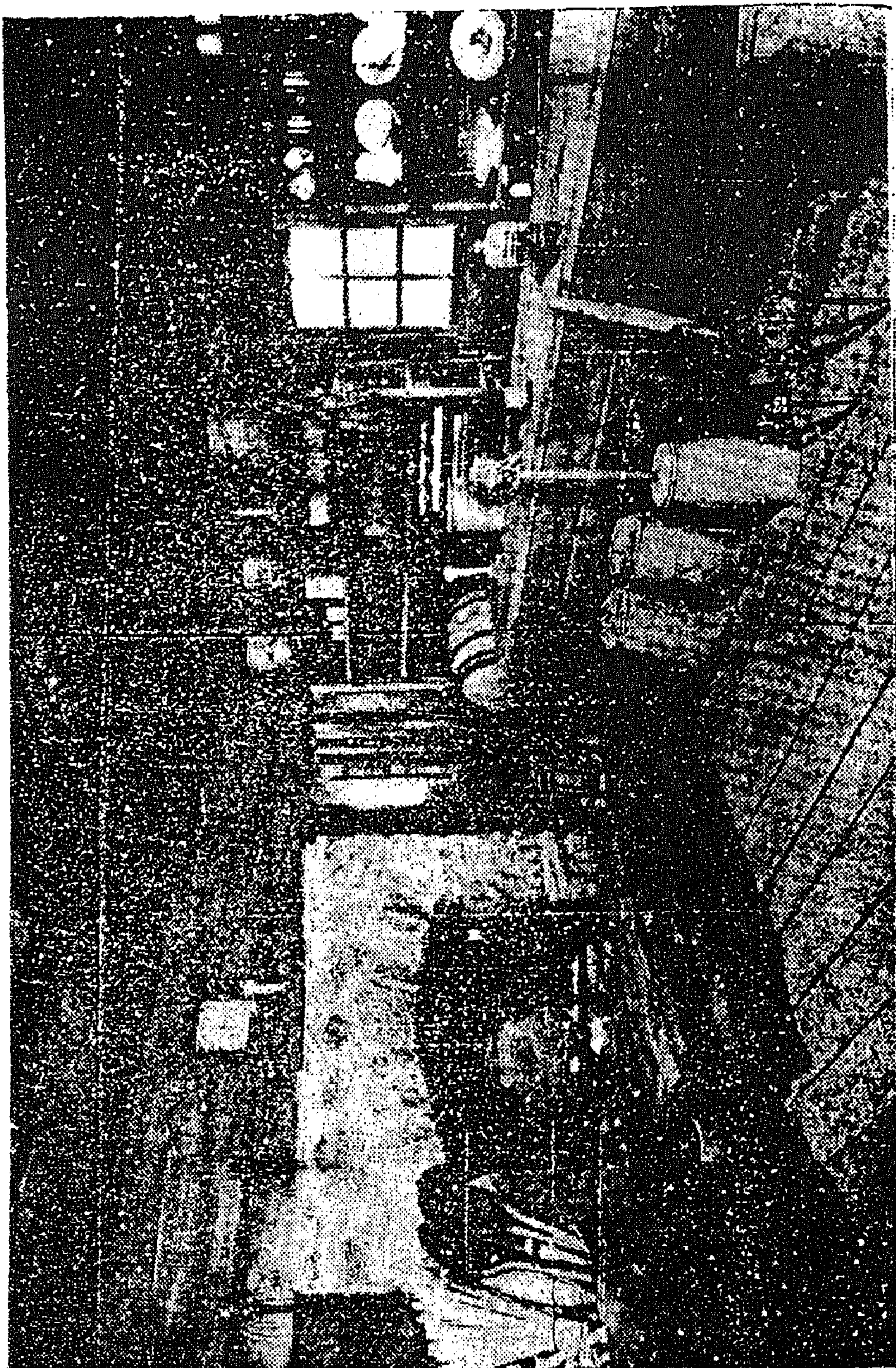
إبراهام بأنه خالف أصول الصراع ويتأهبون لمهاجمته عصبة فيسند ظهره إلى الحائط ويتأهب للقائهم فى صمت ، وإذ ذاك ينهض زعيمهم فيصافحه معلناً أنه تغلب عليه حقاً وأنه لا يملك إلا الإذعان له ؛ وتوطدت بين الفتيين المحبة وتوثقت بينهما أواصر صداقة سوف تستمر زمناً طويلا حتى يموت آرمسترنج فيبقى إبراهام على مودته لابنه ويقف ذات يوم وهو محام فيدافع عنه فى حماسة واهتمام حتى ينقذه .

وكان إبراهام فى الحانوت موضع محبة كل من جاءه ، كان واسع الصدر فكه الحديث لطيف المعاشرة خفيفاً فى إجابة كل قادم إلى مبتغاه حريصاً على رضاه لايضيق ولا يتململ من ثرثرة بعض زبائنه أو ترددهم بين الأصناف أو مساوماتهم فى الأثمان ، فيقنع هذا بالحجة ويرد على ذاك بنكتة ؛ جاءته عجوز تشترى شيئاً فضجرت من دقته فى الميزان وقالت « لم لم يضعوا غيرك فى هذا الدكان فكنا نستريح من وجهك القبيح ؟ » فنظر إليها باسماً وقال : « ولدنى أبواى يا سيدتى جميلا ولكن أناساً سرقونى وأنا فى المهد ووضعوا مكانى صاحب ذلك الوجه القبيح الذى ترين فما ذنبى إذاً فى هذا القبح ؟ » ...

وحبب إبراهام إلى صاحب الحانوت أن الناس كانوا يجيئونه ليكتب لهم الخطابات أو ليقرأها أو ليستمعوا إلى قصصه ونوادره ، كما كان الآباء والأمهات يحمدون له حدبه على الأطفال وعنايته بإرضائهم وإدخال السرور على نفوسهم ، وكثيراً ما رأوه يضاحكهم ويلاعبهم ويعطيهم الحلوى ويصنع لهم اللعب ...

على أن الأمانة كانت أحب صفاته إلى الناس جميعاً حتى لقد صار يعرف بينهم باسم « أيب الأمين » فما يذكره الناس باسمه مجرداً من هذه الصفة إلا نادراً . حدث أنه أعطى امرأة ذات مرة مقداراً من الشاى أقل من حقها ، فلما أدرك ذلك سار إليها آخر النهار مسافة ثلاثة أميال يحمل باقى الشاى ، وحدث أن أخذ خطأ بعض دريهمات من رجل فلما راجع حسابه سأل عنه حتى اهتدى إليه ودفع له دريهماته ، وتروى عنه من هذا القبيل أحاديث كثيرة جعلت الناس يقبلون عليه معجبين ...

وعرف الناس إبراهام فوق ذلك باستقامته فما عهدوا عليه من سوء قط ؛ كان لايعرف الخمر ولا الميسر ولايقرب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ؛ وكان يشغل فراغه

بالقراءة كعادته منذ تعلم القراءة وكثيرا ما رآه المارة وقد استلقى على ظهره فى الحانوت ورفع أمام عينيه كتابا فما يضعه إلا حين يقصد إليه مشتر ثم يعود إليه متى انصرف ، ويظل يقرأ فى غير ملل ؛ ولكم كان يتعجب بعض من يراه إذ يسمعونه يجهر أحيانا بقراءته ثم يقفز واقفاً إذا أعجبته عبارة فيرددها مرات ثم يثبتها فى قرطاس .

وكانت كتبه إلا قليلا مستعارة ، يسمع عن كتاب فيسعى إلى صاحبه فيستعيره إلى أجل ثم يقرؤه ويرده إليه فى ميعاده ، ومن ذلك أنه سمع عن كتاب فى قواعد اللغة ، وكان قوى الرغبة فى تعرف تلك القواعد ليستعين بها على ضبط عبارته فمشى نحو ستة أميال حتى جاء صاحب الكتاب فاستعاره وأكب عليه حتى أتقن فهمه فى أيام قليلة .

ومما قرأه أيب فى تلك الأيام صحيفة كانت تكتب فى السياسة اشترك فيها على إملاقه ، وكان يقبل على قراءتها فى استمتاع ولذة ، قراءة تعمق ودراسة .

وكان ينام أيب فى الحانوت على دكة من الخشب فما له مأوى غيره ، على أنه ما تبرم من ذلك أبداً فقد ألف ما هو أخشن من ذلك من مهاد وحسبه أن يذكر مهده فى تلك الأكواخ التى كان ينفذ البرد من خلال ثقوبها إلى بدنه ليحس أنه ينعم بالراحة على هذه الدكة الخشبية .

ما لهذا الفتى وللسياسة وليس لمن كان فى مثل موضعه صلة بالسياسة من قريب أو من بعيد ؟ أله من الجاه والثراء ورفعة الحسب والنسب ما يؤهله لخوض هذا المضمار ؟

لقد أخذت تشتد عليه وطأة الفاقه بعد عام واحد من حلوله بهذه البلد فإن صاحب الحانوت قد أفلس وباع حانوته لتاجر آخر طالما نافسه ؛ وترك إبراهام أياما بلا عمل ونفد ماله فلم يبق لديه منه ما يستعين به حتى على القوت ، ولولا ما ساقه له القدر من رزق لساءت حاله ، ولكنه كان رزقاً هينا غير متصل فقد استؤجر ليقود زورقاً بخارياً فى منطقة عسيرة من مجرى النهر وكان أجره على ذلك أربعين ريالا .

لبث يفكر فى مرتزق : أيعود إلى الغابة أم يعمل فى النهر قائداً للقوارب البخارية ، أم يبقى بائعاً فى حانوت ، أم ينخرط فى سلك المتطوعين لمقاومة الهنود الحمر ؟ كل أولئك كان يدور بخلده وكان يقلقه قعوده بلا عمل كلما تناقصت ريالاته الأربعون ...

ولكن صاحب خانٍ فى المدينة كان قد أنس من فطنة إبراهام وطلاقة لسانه وصدق إخلاصه فى كل ما يتناول من عمل ، وتطلعه إلى المعرفة ، ما أيقن معه أن سوف يكون لهذا الفتى شأن غير شأنه يومئذ ؛ ولقد استمع إليه صاحب الخان مرات وهو يحدث الناس أو يخطبهم كلما سنحت فرصة لذلك فرآه جذاب الحديث بارع السياق بليغ العبارة يضرب الأمثال الواضحة فى غير توقف ويسوق الأدلة القاطعة فى غير عوج ، فزين له الرجل أن يتقدم للناس ليختاروه نائباً عنهم فى مجلس مقاطعة إلينوى ...

وكان يرى إبراهام الخطوة جريئة فاليد خالية والجاه منعدم ؛ فعلام يعول ابن الغابة وإلى من يستند ؟ لكن هل تعود أن يعول أو يستند إلى على نفسه ؟

إن له أصدقاء كثيرين ولكنه نشأ نشأة من يعتمد على نفسه قبل كل شيء

وهو الآن فى الثالثة والعشرين من عمره قد قرأ من الكتب وخبر من أحوال الناس ومارس من متاعب العيش، ما لم يتفق مثله لأحد فى مثل سنه، وإنه فضلا عن ذلك واثق من محبة الناس له، لمس هـذه المحبة مرات فى إقبالهم عليه وهو يقص عليهم القصص وقد تحلقوا حوله أمام دكان الحداد على ضـوء ناره؛ ولمسها مرات غيرها وهو واقف بينهم خطيباً يحدثهم عما يتمنى تحقيقه للمقاطعة من ضروب الأصلاح، فهل يرى فيهم من يساويه فى شهرته ومكانته؟ ثم إنه حمل الكثيرين من الأقوياء على الأذعان لقوته، وهو على قوة بأسه خافض الجناح لين الجانب؛ ما عمد إلى هـذه القوة إلا فى وجوه البر والمعونة إذا استثنيا مصارعته آرمسترنج؛ إنه بهذا كله لخليق أن يرى فذاً بين أنداده ... ولكنه مع ذلك يتردد لا من جبن ولكن من تواضع...

وأخيراً قهر عزمه تردده فألقى بنفسه فى معترك السياسة فإلى أى حزب من الأحزاب كان انتماؤه إن كان ثمة له انتماء إلى حزب؟

كان حتى سن العشرين ينتمى إلى الحزب الديموقراطى، ولكنه الآن فى الثالثة والعشرين يتقدم للناخبين منتميا إلى حزب الهويج؛ على أنه إنما يعتمد على ما يعرف الناس من خلاله رجلا وصديقا.

قام فى الناس خطيباً فسحرهم بيانه وسرت فى نفوسهم حماسته وزادهم محبة له ما رأوه من تواضعه فهو لا يفرض عليهم آراءه ولا يزكى نفسه وإنما يمدهم الأصلاح إذا قدر له النجاح؛ أما إصلاحه الذى سوف يعنى بتنفيذه فسيتناول الطرق ومجارى الماء، والتجارة فهو من أنصار حمايتها برفع نسبة الجارك حتى تنمو وتزدهر. والناس ينظرون إليه لا تتحول أبصارهم عنه وقد عطف قلوبهم عليه ما يبدو من علامات فاقته وعوزه فسرواله لا يصل إلا إلى منتصف ساقيه وردناه لا يكادان يبلغان رسغيه، وفى وجهه وعينيه خلجات توحى بما كابد من شدة وما لاقى من عنت الأيام

واختتم الخطيب خطبته بقوله «إن سياستى قصيرة حلوة كرقصة العجوز؛ إنى أحبذ مشروع المصرف الأهلى وأحبذ الأصلاح الداخلى والحماية الجمركية، هذه هى مبادىء وميولى فأن اخترتمونى فأنى لكم شاكر، وإن رأوتم غير هذا

فلن يغير ذلك شيئاً من نفسي » وفى نداء أذاعه فى الناس يذكر إبراهام رأيه فى التعليم فيقول إنه يود لو أتيح لكل فرد قسط منه حسب استعداده ولسوف يعنى بذلك كل العناية إذا أصبح عضواً فى مجلس المقاطعة

ويختم الفتى نداءه بقوله « إذا أخطرت ببالى ما يجب على كل شاب من شديد التواضع فربما كنت قد تطلعت إلى أكثر مما أستحق ؛ على أننى فيما أشرت إليه ما تكلمت إلا حسبما فكرت ، ولقد أكون مخطئا فيه كله أو بعضه ، ولكنى وأنا ممن يرون متانة الحكمة القائلة : ان من يصيب أحيانا خير ممن يخطى دائما أبادر إلى الرجوع عن آرائى متى تبين لى خطؤها ؛ لقد قيل إن لكل امرىء نوعاً خاصاً من الطموح سواءاً كان ذلك صواباً أم خطأ فأن طموحى الذى لا يساويه عندى طموح هو أن أظفر من قومى بأن يقدرونى إذا ثبت لديهم أنى جدير منهم بهذاالفضل ؛ لقد ولدت ونشأت فى مدارج متواضعة وإن كثيرين منكم يجهلوننى ، وليس لدى ثراء ولا لى أهل ذوو جاه أو أصدقاء كبار يقدموننى إليكم ؛ وقضيتى مبسوطة بين أيدى الناخبين الأحرار فأن فزت فقد أولونى جميلا لن أنى فيه لهم مهما بذلت من جهد فى خدمتهم ، وإن أملت عليهم كلمتهم أن أبقى حيث أنا فطالما ألفت من مواقف الانخذال ما لست أحس معه لهذا الفشل كبير غم

وقبل أن يحل يوم الانتخاب نرى إبراهام يشترك فى عمل يعد غريبا بالنسبة إليه وذلك أنه تطوع مع فريق من شباب الجهة لمحاربة الهنود الحمر فأن زعيمهم وكان يدعى الصقر الأسود قد بات يهدد المقاطعة بهجوم شديد .

كانت الحكومة قد تعاهدت معه على ألا يرى هو وقومه على الضفة الشرقية لنهر المسيسبى ولهم أن يعيشوا غربى النهر حيثما شاءوا ؛ ولكنهم خانوا العهد مدعين أن البيض تدخلوا فى شؤونهم فى الأصقاع الواقعة غربى النهر ولذلك فقد عولوا على استعادة الأرض التى أجلوا عنها شرقية ؛ وإذ ذاك دعا حاكم إلينوى إلى التطوع لدفعهم عنها .

تطوع إبراهام فيمن تطوعوا لهذه الحرب ؛ وتحمس له فريق من الشباب وبخاصة جماعة آرمسترنج فأبوا أن يكون لهم قائد غيره ؛ وكان يطمح إلى قيادتهم شاب يدعى كيركباتريك وكان بين لنكولن وبينه بعض الكراهية لأنه كان يتعالى عليه كلما لقيه .

وسارت جموع الشباب متجهة إلى الغرب فصاح منهم نفر قائلين : من يريد منكم معشر المتطوعين أن يسير تحت لواء لنكولن فليقف على مقربة منه ، ومن يريد أن ينحاز إلى كير كباتريك فليذهب إليه ؛ واتجهت الأعين إلى حيث يقف لنكولن فإذا وراءه من الشباب ثلاثة أمثال من وقفوا وراء كير كباتريك ، ولقد طابت بذلك نفس إبراهام وعدها من دلائل الثقة به وظل يذكر ذلك فى أحاديثه كلما تحدث عن ماضيه بعد أن صار رئيس الولايات المتحدة .

لم تطل الحرب فقد غلب الهنود على أمرهم وقبض على زعيمهم الصقر الأسود ؛ ولم يقدر لأبراهام وفرقته أن يسفكوا دماً أو يأتوا شيئاً من ضروب القسوة التى كان يكرهها أشد الكره ، وهو ما أقدم على التطوع لهذه الحرب إلا ابدافع الواجب! ولقد كان عمله فيها كشفياً فى الواقع فأن خبرته بالأحراج وحدة بصره ونشاطه كل أولئك جعل منه ومن أصحابه خير عون للقيادة العليا فى تعقب الهنود إلى مخابئهم .

على أن خلالا ثلاثة من خلاله قد برزت فى هذه الحرب فزادته محبة وإكباراً فى قلوب عارفيه ؛ أما أولها فحرصه على العدالة ودفاعه عن الحق مهما كلفه ذلك من عنت أو تضحية وهى خلة ستلازمه فى جميع أطوار حياته وستبرزها الحوادث الجسام التي سوف تحفل بها هذه الحياة وحسبنا أن نشير هنا إليها فى موقف كاد يودى به ؛ فقد أبصر نفراً من جماعته يحيطون بأحد الهنود وقد صوبوا بنادقهم إليه فى غضب شديد كان مرأى أى هندى كفيلا بأن يملأ بمثله قلوب هؤلاء الأمريكان كأن الغضب يجرى فى دمائهم بالوراثة ، وكان الرجل يرفع ورقة أمان من أحد القواد تشهد بأنه مسالم ملتجىء إلى معسكر الأمريكان فلم يأبهوا لها ولكن إبراهام وجد فى عملهم افتياتاً على الحق فوثب من مكانه ووقف بينهم وبين الرجل صارخاً فيهم « إنكم لن تقتلوا هذا الرجل» ولم يكن بعيداً أن تنطلق الرصاصات من بنادقهم فى ثورة غضبهم فترديه وتردى الهندى ، ولكن الله سلم ونجا لنكولن ولم يكن بينه وبين الموت إلا طرفة عين فقد أدار الرجال بنادقهم كارهين بتأثير شخصيته فيهم ولمكانته فى نفوسهم . قال أحد رفقائه فيما بعد « لم أر لنكولن قط مهتاجاً كما رأيته حينذاك » .

أما ثانية خلاله فترفعه عن الابتذال وحرصه على كرامة نفسه فأنه فى المعسكر أثناء

الليل كان يصرف رفاقه عن فحش القول وعن بذىء المزاح بما يقص عليهم من أنباء مخاطراته وبما يطربهم به من نكاته وملحه ، فأذا أرادوا شرب الخمر نأى بجانبه عنهم قائلا فى احتشام وأدب لمن يعرضها عليه « أشكرك يا صاحبى فأنى لم أمسسها قط » ؛ فأذا ثملوا انصرف عنهم وقد ضاقت نفسه بمرآهم ، ولأنه لا يجد من يحدثه وهو يحب الحديث ويأبى إلا أن يكون فى كل مجتمع المحدث الفكه والفيلسوف الذى يقص على من حوله أحسن القصص عن الحياة وأمور الحياة ...

وثالثة خلاله فى تلك الحرب كانت قوة ملاحظته وسرعته وإحاطته بما يرى جملة وتفصيلا فقد شاهد خمسة رجال من قتلى المتطوعين جز الهنود خصل الشعر من قمة رؤوسهم وفق عادتهم لتكون دليلا على انتصارهم ؛ وتحدث الرئيس لنكولن وهو فى البيت الأبيض يصف ذلك المنظر فذكر الشمس المشرقة التى ألقت حمرتها على التل القريب والتى زاد بها لون الدم احمراراً إلى أن قال « لقد رقدوا على الأرض ورؤوسهم تجاهنا ، وكانت ترى فى قمة رأس كل رجل منهم دائرة حمراء فى حجم الريال حيث انتزع الهنود خصلة شعره بما تحتها من جلد ، لقد كان المنظر مخيفاً ، ولكنه كان بما فعل هؤلاء الهنود مضحكا ... ولقد لاحظت أن أحد هؤلاء القتلى كان يرتدى سروالا من الجلد الرقيق ، وقد زادتهم حمرة الشمس المشرقة وكل ما حولهم خضاباً على خضاب » .

وفى طريقه إلى نيو سالم سرق جواده فكان عليه أن يمشى وهو من تعود المشى من قبل فمشى بعض الطريق وقطع بعضه فى قارب ثم عاد إلى المشى حتى انتهى به المطاف إلى البلدة وقد أوشك أن يحل يوم الانتخاب .

وجاء ذلك اليوم ولكن لم يقدر له النجاح فتلقى نبأ الفشل فى سكون شأنه عند تلقى كل نبأ محزن أو سار ؛ ولكنه مغتبط بينه وبين نفسه وإن لم يكن راضياً عن النتيجة العامة فقد حصل من أصوات نيو سالم وعددها ثلاثمائة على سبعة وسبعين ومائتين . ومعنى ذلك أنه جدير بثقة من يعرفه ؛ هذا إلى أنه تقدم باسم حزب الهويج وحمل فى أحاديثه وخطبه على الحزب الديموقراطى الذى كانت له الغلبة والقوة يومئذ فليس من شك أنه حاز ثقة أهل نيـو سالم غير معتمد على شىء إلا على شخصه .

عامل بريد وماسح أرض

ماذا يصنع إبراهام وقد خذل فى الانتخاب وآل الحانوت إلى ما آل إليه بسبب ما فعل صاحبه ؟ الحق أنه ألفى نفسه فى مأزق ولعله كان يندم بينه وبين نفسه أن ترك حياة الغابة ... ماذا يصنع إبراهام ليكسب قوة يومه ؟ ليس أمامه فيما يرى الآن إلا التجارة ولكن أنى له المال وما فى يديه منه شىء ؟ على أنه لم يعدم وسيلة لذلك ، فليكتب ثمن ما يشترى من بضاعة ديناً يدفعه عند الميسرة ، وبهذه الطريقة اشترى ما بقى فى الحانوت من سلع من ذلك الرجل الذى كان قد اشتراه من صاحبه الأول واتخذ له فى تجارته شريكا يدعى بيرى ورأى الناس على واجهة الحانوت لافتة جديدة تحمل اسم برى ولنكولن :

وعاد إبراهام يبيع الناس من بضاعته وقد حمل العبء وحده إذ كان صاحبه لا يكاد يفيق من السكر ؛ على أنه كان عبئاً هيناً إذ كان البيع قليلا لقلة البضاعة وقلة المشترين وكان فى البلدة حانوت آخر سطا عليه أولئك الفتية العادون لما شجر من خلاف بين صاحبه وبين زعيمهم « آرمسترنج » ؛ وعرض صاحب ذلك الحانوت ما تبقى من بضاعته للبيع فاشتراها إبراهام بطريق الدين كذلك ؛ كتب على نفسه خمسين ومائتى دولار يدفعها حين يتيسر له الدفع ...

ولكن صاحبه كلٌ عليه وليس لدى إيب مال ليدفع إليه حقه ويخلص منه ؛ وكان عليه فوق ذلك أن يدفع بعض ما يكتسب ليؤدى ثمن التجارة ، ولذلك أخذته زبكة شديدة وحاقت به الخسارة وفدحه الدين حتى بات يسميه افداحته بالنسبة إليه الدين الأهلى يرددها ضاحكا متهكما كلما تطرق الحديث إلى وصف حاله .

وبينما هو فى ضيقه إذ أراد الله أن ييسر له أمره بعض اليسر فاختير عاملا للبريد فى تلك الجهة نظير أجر معلوم ؛ اختاره القاءمون بالأمر لما علموا من أمانته وذكائه وفرح إبراهام بما ساقه الله إليه فرحاً شديداً .

أقبل إبراهام على عمله الجديد مغتبطاً فقد أتاح له ذلك العمل أشياء ترتاح لها نفسه منها أنه يتصل بالناس ويتعرف أحوالهم ويدرس طبائعهم من قرب ، وهو

كافٍ بذلك حريص عليه يريد أن ينفذ إلى أعماق النفس الأنسانية وأن يحيط بدقائقها كما هو شأنه فى كل ما يعرض له ؛ وكم كان يقع على مواطن للدرس والتأمل كلما دعاه أحد الناس ليقرأ له خطابه الذى يسلمه إليه وهو يطوف بين الدساكر وقد أخرجه من جيبه أو من قبعته ، فيقرأ وينظر وقع مايقرأ على وجوه من يقرأ لهم ، وما يرتسم فوقها من انفعالات الحزن أو الفرح أو الرضا أو الغضب أو الحيرة أو الاطمئنان ، وفى ذلك كله معرفة له أى معرفة ؛ ومنها أن عمله هذا فضلا عما أتاح له من اتصال بالناس قد مهد له من سبل القراءة ما عده خيراً من راتبه ضعفين وذلك أنه كان يقرأ الصحف قبل إعطائها أصحابها وكان هذا من حقه حسبما كان يجرى من عرف فى تلك الأصقاع .

ومما حبب إليه ذلك العمل فوق هذا أنه أتاح له كثيراً من الفراغ وإنه ليلتهم الكتب فى ساعات فراغه التهاماً ؛ وكان أكثر ما يقرأ يومئذ كتب القانون ، وقد ألقت إليه الأقدار ذات يوم كتاباً فى القانون يقع فى أربعة أسفار عثر عليه كما يعثر على كنز ؛ وبيان ذلك أنه اشترى بثمن بخس من رجل انتوى الرحيل بعض متاعه وكان صندوقاً به أوراق فقلبه فعثر فى قاعه على كنز وهو كتاب بلاكستون وكان من أشهر ما كتب فى القانون فى تلك الأيام ...

وما باله يعنى بالقانون ودراسته ؟ أكان يأنس فى نفسه القوة على الخطابة والأقناع ويحس فى أطواء نفسه الرغبة فى الدفاع عن الحق أم كان يريد مجرد احتراف المحاماة كرزق يعول عليه ؟

إن الناس يجيئونه ليحكموه فيما شجر بينهم وهو عندهم القوى الأمين الذى لايتحيز إلى شخص أو إلى فئة والذى لايتمتر فى أمر والذى يكره أن يلبس أمامه الحق بالباطل وكان إذا عرض له أمر رده إلى ماعرف من القانون ليتبين وجهه ، فأن عجز سأل من يلقاهم ممن هم أعلم بذلك منه فيفيد من بحثه دراية جديدة وعلماً .

وكان الناس يأجرونه على ذلك فيرسلون بعض القوت إلى الأسرة التى يسكن بين أفرادها فيجعل ذلك نظير سكناه بينهم ، ويعيش هو على وظيفته الضئيلة من عمله فى البريد .

وإنا لنلمح شخص المحامى الناشىء فى شخص عامل البريد هذا ؛ على أنه تقدم

عملا ليدافع عن بعض الناس أمام المحلفين فى بعض الجلسات الهينة فى تلك الجهات وقد عرف عنه أنه ما وقف يدافع يوماً إلا عما يعتقد أنه الحق ! كما اشتهر بسداد رأيه وقوة عارضته ومتانة حججه .

ولم يجمل همه جميعا إلى كتب القانون فهو يقرأ كتب التاريخ وبخاصة تاريخ زعماء أمريكا الأولين من أمثال وشنطون وجفرسون ومما يعجبه من حياة وشنطون فضلا عما تحفل به من معانى العظمة أنه كان يكره الرق وليس ينسى أن ذلك الرئيس قد رفض أن تجبر على العودة إلى صاحبها زنجية فارة وجعل لها فى ذلك الخيار .

وقد دله صاحب له على شكسبير بأن أسمعه عبارات يحفظها له فهام بذلك الشاعر هياما عظيما حتى جعل شعره مسلاته فى ساعات همه .

ومست قلبه فى تلك الأيام لذعة من الألم ، فقد ألم به مايلم بالشباب من علل الشباب وانعقدت أمام بصره سحب قاتمة من الهم كان مبعثها ما دب فى قلبه من حب … ياعجبا ! أكل شىء يبتعث فى نفسه الهم ؟ ألم يأن أن تبتسم له كما تبتسم لغيره الحياة ؟

كان قبيل إقباله على السياسة قد أحس فى نفسه ميلا نحو آن ابنة صاحب الخان الذى وجهه هذه الوجهه السياسية : مال إليها قلبه لأول نظرة ألقاها عليها وكان ذلك ذات مساء حيث زار خان أبيها . ولكنه ما لبث أن علم أنها لن تكون له إذ كان لها خاطب غنى درت عليه التجارة مالاوفيراً فاستخذى وكأنه ما أحس مضض الفاقة الا فى ذلك اليوم ، وتصرمت الأيام وهو يغالب هذه العاطفة القوية حتى علم وهو يعمل فى البريد أن فتاها انصرف عنها ونسى ما كان بينه وبينها وقد نزلت بأبيها الفاقة ، وخيل إلى أيب أنه اليوم يستطيع أن يصل إلى قلبها ، ولكن مزاحما آخر يأخذ عليه الطريق مدلا عليه بماله وإن كان لا يدانيه فى كفايته ولا خلقه ويذوق أيب مرارة الفاقة ثانية ، وذلك ما صور له طيوفا من الشجن أخذت تزداد حتى ليضيق بها قلبه ويكاد يصل به الأمر إلى القنوط ؛ روى عنه يومئذ أنه قال لأحد خلانه « ربما ظهر منى حين أكون فى رفقة أنى أستمتع بالحياة فى نشوة ؛ ولكنى إذا ما خلوت إلى نفسى أخذتنى حال من الهم حتى لا أجرؤ أن أحمل معى مبراة »

على أن فى انصرافه إلى عمله وهو يحمل الخطابات فى قبعته من دسكرة إلى دسكرة ما يلهيه بعض الوقت ، وإن له كذلك فى الكتب عزاء وسلوة : له فى شكسبير وبيرنز ما تأنس به روحه وله فى تراجم العظماء ما يبهج نفسه ويثبت فؤاده .

وأضيف إلى عمله فى البريد عمل آخر دله عليه أحد خلصائه ، وهو تخطيط الأرض ورسم المصورات للطرق الجديدة التى كانت تنشئها الحكومة يومئذ وتوضح معالمها للناس ليهتدوا بها فى مسيرهم فى تلك الأصقاع البرية واختاره رئيس الخطاطين لما عرف من ذكائه ولكنه كان ديموقراطى المذهب ، فاشترط إبراهام ألا يؤثر عمله فى حرية رأيه السياسى ؛ فكان له ما أراد ولقد حذق إبراهام هذا العمل الجديد فى أيام قليلة ، وصار بعد توزيع البريد يحمل منظاره ولوحته وقلمه ويتنقل بين الأحراج يرسم الطرق ، وكان يأتى ذلك بما عرف عنه من الدقة فى كل ما يعهد إليه ، وكان يتكىء على نفسه علّه يستطيع أن يدفع بعض الدين الأهلى وكان يخفف عنه الجهد تذكره أن وشنطون قد عمل مثله فى تخطيط الأرض .

ولكن الدائنين لم يدعوا أيب فيما هو فيه من كد ؛ واشتد إلحاح أحدهم فما يقبل أن ينتظر ساعة ، لذلك أقبل فباع حصان إبراهام وأدوات تخطيطه فى مزاد بأمر من الحاكم ، وقد عز على إبراهام أن يشهد هذا البيع فانصرف ريثما تم ، ولكن صاحباً له من ذوى المروءة تقدم فدفع المال المطلوب وخلص له أشياءه ؛ ولقيه فقال له « رد إلى هذا المال متى قدرت على رده فأن لم تقدر فلا عليك منه يا صديقى » . ولقد مات هذا الصديق بعد حين واجتمع أصحابه لرثائه ووقف أيب فما استطاع أن يتكلم ، لقد اصفر وجهه وحاول أن يحرك لسانه فما تحرك إلا دمعه فجلس وماء جفنيه ينهمر وهو الذى يحبس فى الخطوب أدمعه ...

واستمر أيب يعمل فى تخطيط الأرض أربع سنوات ، ولولا هذا العمل لعاوده سوء الحال فأن مكتب البريد فى نيو سالم قد أغلق وانقطعت وظيفته من البريد ومن عجيب أمره أنه على خصاصته قد احتفظ بمبلغ بقى فى ذمته للقائمين على شئون البريد ، وظل هذا المبلغ عنده أكثر من عشر سنوات حتى جاءه مفتش وهو محام مشهور المكانة فى مدينة سبرنجفيلد يتصيده مطالباً إياه أن يؤدى مبلغا من الإيراد بقى عنده وأظهرته المراجعة ؛ وكان إلى جانب أيب يومئذ صديق له رآه يتفكر فى أمره فهمس فى أذنه يعرض عليه أن يدفع المبلغ ولكن أيب يفيق من تفكره قائلا للمفتش « انتظر دقيقة ... وينصرف ثم يعود بعد قليل وفى يده جورب قديم كان قد ربطه على المبلغ فبقى طوال هذه المدة حيث هو لم تمسه يده ، فلما فتح وجد فيه ذلك المال بجملته ومفرداته

كان وشنطون الرئيس الأول للولايات المتحدة وقد بدأت رياسته كما أسلفنا سنة ١٧٨٩. وقد أعان وشنطون فى تدعيم قواعد الاتحاد وزيران هما هاملتون وقد جعله على خزانة الاتحاد وجفرسون وقد جعله لشؤون الدولة ، ومن اتجاهى الرجلين فى السياسة وفق ميولها نبتت الأحزاب فى الولايات المتحدة .

حارب هاملتون فى حروب الثورة وجاهد جهاداً محموداً ، ولكنه لم يكن متحمساً للمثل التى صورتها أذهان الناس وكان قليل الثقة بالجمهور ونزعاته ولهذا كان يبدى فتوراً إزاء الديموقراطية وكان يطلق على الجمهور اسم « الوحش العظيم » وينكر على العامة صلاحيتهم لوزن الأمور ، واتجهت ميوله إلى إنشاء طبقة أرستقراطية فى يدها أزمة المال والحكم وهدفها تقوية الاتحاد وتثبيت نفوذ الحكومة المركزية .

وكان جفرسون يعمل على نقيض ذلك ، كان يؤمن بالديمقراطية وسلطة الشعب إيماناً شديداً ، ولذلك نراه يرقب سياسة هاملتون وشيعته فى حذر وضيق فلما رأى أنه أوشك أن ينجح جاهر بمخالفته إياه ومضى كل منهما يعمل على شاكلته

ووقع أول خلاف بينهما ذو بال حين عمل هاملتون على إنشاء مصرف الولايات المتحدة وكانت حجة هاملتون فى إنشائه اجتذاب ذوى المصالح المالية نحو حكومة الاتحاد ومن ثم تكون السلطة المركزية للولايات مهيمنة على الشؤون الاقتصادية للجميع وفى هذا تقوية للاتحاد .

ورأى جفرسون أن الاتحاديين — كما سمى حزب هاملتون — إنما يريدون أن يملأوا الكونجرس بأناس يرعون مصالحهم الاقتصادية قبل كل شىء فهم موالون للحكومة لارتباطهم بها من أجل أغراضهم وفى ذلك إفساد للحكم الديموقراطى ليس كمثله إفساد .

وكانت أغلبية الكونجرس فى جانب هاملتون فاحتكم جفرسون إلى الدستور وكتب كل منهما يؤيد حجته ولما عرض المشروع على وشنطون لتوقيعه تردد

تردد بين الرأيين ثم وقعه على أن يترك الفصل فى حكم الدستور للمحكمة العليا ، وجاء قرار تلك المحكمة مؤيداً مشروعية إنشاء المصرف ؛ وتم النجاح للاتحاديين ...

وتداعى أشياع چفرسون وسموا أنفسهم الجمهوريين ثم غيروا اسم حزبهم بعد حين فصاروا يعرفون باسم الجمهوريين الديموقراطيين ثم اختصر الاسم فأصبح يقال لهم الديموقراطيون ...

وثمة نجاح آخر كان من نصيب الاتحاديين فقد فاز مرشحهم لمنصب نائب الرئيس على مرشح الديموقراطيين فى الانتخابات الثانية لهذا المنصب ، أما الرئيس وشنطون فقد نزل على الرغبة العامة فرشح نفسه للمرة الثانية وفاز برضاء الحزبين جميعاً .

واتجهت أنظار العالمين القديم والجديد إلى ما كان يحدث فى فرنسا ؛ ووجد أنصار هاملتون البراهين على ما ينجم من خطر من تطرف الديموقراطية ، فى حكم الأرهاب بفرنسا ووصفوه بأنه الفوضى التى يخشونها ، وحملوا على الفرنسيين وهم إنما يحملون بذلك على الديموقراطيين فى وطنهم ؛ ووقف يدافع الديموقراطيون عن الديموقراطية ويمتدحون الفرنسيين ويندون بالاستبداد ويعزون هذا الذى سماه الاتحاديون الفوضى إلى ما ذاقه الفرنسيون أحقاباً على يد الطغاة المستبدين ؛ واستمرت الحرب الكلامية بين الحزبين وعلى الأخص حين دخلت انجلترة التحالف الدولى الأول ضد فرنسا فقد حبذ فعلها الاتحاديون وأنكره الديموقراطيون أشد الأنكار .

على أن الحزبين قد آزرا الحكومة فى حيادها الذى التزمته ، وإن رأى چفرسون أنه وإن لم يدع إلى التدخل لمؤازرة فرنسا إلا أنه لا يجد ثمة ما يفرض على الأمريكان إخفاء شعورهم نحو الفرنسيين ؛ وإنهم بأخفائهم شعورهم ليظهرون بمظهر ناكرى الجميل ، فضلا عن تنكرهم لمبادئ ثورتهم التى بذلوا من أجلها ما بذلوا من الأنفس والأموال .

وأرسلت الجمهورية الناشئة فى فرنسا على أثر القضاء على الملكية سفيراً لها بأمريكا ، فاستقبله الشعب الأمريكى استقبالا حماسياً بلغ من روعته أنه كاد ينسى الأمريكان ما كان من حماستهم لزعيمهم الأكبر غداة استقلالهم ودل هذا على أن الشعور العام

فى جانب چفرسون ؛ ولكن هذا السفير ما لبث أن أساء استغلال هذا الشعور فكان يريد أن تخرج أمريكا عن حيادها ، فلما رفضت الحكومة بلغ به الحمق أن أراد أن يحتكم إلى الشعب ضد حكومته وإذ ذاك لم يسع حتى چفرسون نفسه إلا أن يصده عن طريقه فى إباء وقوة ؛ ولكن سياسة هذا السفير الفرنسى أضعفت حماسة الأمريكان لفرنسا وجعلت شعور الكثيرين يميل بعض الميل إلى انجلترة .

وفى سنة ١٧٩٤ صمم چفرسون على الاستقالة وقد حاول وشنطون أن يحوله عن عزمه فلم يفلح ؛ وكان من أسباب استقالته ضيقة بسياسة هاملتون وسياسة الدولة على العموم ومسلك ذلك السفير الفرنسى .

وقامت فى السنة التالية ثورة فى ولاية بنسلڤانيا احتجاجاً على سياسة هاملتون المالية ؛ وأظهر چفرسون عطفه على الثوار بأن حمل على القانون الذى أدى بهم إلى الثورة فأنه يؤمن بحق الشعب فى الخروج على جور ذوى الجور وقد أعلن صراحة أن ثورة الناس على الظلم دليل على وجود الديموقراطية فى نفوسهم ، وأضاف إلى ذلك قوله إنه يأمل ألا تخلو الدولة كل عشرة أعوام من ثورة أياً كان نوعها .

على أن وشنطون وإن لم يكن عدواً للديموقراطية قد قضى بقوة السلاح على ثورة بنسلڤانيا ولم يخف الزعيم الكبير مخاوفه من انتشار أندية الحزب الديموقراطى فى البلاد وذلك فى رسالة منه إلى الكونجرس ، فثارت بذلك ثائرة الديموقراطيين ووجهوا سهام غضبهم إلى وشنطون نفسه .

وفى سنة ١٧٩٧ انتهت رياسة وشنطون الثانية ، وأصر الرئيس الأول على رفض ترشيحه للمرة الثالثة على الرغم من إلحاح الناس ؛ واعتزل وشنطون السياسة.

وظن الناس أن الفائز بالرياسة سوف يكون هاملتون لما له ولحزبه من نفوذ ، ولكنه لم يرشح ورشح بدله چون آدم من الاتحاديين؛ ويعزى عدم ترشيح هاملتون إلى أمور كثيرة منها أنه جر عليه وعلى حزبه عداوات عنيفة ما كان أغناهم عنها ، ومنها أنه لم يكن أمريكياً بمولده فأنه ابن سفيح لتاجر اسكتلندى ولعل لما أحاط بمولده غير ما يتعلق منه بالموطن أثراً كذلك فى رغبة الناس عنه ؛ كما أن كثيراً من الشائعات جرت حول حياته الشخصية .

على أن الحزب قد لحق به الضعف بخلو الميدان من الرجل الذى أنشأه وقوى

دعائمه ، كما أن سياسة الاتحاديين التي عملت على خلق طبقة أرستوقراطية غنية تستأثر بالحكم قد قدر لها الضعف والانحلال بأقصاء هذا الرجل الذى كان حرباً متصلة على الديموقراطية والذى لم يبال عند وضع الدستور أن يقترح أن تكون رياسة الاتحاد وعضوية الشيوخ مدى الحياة ، وأن يعين الرئيس حكاماً للولايات يكون من حقهم نقض قرارات مجالسها التشريعية ؛ والذى غازل خياله النظام الملكى طيلة حياته السياسية ؛ والذى عمل أثناء حكمه بمبدأ الحماية الجركية وجاهد فى إنشاء الرأسمالية الصناعية والتجارية ، ليبنى جيلا غنياً يقاوم به ديموقراطية جفرسون الذى آمن بالشعب ولم يثق فى غير الثروة الزراعية تنمو على أرض واسعة يمكن أن يستمتع بها الجميع ؛ ولئن قدر لها ملتيون أن يكون جاعل أمريكا موطن ذوى الملايين فسوف يقدر لجفرسون أن يكون جاعلها موطن الديموقراطية ...

وكانت أكثر الأصوات بعد جون آدم لجفرسون فأصبح هو نائب الرئيس ، وصار بذلك الموقف عجيباً فالرئيس ونائبه يمثل كل منهما حزباً من حزبين الحرب بينهما سجال . .

أما جون آدم فقد كان شراً على حزبه وذلك أنه جعل العنف سلاحه فأرسل إلى الكونجرس مشروعى قانونين قصد بأولهما حماية النظام من العبث به ، وكان الآخر خاصاً بالأجانب والصلة بهم ورأى الديموقراطيون أنهم هم المقصودون بذلك ورأت أغلبية البلاد أن الحرية الوليدة إنما تهيأ لها الأغلال فهبت العاصفة فزلزلت الاتحاديين ورئيسهم وزلزلت مبادئهم زلزالا لم يرجو بعده قوة ...

وخرج جفرسون من عزلته وتزعم حركة المقاومة ؛ وكانت كنطكى أول ولاية أعلنت عدم دستورية القانونين وكتب جفرسون لمجلسها التشريعى ما عرف باسم قرارات كنطكى التى رفضت بمقتضاها اعتماد القانونين فى القاطعة .

وفى سنة ١٨٠١ فاز جفرسون زعيم الديموقراطيين بالرياسة فكان الرئيس الثالث للويات المتحدة ثم أعيد انتخابه للمرة الثانية فبقى فى منصب الرياسة حتى سنة ١٨٠٨ .

وفى عهد رياسته الأولى أقدم جفرسون على شراء لويزيانا من أسبانيا ؛ وقد آلت هذه المستعمرة العظيمة الممتدة فى قلب أمريكا إلى تلك الدولة من فرنسا

سنة ١٧٦٢ ؛ وبينما كان يفاوض چفرسون الأسبان تدخل نابليون فاستماد هذه المستعمرة لفرنسا فى شروط بينه وبين أسبانيا ؛ وأظهر چفرسون كياسة وحزماً وظل يرتقب الظروف حتى نقض صلح أميان بين انجلترة وفرنسا واستؤنفت الحرب بينهما واحتاج نابليون إلى المال فساوم الفرنسيين ليشترى المستعمرة وتم له هذا الشراء ؛ على أنه تعرض لحملات الاتحاديين فقالوا إنه أنكر على حزبهم بالأمس تأسيس مصرف بحجة عدم دستورية هذا العمل وهو اليوم يشترى لحساب الاتحاد مستعمرة بأموال عامة مخالفاً بذلك روح الدستور .

وقد أظهر چفرسون تردداً كبيراً عند ترشيحه للمرة الثانية وما قبل إلا لأنه وجد خصومه يوجهون إليه مطاعن شخصية تمس نزاهته فرأى أن رفضه الترشيح قد يلقى شبهة على براءته . ولم تقع فى رياسته الثانية حوادث ذات بال وكل مايعنينا هو أن الديموقراطيين قد ازدادوا من القوة بقدر ماخسر الاتحاديون منها . وتوطدت قواعد الديموقراطية على يد هذا الديموقراطى العظيم الذى كتب وثيقة إعلان الاستقلال والذى قاد الحزب الديموقراطى ومكن له فى البلاد حتى قضى على ما كان يبيت الاتحاديون من تمكين حكم الأقلية ، والذى جرى فى حكمه على قواعد ديموقراطية ومظاهر ديموقراطية لم يتحول عنها مرة .

وخلف چفرسون فى الرياسة ميدسون وهو كذلك ڤرجينى وديموقراطى وأشد أنصار چفرسون تحمساً له ؛ وقد أخذ طيلة عهد رياسته يمكن للحزب الديموقراطى كما فعل چفرسون .

وقد اختير ميدسون كذلك للرياسة مرتين؛ وفى مدة رياسته الأولى اشتد الخلاف بين انجلترة والولايات بسبب تفتيش انجلترة السفن فى المحيط الأطلنتى حتى المحايدة منها على الرغم من احتجاج الولايات المتحدة مرة بعد مرة على تفتيش سفنها ؛ وتفاقم الخلاف حتى بات ينذر بالحرب ، وحاول ميدسون أن يحسم الخلاف بغير حرب فلم يفلح ، وتشيع للحرب رجال من ذوى الرأى والنفوذ مثل منرو وهنرى كلى ... وأعلنت الحرب سنة ١٨١٢ قبيل انتهاء رياسته .

وأعيد انتخابه فأدار دفة الحرب ، وعصفت العاصفة بالولايات من الداخل ومن الخارج ، فى الداخل بدت بوادر الانقسام فأن بعض الولايات وفى مقدمتها

نيو إنجلند رغبت عن الحرب بسبب ما تعرضت له من خسائر تجارية وأضرار ساحلية وعادت تردد نغمة حق الولاية فى حرية العمل؛ وفى الخارج حاقت الأخطار بالاتحاد على حدود كندا وعند مصب المسيسبى على الرغم مما أظهر الأمريكان من بسالة وتوفيق فى البحيرات ودفاع مجيد فى الجنوب على يد المجاهد البطل جاكسون الذى سوف يكون له شأن عظيم فى التطور السياسى لبلاده ...

وسئمت انجلترة القتال وقد أعياها النضال فى أوروبا أمام نابليون فعقد الصلح بينها وبين الولايات سنة ١٨١٤ ، وخرجت الولايات من المحنة أحسن حالا مما كانت قبل فأن عدوان الانجليز قد أيقظ وطنية الأمريكان وحماستهم على نحو ما حدث فى حرب الاستقلال ، وقام لهم الدليل المادى مرة ثانية على أن نجاة الجميع فى اتحادهم وترابطهم . ولقد ارتكب الأنجليز أخطاء جمعت على كراهيتهم الأمريكان من كل حزب وفى مقدمة تلك الأخطاء إحراق وشنطون بعد احتلالها ولم يزل بعد إجلائهم اللون الأبيض يغطى مقر الرياسة إشارة إلى محو ما خلفه فيه الحريق من سواد ، وما يذكر الأمريكان البيت الأبيض إلا ذكروا ما أصابه من حريق على يد الأنجليز ؛ وتجددت كذلك ثقة الأمريكان فى أنفسهم فهذه أول حرب يخوضونها بعد الاستقلال فيخرجون منها ولم يمسسهم ما كانوا يتوهمون من سوء .

وفى سنة ١٨١٦ خلف منرو بعد ميدسون وهو كذلك ديموقراطى من فرجينيا ومن أتباع جفرسون ؛ إلا أنه يزيد عن سابقيه فى نزعته القومية فالاتحاد وزيادة دعائمه همه الأول ...

وفى أوائل عهده ظهرت قوة حزب جديد عرف باسم الحزب الجمهورى القومى؛ فى مبادئه خير ما فى مبادىء الحزب الديموقراطى وفيها كذلك بعض مبادىء الاتحاديين خالية من نزعتهم الأرستوقراطية ...

كان فى مقدمة مبادىء هذا الحزب تقوية الاتحاد وأن تكون للاتحاد سياسة خارجية قوية وأن يعد الاتحاد ما استطاع من قوة حربية ؛ كذلك كانوا يرون أن ينهض الاتحاد بالأصلاحات التى فيها الفائدة للجميع كالطرق والترع وإصلاح مجارى الأنهار وأن تدفع الولايات نفقات ذلك كله بغير نظر إلى ما يردده القائلون بحق الولايات ؛ كذلك كانوا يطالبون بالحماية الجمركية لحماية الصناعات الجديدة التى

نشأت فى البلاد أثناء الحرب ؛ كما أيدوا فى حماسة إحياء مشروع هاملتون بأنشاء مصرف قومى ... كل أولئك على قاعدة ديموقراطية سليمة لا تدع مجالا لأقلية تحكم كما كان يريد أشياع هاملتون .

وكانت رياسة منرو عهد هدوء إذ خفت حدة التنافس الحزبى بزوال حزب الاتحاديين ؛ وكان الحزب الجمهورى الجديد ديموقراطى النزعة ؛ وفى عهد الرئيس منرو وضعت اتفاقية مسورى[1] الشهيرة فى مسألة العبيد فقضى بها على سبب من أهم أسباب الخلاف بين الولايات .

وقد اختير منرو للرياسة مرة ثانية وأعلن فى عهد رياسته الثانية مبدأ منرو الشهير ، الذى يحول بين الأوروبيين وبين التدخل فى شئون أمريكا ؛ والذى أصبح قاعدة تحرص أمريكا عليها كجزء هام من سياستها ؛ وسبب إعلان هذا المبدأ هو أن دول التحالف الرباعى فى أوروبا أرادت التدخل لحل مستعمرات أسبانيا الثائرة على الأذعان لها ، وكانت انجلترة قد انسحبت من التحالف وقد غاظها أن تستعين الحكومة الأسبانية بالجيش الفرنسى للقضاء على الثورة الدستورية فى أسبانيا بأذن من دول التحالف ؛ وفطنت إلى مايترتب على ذلك من امتداد النفوذ التجارى الفرنسى إلى مستعمرات أسبانيا حول خليج المكسيك ، فأشار كاننج وزير خارجية انجلترة على الرئيس منرو نخطا هذه الخطوة التى جعلت الولايات المتحدة هى المسؤولة عن شؤون العالم الأمريكى .

وخلف من بعد منرو سنة ١٨٢٤ جون كونسى آدم ابن جون آدم الرئيس الذى خلف وشنطون ؛ وقد حدث فى انتخابه أنه لم يفز بالأغلبية المطلقة لأعضاء الهيئة الانتخابية كما أنه لم يفز بها كذلك أحد غيره ؛ وفى مثل هذه الحالة يختار مجلس النواب وفقاً للدستور واحداً من الثلاثة الذين حصلوا على أكثر الأصوات وقد تخطى المجلس أندروجاكسون وكان أكثر الثلاثة أصواتاً واختار كونسى آدم .

وأذعن جاكسون لحكم الدستور ؛ بيد أنه ما لبث أن جرت إشاعة مؤداها أن فوز آدم على جاكسون إنما يرجع إلى تأثير هنرى كليى من كبار زعماء الكونجرس ، فلقد دأب هذا الرجل حتى ظفر بأقناع من استطاع إقناعهم من

---

(١) انظر الفصل الذى عنوانه : بيض وسود .

أعضاء مجلس النواب معتمداً على فصاحته ونفوذه ودهائه ؛ وكان هنري يخشى من من اختيار جاكسون الجندى للرياسة مدعياً فيما ادعى من أسباب أنه يشفق أن تتجدد باختياره مأساة يوليوس قيصر .

ولكن شعور السخط يملأ البلاد إذ أنها ترى آدم يختار هنرى وزيراً للدولة وقال الناس إن هذا هو الثمن والأمر مبيت من قبل ، وأن المصالح الشخصية بدأت تتسرب إلى السياسة العليا للبلاد ... وحمل جاكسون حملة عنيفة على آدم وصاحبه ؛ وكان جاكسون أقرب الزعماء إلى قلوب الناس ، يتمتع بينهم بمحبة لم يظفر بمثلها إلا وشنطون ، فلما حل موعد الانتخاب للرياسة سنة ١٨٢٨ فاز جاكسون بأغلبية كبرى ، وولى الرياسة رجل يعد فى تاريخ أمريكا من أكبر زعماء الديموقراطية ، وفى تاريخ الاتحاد مؤسسه الثانى وفى تاريخ التطور السياسى للبلاد علماً من أبرز الأعلام .

كان جاكسون جندياً لا يعرف الالتواء أو اللين وكان صريح الطبع لا يمارى فى صداقة أو خصومة ، كما كان صادق العزيمة ، إذا هم بأمر يعتقد صوابه لا يثنيه عنه شىء إلا الموت ، وقد اتصف بالأقدام والهمة وتجلى ذلك فى الحرب ضد الانجليز سنة ١٨١٢ كما تجلى فى حرب الاستقلال من قبل .

وكان جاكسون من أصقاع الحدود ؛ وليس لتلك الأصقاع مثل ما للشرق فى أمريكا من ثروة ومدنية ، ولكنها كانت صادقة الديموقراطية لأن الناس هناك يكادون أن يكونوا سواسية ؛ والناس هناك أهل جلد وعزيمة وأصحاب فطرة سليمة فى الجملة ، لم تؤثر فيهم تقاليد الحضارة وأوضاع المدنية أثراً كبيراً كما حدث فى الولايات القديمة فى الشرق .

وكان جاكسون يؤمن بالديموقراطية إيمان جفرسون ، أو لعله كان أشد إيماناً بها وكان يدين بمبدأ سيادة الشعب وأنه مصدر كل سلطة ، فلن تقوم حكومة مشروعة إلا إذا رضى عنها الناس وواجبها أن تفعل بمشيئة الناس على ما فيه صالحهم.

وكانت لجاكسون حاسة غريبة ينفذ بها فى سرعة ودقة إلى رغبة جمهور الناس فاذا عمل فإنما يعمل بوحى منهم وإنه ليظهر للناس أنه هو الذى يوحى إليهم فيوجههم الوجهة التى يريد ؛ وهذه فيما نرى خلة من ألزم ما ينبغى من خلال لقائد شعبى وهو بعد يفضل الإخلاص على المقدرة ويضع القلوب إذا اختار الرجال قبل العقول..

وتتجلى سيادة الشعب فى انتخاب جاكسون أكثر مما تجلت فى انتخاب من سبقوه ؛ فان الهيئة الانتخابية التى تختار الرئيس كان يختارها أعضاء المجالس التشريعية فى الولايات ، ولكن الناس فى الولايات ما عدا كارولينا الجنوبية هم الذين انتخبوا هذه الهيئة فجاءت وليدة إرادتهم لا وليدة إرادة المجالس التشريعية ؛ فكانت بذلك ممثلة للرغبة العامة ... وعد جاكسون مرشح الشعب الأمريكى لا مرشح العليسة من الساسة ، وجاء نجاحه على الرغم من مجهودات مخالفيه من الزعماء تأكيداً لسيطرة الشعب لاسيطرة فريق من صفوته فكان ذلك أول مظهر من مظاهر الديموقراطية فى وضعها الجديد ، كما كانت هذه الخطوة من جانبه أعنى الالتجاء إلى الرأى العام وإغفال مجالس الولايات ثورة ديموقراطية فى سبيل سيادة الشعب .

وكانت أول خطوة خطاها الرئيس الجديد هى اختيار من يعاونونه من رجال الحكومة من الموالين له وصرف من لا يرى التعاون معهم ، لا فى مناصب الوزراء فحسب ، ولكن فى المناصب العامة جميعاً ، وفعل جاكسون ذلك غير مبال بصيحات خصومه ؛ والحق أن وشنطون قد سبقه إلى مثل هذا ولكن فى مجال ضيق ، أما هو فقد توسع فيه حتى أصبح هذا الإجراء المظهر الثانى لديموقراطيته ، ولقد أصبح فيما بعد تقليداً يحتذيه الرؤساء ... قال جاكسون يرد على منتقديه : « لقد انبعث ضجيج شديد حول هذا ، إن الأمر سوف يعرض على الكونجرس ، وستوضح أسبابه ... إن كل رجل يلى منصباً بضع سنين يعتقد أن له أمره مدى الحياة كحق يكتسب فإذا وليه عشرين عاماً أو أكثر فانه لا ينظر إليه كحق له فحسب بل كشىء يرثه أبناؤه فان لم يكن له أبناء فأقرب ذوى قرابته . ليس هذا مبدأ حكومتى ... إن تغيير أصحاب المناصب هو الذى يضمن للحرية الدوام » وواضح من كلامه هذا أنه كان يخشى أن تقوم طبقة معينة بالحكم يرثها أبناؤها فيه وهذه هى الارستقراطية .

وألفى جاكسون نفسه محاطاً بخصوم أقوياء مثل هنرى كلى وكالهون وغيرهما ممن كان كثير من الموظفين من صنع أيديهم فكانوا بذلك خير وسائل نفوذهم ؛ وكان كالهون نائب الرئيس وكانت بينه أول الأمر وبين جاكسون محبة واحترام

متبادلين ؛ بيد أنه حدث ان جرت إشاعة سوء حول زوجة أحد الوزراء الموالين غضب لها الرئيس أشد الغضب ، لأن زوجة الوزير كانت تحظى بثقة زوجته التي طواها الموت ، وكان الرئيس شديد المحبة والإخلاص لتلك الزوجة الذاهبة ؛ ومن ثم كان يعز كل صديقاتها وهو لم ينس أن زوجه التي يكبر ذكراها لم تسلم هي كذلك من أحاديث الإفك وإشاعات السوء . ونمى إلى الرئيس أن كالهون هو مدبر الإشاعة ليسيء إلى الوزير الذي يخلص له الولاء ، كما أنه ما لبث أن اكتشف أن كالهون وكان وزيراً للحرب في عهد منرو هو الذي حمل ذلك الرئيس يومئذ على إساءة الظن به و كرهه ، فلهذا اشتد البغض بين الرجلين وتقاطعا وقد كانا صديقين .

ويعنينا أمر هذا الخلاف لملاقته بمشكلة دقيقة امتحن فيها ثبات جاكسون وابتليت عزيمته ؛ وذلك أن ولاية كارولينا الجنوبية موطن كالهون قد عادت تنادي بحرية الولايات في العمل وتنذر الاتحاد بعاصفة جديدة ؛ وبيان ذلك أن الحكومة جرياً على سياسة الحماية الجركية التي اتجه الرأي إليها حرصاً على الصناعات الجديدة التي نشأت إبان الحرب سنة ١٨١٢ ، قد قررت على الواردات ضريبة عالية سنة ١٨٢٨ فغضبت لذلك الولايات الجنوبية مصدرة القطن ومؤيدة مبدأ حرية التجارة ؛ وأعلنت كارولينا الجنوبية إنكارها دستورية هذه الضريبة ، ولكن المحكمة العليا خذلتها فيما ادعت ؛ فلجأت إلى قاعدة أخرى أذاعتها مؤداها أن لكل ولاية في الأمور الخارجية مثل ما لأي دولة مستقلة لا ترتبط إلا بما تقضي به معاهدة الاتحاد ، وعلى ذلك فهي تتصرف في موقفها من هذه الضريبة دون مراعاة لأية سلطة مركزية ، ونتيجة لهذا أعلنت إلغاء الضريبة الجركية من موانيها ...

ووضعت كارولينا بذلك أساس قاعدة خطيرة هي حق كل ولاية في إلغاء ما لا توافق عليه مما تفرضه حكومة الاتحاد وفي ذلك زلزلة للاتحاد في كل وقت .

وبات الموقف بالغ الحرج فان جاكسون من أهل الجنوب بمولده وإن كان من أصقاع الحدود الغربية بنشأته ، وإنه يدين بنجاحه ومكانته للجنوبيين أكثر مما يدين لغيرهم ، وإن له خصوماً يتربصون به وقد اعتزل كالهون منصبه وبات في أهل كارولينا ، زعيمهم الذي لا يمل ، ولسانهم الذي لا يكل .

والرئيس جاكسون حريص على الاتحاد ماوسعه الحرص ، وعنده أن فصم عروته هي الكارثة التي لا تعظم عنها كارثة ، ولكنه في الوقت نفسه ديموقراطي مثل جفرسون وهو لم ينس موقف جفرسون وأنه صاحب قرارات كنطكي .

وتهيأت فرصة لتسمع البلاد رأى جاكسون وكان الرئيس قد مال إلى ضريبة معتدلة ليجمع بين الرأيين وأغضبه أن خصومه لم يرضوا حتى بهذا ؛ فلما كان عيد ميلاد جفرسون اجتمع عدد كبير من السياسيين وألقوا الخطب وشربوا الأكواب وكانت معظم الخطب في جانب حرية الولايات في العمل ونهض جاكسون وشرب كوب الاتحاد قائلا في عزيمة وصرامة : « إتحادنا ! إنه يجب أن نحفظه » ونهض كالهون فحاول أن يخفف من وقع كلمة جاكسون فقال : « اتحادنا هو أعز شيء لدينا بعد حريتنا » وفهم الناس مغزى كلمة الرئيس فلم تكن إلا إعلان الحرب .

وأخذ الرئيس يعد عدته فكتب إلى الكونجرس يطلب أن يمنحه حق القضاء على المؤتمرين في كارولينا بقوة السلاح ، وأفضى إلى وزرائه بتصريح خطير جاء فيه أنه إن لم يوافق الكونجرس فسوف لا يعدم حيلة ! إنه سيدعو البلاد لإرسال متطوعين لحماية الاتحاد ثم يزحف على رأسهم فيغزو الولاية الثائرة ويقبض على رؤوس الفتنة فيها ؛ وهال أهل كارولينا تصريح الرئيس المصمم ، وحار خصوم الرئيس من أعضاء الكونجرس في أمرهم حيرة شديدة .

واتصل هنرى كلى بكالهون يقترح حلا وسطاً ومؤداه أن تخفف الضريبة بعض الشيء ووافقه كالهون ، ومال الرئيس إلى قبول ذلك الحل ولكنه اشترط أن يوافق الكونجرس على لائحة استعمال القوة وأن تكون اللائحة سابقة في صدورها صدور اللائحة بالحل الذى اقترحه هنرى وكالهون . وظفر الرئيس بما أراد وصدرت اللائحتان حسبما طلب ورجعت كارولينا عن ثورتها ونفذت الضريبة الجديدة ! كتب الرئيس إلى أحد أصدقائه قائلا : « إن لديك بعض من يقولون بحق الإلغاء ، ألا قطب لهم وجهك فما كانت الضريبة إلا حجة واهية وإنما يريد الجنوبيون اتحاداً خاصاً بهم من الولايات الجنوبية ، وإن حجتهم القادمة سوف تكون مسألة العبيد » ولله ما أعجب هذه النبوءة التي سوف تثبتها الأيام ...

ونفض الرئيس من المشكلة يديه ظافراً وقد ازداد إعجاب الناس ببسالته

ووطنيته وإخلاصه للاتحاد ؛ ولكن خصومه تداعوا وتكاتلوا يعارضونه ويتهمونه بالثورة على الدستور ويندوون بلائحة استعمال القوة ؛ وراح هنرى كلى يقول إنه كان محقاً فى تخوفه من اختيار جاكسون الجندى لرياسة الاتحاد ... وهكذا تألفت فى الكونجرس جماعة قوية من الساسة تناضل جاكسون ...

وفى مثل هذا الجو العاصف تحدى الرئيس خصومه فى قضية أخرى اهتم بها الرأى العام أعظم اهتمام وهى قضية مصرف الولايات المتحدة ...

قضى على المصرف الأول الذى دعا إليه هاملتون والذى عارضه فيه جفرسون وذلك بعدم تجديد لائحة سنة ١٨١١ ؛ ولكن مصرفاً جديداً أنشىء سنة ١٨١٦ وما لم تتجدد لائحته فانه ينتهى سنة ١٨٣٦ ؛ ولكن جاكسون يكره هذا المصرف كما يكره جميع المصارف ولذلك يقف عقبة فى سبيل تجديد لائحته .

كان جاكسون يكره المصرف لأنه يضم عدداً كبيراً من رجال الحكم والسياسة ولأنه جزء من مال أجنبى ، وقر فى نفسه أن المصارف فتنة للناس ، وأداة لإفساد الضمائر والنفوس وخطر على روح الديموقراطية ؛ وشايع جاكسون الكثير من أهالى الولايات وعلى الأخص الغربية والجنوبية لأن معظم هؤلاء كانوا من المدينين للمصرف بينما كان أهل الشرق والشمال هم أصحاب الصناعة وأصحاب المال

وحمل خصوم جاكسون حملة عنيفة عليه ورموه بالجهل بالأمور المالية وقصر النظر ، ولكنه لم يعبأ بذلك كله وظل كالصخرة لا تنال منه العاصفة .

وقد كان لمعظم هؤلاء مصلحة شخصية فى بقاء المصرف ؛ حتى الوزراء أنفسهم قد انقسموا حزبين أحدهما يؤيد الرئيس والآخر يخالفه ، ووافق النواب على لائحة التجديد ووافق عليها الشيوخ ، ومعنى ذلك أن الكونجرس يؤيدها ، ولكن الرئيس على الرغم من ذلك يرفض اللائحة ثم هو يحذر الكونجرس فى رسالة بليغة مذكراً أعضاءه بمساوىء المصارف وأنها وسيلة لاستعباد طائفة من الشعب طائفة أخرى وبأن « أمواله الأجنبية أشد عداوة وأشد خطراً على الاتحاد من أسطول دولة معادية وجيشها » ؛ ويقطع جاكسون الطريق على المحكمة العليا التى صار لها بحكم التقاليد أن تفصل فى الخلاف الدستورى إذا نجم بين الرئيس والكونجرس فيصرح أنه يجب ألا تكون المحكمة العليا مهيمنة على السلطتين.

التنفيذية والتشريعية وإنما ينبغى ألا يكون لها من أثر إلا بقدر ما يكون فى آرائها من إقناع ، والحقيقة أن الدستور لم يبين ما إذا كان واضعوه قد قصدوا أن تكون للمحكمة العليا الكلمة النهائية فى دستورية القوانين أم لم يقصدوا .

وطمع هنرى كلى فى تأييد الرأى العام فدعا إلى عقد مؤتمر للدفاع عن المصرف سماه مؤتمر الهيوج وتألف حزب جديد بهذا الاسم جمع معارضى جاكسون ؛ ولكن ما كان أعظم دهشة هؤلاء الساسة وحيرتهم وقد حل موعد الانتخاب للرياسة سنة ١٨٣٢ أن يروا جاكسون يظفر هذه المرة على الرغم من نشاطهم بأغلبية تتضاءل أمامها تلك التى حصل عليها سنة ١٨٢٨ ، ورأى هؤلاء الناس عين اليقين أن الرجل الذى يؤيده شعبه لن تخذله قوة أو حيلة .

وكانت الانتخابات لمجلس النواب تجرى أثناء انتخاب الرئيس فجاءت أغلبية المجلس الكبرى فى جانب جاكسون ؛ أما مجلس الشيوخ فظلت فيه أغلبية من الهوج المعارضين ؛ وذلك لأن مجلس النواب يتجدد كل سنتين بينما يبقى مجلس الشيوخ ست سنوات !

وظل الشيوخ على عدائهم للرئيس حتى بلغ بهم الأمر أن قرروا توجيه اللوم رسمياً إليه ، ولكن حينما تجدد انتخاب الشيوخ ظفر جاكسون بأغلبية المجلس وغلب الهوج على أمرهم وسحب المجلس الجديد ذلك اللوم الذى وجه للرئيس وحذفه من المضبطة ؛ أما لائحة تجديد المصرف فقد رفضت وبات إلغاؤه أمراً مقضيا.

وقضى جاكسون ما بقى من مدة رياسته الثانية فى هدوء ؛ ولو كانت له شهوة للحكم كما ادعى خصومه لقبل رياسة ثالثة ولكنه آثر أن يفعل كما فعل وشنطون فرفض الترشيح على الرغم من إلحاح الشعب ، وذهب إلى عزلته حيث عاش تسع سنوات ثم قضى نحبه بعيداً عن السياسة وأعاصيرها ، وانقضت حياة الرجل الذى كتب بأفعاله صفحة مجيدة فى تاريخ أمريكا فوطد سلطة الشعب وقضى على سيطرة الفئة القليلة من السياسيين ، وأقام بنيان الاتحاد وقد أوشك أن ينقض ، وجعل سلطة الرئيس مستمدة من الرأى العام متمشياً فى ذلك مع روح الديموقراطية .

عضو فى مجلس إلينوى

فى سنة ١٨٣٤ تقدم لنكولن ثانية للناخبين وكان يومئذ قد ناهز الخامسة والعشرين ! وبعد جهود متصلة فاز إبراهام بأغلبية الأصوات فأصبح عضواً فى المجلس التشريعى لولاية إلينوى ؛ وكان ذلك فى رياسة جاكسون الثانية ولقد منحه بعض الديموقراطيين أصواتهم وهو هويجى وذلك لفرط محبتهم إياه ...

وكانت قاعدة الولاية مدينة ڤانداليا وهى على نحو خمسة وسبعين ميلا جنوبى نيوسالم وفيها ينعقد مجلسها التشريعى ، فكان على لنكولن أن ينتقل إليها فاقترض بعض المال ليشترى من الملابس ما يصلح لمن يمثل الناس فى المجلس التشريعى وبهذا أضاف بعض الجنيهات إلى دينه الأهلى !

وكان هذا المجلس يمثل نحو ربع مليون من السكان ويبلغ عدد أعضائه نحو ثمانين يجلس منهم الثلثان فى قاعة وهم النواب والباقون فى قاعة أخرى وهم الشيوخ .

وكان مقعد لنكولن بين مقاعد النواب ؛ ونظر عامل البريد ومخطط الأرض حوله يتطلع إلى زملائه ويقارن فى صمت بينه وبينهم ؛ ويذكر أنه قرأ كثيراً من الكتب وعنى بينها بكتب القانون وأنه سافر فى تجارة مرتين وأنه خبير بالطرق ومجارى الأنهار ، وأنه عليم بحال الناس فى مقاطعته منذ أن عمل فى البريد وفى تخطيط الطرق فهل يقل مرتبة عن هؤلاء السادة الذين يجلسون حوله ؟ إنه يفسح لهم ويقدمهم على نفسه ويخفض جناحه لهم جميعاً ، وينصت إلى مناقشاتهم فى صمت ، لا يقاطع ، ولا يدفع بنفسه إلى الظهور كما يفعل غيره ، ولكن مرد ذلك كما يحس بينه وبين نفسه إلى خلقه لا إلى تهيبه أو فقدانه الثقة فى نفسه .

وهو مغتبط أن يرى لوناً جديداً من الحياة وبيئة جديدة من المجتمع ، وإنه ليفكر ويتدبر ويدير عينيه إلى كل شىء ويختزن فى رأسه كل شىء ، وإن طول قامته ليلفت إليه الأبصار أينما ذهب . على أنه أخذ يجتذب القلوب كذلك بشىء يلازمه أبداً وذلك هو ما يقص من أنباء وما يروى لجلسائه من قصص ...

وهو فى السياسة وأساليبها معجب بهنرى كلى وما أوتى من مهارة وكياسة

وعلى الأخص فى تقريب مسافة الخلف بين المتخالفين ، فما ينشأ خلاف إلا كان هنرى صاحب اليد الطولى فى إزالة أسبابه ؛ وإنه كذلك لخطيب يقل أنداده ، ثم إنه رجل برلمانى يتمنى الرجال أن يكون لهم مثل ما أوتى من لباقة وفصاحة ، وما توافى لى من قوة عارضة وبلاغة بيان ومهارة جدل ...

أما من حيث المبدأ فهو وإن كان من الهوج إلا أنه يحب جفرسون حباً عميقاً ويعجب بإخلاصه فى ديموقراطيته وبشدة وطنيته وصادق حرصه على بناء الاتحاد وعميق إيمانه بالشعب ومبدأ سيادة الشعب ؛ وهو يكبر جاكسون ولكنه يحس بشىء من القلق يشبه الكراهية إزاء بعض تصرفاته فهو وإن كان يستند فيها إلى الشعب إلا أنه يشعر المرء بما هو أقرب إلى الأساليب الديكتاتورية .

ثم اتضح من خلال إبراهام فى المجلس ماعطف عليه القلوب ؛ رأى منه زملاؤه الإخلاص والحماسة فى غير تعصب فهو يدافع عما يعتقد أنه الصواب فى قوة وفى إصرار يشبه أن يكون عناداً ، فما أن يتبين الحق فى جانب مجادله حتى يسلم له فى سرعة تسليم الرضاء والغبطة ؛ وأنس فيه زملاؤه فوق ذلك قوة فى التعبير عما يريد كان مبعثها لقانة عجيبة تواتيه بالكلمة المطلوبة لا تزيد ولا تنقص عما فى خلده من معنى ، وتلك خلة ستكون فى غد جانباً من أهم جوانب زعامته .

وكان له على شهود جلسات المجلس أجر يعادل ما كان يناله من عمله فى تخطيط الأرض ، وهو لم يزل يؤدى ذلك العمل ، وكان هذا كفيلا أن يكفيه عسر الحياة لولا ما أثقل كاهله من الدين .

ولم يجد الفتى من أعضاء المجلس ما يهزه هزة إعجاب أو محبة وقل فيهم من تعجبه فصاحته أو كياسته . بيد أنه يرى فى صفه رجلا يكاد يكون على نقيضه فى كل شىء ، رجلا ربعة عريض المنكبين أنيق المظهر ؛ جم النشاط لا يكاد يستقر فى موضعه ، طموحاً يدس أنفه فى كل شىء ويجادل فى كل أمر ، وذلك هو دوجلاس ، وإن إبراهام ليحس أن سيكون لهذا الرجل فى غد شأن فى السياسة عظيم ...

وكان إبراهام يزور نيو سالم كلما سمح له وقته وهو اليوم يحب آن كما يكون الحب ، فلقد أكبرته وأعجبت برجولته إذ ظل على ولائه لها . بينما هجرها خاطبها

واحد بعد الآخر لا نزل بأبيها من فاقه ، وسرعان ما أحبته كأعظم ما يكون الحب ، وألفى إبراهام نفسه فى ربيع العيش حقا لا يرى حوله إلا جمال الربيع ولا يحس إلا نشوة الربيع ، يروح ويغدو مع صاحبته وكأنهما من فرط مرحهما طائران من طيور الخمائل ... ولكن الربيع وا أسفاه لن يطول بل إنه لينقلب فى مثل عمر الزهر إلى جحيم ! ... نزلت الحمى كما نزلت من قبل وهو غلام فى كنطكى وحلت بجسده فتغلبت عليها قوة ذلك الجسد ولكنها مست صاحبته فلم تقو عليها فكان من ضحاياها طائره الجميل .. وبات الفتى والحزن يرمض قلبه ويأكل أحشاءه؛ ويتلقى الصدمة الثانية بعد فجيعته فى أمه فكأنها الضربة تأتيه فى مقتل ! لقد وهنت عزيمته وخارت قوته وذوى عوده القوى ، وصار يراه الناس أحياناً هائماً على وجهه يهذى كأن به جنة ، حتى نصح له طبيب أن يرحل فنزل ضيفاً عند أسرة صديقة كانت تقيم بعيداً عن نيو سالم ؛ ولكن همه لازمه إلى هناك حتى لقد شاطره ذات ليلة نفر من جلسائه حزنه حين سمعوه يصرخ من أعماق قلبه « لا . لا أطيق أن أذكر أنها ترقد هناك وحدها حيث ينزل المطر فوق قبرها وتصخب العاصفة ! »

ولكن اليأس يسلمه ثانية إلى الحياة حيث لا معدى عن الحياة ولا حيلة فى البلوى ! ويحل موعد الانتخابات للمجلس وقد ازداد الناس محبة له وإكباراً وازداد هو خبرة واكتسب أنصاراً ، وأظهرته الانتخابات هذه المرة خطيباً كأحسن ما يكون الخطيب فى مثل هذه السن، وبرزت روح فكاهته وتهكمه اللاذع فكانت من أسباب قوته ؛ قام يحمل عليه أحد خصومه من الحزب الديمقراطى، وكان قد حصل بتغييره مبدأه السياسى على مرتب سنوى كبير ، وقد علم الناس أنه كان يقيم فى منزل أنيق فى مدينة سبرنجفيلد فى قمته حديدة لمنع الصواعق وكانت بدعا يومئذ وترفا ؛ وأسرف هذا الخصم فى الطعن على إبراهام وأعلن فى خطابه أنه لن يستقر إلا أن يحط من قدره فى أعين الناس ونفوسهم ، وأشار إلى حداثته وجهله وسخر من ملبسه وهيئته ونشأته وبالغ فى الزراية عليه ، ووقف ابن الأحراج يرد عليه فقال : « إنى أدع لكم أيها المواطنون أن تقرروا ما إذا كنت أهلا لأن ترفعونى أو تحطوا من قدرى ؛ رأى هذا السيد أن يشير إلى حداثة سنى ولقد نسى أنى لست صغير السن صغرى فى ألاعيب الساسة وتجارتهم . إنى أحب أن أعيش كما أحب

أن أرق وأصبح ملحوظ المكانة ، ولكني أفضل الموت على أن أحيا فأرى اليوم الذى أصنع فيه ما صنع ذلك السيد فأغير مبدأى من أجل ثلاثة آلاف دولار فى العام ثم لا أستطيع أن أنام فى منزلى إلا أن أضع فى قمته مانعة للصواعق أحمى بها ضميراً آثماً من غضب إله ساخط » ... وضج الجمع بالضحك وصاروا بعدها لا يرون هذا الرجل إلا أشاروا إليه قائلين : هذا هو الذى لا يستطيع أن يرقد فى بيته إلا فى حماية مانعة تمنع الصواعق يخشى أن يصبها الله عليه ...

وبرهن إبراهام على نضجه السياسى المبكر فى رد كتبه إلى صحيفة طلبت إلى المرشحين أن يبينوا مناهجهم ، جاء فيه « سأسعى حتى يفوز جميع من يدفعون الضرائب ويحملون السلاح من البيض بحق الانتخاب لا أستثنى من ذلك النساء بأى حال ، فإذا انتخبت فسأعد أهل سنجمون جميعاً هم مرسلىّ سواء من اختارنى منهم ومن لم يفعل ، وحينما أعمل فى المجلس نائباً عنهم سوف أصدر فى عملى عن إرادتهم فى كافة الأمور التى أستطيع أن أعرف إرادتهم فيها وفى غير ذلك سأسير وفق مايمليه على تقديرى مراعياً مصالحهم أبدا ، وسواء انتخبت أم لم أنتخب فأنى أؤيد بيع الأراضى العامة للولايات المختلفة كما أعين الدولة فى مشروعات حفر القنوات ومد طرق الحديد بغير أن تقترض مالا تدفع عنه أرباحاً » .

وتقدم ذات مرة أثناء المعركة الانتخابية خصم آخر من الديموقراطيين أنيق الملبس بدين فعرض بالهوج وسماهم أرستقراط الاتحاد وبينما هو فى كلامه إذ فتحت حلته فكشفت عن سلسلة ذهبية على صداريته ، وأختام ودوال من الذهب وغيرها من وسائل الزينة ، فوثب لنكولن وأشار بيده إلى ملابسه هو التى لا يعلق بها إلا طيف البلى وأمارات القدم وقال وقد وضع كفه على صدره هذا هو رجلكم الأرستقراطى أحد لابسى الجوادب الحريرية الترفين » ... ثم بسط كفيه ماداً ذراعيه إلى جانبيه وقال وهو يومى برأسه إلى كفيه الكبيرتين اللتين تركت فيهما الفأس أثرها: « وهاهما هاتان يدا بارونكم البيضاوان الناعمتان ... حقاً إنى أعتقد كما قال ذلكم السيد أنى أرستقراطى نفختهُ العظمة والكبرياء » .

وكتب لنكولن فى تلك المعركة إلى أحد الديموقراطيين رداً على إشاعة أطلقها عنه فقال « أنبئت أنك أذعت فى الناس أثناء غيابى فى الأسبوع الماضى أن لديك

أصبح ملكاً للزمان ودخل فى التاريخ

حقيقة أو حقائق لو اطلع عليها الناس لقضت قضاء مبرما على أملى وأمل ن . إدوارد فى حركة الانتخابات القائمة ، ولكن تأبى عليك مجاملتك إيانا أن تعلنها . وأنا أقول لك إنه ما من شخص يطلب الجميل كما أطلب ؛ كذلك قل فى الناس من يتقبل الجميل كما أتقبل ؛ ولكن الجميل إلى فى مثل هذه الحال معناه الجور فى حق الناس ، ولذلك فأنى أستميحك أن تنصرف عنه ؛ إن حيازتى ثقة أهل سنجمون ذات مرة أمر مقرر ؛ فإذا كنت أتيت أمراً يحرمنى إذا عرف ، تلك الثقة ، سواء كان إتيانه عن إصرار أو عن خطأ ، فأن الذى يعرف هذا الأمر ثم يخفيه إنما يخون صالح بلاده ، وليس يقوم بذهنى شيء عما عساه أن تكون الحقائق التى تتحدث عنها واقعية كانت تلك الحقائق أو مزعومة ، بيد أن ما أعهده فيك من الصدق لا يسمح لى برهة أن أشك فى أنك على الأقل تعتقد ما تقول . إنى أرانى مدينا لك بهذا الاعتبار الشخصى الذى أبديته نحوى ، ولكنى آمل أن ترى إذا ما تأملت ثانية أن صالح الناس أهم من ذلك . وعلى هذا فلا تتحرج أن تعلن الحق . وأؤكد لك أن ذكرك ما لديك من الحقائق فى صدق وأمانة لن يفصم ما بينى وبينك من عرى الصداقة مهما بلغ ما ينالنى منه ؛ هذا وإنى أرجو أن يأتينى رد منك على كتابى هذا ولك الحرية أن تنشر الكتابين إذا أردت » .

اقرأ هذا الكتاب تر كيف يملك إبراهام قلوب الناس بأمانته ودماثته وإخلاصه ثم انظر إلى قوة حجته وروعة منطقه وحسن دهائه ، وتأمل فى أدبه وتحشمه وهو فى موقف من يرد الأهانة عن نفسه ... تلك لا شك مزايا تسلكه فى أحرار الشمائل وعظماء النفوس . .

وفاز لنكولن ثانية فى الانتخاب وحق له أن يفوز ؛ وكان له فى المجلس أصدقاء منهم ثمانية كانوا مثله فى طوله القامة وكانوا يجلسون رفقة فعرفوا باسم التسعة الطوال وكان إبراهام أطولهم فى المعرفة باعا وأعلاهم فى الخلق مقاماً فلقد ظهرت صفات ابن الغابة لهم فى وضوح فأعجبوا بأمانته ودماثته وبعد نظره ، وفتنهم بلاغته وأسلوبه فى الحوار والجدل ، وهم يغبطونه على سعة صدره وشجاعته وصراحته ويحمدون له رقة عاطفته وشفقته وسلامة طويته ، وإنهم فوق ذلك يلذهم حديثه وتطربهم أقاصيصه وتأسر قلوبهم مودته وإنه ليقرأ اليوم قراءة منتظمة فقد

من العهد الذى كان يتناول فيه أى كتاب يصادفه ؛ هو اليوم يقلب صفحات التاريخ فليس ألزم منه فيما يرى لرجل السياسة ، وهو يستزيد من القانون نصوصه وفقهه ، وهو يدرس حال أمريكا من جميع نواحيها ويطيل النظر فى تاريخ ساستها وفى مناهجهم فى الإصلاح وأساليبهم فى توطيد سياستهم ، يستوعب ذلك كله لا يفوته منه شىء . . .

وحدث فى هذه الدورة أن أصدر مجلس إلينوى قرارات يؤيد بها قرارات مثلها أصدرتها بعض الولايات المتمسكة بامتلاك العبيد ؛ فغضب إبراهام وعادت إليه ذكرياته القديمة عن العبيد وسوء حالهم ، وكان فريق من ذوى الرأى يومئذ يندددون فى الصحف بهذا النظام وينعتونه بالقسوة والظلم ومجافاة الإنسانية ، ولكن ولاية إلينوى تؤيد النظام وتحبذه ويعلن كثير من أهليها أنه يمكن الاعتماد على ولايتهم فى توطيد هذا النظام ومحاربة من يودون القضاء عليه من أهل الشمال .

بيد أن إبراهام لا يستطيع أن يكتم فى نفسه رأياً يرى الحق فى إعلانه ، لذلك قدم هو وزميل له من التسعة الطوال احتجاجاً شديداً على قرارات مجلس الولاية بقسميه ونشرت الصحف هذا الاحتجاج الجرىء ، وأشفق بعض خلصاء لنكولن من أثر هذا القرار على مستقبله السياسى ، ولكنه الرجل الذى ينظر إلى الصالح العام قبل أن ينظر إلى صالح نفسه وإنه لأهون عنده أن يناله الضر من أن يتنكب طريق الحق ؛ على أن أهل مقاطعة سنجمون التى انتخب عنها يتلقون نبأ احتجاجه لقاء طيباً فيثنون على إبراهام لأنهم يعلمون أنه لا يقول إلا ما يؤمن أنه الحق كما أثنى أهالى الجنوب على اعتداله وتحفظه .

ويضيق ابن الغابة أحياناً بمكر رجال السياسة وألاعيبهم فهم يتقنون المساومة والمخادعة ويخفون أطماعهم الشخصية وراء الكلمات البراقة والبيان الخلاب ، ولا يعطون إلا بقدر ما يأخذون ، إذا وافقوا اشترطوا ما يحقق مآربهم ، وإن خالفوا فذلك ليشتروا بخلافهم ما يريدون ؛ تجلت له صفاتهم فى أمر لم يظن أن لأحد فيه مصلحة شخصية ، وذلك أن رغبة كثير من الناس اتجهت إلى نقل قاعدة الولاية إلى مدينة سبرنجفيلد وذلك لقربها من العمران وطرق المواصلات ، وأيد فريق من

أعضاء المجلس ومنهم إبراهام هذه الرغبة ، ولكن فريقاً منهم يخالفونها ويجتهد إبراهام وبعض أصحابه فى حمل هؤلاء على الموافقة ، ولكنهم يساومون ويشترطون موافقة إبراهام وأصحابه على أمور أخرى ثمناً لموافقتهم على هذا الرأى ، ولا يسع ابن الكوخ إلا أن يشير إلى مثل هؤلاء الساسة مرة في عبارة شديدة لاذعة قال : « هذا صنيع الساسة وهم فريق من الناس نرى أبداً لهم مآرب بعيدة عن الصالح العام ، ونرى كثيراً منهم يبتعدون بهذا خطوة طويلة عن الأمناء من الرجال ؛ إنى أقول ذلك بكل صراحة لأنى وأنا سياسى كذلك لا يمكن أن يُحمل كلامى على أنه يراد به طعن شخصى » .

وتغلب أخيراً رأى لنكولن وأصحابه وتقرر نقل القاعدة إلى سبرنجفيلد وعد هذا انتصاراً له فقد جاهد من أجله جهاداً متصلا ...
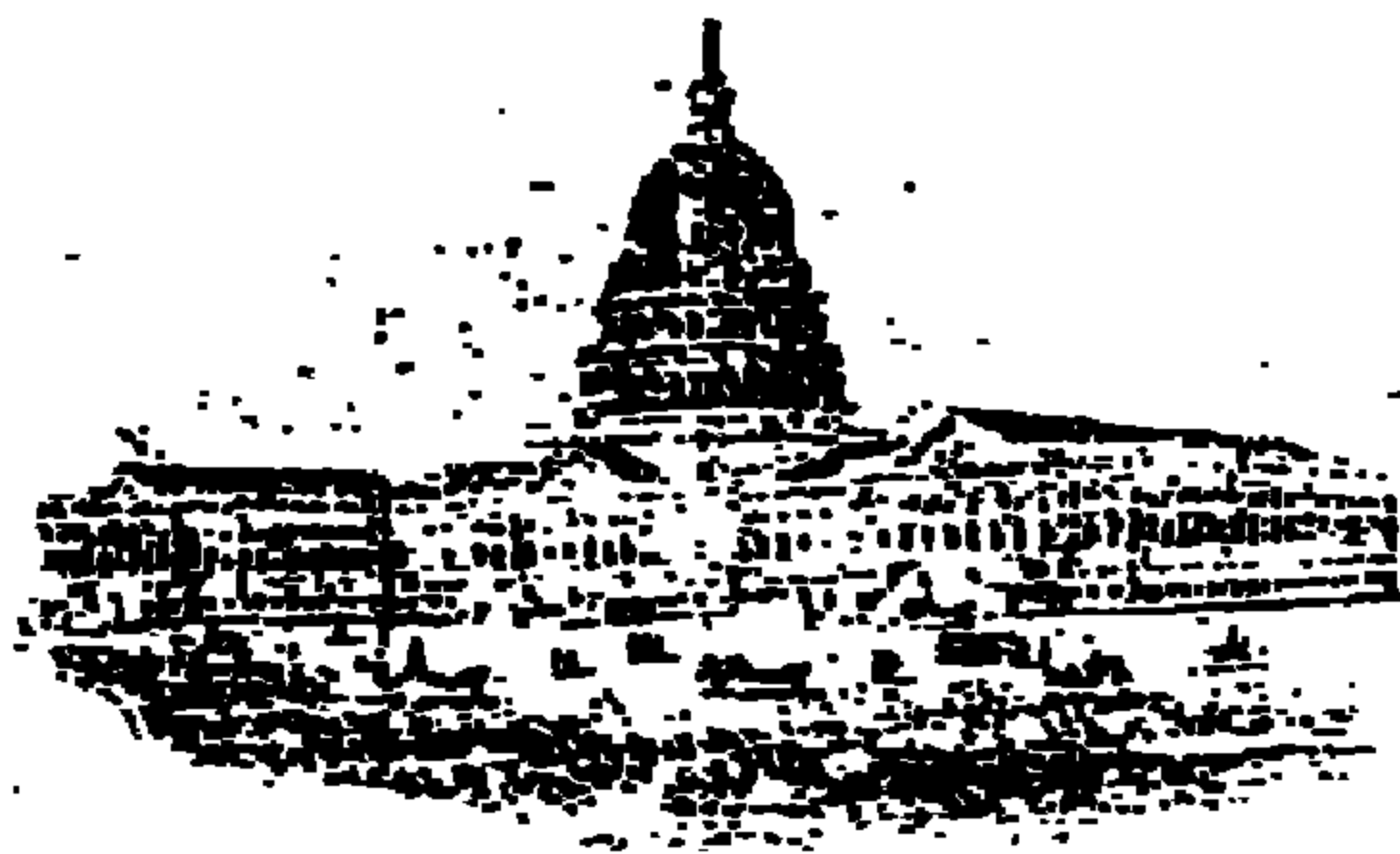
في سبرنجفيلد

دخل إبراهام مدينة سبرنجفيلد على جواد هزيل استأجره ، يحمل كل ما يملك من متاع الدنيا فى جوالق صغير ذى ناحيتين وفى جيبه مبلغ لا يزيد عن سبعة دولارات وكاهله لا يزال مثقلا بما سماه الدين الأهلى !

دخل هذه المدينة وهو اليوم ابن ثمان وعشرين كما دخل مدينة نيو سالم قبل ذلك بنحو سبعة أعوام ، لايدرى أين يتخذ مأواه أوعلى الأقل أين يلقى رحله لساعته.

وكانت المدينة يومئذ آخذة فى الاتساع والنمو ، بيد أنها كانت لا تزال تعلق بها مسحة من الغابة إذ كان منبتها كغيرها أول الأمر وسط الأحراج وكان لايزال بها عدد كبير من المنازل أو الأكواخ المتخذة من الكتل الخشبية ؛ على أن مبانى جديدة من الآجر كانت آخذة فى الظهور يوماً بعد يوم وبها أخذت المدينة كصاحبنا أيب تخلع عنها ما تخلف فيها من حياة الغابة شيئاً فشيئاً .

ربط إبراهام جواده إلى عامود على جانب أحد الشوارع وحمل خرجه على ذراعه واتجه إلى حانوت يملكه رجل من أهالى كنطكى يدعى سپيد فسأله أيب عما يلزم من المال لشراء سرير وفرش فلما أخبره الرجل أن ذلك يكلفه سبعة عشر دولاراً أخذته حيرة شديدة وقال له وفى نظرات وجهه أمارات الهم والربكة ، « إن هذا ثمن رخيص ولكنى مع ما يبدو من رخصه لا أستطيع أن أدفعه إذ ليس لدى مال ؛ بيد أنى سأحترف المحاماة ولى فى الربح أمل فهل تمهلنى إلى عيد الميلاد القادم ؟ » وأطرق إبراهام قليلا ثم أردف قائلا « وإذا أنا عجزت يومئذ عن أن أؤدى لك حقك فلست أعلم ما إذا كنت أستطيع أن أؤديه لك أبداً » .

وكان الرجل طيب القلب فتملكته الشفقة على هذا الغريب الذى لايجد مأوى والذى يبدو له من أمانته بقدر ما يبدو من فاقته ، فقال سپيد « اصعد إلى حجرتى فوق الحانوت فستجد سريراً كبيراً يسع شخصين وأنا أعرض أن نقتسمه إذا أحببت » ؛ وصعد إبراهام إلى الحجرة وعاين السرير ونزل وعلى وجهه أمارات الرضا وفى قلبه شعور الغبطة بهذه الصداقة الجديدة التى سوف تقوى على الأيام ...

كان إبراهام مزمعاً أن يتخذ من المحاماة مرتزقاً فقد اعتزم أن يترك العمل فى البريد وفى تخطيط الأرض منذ أن هم بالرحيل إلى سبرنجفيلد ، فأقبل على كتب القانون يستزيد منها علماً ، وكان يميره بعض الكتب محام فى المدينة يدعى ستيوارت وما لبث أن رأى ستيوارت من ذكاء صاحبه وطيب سريرته وحسن طويته ما دعاه إلى أن يشركه معه فى العمل ولم يكن ذلك يستدعى يومئذ امتحاناً أو شهادة خاصة وقبل إبراهام مغتبطاً ، يحس كأن الأيام توشك أن تبسم له بعد تجهم طويل ، فله اليوم فى السياسة مجال وله فى المحاماة مجال ...

ولكن هناك من الأمور ما لا يزال يكدر خاطره ويكرب نفسه وذلك ما كان من غرامه الثانى إن جاز لنا أن نسمى علاقته الجديدة بعد موت آن غراماً والحق أن هذا الجانب من حياة أيب ، جانب علاقته بالمرأة ، أمر يدعو إلى العجب حتى ليحمله المرء على ما كان من شذوذه فى بعض أموره أكثر مما يحمله على ما كان من حصافته فى معظم الأمور .

عرف لنكولن فيمن عرف من أهل نيو سالم امرأة كانت تضيفه أحياناً فتحسن ضيافته وظل يغشى منزلها زمناً حتى أصبح كأنه من أهلها ؛ وحدثته تلك المرأة فيما حدثته عن أخت لها غائبة ألقت عليها من الصفات ما تبتكره أخت حين تبحث لأختها عمن يطلب يدها ؛ وورد عليها إبراهام مرة وهو لا يدرى أمازح فيما يقول أم جاد إنه يرحب بالزواج من تلك الأخت إذا قبلت ولما عادت كانت تجلس إليه ويجلس إليها .

وصور له خياله أن كلمته ميثاق لن يسمح له ضميره أن يتحلل منه ، ولكنه فى حيرة دونها كل ما سلف له من حيرة فأنه لا يحس فى قلبه نحوها مثل ما يحسه المرء حين يعر به طائف من الحب وهو مع ذلك لا يستطيع أن يقطع أنه لا يحبها ... إنها تعجبه بذكائها وما علمت من علم وما امتلكت من متاع ، وإن لم يكن كثيراً وهو قد قطع على نفسه عهداً أو ما يشبه العهد ، ولكنه لا يدرى إن كان يحبها حقاً كما يكون الحب أم أن فراغ قلبه بعد موت آن قد جعله يركن إليها ظاناً أنه الحب !

إنه لحائر ضائق بأمره فلعل ما هو فيه اليوم من أمور السياسة ومن شؤون

عمله الجديد فى المحاماة ما يصرفه حيناً عن هواجسه ووساوسه …

ذهب إيب ليبدأ عمله الجديد وهو ذلك العمل الذى طالما تاقت نفسه إليه ، وإن فرحه بهذا العمل الذى منى به نفسه كثيراً وهو بين الأحراج لخليق أن يذهب عنه الحزن ويدرأ عن نفسه الضيق . أوليس يغدو محامياً يدافع عن المظلومين ويملأ قلوب الناس إعجاباً بفصاحته كما ملأ قلبه مرة ذلك المحامى المدل الذى ازدراه يوم تقدم ليهنئه وهو بعد غلام حائر بين الفأس والكتاب ؟

وكانت الحجرة التى اتخذها ستيوارت لعمله ضيقة بها رفوف للكتب ، تزدحم بالكثير منها ، وبها منضدتان وبعض الكراسى الخشبية الجافة وأوراق مبعثرة فى كل ركن ، وكان إبراهام أول الأمر يعمل عمل الكاتب ويقابل أصحاب القضايا وينسخ المحاضر ويرتب المواعيد ، وكان ذلك يضايقه بعض الضيق ولكنه كان يحظى بشهود الجلسات فيذهب عنه ضيقه .

ثم ترك له ستيورات ما خف من القضايا ليترافع فيها ففرح المحامى الناشىء بهذا فرحاً شديداً وأقبل على عمله فى همة وسرور بالغين …

وانبعث دستوره فى المحاماة بادىء الأمر من أعماق نفسه ، فهو دستور قائم على توخى الحق والدفاع عنه ونصرة المظلومين والأخذ بيد المستضعفين؛ كان لا يقبل قضية لا يقتنع بصدقها مهما أجزل له من أجر ؛ وكان لا يقرب قضية يعلم أن الدفاع فيها يجنى على الخلق من قريب أو بعيد ؛ وكان أسلوبه فى المحاماة كذلك صورة لنفسه فهو لا يعرف اللجاج ولا المطاولة ولا يلتوى فى أمر أو يخفى فى نفسه شيئاً إلا إذا كان ذلك لستر عرض أو حفظ كرامة ، ولن يكون للمجاملة عنده حساب إذا ترتب عليها إساءة إلى فضيلة أو انتقاص من عدل .

وخفت وطأة الأيام عليه بعض الشىء فكانه فى المحاماة وهو بعد لم يتجاوز الثامنة والعشرين ينبىء عن مستقبل عظيم ، ومكانه فى السياسة قد جعله رأس حزبه فى المجلس وهو كما مر بك حزب الهوج ، وقد أخذ المجلس يتسع حتى أصبح عدد أعضائه ثلاثين ومائة بعد أن كانوا ثمانية ، وهو فضلا عن ذلك حبيب إلى أهل سبرنجفيلد لما كان له من يد فى نقل المجلس إليها وجعلها قاعدة الولاية ، وهم قد أنسوا من خلاله فى السياسة والمحاماة ما اجتذب قلوبهم إليه وما جعل اسمه الذى

عرف به فى نيوسالم يجرى على ألسنتهم فهو بينهم أيب الأمين ؛ ولقد توثقت المودة بينه وبين الكثيرين وعلى الأخص سبيد صاحب الحانوت ...

كان من أحب الساعات إليه تلك التى يجتمع فيها بنفر من حزبه فى حانوت سبيد فيديرون الحديث بينهم فى السياسة وقضاياها والاصلاح العام وما تتطلبه البلاد منه ؛ ومن الجماعة من سيكون لهم شأن كبير فى سياسة بلادهم ؛ ولقد كان ممن يختلفون إلى ذلك المنتدى فى الحانوت دوجلاس الديموقراطى ، ذلك القصير الماكر الطامح الذى اشتهر بحدة ذكائه ولباقته والذى عرف بالأثرة والغيرة والطمع فى عليا المراتب ، وكان ذلك القزم يغار من المارد الذى تجتمع عليه القلوب والأهواء ، فهل كان يدرك أنه سوف يكون العقبة الكأداء بينه وبين ما تطمح نفسه إليه ؟

ولم يكن نشاط لنكولن قاصراً على المجلس والمحكمة ، بل لقد كان نشاطه خارجهما باعثاً على الأعجاب جديراً بالثناء فهو حاث على الأصلاح بما يذيع من أحاديث داع إلى نشر الثقافة والعلم وهو ذلك النجار الذى كان يشق الأخشاب فى الغابة يشترى بالآلاف من شرائحها سروالا !

وكان إبراهام وزملاؤه يقرأون الصحف فى إمعان ويتتبعون أنباء السياسة فى شغف ولذة فإذا احتدمت المناقشة فى الحانوت وتضاربت الآراء حول أيب مجرى الحديث فى لباقة إلى الأمور المحلية ثم انتقل إلى نوادره وقصصه فراح يمتعهم بها متدفقاً فى غير توقف ، ثم إنه يتلو عليهم أحيانا بعض أشعاره التى كان يهدهد بنظمها نفسه الحزينة أو التى كان ينظمها حاثاً على الفضيلة كالذى فعل حين نظم قصيدة طويلة حول إغواء النساء .

وكان المحامون فى تلك الأيام ينتقلون من محكمة إلى غيرها على ظهور الخيل يحملون فى أكياس أوراقهم وأضابيرهم ومراجعهم ، كما كانوا يستصحبون أصحاب القضايا والشهود ؛ وكان القضاة يرافقونهم أحياناً إلى مقر المحاكم فى غدوهم إليها .

وفى مثل هذه الرحلات القصيرة كان يرهف أذنيه المحامى الناشىء أيب لنكولن إلى كل ما يدور من الأحاديث ، كما كان يسرح الطرف فى مجالى الطبيعة ، وفى دنيا الناس لا يفوته شىء يفيد منه علما أو عبرة أو يستخرج منه نادرة يتفكه بها

ويقصها على أصحابه ، وهو إنما يتعمق الحياة الإنسانية وإن لم يقصد إلى ذلك أو يشعر به . تخلف عن الركب مرة فسأل عنه زملاؤه فقال أحدهم لقد توقف حيث أبصر عصفورين قذفت بهما الريح من عشهما ولقد تركته وهو يحاول أن يرجع العش إلى نظامه ويضع العصفورين فى مستقرهما ولما سئل أيب عن ذلك قال « ما كنت لأستطيع أن أنام لو لم أرد العصفورين إلى أمهما » ، وتحدث ذات مرة إلى أصحابه ضاحكا من سذاجة شيخ لقيه فى الطريق وهو عائد من المحكمة وقد أعجب ذلك الشيخ بمهارة لنكولن إذ تعقب بأسئلته المحرجة لصاً اتهم بسرقة فراخ جاره ، قال الشيخ يستنكر ما فعل ذلك اللص « فى الأيام الماضية وهذه البلاد لم تزل فى طفولتها وأنا يومئذ أقوى منى اليوم ، لم أبال أن أسرق الغنمات أحيانا أما أن أسرق فراخا ... » .

وترك له زميله ستيوارت ذات مرة قضية على شىء من الأهمية أكسبته شهرة فى عمله إذ دار حديثها على الألسن أياماً ، وذلك أن أرملة أرادت أن تضع يدها على قطعة من الأرض تركها لها زوجها فتصدى لها مدع ينازعها الأرض وفاء لدين له على ذلك الزوج ، وكان المدعى من ذوى القوة والنفوذ ، وهال أيب أن يكشف أنه زور هذا الدين ، وغضب المحامى الأمين وتحمس لقضيته ؛ ثم إنه علم أن ذلك المدعى يدفع عن نفسه تهمة التزوير بدعوى أخرى هى أن الورقة المزورة ليست له وإنما دست عليه نكاية فيه ، وأنه صاحب حق فلا حاجة به إلى التزوير ، وكتب إبراهام فى إحدى الصحف مقالة غفلاء من التوقيع يفسر المسألة ويقضى على كل ما عسى أن تثيره من شبهات ، ولكن ما لبث أن عرف أنه كاتب المقال فغضب ذلك المدعى ورد عليه يعنفه ويأخذ الطريق عليه فكتب أيب يقول « وداعاً أيها السيد إلى اللقاء فى ساحة المحكمة هناك حيث نقلب المسألة على وجوهها وننظر هل تأخذ أنت الأرض أم تأخذها تلك الأرملة » ، واهتم الناس بهذه القضية وازدحمت قاعة المحكمة بنفر يشهدون دفاع المحامى الشاب ، وما منهم إلا من يعطف على الأرملة المسكينة ، وكسب أيب القضية كما كسب يومئذ إعجاب كل من رأوه .

خطيب

ما التمع اسم سياسي ولاطار ذكره إلا إذا رزق موهبة الخطابة وبقدر مايتوافق له منها يكون ذيوع صيته ونباهة شأنه . ذلك ما كان يحدث إبراهام به نفسه فى أواخر مدة عضويته الثانية فى مجلس الولاية .

وهو منذ حداثته لهج بالخطابة شغوف بالمثول أمام جمهور يستمع ، والخطابة بعد عدة المحامى كما هى عدة السياسى ؛ أوليس قوامها الفصاحة والإقناع ؟ إنه ليحس أنه قد أخذ يحسن الإفصاح عما فى نفسه ويجيد وسائل إقناع سامعيه ، وهو لم ينس ما كان من سالف مواقفه حين كان يحدث الناس فى الغابة فيظفر من رضائهم بقدر ما يلقى من غضب أبيه . بيد أن الناس هنا ليسوا كأهل الغابة وليس ما يصلح هناك من الكلام بصالح فى مدينة كهذه المدينة ، ولكن ألم يحز هنا فى المدينة قسطاً من رضاء الناس فى قاعة المجلس وفى ساحة القضاء ؟ إذاً فليس الذى يداخله من ثقة فى نفسه ضرباً من الغرور ، وحسبه أن تطمئن اليوم إلى ذلك نفسه ...

وسنحت لخطيب الغابة فرصة للخطابة ، فقد دعى ليلقى فى ناد من أندية الشباب فى سبرنجفيلد خطبة موضوعها : أنظمتنا السياسية وحفظها .

ووقف الخطيب وفى هندامه ووجهه وشعره الأشعث طيف الغابة ؛ والأنظار متجهة إلى قامته الطويلة ووجهه الذى تلوح عليه علامات التحمس لموضوعه ، والارتياح إلى ما أتيح له من فرصة .

وتكلم أول الأمر لم يجهر بصوته ولم يخافت به ، ثم علا صوته حتى كان له رنين قوى فى جوانب القاعة ، وأخذ الخطيب يومىء برأسه يؤكد بعض المعانى ويشير بقبضته أو بكفيه مبسوطتين ، وكانت تتشكل أسارير وجهه بما يلقى من قول فيعبس ويشرق وتفعل كلماته وإشاراته فعل السحر فى نفوس سامعيه ...

بدأ فوصف وطنه وثروته الطبيعية أحسن وصف ثم أشار إلى ما أتيح لهذا الوطن من نظم سياسية لا يطمع فيما هو خير منها وامتدح من أتاحوا له هذه النظم

الغالية من الزعماء . ثم ساق الكلام بعد هذا الاستهلال الرائع إلى ما عساه أن يتهدد هذا النظام من خطر فتساءل قائلا : « من أى ناحية ننتظر أن يدهمنا الخطر وما وسائلنا فى دفعه إن هو حل بنا ؟ أنتوقع الخطر على يد مارد عتى من مردة الحرب وراء المحيط يعبر هذا الخضم المترامى فيمحقنا بضربة منه ؟ كلا ! » ثم يتحمس الخطيب ويرفع صوته بقوله « إن جيوش أوروبا وآسيا وأفريقيا مجتمعة وفى أيديها خزائن الأرض وعلى رأسها مثل بونابرت لا تستطيع أن تنال جرعة من الأهايو ولو جاهدت ألف سنة ... فمن أى جهة يمكن أن يتهددنا الخطر ؟ إنى أجيب على ذلك بأنه إن كان ثمة خطر فإنه ينجم هنا بين أيدينا ؛ إذا كان الهلاك نصيبنا فنحن منشئوه ونحن إن أردنا مانعوه ؛ إننا يجب أن نعيش أبداً أمة حرة أو نقتل أنفسنا منتحرين ... وإنى لألمس اليوم نذير سوء بين ظهرانينا ذلك هو ما يتزايد من مظاهر عدم مبالاتنا بالقانون فى هذا البلد ... إن مثل هذه الظاهرة مخيفة كل الخوف فى أى مجتمع ، ولئن كان يؤذى شعورنا أن نسلم بوجودها فى مجتمعنا هذا فإن إنكار وجودها زلزلة للحق واتهام لذكائنا ...

إنى لأعلم أن الأمريكيين شديدوا التعلق بحكومتهم وأعلم أنهم يرضون أن يعانوا الكثير من أجلها كما أنى على علم بأنهم يتحملون المساوئ ويصبرون عليها طويلا قبل أن يفكروا فى استبدال حكومة أخرى بها ، ولكن على الرغم من ذلك فنحن إذا دأبنا على احتقار القوانين وعلى عدم اتباعها ، وإذا رأى الناس أن حقوقهم فى ضمان أنفسهم وأملاكهم ليس ما يمسكها إلا أهواء الغوغاء فإن نفورهم من الحكومة هو النتيجة الحتمية عاجلا تم ذلك أو آجلا ...

هنا إذن موطن من مواطن الخطر ، وإنى لأعود فأسأل كيف نتوقى هذا الخطر ، والإجابة على ذلك يسيرة : ليقسم كل أمريكى ، كل عاشق للحرية ، كل ذى نية طيبة نحو أعقابنا ، ليقسم كل بما جرى فى الثورة من دماء ألا يتعدى قوانين البلاد فى أية جزئية منها ، وألا يسمح للغير بتعديها ، وليفعل اليوم كل أمريكى فى حرصه على القانون والدستور ما فعله رجال سنة ١٧٧٦ فى تعضيدهم حملة الاستقلال ، وليضح كل فى سبيل ذلك بحياته وشرفه الذى يقدس وجميع

ما ملكت يداه ، وليذكر كل فرد أنه إن اعتدى على القانون فإنما يطأ بقدميه دماء آبائه ويمزق عهد حريته وحرية أبنائه ، لتتحدث كل أم فى أمريكا إلى ابنها الذى يلثغ لاعباً فى حجرها حديث احترام القوانين ، وليُعَلَّم ذلك فى المدارس والمعابد والكليات ، وليكتب ذلك فى كتب الهجاء وفى كتب الابتداء وفى صفحات التقويمات ، وليوعظ به من منصات الوعظ ، وليعلن فى ساحات المجالس التشريعية ، وليُحمل بالقوة على احترامه فى دور العدالة ، وفى الجملة يجب أن يكون ذلك للدولة دينها السياسى » .

وعاد الخطيب يذكر زعماء الحرية الأولين ويمجد ذكراهم ويشير إلى بطولتهم إلى أن قال : « لقد كانت العواطف قبل عوناً لنا ولكننا لن نركن إليها اليوم ، ولسوف تكون فى المستقبل عدواً لنا ، ألا لتكن الحكمة الباردة الحاسبة التى لا تعرف العواطف هى التى تمدنا بما يلزم لنا فى مستقبلنا من أسباب القوة والدفاع إن فى النابهين الطيبين من الناس ممن تتوفر فيهم الكفاية لأن يحسنوا أى عمل يوكل إليهم ، كثيرين لا تمتد أطماعهم إلى ما هو أبعد من مقعد فى المؤتمر أو منصب فى الحكومة أو بلوغ كرسى الرياسة ، ولكن هؤلاء لا ينتمون إلى أسرة الضراغم ولا إلى جماعة النسور . واها ! أتظنون أن مثل هذه المناصب تملأ عين اسكندر آخر أو قيصر ثان أو نابليون جديد ؟ كلا ! إن العبقرية الشامخة لتحتقر الطريق التى وطئتها الأقدام من قبل ... إنها تبحث عن مواطن لم تكشف بعد ، أنها تظمأ وتتحرق إلى ما يميزها عن غيرها ، وإذا أمكنها أن تصل إلى ذلك فعلت ما يميزها إما بتحرير العبيد من الناس أو باستعباد الأحرار . أليس من المعقول إذاً أن نتوقع ظهور رجال من هذا الطراز بين ظهرانينا ؟ رجال توافى لهم من العبقرية فى أكمل صورها بقدر ما توافى لهم من الطموح الذى يدفعون به هذه العبقرية لتمد مدها ؟ وإذا قدر لرجل من هؤلاء أن يظهر فسوف يحتاج الأمر إلى ترابط الناس بعضهم ببعض وتعلقهم بالحكومة وبالقوانين وأن يكونوا على قسط من الذكاء ليحولوا بينه وبين أطماعه الشخصية إذا اتجه هذا المتجه ... » .

أنى لابن الغابة ربيب الفقر والعسر هذا كله ؟ ألا إنها العبقرية تستعلن فى

الخطابة وإن خفيت فى الحديث العادى أو القصة الوادعة ، وماذا يريد لنكولن بإشارته إلى العبقرية الشامخة وما تتطلع إليه ؟ هل كان يرسم لنفسه ما يجب أن يفعله فى غده ؟ أكان يبحث عما يميزه ؟ أكان يدرك أو يحس يومئذ أن له من عمله فى غد ما هو حرى أن يملأ عين اسكندر آخر أوقيصر ثان أونابليون جديد ؟

وذاعت فى المدينة هذه الخطبة فأضافت إلى شهرته شهرة ؛ وها هو ذا ينتخب للمرة الثالثة عضواً فى المجلس التشريعى وهو فى التاسعة والعشرين وإنه ليطول باعه فى المحاماة وترسخ قدمه فى السياسة ويعلو كعبه فى الخطابة .

وفى مدة عضويته الثالثة كان الخلاف فى المجلس صدى للخلاف فى الولايات جيماً بين الديموقراطيين والهوج ، وكان زعيم الديموقراطيين فى مجلس إلينوى ذلك القزم الماكر دوجلاس ، وكان ينهض للدفاع عن سياسة فان بيرن الرئيس الديموقراطى الذى خلف جاكسون فيبدى نشاطاً ومهارة ولباقة وكان الديموقراطيون هم الحزب الغالب فى المجلس ؛ وكان لنكولن زعيم أنصار هنرى كلي من الهوج ولكن أصحابه كانوا فى المجلس أقلية ...

ودأب دوجلاس على مناوأة لنكولن فى كل أمر وكانت له مواقف يظهر فيها عليه بسرعة خاطره ومهارة انتقاله من فكرة إلى فكرة ومن قضية إلى قضية ولكن إبراهام كان المتفوق الظافر إذا كان الأمر أمر إخلاص أو أمانة أو بعد نظر أو دقة تحليل .

وأظهرت هذه المساجلات السياسية جانباً من جوانب موهبته الخطابية ، جانب الشجاعة الأدبية التى تنطقه بما يريد أن يقول فى غير تهيب ولا التواء فى لهجة حماسته ، وفى بلاغة عبارة وحسن أداء .

عير أحد الديموقراطيين حزبه بقلة عددهم وبضياع أملهم فالتفت إليه إبراهام قائلا : « وجه هذا الجدل إلى الجبناء والعبيد أما أن توجهه إلى الأحرار البواسل فليس يجديك ذلك فتيلا ؛ لقد فقدت دول حرة كثيرة ما كان لها من حرية وربما فقدت دولتنا كذلك حريتها وإذا قدر لها ذلك وكان ما يتفاخر به غيرى أنه كان آخر من ترك نصرتها فليكن أعظم ما أفاخر به أنى لم أترك تلك النصرة أبداً » .

وقال فى موقف آخر وقد اشتم تهديداً موجهاً إلى خصوم ڤان بيرن على لسان أنصاره من الديموقراطيين ، كما علم بأنباء اضطهادهم بغير حق « أما أن أنحنى لمثل هذا فذلك ما لن أفعله أبداً ... وإنى هنا أمام الله وفى وجه العالم كله أقسم يمين الولاء لقضية الحق ، قضية البلاد التى فيها حياتى وفيها حريتى ولها محبتى ، وإن هذه القضية التى اعتنقناها بعقولنا وقلوبنا لن تجد منا الهوينا فى الدفاع عنها ، فى المحنة أو فى الأغلال أو بين براثن الموت » .

وفى سنة ١٨٤٠ بدأت المعركة الانتخابية للرياسة بين الديموقراطيين والهوج ، وكان مرشح الديموقراطيين ڤان بيرن إذ أرادوا تجديد انتخابه ؛ أما الهوج فكان المفهوم من أمرهم أنهم يرشحون هنرى كلاى جرياً على سياستهم القائلة بأنه يستحسن أن ينتخب للرياسة سياسى مارس السياسة فى المجالس التشريعية وعلى الأخص الكونجرس وأن يكون أمر الانتخاب والقيام عليه بأيدى رجال السياسة ؛ ولكنهم عدلوا عن هذا وقد علموا ما كان من أثر جاكسون وديموقراطية جاكسون فى البلاد ، إذ جعلت كلمة الشعب هى العليا ، وبحث الهوج عن رجل من صميم الشعب له ماض فى الحرب يكون شبيهاً بجاكسون ليكسبوا بترشيحه الرأى العام فوقع اختيارهم على هارسون وكان من الطلائع الذين سكنوا الأصقاع البرية وكانت لهم فى محاربة الهنود بطولة ، وكان لا يزال يعيش فى بيت أقيم من الكتل الخشبية على نمط الأكواخ الساذجة الأولى وكان يشرب عصير التفاح الشراب الوطنى المحبوب لساكنى الأكواخ ... وهو بهذا شبيه بجاكسون وقد سميت معركته الانتخابية معركة الكوخ وعصير التفاح .

واستعرت المنافسة بين الحزبين وشمر لنكولان وقد سنحت مثل هذه الفرصة ليتمرن على مثل هذه المعارك الانتخابية الكبرى فضلا عما يتسع أمامه من مجال للمجادلة والخطابة .

وأبرزت هذه المعركة كثيراً من جوانب موهبته كخطيب وفى مقدمتها تهكمه الذى يزلزل به أقدام خصومه ، ومقدرته على إثارة إعجاب سامعيه وامتلاك قلوبهم بما يسوق من أمثال ويسرد من قصص يصور بها ما يريد من المعانى أو يسخر بها

من آراء معارضيه وأفعالهم هذا إلى عذوبة روحه وحلاوة فكاهته ورونق عبارته وسحر أدائه .

نشط الهوج فى هذه المركة نشاطاً عظيماً وكانت جموعهم تطوف فى البلاد تحمل الأعلام وعليها اسم هارسون ، ومنهم من كانوا يحملون مثالا مصغراً للكوخ وأمثلة لأوانى عصير التفاح فأذا ازدحم الناس للتفرج قام خطباؤهم يدعون لحزب الهوج ويحملون على الديموقراطيين ، وانبرى خطباء الديموقراطيين لهم فى جموع مثل جموعهم وخطباء كخطبائهم .

وشهد إبراهام كثيراً من هذه الاجتماعات فوقف ذات مرة يخطب راداً على مزاعم الديموقراطيين فيما اتهموا به الهوج من ارستوقراطية وثروة ، تلك النغمة التى طالما سمعها من قبل أثناء انتخابات مجلس الوصاية قال لنكولن « لقد كنت غلاماً فقيراً استؤجرت للعمل فى قارب بنحو ثمانية دولارات فى الشهر ، ولقد كنت ألبس الملابس من الجلد ؛ وإذا علمتم مايطرأ على الملابس الجلدية إذا جففتها الشمس وجدتم أنها تنكمش وتتداخل بعضها فى بعض ، ولقد قصر سروالى بسبب هذا حتى ترك جزءاً من ساقى عارياً ؛ وكنت كلما ازددت فى الطول ازداد سروالى قصراً وضيقاً وقد بلغ من ضيقه أنه ترك أثراً حول ساقى لا يزال يرى حتى اليوم فأذا كنتم ترون فى هذا ارستوقراطية فأنى أعترف أن التهمة لاصقة بى » .

وشهدت سبرنجفيلد من هذه المظاهرات مظاهرة كبيرة حمل فيها المتظاهرون أكواخاً صغيرة من الخشب واستعاض أهل شيكاغو عن الأكواخ بمثال لمركب حملوها على عربة وقد وصف أحد الذين شاهدوا لنكولن يخطب الناس ذلك اليوم فقال « وقف لنكولن فى عربة يخطب جمهور الناس الذين أحاطوا بها ، وكان للاجتماع يومها أهمية تفوق ما لغيره من الاجتماعات ومرد هذا إلى من كان يلقى الخطاب الرئيسى ؛ كان يومئذ قد بلغ غاية قوته البدنية ؛ كان طويلا يبدو أنحف مما صار إليه فى أيامه بعد ذلك وكان بنحافته أكثر ألفة فى أعين الناس منه حين اكتسب فيمابعد شيئاً من السمن؛ وكان فى الحادية والثلاثين من عمره ومع هذا فقد كان يعد من أقوى خطباء الهوج فى هذه المركة ، وكان له يومئذ ذلك السر الذى

يلفت انتباه الناس إليه ويجذبهم نحوه ؛ ورأى نفسه حتى فى ذلك الوقت موضع اهتمام عام بسبب ما اتصف به من لمس المسائل السياسية وشرحها وتصورها فى يسر ... وكان يتناول مسائل تلك الأيام تناولا منطقياً أحياناً ولكنه كان يجمل كثيراً من وقته لقصصه التى يشرح بها بعض مايتناول من المسائل ولو أن كثيراً من هاتيك القصص كان ردا به وضع خصومه فى وضع مضحك » .

وكان يعنى إبراهام عناية شديدة بخطبه فيدير المعانى فى رأسه قبل أن ينهض للخطابة ويختار من اللفظ ما يؤدى المعنى المراد بيانه فى غير نقص أو تزيد ؛ فإذا تكلم كان بارع السياق مطمئن النفس فصيح العبارة ، فإذا جد أثناء الكلام أمر لم يحتشد له واتته قريحته الطيعة ووافاه بيانه المشرق فأتى بأحسن مما أعد وما اصطنع ...

وكان يعنيه أن يقرأ كلامه منشوراً فى الصحف ليرى إن كان ثمة خلل أو ضعف فيعمل على أن يبرأ كلامه منه بعد ذلك ؛ ولم تكن ترتاح نفسه لشىء ارتياحها إلى حسن موقع كلامه فى نفوس سامعيه أو قارئيه ...

ولم تقتصر نصرته للهوج على مقدرته كخطيب وإنما أفاد أصحابه كثيراً مما اشتهر به من بأس وقوة وقلما خلت المعارك الانتخابية من عنف فى بلد من أقطار الأرض ...

وقف أحد أصدقائه يخطب الناس فى حجرة متسعة كانت تقع تحت الحجرات التى يشغل إحداها مكتب لنكولن المحامى وزميله ، وكان فى سقف تلك الحجرة السفلى باب يستطيع فتحه من كان فى حجرة لنكولن ، فرفعه إبراهام قليلا ذات مرة وقد اشتد ضجيج المجتمعين فشاهد صديقه الخطيب وقد أحاط به جماعة من الديموقراطيين يتوعدونه ويطلبون إنزاله بالقوة من فوق المنصة لما صدر منه من غليظ القول ، وبينما كان السامعون فى هرجهم إذ راعهم قدمان كبيرتان تتدليان بنعليهما من السقف عرفتا لأول وهلة أنهما قدما لنكولن ، ثم رأوا الساقين فالجسم كله وإذا بهم يبصرون إبراهام وقد انقض من السقف فوقف إلى إلى جانب صاحبه ؛ ثم رفع ابن الغابة يده يريد الكلام فما من أحد فى الحجرة

إلا وكأن على رأسه الطير وانفرجت شفتاه بعد لحظة فقال « أيها السادة لا تسيئوا إلى وطنكم وإلى العصر الذى تعيشون فيه ... إن هذه هى الأرض التى أحيطت فيها حرية القول بما يحفظها من ضمان ؛ وإن لصاحبي الحق أن يتكلم وإن له الحق أن يسمح له بالكلام ، وإنى الآن بجانبه لأحميه وما من رجل هنا يستطيع أن ينتزعه من مكانه ما دمت قادراً على أن أذود عنه » .

وأنصت السامعون إلى الخطيب وقد عاد يخطب فى حماية لنكولن فما استطاع الديموقراطيون أن يقاطعوه وما استطاعوا له دفعاً ...

وانتهت المعركة الانتخابية بفوز الهوج وفرح إبراهام وأنصار الهوج بذلك النصر فرحاً شديداً ؛ وفى نفس تلك السنة ، سنة ١٨٤٠ انتخب ابراهام عضواً فى مجلس إلينوى للمرة الرابعة ...

لم تلهه السياسة وشواغلها نوازع قلبه وخلجات نفسه ، ولا أنسته المحاماة وقضاياها وقد صار له فيها مكان مرموق ، ولا الجلسات فى حانوت سبيد وما كانت تثيره فى نفسه من لذة ، وأنى له أن ينسى وقد كانت مارى أوين تلك الفتاة التى ارتبط بها بما يشبه العهد تلقاه أحيانا بعد أن تزور بعض ذوى قرباها فى سبرنجفيلد ؛ كما كان هو يذهب إلى نيوسالم فيغشى بيت أختها ؛ إن أمره فى ذلك عجب ! لا يستطيع أن ينصرف عنها ولا يستطيع أن يؤمن أنه يحبها ، تلك حال من حالات الشباب أو حال من حالات لنكولن وما أعجب بعض حالاته ...

كانت علاقتهما علاقة فتور تجلى لها فى أكثر من موقف ولكنهما أقاما على هذه الحال زمنا تحسب الفتاة أنه لم يبق إلا أن يتقدم صاحبها بالاقتراح المعروف ويحسب الفتى أنه لم يبق إلا أن تنأى عنه فتريحه ؛ لقد كان منقبض النفس لهذه الحيرة يجعل للمسألة من الأهمية أكثر مما لها ، نلمس ذلك فى مثل قوله « لم أجدنى طيلة حياتى فى قيد أرغب فى التحرر منه كما أجدنى فى هذا القيد حقيقياً كان قيدى أو خيالياً » .

وجمع أمره فكتب إليها كتاباً رقيقاً محكماً يشير فيه إلى دخيلة نفسه ويتلمس معرفة طويتها دون أن تفلت منه لفظة قاسية ؛ تكلم عن إحساسه بالوحشة فى سبرنجفيلد ثم أشار إلى فاقته وعسره وما عسى أن تجد عنده من متاع الدنيا من تكون زوجاً له إلى أن قال « ربما كان ما قلتيه لى من قبيل المزاح وإلا فأظننى لم أفطن إلى مرماه ؛ إن كان الأمر كذلك فدعيه إلى النسيان وإن لم يكن كذلك فإنى أحب أن تفكرى تفكيراً جدياً قبل أن تقطعى فيه برأى وستجدينى عند قولى إذا كان ذلك ما تشائين ؛ وإنى أرى ألا تشائى ذلك فانك لم تتعودى البأساء وربما كان الأمر أقسى مما تخالين » .

وأرسل إليها بعد ذلك كتاباً أكثر من هذا صراحة جاء فيه « إن فى وسعك أن تدعى هذا الأمر وأن تطردى أى تفكير يتجه إلىّ إن كان ثمة لديك شىء من

هذا ولن يترتب على ذلك أى لوم عليك منى وقد أذهب إلى أبعد من هذا فأقول إذا كان ذلك يؤدى إلى راحتك وهدوء بالك فإنى أرغب مخلصاً أن تفعليه ؛ لا تفهمى من ذلك أنى أريد لك قطيعة ؛ إنى لا أريد شيئاً من هذا القبيل ، إنما أريد أن تكون علاقتنا فى المستقبل قائمة على إرادتك ؛ وإذا كانت هذه العلاقة بحيث لن تضيف شيئاً إلى هناءتك فإنى على يقين أنها لن تضيف كذلك شيئاً إلى ؛ ولئن كنت تشعرين أنك مقيدة نحوى بأى قيد فإنى أميل الآن إلى أن أطلقك منه إذا كانت هذه بغيتك ، بينما أرانى من ناحية أخرى أميل إلى أن أمسكك على إذا اقتنعت أن ذلك يزيد من سعادتك بقدر خليق بالاعتبار ؛ هذه فى الحق هى المسألة بالنسبة إلى ؛ ولن يشقينى شىء أكثر من اعتقادى شقوتك كما أنه لن يسعدنى شىء أكثر من علمى بسعادتك . وإذا حسبت أن عدم ردك على هذا خير لك فوداعاً وإنى أرجو لك حياة طويلة سعيدة ، أما إذا شئت أن تردى فاكتبى إلى فى وضوح كما أكتب » .

تلك هى تعلات التردد الحائر تصور لنا حالا من الحالات المستعصية على الفهم ولقد آلت المسألة آخر الأمر إلى القطيعة ، وانصرفت عنه مارى أوين وهو لا يدرى أيعد ذلك فوزاً أم يعده خيبة .

وما له يتورط بعد ذلك فى صلة جديدة ولم يستنش نسيم الراحة إلا من أمد قريب ؟ إنه لم يكد ينصرف عن مارى أوين حتى أخذ يتصل بمارى تود ...

كانت هذه الفتاة الجديدة تنتمى إلى درجة فى المجتمع فوق درجته وكانت مثقفة مهذبة شديدة الذكاء تدير الحديث إذا جمعها بالنابهين من أهل المدينة مجلس فتسحرهم بتوقد الذهن وقوة البادهة ولطف الإشارة وأناقة العبارة ؛ وكانت مارى إلى ذلك ذات طموح إلى هدف بعيد فكانت نظرتها إلى الشباب من جنس نظرتها إلى الحياة ، المقدم فيهم عندها من تثق أنه إذا نال يدها يخطو بها إلى ما تمد إليه عينيها وخيالها من نفوذ ونعمة وجاه ؛ وكانت فتاة قلقة كأنها من فرط توثبها الطائر المرح لا يحط على غصن إلا ليثب منه إلى غصن ...

وكان لنكولن ممن يختلفون إلى دار أخت لها فى سبرنجفيلد كما كان دوجلاس ممن يختلفون إلى تلك الدار كأنما صحت عزيمة ذلك القزم أن يأخذ على المارد كل

طريق يسلكه ، ولو كان غير طريق السياسة ...

وكانت أختها زوجاً لأحد التسعة الطوال فعرفت مارى من أختها شيئاً غير قليل عن لنكولن كما كان زوج أختها صديقاً حميا لصاحبه سبيد وقد تحدث إليها وإلى أختها عن لنكولن أحاديث كثيرة كلما تطرق الكلام إليه .

وكانت مارى قد جاءت لتقيم مع أختها زمناً وأخذت الرجلين عيناها السريعتان النافذتان ولكنهما استقرتا على إبراهام ؛ وكان دوجلاس خليقاً أن ينال عندها الحظوة بما كان يبدو من ذكائه ودهائه ولباقته وكياسته ، وبما كان يشع من ظرفه وحسن سمته وأناقة هندامه ، ولقد كان يبتغى إليها الوسيلة بكل ما فى وسعه لا تفلت منه فرصة ولا تفوته حيلة ، ولكنها اتجهت إلى ابن الغابة فى هندامه المتهدل القصير على جسمه المرهف الطويل ولم يخشن فى عينيها وجهه المسنون الذى يحمل فى حضرتها من البلاهة بقدر ما يحمل من هموم الأيام ، ولم ينب عن ذوقها شعره الأشعث الذى يصور للعين ألفاف الغابة !

وأخذ ابن الأحراج يزداد من حبها بقدر ما يفقد دوجلاس منه ، ولكنه يسر إلى صديقه سبيد ذات يوم أنه لا يشعر قبلها من الحب بما هو عسىٌّ أن يفضى بهما إلى الزواج ثم يهم أن يكتب إليها بعد ذلك ... !

وكان عجباً أن تتجه مارى إلى إبراهام دون دوجلاس وهى فتاة طامحة ، وهو يبدو فى كل أمر متحفظاً يؤثر الهوينا بينما كان دوجلاس مثلها طموحاً يتوثب لا يكاد يفتر له عزم ؛ ولقد عرف أنها كانت تحلم بالبيت الأبيض وتحلم بالزوج الذى يرجى له أن يتخذ مقعده هناك يوما ما ؛ وإذا كان الأمر كذلك فأى الرجلين كان عسياً أن يصل بها إلى ما تحب ؟ وكيف تترقب ذلك على يد ابن الغابة ، ولا ترجوه على يد دوجلاس ؟

ولم يكن عجباً أن يتردد إبراهام فى صلته بها من أول الأمر ، فهو كلما ذكر عسره ومنبته استحى وساوره مع الحياء الهم ؛ وإنه ليراها فى بيت أختها الفسيح الأنيق موضع إعجاب كل زائر ، حديث النفس فى خلوتها لكل شاب ؛ تتكلم الفرنسية وتحسن توجيه الكلام وإدارة الحديث كما تجيد الحوار وتعرف كيف تسر كل متكلم وتتخذ أقرب السبل وأيسرها إلى قلبه وإنها مع ذلك لذات كبر

وأنفة وذات حسن وظرف وإن لم تصل ملاحتها إلى مستوى ذكائها ؛ وإنها لقوية الشخصية تسحر محدثها بوداعتها وظرفها إذا رضيت ، وتقهره بنظرتها المنيفة المخيفة إذا غضبت ؛ وإنها لتدل بمكانة أهلها وجاههم تالده وطريفه ! ومنهم من كان ذا شهرة فى حرب الاستقلال ومنهم من كان حاكما لإحدى الولايات ، ومنهم أبوها وكان قائداً فى حرب سنة ١٨١٢ كما كان رئيس مصرف كنطكى ، وكان ذا مال وجاه يملك الخيل المطهمة والعبيد المؤتمرين بأمره والأرض الواسعة التى تدر عليه الخير ... وأين من هـذا كله المحامى الفقير الذى ولد فى كوخ والذى لم يجد له مأوى فى المدينة إلا ما كان من معونة صديقة سبيد ! والذى استنكف أن يوكله فى قضية له انجليزى فى المدينـة قائلا عنه : « إنه يبدو كفلاح يشهد البهلوان لأول مرة » .

على أنه لم يكن يعلم مقدار حرصها على كسبه فإن هذه المرأة الذكية كانت توقن كلما قارنت بينه وبين ذلك القزم الذى يشبهها أعظم الشبه أن المستقبل له ؛ فثمة شىء فيه تحسه ولا تستطيع أن تقول ما هو ينبئها أنه عظيم ، وإن لم يبد عليه اليوم شىء من العظمة ...

وهو يتمنى لو أحبها كما يكون الحب أو لو اطمأن إلى أنه إذا أحبها لا تكون حاله حائلا بينه وبين قلبها ؛ ولعل شعوره بضعة منبته وبحاجته إلى مثل ما يتمتع به دوجلاس من أناقة ومقدرة على محادثة النساء ونيل إعجابهن هو الذى كان يكربه ويؤله ويسبب له هذا التردد ويلقى به فى هذه الحيرة ويجعله دائما من النساء فى حالة استخذاء ...

وإنه ليحس أنه موشك أن يقع فى مثل ما وقع فيه من قبل من أمر وخبال إبان علاقته بمارى أوين ؛ فما له لا يقطع هذه الصلة بمارى تود قبل أن يجد نفسه بحيث يستحيل عليه ذلك ؟ لئن كان يعجبه ذكاؤها وظرفها فإن من خلالها ما هو خليق أن ينفره وذلك مثل حدة طبعها وسرعة غضبها . فانها لتبكى لأقل شىء وتصرخ مهتاجة ، وإن وجهها ليتلون بحمرة الورد وبصفرة الورس فى ثوان معدودات وإنها لتطلق لسانها بجارح اللفظ وطائشه إذا اهتاجها من الكلام ما لا يحر

غيرها ... ولكنه على الرغم من ذلك يشعر كما تشعر هي أن ثمة شيئاً فيها يحسه ولا يستطيع بيان كنهه يريه أنها مكملة له فإذا ربط الزواج بينها وبينه لم يكن الأمر أمر رباط فحسب ولكنه يكون لكليهما تكملة لا غنى لهما عنها ...

ولكنه يسر إلى صاحبه بعزمه على أن يقطع صلته بها بكتاب يرسله إليها ؛ فيقول له سبيد : الرأى ألا تكتب فان الكتاب يبقى ولكن اذهب إليها وحدثها بما تريد فما أسرع أن يُنسى الكلام .

ويفعل ابراهام ما أشار به صاحبه ولكنه يعود إليه وفى وجهه مثل ما يكون فى وجه الغلام إذ يحاول أن يخفى حياءه قال « قضى الأمر فلا مناص ولا حيلة ؛ إنى ما كدت أخبرها بالأمر حتى هبت من مقعدها صارخة تدق يداً بيد والدموع تنهمر من جفنيها وهى تقول أصبح الخادع هو المخدوع ... ووجدت الدموع تنحدر على خدى أنا كذلك فأخذتها بين ذراعى وقبلتها » ولما لامه صديقه على تخاذله بمثل هذه السرعة قال « قضى الأمر وإذا كنت أعود إلى الأسر ثانية فليكن ما يكون ولسوف أصمم فلا أتزعزع » .

وظلت مارى بعد ذلك مدة عامين تحرص على ابراهام وتتحايل على كسب قلبه ، وتغضى على مضض عن شذوذه وعن هيئته وعن سرواله القصير وعن حديثه الأعرج ، وعما يشبه البلاهة من غيرته حينا وعدم مبالاته أحيانا ...

وكانت تحاول أن توقد نار الغيرة فى قلبه فتمشى فى الطرقات وذراعها فى ذراع دوجلاس ، فما تتوقد فى قلب ابراهام نار وإنما تحس هى بوقدة فى حشاها إذا نظر إليهما فى غير مبالاة ...

ورأته مارى مرات يسير مع أخت لها عذراء على نحو ما تفعل هى مع دوجلاس فحسبت أنها أغارته ولكنها ما لبثت أن أحست هى بالغيرة تأكل قلبها

ورأته يصحب فتاة فى نحو السادسة عشرة من عمرها إلى الملهى ويضاحكها وكان اسمها سارا وعلمت أنه أشار مرة إلى اسميهما وما كان فى الإنجيل من علاقة بين سارا وابراهام فلم تطق مارى على هـذه المداعبة صبرا ؛ أما هو فكاد يتعلق قلبه بسارا وأوشك أن يندفع فى هذا الطريق لولا أن نفرت الفتاة منه قائلة « إن

حاله الخاصة وجلة أمره لن يحدثا الأثر المطلوب فى قلب فتاة على أهبة أن تغشى المجتمعات » .

وصبرت مارى وهى من لا تطيق أن تصبر ؛ فإذا كان بين يديها حاولت أن تروضه على طاعتها بشتى الحيل واستجمعت ذكاءها ودهاءها لتؤثر فيه دون أن يشعر فتوجهه إلى حيث تريد ولـكن ما كان أسرع نفوره من ذلك أنفة منه ومحافظة على استقلاله وحريته ، وإنها لضائقة بذلك ولـكنها تصابره وتسايره علها تظفر آخر الأمر به وفاتها أن السحر الذى كان كفيلا أن يجعله أطوع لها من الطفل هو الذى كان ينقصها لأن الحب كان ينقصه .

وكانت تأخذه غاشية من الهم كلما مال الحديث بينه وبين أصحابه إلى الزواج وإذ ذاك كانت تزداد رغبته فى التخلص من مارى تود كما تخلص من قبل من مارى أوين وكان يومئـذ فى حال إن لم تحملها على الحبـل تحار على أى شىء غيره تحملها ! .

ودأبت مارى على سعيها وصبرها وليس من شك أنها لولا ما كانت تشعر به نحوه من أكيد الحب لانصرفت عنه ، قالت عنه بعد ذلك بسنين « لم يكن مستر لنكولن من الوجاهة كما كان مستر دوجلاس ، ولـكن الناس لم يكونوا يلحظون أنه كان لقلبه من الـكبر بقـدر ما كان لذراعه من الطول » وقالت فى معرض آخر كلاما غير هـذا ينطق بطموحها وتعليقها الفوز بأحلامها على الظفر به ومن ذلك قولها « إن مستر لنكولن سيكون رئيسا للولايات المتحدة يوما ما ولولا أنى رأيت ذلك فيه ما قبلت أن أتزوج منه فانه لم يكن وجيها » .

وحدد اليوم الأول من سنة ١٨٤١ موعدا للزفاف ، وأخذ لنكولن ينظر إلى ذلك اليوم وكلما اقترب منه أحس فى جسمه بما يشبه الحمى من فرط اضطرابه ؛ فلمـا كان اليوم السابق لهـذا الوعد المحدد رآه الناس فى حال من الهم مخيفة ، ولـكنه على الرغم من ذلك كان مكبا على عمله فى مكتبه وفى المجلس كأن لم يكن به شىء . .

وفى الموعد المضروب أخذ أهل العروس أهبتهم لاحتفال يليق بمكانة أسرتهم واستعدوا للقاء الأصدقاء والصديقات وأخـذت العروس زخرفها وازينت ....

ولـكن واعجبا أين الزوج ؟ أبلغ به الخبل هذا المبلغ ؟ لقد غاب وألح فى انتظاره!
يا له من موقف ويا لهــا من صدمة تصيب مارى المدلة المتـكبرة ··· !

وظن ابراهام أنه بفعلته هـذه يستطيع أن يسترد حريته ويخلص من هذا الرباط الذى أوشك أن يوثقه فلا تجدى فى الفـكاك منه حيلة ، وأكب على عمله يحاول أن يخدع الناس أو يخدع نفسه بأن ليس فى الأمر شىء ولـكنه ما لبث أن أحس أن فعلته هذه ضد الشرف فحاق به اليأس ، وزاده غما على غم تفـكره فى أنه ألحق الضرر بفتاة رقيقة قوية العاطفـة بيديه القبيحتين ؛ كتب إلى زميله ستيوارت « إما أن أموت أو تتحسن حالى ولـكن بقائى فيما أنا فيه ضرب من المستحيل » وبعـد ذلك بأيام انقطع عن شهود جلسات المجلس إذ كان عند الطبيب ····

وما حيلة الطب فى نواز توبق الروح وهواجس تعمى القلب وإن بدت آثار هذه وتلك فى نواحى البدن ؟ عجز الطبيب ولا عجب أن يعجز ، وجاء الصديق ليفعل ما لم يستطع الطبيب أن يفعل وهو خبير بالعلة عليم بموضعها من نفس صاحبه .

باع سبيد حانوته ، وعول على الرحيل إلى كنطكى فعرض على صاحبه لنكولن أن يذهب معه إلى هناك علة يشفى مما به فى تلك الأحراج التى درج منها أول ما درج . دعاه سبيد أن ينزع نفسه وجسمه من ذلك البلد الذى يكربه العيش فيه بعد أن كان مهوى خواطره ومنتجع آماله ؛ ورحل إبراهام مع صديقه وقد اخترم الهم جسده فزاده نحولا على نحول وزين له الشيطان أن يطلب النجاة من الحياة ...

ولبث فى كنطكى أياماً لقى فيها من كرم صاحبه وكرم أمه وأخته ما هون عليه أمره شيئاً قليلا ، وصاحبه لا يفتأ ينصح له ويسرى عنه وهو يشكو إليه اضطراب أعصابه ويظهره على هواجس نفسه ويذكر له والألم يبرح به فعلته التى فعل فكان غير كريم بل كان من الضالين ...

على أنه كتب وهو فى كنطكى رسالة فى الانتحار ترينا أن اليأس كان قد أوشك أن يذهب عنه . خذ لذلك مثلا قوله « إنى لم أصنع فى حياتى شيئاً يذكر أى إنسان أنى عشت ؛ ومع هذا فإن ما أود أن أعيش من أجله هو أن أربط اسمى بحوادث يومى وجيلى وأن أقرن ذلك الاسم بصنيع يكون لمن حولى من الناس فيه جدوى » .

بيد أنه لم يلبث وقد كان يلتمس العون من صديقه أن رأى ذلك الصديق فى حاجة إلى من يعينه فلقد طاف به على حين غفلة طائف من الحب ملك عليه قلبه وعقله ...

وانقلب الأمر فغدا لنكولن هو الناصح وراح يجتهد أن يهدىء صاحبه وقد وسوست إليه نفسه معانى كتلك التى كانت تجول فى خاطره هو ، معانى الحيرة

والتردد والشك ؛ وأصبح سبيد يحار فى أمر حبه كما أصبح ينتابه الخور كلما اتجه فكره إلى الزواج شأنه فى ذلك شأن صاحبه .

وكان فيما يسديه إبراهام من نصح لصاحبه مسلاة له أو شاغل يشغله عن وجده ؛ ولما عاد إلى سبر بجفيلد ظلت كتبه أكثر من عام تترى على صاحبه وفيها من حسن النصيحة وقوة الاقناع ما لا يصدر مثله إلا عن عالم نفسى أو شاعر رقيق العاطفة عميق الحس ، خذ مثلا لذلك كتابه هذا قال : « إن مرد ذلك فى جملته إلى أنك عصبى المزاج ، وأنا أقول ذلك لما شهدته منك شخصياً ثم لما قصصت على من حال أمك فى أوقات ومن حال أخيك حين ماتت زوجه ؛ وإن أول سبب خاص هو تعرضك للجو الردىء أثناء رحلتك فإن تجاربى تثبت لى فى وضوح أن ذلك بالغ الضرر بمن كان ضعيف الأعصاب ؛ ثم يأتى بعد ذلك بعدك عن مجالس الصحاب وأحاديثهم فإنها كانت خليقة أن تشغل عقلك وأن تهيىء له قسطاً من الراحة من عناء التفكير العميق الذى يبدأ حلواً ثم ينقلب إلى مثل مرارة الموت ؛ وأخيراً سرعة اقترابك من هذه الأزمة التى يتركز فيها كل شعورك وفكرك» .

ومن العجيب حقاً أن يتلمس لنكولن العلل لما يكرب صاحبه ثم يظل على ما هو عليه من حيرة وغم ، وأعجب منه أن نراه يحدد الوضع الذى باتت عليه علاقة سبيد بصاحبته تحديد الخبير الرشيد فيقول « كيف اتفق لك منازلتها ؟ أكان ذلك لأنك رأيتها جديرة بها منك وأنك وضعت بين يديها ما يبرر أن تتوقع حدوثها على يديك ؟ .. لا ، لم يكن للعقل مجال يومئذ ؛ قل لى بحق ألم تكن هاتيك المقلتان الدعجاوان السماويتان هما أساس حججك الأولى جميعاً فيما يتصل بهذا الموضوع؟ »

وجاء فى كتاب آخر إلى صديقه قوله « إنك تعلم حق العلم أن حدة شعورى بآلامك لا تقل كثيراً عن حدة شعورى بآلامى ؛ ومع ذلك فإنى أؤكد لك أنه لم يسؤنى كثيراً ما ذكرت عن شعورك الذى بلغ حداً عظيما من السوء وقت كتابتك ؛ وليس ذلك لأنى اليوم غير خليق بالعطف عليك ولا لأنى أقل مودة لك ولكن لأنى آمل مصدقاً أن لهفتك على صحتها وحياتها وحزنك بسبب ذلك سيؤديان إلى القضاء أبداً على تلك الشكوك المخيفة التى ساورتك أحياناً عن صدق حبك لها ... وإذا قدر لهذه الشكوك أن تمحى إلى الأبد — وكأنى أشعر بوحى

يوحى إلى أن الله قد أرسل إليك غمك الحالى وهو مرضها ، لهذا الغرض — فليس من شىء يحل محل تلك الشكوك ليحدث ما أحدثت من تمس عظيم ... ويك يا سبيد ! إن لم تكن تحبها وقدر عليها الموت فمع أنك لا تتمنى موتها فأنت مستسلم للأمر لا محالة ؛ ولقد تكون الآن هذه المسألة أعنى مسألة حبك إياها بحيث لم تعد موضع إشكال لديك وعلى هذا فإن إلحاحى فى الإشارة إليها تهجم جاف على شعورك وإذا كان هذا هو الحال فإنى واثق منك بالصفح فإنك لتعلم الجحيم التى عانيت منها وتعلم ما أكن من شفقة منها عليك ، أنا الآن أحسن حالا مما كنت قبل ولقد رأيت سارا مرة واحدة وبدت لى شديدة المرح ولهذا فإنى لم أفاتحها فى شىء مما تحدثنا به ... » .

وتزوج سبيد فكتب إليه إبراهام يقول « غداة وصول هذا إليك ستكون قد أصبحت زوجاً لفنى منذ أيام ؛ وإنك لتعلم أن رغبتى فى مودتك أبدية وأنى لن أقف إذا استطعت عمل شىء ؛ بيد أنك منذ الآن ستكون فى موضع لم أجرب مثله من قبل ، وعلى ذلك فإذا طلبت نصحى فإنى أخشى أن يصحب الخطأ ما أنصح به ؛ وإنى لأرجو مخلصاً أن لا تجد نفسك بعد اليوم محتاجاً إلى راحة تأتيك من خارج نطاقك الحالى ، ولكن إذا أخطأ ظنى وخاب رجائى وصحب سرورك العظيم شىء من الألم أحياناً فدعنى أستحثك كما فعلت دائماً أن تذكر وأنت فى قلب الغاشية بل وأنت فى عذاب منها أنك سوف تخرج منها بعد قليل ؛ إنى مقتنع الآن أنك تحبها فى حماسة كأعظم ما فى طاقتك من الحب ولذلك أميل إلى التفكير أنه يحتمل أن تخونك أعصابك لحظة فى بعض الأحيان ولكنك إذا نجحت مرة واحدة فى ضبطها الآن فإن هذا العناء سيذهب إلى غير رجعة ، وإذا كنت قد أثبت هدوءك أثناء الاحتفال أو ملكت نفسك فلم تزعج أحداً من الحاضرين فقد كتبت لك النجاة بلا ريب وبعد شهرين أو ثلاثة على أقصى تقدير ستجد نفسك أسعد الرجال » .

وجاءت كتب صاحبه إليه ولا يزال فيها ذكر الوساوس والأوهام فرد عليه إبراهام يقول « ليس لدى شك الآن أن سوء حظنا الخاص بنا إنما هو أننا نحلم أحلام الجنة ، تلك الأحلام التى تفوق إلى حد بعيد كل ما عسى أن تحققه هذه الأرض

ومهما بلغ من بعدك عما تحلم به فليس ثمة امرأة تفمل ما يحققه لك إلا ذات العينين الدعجاوين زوجك فنى ؛ ولو أنك نظرت إليها بخيالى لـكان من السخف عندك أن يفكر امرؤ لحظة فى عدم هنائه معها » .

وذكره زواج صاحبه وما يسمع من هناءته بما هو فيه من وحدة وشقاء ؛ ترى ذلك واضحاً فى قوله « إن لم يكن لنا أصدقاء فلن يكون لنا سرور ؛ وإذا اتفق لنا بعض الأصدقاء فأنا لا نأمن أن نفقدهم ونذوق الألم مضاعفاً بهذا الفقد ؛ لقد كان أملى أنك وزوجك تقيمان هنا وليس لى حق فى أن ألح بهذا عليك ... » .

ورد على كتاب سعيد جاءه من صاحبه فقال « إنك تعلم أنى مخلص إذ أقول لك إن ما بعثه كتابك فى نفسى من سرور كان ولا يزال فوق كل تعبير ؛ فأما ما يتصل بشؤون ضيعتك فلن تجدنى أسايرك فى فهمه فلست أملك ضيعة ولا أتوقع أن أمتلك يوماً ما وعلى هذا فلم أدرس هذا الوضـوع دراسة تجعل لى فيه لذة وحسبى أن أقول إنى فرح برضائك عنه وسرورك به ... ولـكن فيما يتصل بذلك الموضوع الآخر الذى أوليه أعظم اهتمام فى السراء والضراء على سواء ، فاعلم أنى لم أستطع قط أن انتزع فيه من نفسى عطفى عليك ولست أستطيع التعبير عن مبلغ ما يهزنى من سرور إذ أسمعك تقول إنك أكثر سـعادة مما توقعت فى أى وقت ولست أزعم وأنا بك عليم أن ما توقعت لم يكن فيه غلو فى بعض الأحيان على الأقل ، فإذا كانت الحقيقة تفوق ذلك جميعاً فإنى أقول كفانى ذلك يا إلهى ... شكراً لك ؛ ولست أعدو الحقيقة إذا قلت لك إن اللحظة التى قرأت فيها كتابك الأخير قد أورثتنى من السرور أكثر مما أورثنى كل ما استمتعت به منذ ذلك اليوم الذى جرى فيه القدر وهو أول شهر يناير سنة ١٩٤١ ، فنذ ذلك اليوم وأنا يخيل إلى أنه ينبغى أن أكون جد سعيد لولا تلك الفـكرة التى تلازمنى وهى أن هناك نفساً غير سعيدة عملت أنا على أن تـكون كذلك . إن تلك الفـكرة ما تزال توبق روحى ولا معدى لى عن أن ألوم نفسى حتى على مجرد الأمل فى السعادة فى حين أنها على ما هى عليه ؛ لقد صحبت جماعة كبيرة فى عربات سكة الحديد إلى جاكسونفيل يوم الاثنين الماضى وسمعت أنها ذكرت أنها استمتعت بنزهتها غاية الاستمتاع وإنى أحمد الله على ذلك ... » .

وإن المرء ليحس فى هذه الكتب شبهاً عظيما بما ذكر جوت شاعر الألمان على لسان فرتر فى كتابه الخالد آلام فرتر ؛ نلمس فى هذه الكتب عظيم الوفاء من صاحب لصاحبه ، كما نجد نفساً حائرة مضطربة وقلباً يأكله الهم ويشرف به على اليأس كما نقع بين آونة وآونة على أدلة الوجدان الحى والعاطفة النبيلة نجد مثالا قوياً لذلك فى قوله هذا « وصلت إلى سالمة البنفسجة الحلوة التى أرسلتها طى كتابك ، ولكنها بلغت من الجفاف والعصر بحيث استحالت رماداً عند أول محاولة منى لأن ألمسها ؛ بيد أن ما اعتصره العصر منها من عصير قد ترك أثراً فى ورقة الكتاب ، ولذلك سأحتفظ بهذه الورقة وأعزها من أجل التى أرسلت البنفسجة بإشارة منها »

ماری اوین زوجۂ لنکولن

أقام لنكولن أول الأمر وعروسه الطموح فى حجرتين فى نزل كانا يدفعان أجراً لسكناهما فيهما أربعة دولارات كل أسبوع ؛ وعظم ذلك على مارى فشكت إلى زوجها ولم يمض على زواجهما غير قليل ، وألقى إليها المعاذير مشيراً إلى ضيق رزقه وإلى ما لا يزال يقتضيه الوفاء من ديونه ... ثم بسط الله له رزقه بعض البسط فانتقل الزوجان إلى بيت صغير استطاعا أن يؤديا فى غير عسر أجر إقامتهما فيه ...

وأخذت مارى تدير شؤون بيتها الجديد ، وترعى أمره وقد اتخذت لنفسها سلطة ربة الدار فيما هان أو عظم من الأمور ؛ وكانت تأخذ زوجها بألوان من الشدة والعنف إذ تدعوه إلى كيت وتصرفه عن كيت ، ورائدها فى ذلك النظام أدق ما يكون النظام ...

وكان يصل بها الغضب أحياناً إلى هياج شديد ، وذلك حين كانت ترى من بعلها أنه يأبى إلا أن يرسل نفسه على سجيتها . فكثيراً ما لا يعبأ بما تصالحت عليه أذواق الناس من أوضاع وتقاليد يلزمونها وهم جلوس إلى مائدة الطعام أو وهم سامرون فى الثوى ؛ وهل كان يستطيع ابن الغابة أن يتكلف ما لم يجر فى طبعه ؟

ولكن امرأته لا تفتأ تلفته إلى أخطائه وتوجهه إلى العناية بهندمة ملابسه وتحثه على النظام ؛ وتكرر له أن ذلك خليق به وله اليوم بين الناس مكانته ، وهى تريده على أن يحمل الأمر على الجد وهو يجاريها ليخفف من حدتها ثم لا يستطيع بعد ذلك أن يغير شيئاً من طبعه ... وكان إذا اشتد بها الغضب يلاطفها ويضاحكها ليصرف عنها غيظها ، فإن عجز عن ذلك غادر المنزل فمشى ساعة أو بعض ساعة .

وحق لزوجه أحياناً أن تغضب منه ، فهو سخى اليد وإن كان فقيراً ، وهى لا تريد أن تبسط يدها إلا بقدر ما تستطيع ، وهو يسلك فى بيته سلوكا يدل على عدم المبالاة بأوضاع المجتمع ، يلقى الناس فى هيئة تنم على عدم الاكتراث فثيابه متهدلة وشعره أشعث وعبارته ساذجة ، وكلما دق الباب أحد جرى إليه ليفتح ولم يترك ذلك للخدم ! وهو يستلقى على ظهره أحياناً ويتمدد على البساط وفى يده

وصلته بأبراهام ومارى وذلك أن ابراهام وهو الذى ملأ النفوس إعجابا بدماثته ورقة حاشيته قد قبل غير متردد مبارزة رجل من الديمقراطيين على أعين الناس ، وكان لهـذه المبارزة سبب يحمل المرء على التعجب إذ كان مصـدره شخص مثل لنـكولن ، وبيان ذلك أن ابراهام نشر على لسان أرملة ثلاثة كتب فى صحيفـة صديقه الذى أصلح بينه وبين خطيبته ، وكلها نقد لاذع لذلك الديمقراطى المدل بنفسه الـكثير الذهاب بمقدرته المالية ، وكان الناس يومئذ يشكون من سوء سياسة الديمقراطيين فيما هو متصل بالمال ؛ وجاءت كتب ابراهام التى تحملها امرأة من خياله لاذعة قاطعـة ، فأثارت فضول الناس وضحكهم وإعجابهم ، ووردت على الصحيفة ردود كثيرة بغير توقيع قوامها المجانة والمداعبة ... وكان لمارى فى هذه المسألة نصيب فقد كتبت للصحيفة تقترح زواج ذلك الديمقراطى من تلك الأرملة ونظمت قصيدة فـكهة ساخرة أرفقتها باقتراحها لتـكون قصيدة الزفاف !

وثارت ثائرة ذلك الديمقراطى وراح فى المدينـة يرغى ويزبد ويتهدد ويتوعد وأتى صاحب الصحيفة فعنفه وتهدده بالانتقام إلا أن يعلمه بأصحاب هذه المجانة وبخاصة الاقتراح والقصـيدة ؛ وعرض صاحب الصحيفة الأمر على لنـكولن وذكر له أن ذلك الديمقراطى قدجعل بينه وبينه أجلا فان أبى ذكر الأسماء ومضى الأجل فهو مبارزه فقال له ابراهام فى غير وناء إنى آخذ الأمر على عاتقى وأنت فى حل أن تذكر أن ابراهام لنكولن هو صاحب الـكتب والاقتراح والقصيدة جميعاً ؛ وتم ذلك فدعاه الديمقراطى إلى المبارزة وشاع نبأ ذلك فى الناس فاحتشـدوا ليشهدوا ما يكون بينهما ...

وكان لأبراهام أن يختار نوع السلاح الذى يبارز به إذ كان هو الذى وقع عليه التحدى فاختار أن يكون النزال بسيف من السيوف الطويلة العريضة التى يحملها أشداء الفرسان وكان لأبراهام من طوله وفتوته وقوة ساعديه مايضمن له الفوز على منازله القصير ؛ قال رجل شهد ذلك الموقف « كان على وجهه أمارات الجد وما علمت عنه قبل أنه لبث مدة كهذه المدة لم يرسل نـكتة من نكاته ... لقد تناول أحد السيفين واستله من غمده ولمس بإبهامه شفرته يتبين مبلغ مضائه على نحو ما يفعل الحلاق إذ يقيس مضاء الموسى ؛ ومد قامته إلى غاية ما تمتد كما مد

ذراعيه الطويلتين إلى أعلى ولم يزد والناس يتطلمون على أن ضرب بسيفه غصناً فوق رأسه فأتى به بعيداً ؛ ولم يكن بيننا أحد غيره يستطيع أن يبلغ قريباً مما بلغه بطول ذراعيه ، وكاد هزؤ منظر ذلك الرجل الطويل الذراع يفلت منى ضحكة وهو يتأهب لمحاربة من لومشى نحوه لمر تحت إبطه ، وبعد أن قطع لنكولن الغصن رد سيفه إلى غمده متنهداً وجلس ؛ ولمحت فى عينيه ذلك البريق الذى يلتمع فيهما عادة إذا تهيأ لأن يقص حكاية ... » .

وتدخل بعض الناس فأصلحوا بينهما ورجع الخصمان جنباً إلى جنب إلى حيث انطلق كل منهما إلى داره ...

وظل قبول لنكولن هذا النزال أمرا يتحاشى أصدقاؤه الإشارة إليه ، وكان ابراهام كلما تذكره تندى جبينه وارتسم الخجل على محياه فهو وإن كان نازل آرمسترنج من قبل فأنه لم يفعل ذلك وهو محام أو عضو فى مجلس الولاية وإنما كان فتى فى حانوت ، ولم يعتد على آرمسترنج وإنما توقح عليه هذا وعصبته ؛ ولم يصل الأمر بينه وبين آرمسترنج إلى سفك الدماء والقتل كما كان عتيًّا أن يقع بينه وبين ذلك الديمقراطى ؛ وما نجد علة لفعلته هذه إلا أنفته من الفرار من المسؤولية فمن خلقه أنه لاينتصل من أمر تقع عليه تبعته مهما كانت عاقبته ...

على أن هذه المبارزة قد أدت إلى ما لم يقع له فى حسبان ، فإن مارى تذيع فى الناس أنه إنما أقدم عليها دفاعا عنها ! وما ندرى أكانت تؤمن بذلك أم أنها ادعته فى مهارة لتكسب به قلب ابراهام ولعل ذلك هو أرجح الأمرين فهى واسعة الحيلة لا تفوتها فى السعى إلى غرضها وسيلة .

وازداد اتصالها بعد ذلك حتى عادت حياتهما إلى ما كانت عليه قبل فراره ، ولكنه لم يشعر يوما أنه يحبها قال صديق له اسمه هرندن « لقد علم أنه لا يحبها ولكنه وعد بزواجها » .

ونراه يكتب إلى صاحبه سبيد قائلا « أود أن أسألك سؤالا أأنت الآن فى شعورك وقياسك فرح بزواجك ؟ انه سؤال لو تقدم به غيرى لكان تهجما لا يغتفر ولكنى أعلم أنك ستغفره لى ؛ أرجو منك أن تجيب فى غير إبطاء فانى أتحرق شوقاً إلى إجابتك » .

وأخذ إبراهام يحاول أن يكون فى عينى مارى كأحسن ما يكون حتى لقد مالت به محاولته إلى الفخر وهو الذى يكرهه بطبعه فتراه يعد قائمة بما نال من أصوات الناخبين فى أدوار انتخابه ويفرح إذ تقع عليها عينا مارى فهو يريد أن يريها مكانته ؛ ويفسر لنا ذلك سبباً من أسباب تردده فى صلاته بهذه الفتاة فإنه كان يستخذى من نشأته وطبقته ...

وقضى الأمر فربط بينهما رباط الزواج وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره وهى فى الرابعة والعشرين ؛ وقال الذين شهدوا العروسين حين عقد قرانهما أنهم رأوا لنكولن وعلى وجهه إذ ذاك سحابة من الكآبة والوجوم كانت تنقشع حيناً على ما يتكلف من بشاشة ثم تعود فتنعقد .. !

ولكنه استنشى نسيم الراحة حين ذهب تردده وتهيبه وأخذت تتزايل هواجسه ويتضاءل هوانه على نفسه وتعود إليه ثقته بتلك النفس سيرتها الأولى .
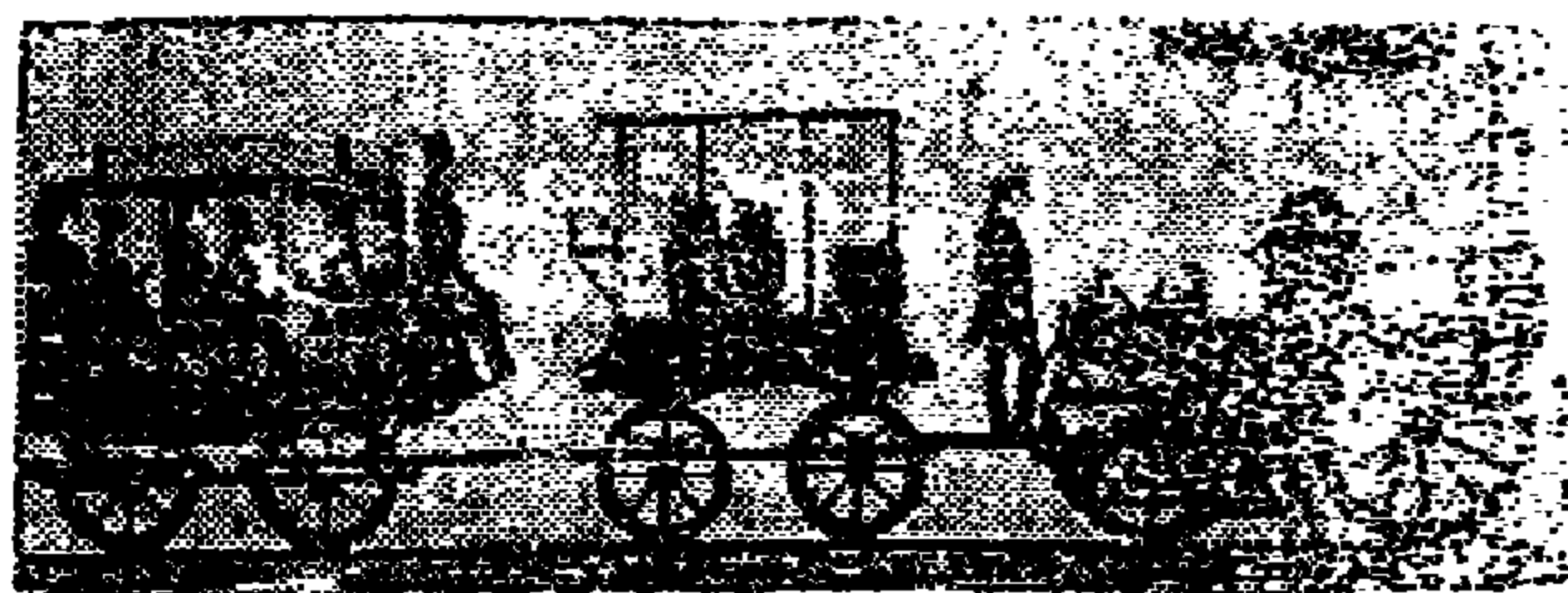
كان لنكولن المحامى قد عمل مع شريك آخر غير ستيوارت إسمه لوجان قبل زواجه بثلاث سنوات إذ انتخب ستيوارت عضواً فى الكونجرس وترك سبرنجفيلد وكان لوجان من أكبر المحامين شهرة فى المدينة ، وكان له من النظام والدقة والإلمام بأوضاع المهنة وتقاليدها ما يعوز الكثير منه صاحبه لنكولن . وكانت له الرياسة فى العمل ورضى لنكولن بمكانه منه ولم يجد فى ذلك غضاضة إذ لم يكن منه بد ؛ وأخذ يتعلم عنه ويكتسب منه المران والخبرة وهو قانع بنصيبه من الأجر وإن كان زميله لا يعدل بينه وبينه ، على أنه كان لا يميل فى جوره كل الميل . ولم يكن ثمة ما يحول دون استمرارهما معاً لولا أن فرقت بينهما ريح السياسة ، إذ كان كل منهما ينتمى إلى حزب يخالف الآخر .

واتخذ إبراهام زميلا آخر وكان هذا الزميل الجديد شاباً دونه فى العمر بعشرة أعوام إسمه هرندن ؛ وكان هرندن من أشد الناس إعجاباً بإبراهام يحرص كل الحرص على مودته والإجلال له ، فتوثقت عرى الصداقة بينهما ؛ وكانت لإبراهام الرياسة هذه المرة ، وعظمت ثقة كل من الرجلين بصاحبه . وكان أصغرهما موفور الحظ من النشاط والذكاء كما كان يدين بمذهب صاحبه فى السياسة وفيما هو أهم عند لنكولن من السياسة أعنى مسألة العبيد …

واتضحت للناس آيات نضجه فى المحاماة كما وقفوا منه على ما لم يعرف به أحد قبله فى المدينة فهو بسيط فى كل شىء ، يجعل الأمر فيما يعمل أمر ذمة وأمانة قبل أن يجعله أمر قانون ومغالبة ، وكثيراً ما كان ينظر إلى ما يتنازع فيه الناس بما يوحى به قلبه لا بما يصوره عقله . وكان يرد كل شىء إلى أصله ولا يتردد أن يفصل بين الخصمين بما لو فكر فيه غيره لعده من ضروب الخيال والوهم … وإن من الناس من رد ذلك إلى ما أشيع من شذوذه .

جاءه ذات مرة رجل يطلب إليه أن يتكفل برد مبلغ من المال عند خصم له فأنصت إليه لنكولن حتى استفرغ كل ما عنده ؛ وقال : « إنى أستطيع أن أربح

قضيتك وأعيد إليك تلك الدولارات السمائة ، ولـكنى إن فعلت ذلك جلبت الشقاء إلى أسرة أمينة ! ولن أستطيع أن أتبين سبيلى إلى ذلك ؛ ولهذا أحس فى نفسى الميل أن انصرف عن قضيتك وأجرك ولـكنى أنصح لك بما لا أسألك عليه أجراً إذهب إلى بيتك وفـكر فى طريقة شريفة تربح بها ستمائة دولار » .

بهذا وأمثاله اكتسب أيب الأمين محبة الناس فما منهم إلا من يكبره و كثيراً ما كان الناس يجيئونه ليحكموه فيما شجر بينهم من خلاف ، وكان كل من الخصمين يعلن أنه يرتضى ما يقضى به سلفاً وسرعان ما يحسم النزاع بينهم كأنهم منه حيال قاض لا محام وهو لا يسألهم على ذلك أجراً وحسبه من الأجر منزلته فى قلوبهم .

وكان يرفع الـكلفة بينه وبين الناس يلقاه من لا يعرفه من قبل فـكأنه منه حيال صديق قديم ، وكان لا يستحى أن يسأل هرندن ويستفهمه إن أشكل عليه أمر أو التوت عليه فـكرة وكل همه أن يصل إلى الصواب وما يهمه أن يتعلم من تابعه فى العمل ...

ولم يكن يعنى كثيراً بالناحية المالية فى عمله وإنما ترك أمر ذلك إلى هرندن فإذا جاءه صاحبه بما رزقهما الله به من مال عده وقسمه نصفين ونادى صاحبه « هذا نصفك » ؛ كل ذلك بغير أن يكتب شيئاً من حساب كما تجرى به العادة بين الناس ...

وكان يراه الناس فى المحـكمة يدس أوراقه ومذكراته فى جيبه حتى لينبعج وينتفخ ، فلم يتخذ كاتباً أو يحمل حقيبة أوراق كما يفعل المحامون ؛ ويرونه يدس بعض الأوراق الهامة فى قبعته كأنه يجعل منها حقيبة وقبعة معاً ! عاتبه أحد خلانه لأنه لم يرد على كتاب أرسله إليه فقال « ما فعلت ذلك إلا لأمرين اولهما ما شغلنى من عمل فى محكمة الولايات المتحدة وثانيهما أنى وضعت كتابك فى قبعتى وقد اشتريت قبعة جديدة وألقيت بالقديمة بعيداً فبعد عنى كتابك زمناً ... » .

ولم يختلف فى أمانته اثنان ، ولهذا كانت أكثر معاملاته بين الناس بغير كتابة ، فـكلمته صك ووعده وثيقة ؛ وإن الناس ليضعون عنده أوراقهم ويأتمنونه على أسرارهم وبعضهم لبعض خصوم ...

ولم يصرف إبراهام عن الجد ما كان فيه من ورطة فتراه فى غير مجال المحاماة يكتب المقالات ويلقى المحاضرات ومن أشهر محاضراته قبيل زواجه تلك التى أذاعها عن شاربى الخمر ففيها أعلن وهو الذى لم يشربها قط وجوب التسامح تلقاء من يشرب ، وحمل على الذين يضطهدونهم من رجال الدين وغيرهم زاعمين أنهم خير منهم وهم فى الحق لا يفضلون عليهم بعدم شربهم إن لم يكونوا أقل منهم فى كثير من الأمور ... وعزى إليه أنه كتب كذلك مقالة يحمل فيها على الأرثود كسية ويحبذ العقل والحكمة والاهتداء بهديهما فيما يعرض للمرء من شؤون الحياة . وأغضب بهذه المقالة كثيرين ممن يغلون فى دينهم ويجعلونه قوام كل شىء ؛ وكان مما كتبه فى السياسة مقالة بين فيها تزايد القوة السياسية لأهل الجنوب وأوضح ما رآه لذلك من علل ... وأحس الناس فى كل ما كتب دلائل النضج وبشائر النبوغ .

ولم يقل نضجه فى السياسة عن نضجه فى المحاماة والخطابة والكتابة ، فهو اليوم من رؤوس الهوج فى سبرنجفيلد ؛ ولكن شهرته السياسية لم تعد المدينة التى يعمل فيها والقاطعة التى ينتخب عنها لمجلس الولاية وهى مقاطعة سنجمون ..

وقدر له أن يرى فى سنة ١٨٤٢ ڤان بيرن الرئيس الديموقراطى الذى منى بالفشل حين تقدم للانتخاب مرة ثانية سنة ١٨٤٠ ضد مرشح الهوج هارسون . أقعدت رادءة الجو هذا الرئيس السابق فى نزل بمدينة قريبة وطلب بعض الديموقراطيين من لنكولن أن يصحبهم لزيارته لتسليته بعض الوقت فقبل؛ وأخذ إبراهام يقص من قصصه ويصف وصف الخبير الحياة البرية فى الحدود الغربية ويضحك سامعيه بملحه وطرفه ونكاته العذبة جانباً من الليل؛ وقد أشار ڤان بيرن فيما بعد إلى استمتاعه بما فاض من تلك الأحاديث قال « إن كانت ثمة من عيب صحبها فهو أنى ظللت أحس أذى من جنبى مدة أسبوعين من فرط ما ضحكت » ؛ وقال إبراهام « ليس بعجيب من أصحاب ڤان بيرن أن يدعوه الساحر الصغير فهو كفيل أن يسحر الطير عن شجره » ...

وعادت السياسية تتطلب منه جهداً غير يسير فهو اليوم يتحفز ليخطو خطوة وكان له من امرأته حافز ومن طموحه حافز ... تطلع إلى مقعد فى الكونجرس

وما كان ليستبعد الشقة أو يستعظم الفكرة وقد قضى ثمانية أعوام فى مجلس الولاية

ولكن رجال حزبه رشحوا رجلا غيره فاختير ذلك الرجل وكان على إبراهام أن ينتظر عامين وانتظر على مضض ثم ظن بعد ذلك أنه فائز بالترشيح ولكن قدم عليه غيره مرة ثانية وحق عليه أن يعود إلى انتظاره ، وقد آلمه وكدره أن يأخذ الطريق عليه هكذا رجلان من حزبه ...

وآلمه فوق ذلك ألماً شديداً فشل هنرى كلى فى انتخابات سنة ١٨٤٤ فقد وقع هذا الفشل حيث يرجى الفوز فكان سوء وقعه فى نفوس الهوج مضاعفاً وكان من أكثرهم تأسفاً وتألماً لذلك لنكولن إذ كان شديد الإعجاب بهنرى عظيم الولاء له ، كما أنه لم يأل جهداً فى الدعوة له ضد منافسه الديموقراطى ..

زواج

بقى ابراهام عاما ونصف عام وموقفه من مارى عين موقفه عقب ذلك الفرار الشائن وعاد إليه من هموم نفسه ، وقد تزوج صاحبه ، ماشغلته عنه قصة ذلك الصاحب زمناً . وبات ضائق النفس بوساوسه وزاده تبرما بحاله وإنكاراً لشأنه ما كان يسمعه من صاحبه عن سعادته الجديدة بين يدى زوجه ... لذلك لم يكن عجباً أن يلتمس السكينة ثانية عند سارا تلك الفتاة الناهد التى حاول من قبل أن يصل حبالها بحباله فلم يستطع .

بيد أنه كان يحس بينه وبين نفسه أن يتجه إلى مارى فهو لايستطيع أن يبتعد بخياله عنها وقد رأينا ماذكره فى كتاب من كتبه إلى صاحبه ، وكيف يقف بينه وبين سعادته تذكره أنه هو الذى أشقاها .

وكان لنكولن يعنى نفسه أنه على الرغم مما حدث يتأتى لهما أن يتصلا إن هما أرادا ؛ وكانت هى من جانبها تحس أن ما كان منه من فرار وهجران لم يصل على شناعته إلى حد القطيعة .

ودبر صحفى من صحابتهما وزوجه أن يدعواهما إلى مأدبة على غير علم كل منهما بدعوة الآخر إليها ، وتم ذلك فالتقيا وسلما وقد ربكتهما المفاجأة ثم تضاحكوا جميعاً بعد أن ذهبت الدهشة ؛ وكان هذا اللقاء الخطوة الأولى نحو التئام الصدع واجتماع الشمل، إذ أصبح ابراهام يرى حقاً عليه أن يصلح ما أفسد وأن يضع حداً لما هو فيه من شقاء وضيق .

وكادت صلته بمارى تسود سيرتها الأولى فكانا يلتقيان ويتساقطان أعذب الأحاديث ، وكانت تجمعهما أحيانا حلقة من الصحاب تدير مارى الحديث بينهم فيها بما أوتيت من ذكاء ولباقة ويضحك ابراهام سامعيه بنكاته وقصصه وأمثاله وما منهم إلا من يستزيده منها ...

وحدث أثناء ذلك أمر عجيب فى ذاته على قدر غير قليل من الأهمية فى نتيجته

كتاب لا يصرف وجهه عنه ، ، وهو يجلس على الأرض فيلاعب ابنه كأنه طفل مثله ، وهو لا يتورع أن يفعل ما يفعله جار قريب منهما إسكاف فيحلب البقرة مثله فى الحديقة ، ويحمل اللبن فى وعائه بين يديه ويهرول به إلى الدار على أعين السابلة والجيران كأنما يحن إلى الكوخ وإلى حياة الأحراج ، وامرأته تصرخ فى وجهه تذكره أنه لا يليق به ما يفعل فهو اليوم محام مشهور المقام وسياسى مرموق المكانة ؛ فما يزيد على أن ينظر إليها نظرة أشبه بتعجب الأبله ثم ينطلق صامتاً .

وأعظم ما يغيظ مارى منه حديثه بين الضيوف عن الغابة وعن حياته الأولى وما لاقى من شقاء العيش فى طفولته وشرح شبابه ، وهو كلما اتجه هذا الاتجاه تدفق حتى ما يظن أحد أنه سيسكت .

ويضايقها منه صراحته فأنه يقص على أصحابه وزوجات أصحابه ما لا يسمح العرف بذكره من شؤون حياته ، فاذا انصرف هؤلاء عكر عليه تأنيب زوجته إياه ما بثه حديثهم فى نفسه من سرور .

وتنظر إليه أحياناً وهو يغادر الدار إلى المحكمة فتقول فى غضب « كم أنبهك لتترك هذه القبعة القديمة وقد اشتريت لك غيرها ؟ » فلا يفعل أكثر من أن يخلعها ويمسحها بطرف ردنه ثم يضعها على رأسه وينطلق تشيعه نظراتها الغاضبة فاذا أخفت هذه القبعة القديمة ذات يوم ومدت إليه يدها بالجديدة حذرته أن يدس فيها الأوراق ولكنه يعود من عمله وفيها من الورق ما يملأ حقيبة صغيرة .

وتحب مارى أن يكون فى بيتها خدم من السود وهو لا يطيق ذلك ويصر على عناده مخالفاً إياها فيما تريد ؛ قالت ذات مرة لصديق عقب مشادة بينها وبين خادمتها « إنى لعلى يقين من شىء واحد وهو أنه إذا جرى القدر على مستر لنكولن فلن تجدنى روحه أبداً أعيش خارج حدود ولاية من ولايات الرق » .

ولكن زوجه على الرغم من ذلك جميعاً تحبه وتكبره وكأنها تبصر من وراء الغيب ما يخبأه له الغد من جاه ومجد ؛ كتب لنكولن إلى صديقه سبيد بعد زواجه بعام ينبئه أنه رضى النفس قرير العين ويعتذر إليه من عدم زيارته إياه بقصر ذات يده وشواغل عيشه ثم يبشره أنه قد صار له غلام ...

وكانت مارى تغار أشد الغيرة كلما اتجه بالحديث إلى إحدى زوجات أصحابه

وبلغت بها الغيرة أنها كانت تحاول أن تباعد شيئاً ما بينه وبين أصحابه أنفسهم فلا تحب أن يقضى بينهم من الوقت إلا ما تسمح به ليكون لها أكثر فراغه ، وكان هذا يؤذيه ويضايقه ولكنه لم يكن يملك غير الإذعان ...

فإذا خرج وإياها للرياضة أو لزيارة أسرة صديقة حرصت مارى على أن يظهر بمظهر يليق به فأتت له بثياب أصلحتها المكواة وحرصت على نظافة قميصه ودقة رباط عنقه وخلو قبعته من الورق وبراءتها من التراب وعنيت بالتماع حذائه وحسن مشيته ، ويطيعها زوجها إلى ما تريد وتتمنى لو اتبع ذلك النظام كل يوم ولكنها لا تلبث حتى تراه وقد عاد أشبه بفلاح يتنكر فى زى أهل المدينة فحلته متهدلة متكسرة وسرواله الطويل منتفخ عند ركبتيه ورباط عنقه يدور حول ذلك العنق حيثما اتفق وقد أرخى ذراعيه إلى جنبيه ونظر إلى محدثه وشفتاه مضمومتان ضمة من ذاق خلاً أو ارتشف رشفة من دواء مر وكأنه إذ يحدق فيه بعينيه الواسعتين ويستمع إليه يفكر فى شىء آخر لا يمت إلى الحديث بصلة !

وكثيراً ما كان يرى لنكولن بعد زواجه مضطجعاً إلى ظهر كرسى أسنده إلى الحائط وقد مد رجليه على كرسى آخر وألقى برأسه إلى خلف وأمال قبعته حتى تغطى جبينه وعينيه ولبث ويداه مشتبكتان حول ركبتيه يتفكر ملياً لا يستطيع أحد أن يقطع عليه تيار فكره ... ويخرج من هذا بمقالة يكتبها أو بشعر يترنم به .

وكانت مسحة الهم التى عرف بها محياه منذ صغره ترتسم على ذلك المحيا كلما خلا إلى نفسه أو جلس صامتاً بين صحبه ولا تنقشع إلا إذا قص قصة أو تندر بحادثة ثم يعود إلى وجهه ما يساوره من هم لا يتبين على اليقين مبعثه ؛ فماذا كان يكربه وقد تزوج وذهبت حيرته ؟ أكان مرده إلى ما يكرب كل نفس كبيرة من إحساس صاحبها أنه قد يعيش مجهولا غير مفهوم ؟ ... لقد ذكر شيئاً من هذا حين كتب إلى صاحبه يقول إن مرد شقائهما إلى أنهما يحلمان على هذه الأرض أحلام الفردوس .

بينما كان يتطلع إبراهام إلى مقعد فى الـكونجرس وقد أوشك أن يفرغ ما أجبر عليه من انتظار ، كانت البلاد كلها فى شغل بما جد من تلك المشكلة التى نجمت من وجود العبيد فيها منذ عهد الاستعمار ، ولقد كان لهذه المشكلة خطر أى خطر فى سياسة البلاد ولهذا وجب أن نأتى بحديثها على سرده ...

جىء بهؤلاء السود من أفريقيا منذ عهد الاستعمار ليكونوا زراعاً وخدماً لمن نزل بأرض أمريكا من الأوروبيين وعلى الأخص فى الولايات الجنـوبية حيث تصلح التربة للزراعة فى مساحات واسعة مكشوفة وحيث يقسو المناخ على المستعمرين فيحد نشاطهم ويقلل عزمهم؛ وأخذ يزداد عدد هؤلاء السود فى الجنوب منذ نشط المستعمرون فى زراعة القطن والطباق فى بطاح مترامية خصبة ، واشتدت الحاجة إلى العبيد بعد ذلك إبان الانقلاب الصـناعى إذ ازداد طلب القطن تبعاً لسرعة حلجه وغزله .

أما فى الشمال فـكان هؤلاء السود خدماً فى المنازل وقل استخدامهم فى الزراعة إذ كانت الزراعة هناك محصورة فى مساحات ضيقة ، ولم يزرع إلا ما يطلب الناس من حب وبقل ؛ وعنى الناس بالصناعة فى الشمال وكان الصناع من البيض لأنهم أجدر أن يمهروا فيها .

على هذا الوضع كان اقتناء العبيد فى الجنوب أمراً لا محيص عنه ، بينما كان فى الشمال أمراً قليل الأهمية ؛ ولـكن الظروف ما لبثت أن جعلت من وجود العبيد مشكلة معقدة بين أهل الجنوب وأهل الشمال ...

كان أمراً طبيعياً أن يتألم أبطال الاستقلال الذين أعلنوا حقوق الإنسان من وجود العبيد بينهم فإن من ينفر من استعباد غيره إياه خليق أن يكره أن يستعبد هو غيره ؛ وكان جفرسون من أكثر الزعماء بغضاً لوجود العبيد إذ لا يتفق وجودهم وما كان يدعو إليه من ديموقراطية وحرية .

ولـكن المسألة بدت من أول الأمر أعسر من أن تجرى فيها دعوة أساطين

الحرية فقد جعل أهل الجنوب أصابعهم فى آذانهم عند كل دعوة يدعوها التأثمون من حال السود وهم إخوانهم فى الإنسانية ؛ ولم يكن ذلك لأن الديموقراطية كانت أحب إلى قلوب الشماليين منها إلى قلوب أهل الجنوب فإن هؤلاء الشماليين كانوا رحماء بينهم أشداء على السود وكانوا إذا رغبوا فى التخلص منهم باعوهم لمن يقتنى العبيد فى الجنوب ؛ وإنما كان الأمر عند الجنوبيين أمر حياة أو موت فالقضاء على العبيد عندهم معناه ثورة اجتماعية تقضى على مصالحهم الاقتصادية وتصيبهم بنكبة لا يبرأون منها إلا فى أجيال ...

من أجل ذلك وقف زعماء الاستقلال وأبطال حقوق الإنسان حيارى تلقاء هذا الأمر وإن باتوا له كارهين ؛ على أنه لم تنته حرب الاستقلال حتى قضى على هذا الوضع فى جميع الجهات الكائنة وراء حدود ماری لاند الشمالية . وفى سنة ١٨٧٧ نجح جفرسون فى حمل المؤتمر العام على إصدار قرار يحرم وجود العبيد فى الجهات الواقعة فى الشمال الغربى لنهر الأهايو .

وظل أهل الجنوب متمسكين باقتناء السود فما تزحزحهم الدعوات قيد شعرة ؛ وما هم بمنكرى دعوة الداعين من ناحيتها الإنسانية بل إنهم يوافقون على أن الرق أمر بغيض وأنه لا يتفق ومبادىء الديموقراطية والعدالة والحرية ولكنهم لا يستطيعون من هذا الشر خلاصاً وليس فى وسعهم إلا أن يأملوا أن يخلصوا فى المستقبل منه ...

ولما بدأ واضعوا دستور الاتحاد عملهم وجدوا أنفسهم أمام عقبة كؤود سببها وجود هؤلاء السود ، وكان عليهم أن يتخطوا هذه العقبة سراعاً وإلاذهبت جهودهم هباء ؛ وكانت هذه العقبة هى كيفية التمثيل فى مجلس النواب ، فإنهم اتفقوا على أن يكون لكل ولاية أعضاء بنسبة عدد سكانها ؛ وعلى ذلك فهل يعد البيض وحدهم أم يعد البيض والسود جميعاً ؟ وإذا عد البيض والسود عظم نفوذ أهل الجنوب فى الاتحاد ولن يرضى بذلك أهل الشمال بينما يذهب نصف هذا النفوذ إذا عد البيض وحدهم فإن السود كانوا يساوونهم عدداً أو يزيدون عنهم فى فى بعض الجهات ...

وهداهم تفكيرهم إلى حل رضى الطرفان عنه فليعد البيض جميعاً وثلاثة أخماس

السود ... وهكذا يصبح اقتناء العبيد أمراً مشروعاً بما تضمن الدستور !

على أنهم لم يتخطوا هذه العقبة حتى كانوا تلقاء عقبة أخرى فإذا كان الدستور قد أقر وجود العبيد فى ولاية وحرمه فى أخرى فماذا يكون حال من يفر من العبيد إلى ولاية حرة ؟ أيحرره الفرار أم يجبر على العودة إلى حيث كان ؟ فإنه إن كان الرأى الأول ازداد الفرار وسهلت الحرية وفى ذلك الضرر كل الضرر على أهل الجنوب ؛ ولهذا كان لا مناص من الأخذ على مضض بثانى الرأيين فنص عنه كما يأتى : « إن من يفر من الأشخاص المكلفين بالخدمة أو العمل إلى ولاية أخرى يجبرون على العودة إلى من كانت تلك الخدمة أو ذلك العمل حقاً لهم » .

وثمة عقبة ثالثة أعترضت لهم وتلك هى تجارة الرقيق وجلب هؤلاء السود من أفريقيا ، فقد رأوا أنهم إن قضوا عليها توّاً أغضبوا الجنوبيين فاستحالت الوحدة ولذلك لم يكن بد من أن يجعلوا لذلك أجلا مقداره عشرون عاماً فى نهايته يقضى على هذه التجارة التى كان يكرهها أكثر مستنيرين ، ولما انتهى هذا الأجل سنة ١٨٠٨ ذهبت تلك التجارة إلى غير عودة .

ويدلنا على ما أحس واضعو الدستور فى أنفسهم من حرج أنهم لم يسموا السود عبيداً ؛ بل إنهم لم يستعملوا لفظ العبيد قط وأحلوا محله تلك العبارة وهى « الأشخاص المكلفون بالخدمة والعمل » وقد أرادوا أن يبرأ دستورهم من هذا اللفظ آملين أن ينقرض الاسترقاق ، وليس فى دستورهم ذكرى لهذه الوصمة ؛ ولشد ما تحرج جفرسون وتألم تجد ذلك واضحاً فى قوله « إنى لترتعد فرائصى من أجل وطنى كلما ذكرت ما يتصف الله به من عدل » .

ولم يأت عام ١٨٢٠ حتى تجدد النزاع بين الشمال والجنوب وأحس الناس نذر الشر وبوادر العاصفة التى تزلزل الاتحاد وتجعله اثراً بعد عين وقد هال جفرسون ما يتهدد الاتحاد من خوف فوصف هذا النزاع بأنه الناقوس المنذر بالحريق يجلجل صوته فى ظلام الليل ... وكان سبب هذا النزاع رغبة أهل الجنوب فى قبول مقاطعة مسورى ولاية فى الاتحاد كباقى الولايات وقد أصبحت بازدياد عدد سكانها أهلا لذلك ؛ ولكنها من أصقاع الاسترقاق وانضمامها إلى الولايات يزيد ولايات الرق واحدة وهذه بغير انضمامها يساوى عددها عدد الولايات الحرة ، ولما كان الدستور

يقضى أن يمثل كل ولاية عضوان فى مجلس الشيوخ مهما كثر عدد سكانها فإن الجنوبيين يكسبون عضوين بانضمام مسورى إلى الاتحاد .

ورفض أهل الشمال قبول مسورى ولاية وعظم الشقاق حتى ظن أنه يستعصى على العلاج ولكن هنرى كلى تمكن من اقتراح سكنت به رياح العاصفة وذلك أن تقبل مسورى ولاية وتقبل مين أيضاً وهى من الجهات الحرة فتعود الكفتان إلى التعادل على أن يراعى فى المستقبل أنه إذا أراد ضم جهة من الجهات الغربية إلى الاتحاد ابتداء من خط الطول الذى درجته ٣٠ فكل ما يقع منها جنوبى خط العرض الذى درجته ٣٦ فهو من ولايات الرق وما يقع شمالى ذلك فهو من الولايات الحرة ...

وقبلت البلاد هذا الاقتراح وكان ذلك فى رياسة منرو ؛ وقضى هذا الحل الذى عرف باسم اتفاق مسورى على نذر التفكك وهيأ للبلاد عهداً من الوئام والمودة بين الشمال والجنوب ...

وظلت البلاد هادئة لا يعكر صفوها موضوع العبيد حتى بدت نذر الشر مرة أخرى على نحو ما حدث عند محاولة ضم مسورى إلى الاتحاد ؛ فى هذه المرة حدث أن رغب أهل الجنوب فى ضم تكساس إليهم ؛ وكانت تكساس خاضعة للمكسيك فأغروها بإعلان استقلالها وإعادة اقتناء العبيد وكان المكسيك قد حرموا ذلك عليها وقضوا على الاسترقاق فيها ؛ وأطاع أهل تكساس ولبثت مستقلة عن المكسيك بضع سنين ثم طلبت حكومتها وكانت تتألف من مهاجرين من الولايات المتحدة الانضمام إلى تلك الولايات ، وضمتها إليها الولايات المتحدة سنة ١٨٤٥ ، وبذلك زاد عدد ولايات العبيد عن عدد الولايات الحرة بواحدة ...

واحتجت المكسيك وأعلنت تمسكها بحقها ثم اشتعلت نار الحرب بينها وبين الولات المتحدة وقد ندد هنرى كلى وكثير من أعوانه بهذا العمل وعدوه خروجاً على مبادىء الشرف وخافوا من سوء عاقبته على نزاهة الولايات وحسن سمعتها ، وكان موقف كلى سنة ١٨٤٤ وآراؤه التى تقضى بعدم ضم تكساس إلى الولايات المتحدة سبباً فى فشله فى معركة الرياسة وفوز بولك الديموقراطى عليه وكان بولك ينادى بوجوب ضم تكساس مهما كانت نتائج هذا العمل .

ولكن أهل الجنوب رحبوا بالحرب حين جرت بها الشائعات وفرحوا بها حين اشتعلت نارها وكانوا خليقين أن يفرحوا إذ منوا أنفسهم بالنصر وكان النصر عندهم سبيلا إلى الاستيلاء على مساحات واسعة من الأرض الخاضعة للمكسيك فضلا عن تكساس فيتاح لهم بذلك أن يملأوا بمهاجريهم هذه الأرض فتكون لهم فيها ولايات يزيد بها بأسهم ويتوطد فى الاتحاد نفوذهم ؛ فانهم يخشون من تكاثر الناس فى الشمال والأرض مبسوطة أمامهم هناك إذا اتجهوا غرباً فما أيسر أن تقوم فيها ولايات شمالية جديدة فى سنوات ليست بالكثيرة ...

وغضب أهل الشمال من ضم تكساس إلى الاتحاد ، ولكن كثيرين منهم يكتمون غيظهم ، وقد أرضاهم انتصار الولايات المتحدة على المكسيك وامتداد رقعة أراضيها نتيجة لهذا النصر كما أنهم ما لبثوا أن رأوا الجنوبيين قد منوا بخيبة فيما علقوا عليه آمالهم من نشأة ولايات جنوبية جديدة فأنه لم يزدد السكان فى بقعة من الأملاك الجديدة زيادة تؤهلهم للانضمام إلى الاتحاد اللهم إلا فى كلفورنيا وكان ذلك بسبب العثور فجأة على الذهب فيها وهجرة الناس بسبب ذلك إليها أفواجاً ، وحتى هذه لم تجدهم شيئاً فقد كان نصفها شمالى خط اتفاق مسورى ، ونصفها الآخر جنوبيه وقد رفضت أن تأخذ بنظام العبيد فى نصفيها جميعاً ...

ولن يلبث أن يدب الخلاف بين الشماليين والجنوبيين بسبب كليفورنيا . لأن الشماليين كانوا يؤيدون أهل كليفورنيا فى رفضهم الرق بينما كان يطمع الجنوبيون فى جعلها ولاية من ولايات الرقيق ؛ وسينهض من عزلته هنرى كلى واضع اتفاق مسورى قبل هذا الخلاف الجديد بنحو ثلاثين عاماً ليضع اتفاقاً جديداً حرصاً على الاتحاد أن ينفصم عراه هذا الخلاف .

كفاح ونجـــاح

فى شهر مايو سنة ١٨٤٦ سنحت الفرصة بعـد تلك الأعوام الأربعة التى قضاها إبراهام ينتظر أن يرشح للكونجرس ولكنها أوشكت أن تفلت منه هذه المرة كذلك لولا مهارة زوجه ولباقتها فى التأثير على رجال الحزب حتى ظفر آخر الأمر بالترشيح ولما تم له ذلك راح يخوض المركة الانتخابية وأمله فى الفوز عظيم ...

وعجب الناس أن رأوا لنكولن يومئذ يعمل على كسب التأييد بوسائل منظمة وهو الذى اعتاد من قبل أن يعمل حسبما تملى عليه المواقف فى غير تدبير أو ترتيب. عجب الناس أن رأوه يرسم الخطط ويسدد السهام فلا تخطىء مرماها ، وكأنه كان فى تلك المركة الانتخابية قائداً فى معركة حربية يدبر الهجوم ويعد وسائل الدفاع وهو بصير بالموقف عليم بما يدور حوله يميز باللمحة الخاطفة مايأخذ مما يدع ويتبين مهما اشتد من حوله ضجيج الموقف الطريق المؤدية إلى النصر ...

كتب إلى أصدقائه فى نواحى المقاطعة يطلب إليهم العون ويسألهم أن يدلوه على مؤيديه ليكتب إليهم شاكراً وعلى مخالفيه ليبتغى إلى إقناعهم الوسيلة ؛ وأخذ يتحدث فى الأندية ويخطب فى الجماعات لا يدع فرصة ولا يتخلف عن موعد ، وله من نباهة الذكر وطيب السمعة ومن محبة الناس لشخصه ما ينزله على الرحب أينما حل ؛ وهل كان الناس يعرفون فى خلقه غميزة ، أو يجهلون من خلاله ما يحببه إلى قلوبهم ؟

ولكن للسياسة حكمها ولها غرائبها ، وكم تأتى رياحها الهوج على ما بين الناس من مودة وكم تترك ألاعيبها وأضاليلها الناس فى عماية وغواية ، وكم تصدم الشهوات فى معتركها عن الحق وهم يعلمون . أجل كم يظهر فى السياسة الباطل على الحق وكم يدلس الرأى بالهوى وكم يضيع ما تواضع الناس عليه من أصول الفضائل فيما تزين لهم من أوهام وأحلام ، وما توحى إليهم من غرور العيش ومن مطامع الحياة ...

هذا لنكولن راح يطمنه منافسه فى عقيدته ، وكان واعظاً دينياً فيلجأ إلى الدين يتخذ منه سلاحاً فيكيد به لخصمه كيداً أليماً ولا يرعوى عن غيه بوازع من خلق أو يدافع من حياء ؛ كان من رجال الحزب الديموقراطى واسمه كارتريت وكان متدفق النشاط متوثب الحيوية ذرب اللسان ، ونشط يستعدى على إبراهام مواهبه ويسلط عليه لسانه فى غير إعياء أو سأم ، يتهمه بالزيغ والإلحاد مشيراً إلى ما أذاعه لنكولن من قبل عما يجب من تسامح نحو شاربى الخمر عائباً على بعض رجال الدين أن ينقموا على الناس فجورهم وينكروا عليهم فواحشهم ولا ينهضوا لنصحهم أو يعملوا على خلاصهم مما هم فيه .

وآلم لنكولن أكبر الألم أن يعمد منافسه إلى هذا السلاح وإن لم يخش على نفسه منه ؛ ذهب مرة إلى حيث انضم إلى جماعة يستمعون إلى منافسه وهو يتلو عليهم حديثاً دينياً ، وبعد هنيهة قال كارتريت « ليقف كل من يريد أن يحيا حياة جديدة وأن يسلم إلى الله قلبه وأن يذهب إلى الجنة » ثم أردف قائلا « ليقف من لا يريد أن يذهب إلى الجحيم » ووقف الناس جميعاً إلا ابراهام فاتجه الرجل إليه وقال « هل لى أن أسألك يا مستر لنكولن إلى أين أنت ذاهب ؟ » ونهض لنكولن فأجاب قائلا : « إنى جئت هنا لكى استمع فى احترام ولم أكن أعلم أن الأخ كارتريت سيعمل على إفرادى على هذا النحو ، وإنى أومن أنه يجب أن نطرق المسائل الدينية بما هى جديرة به من التوقير ؛ يسألنى الأخ كارتريت فى غير التواء إلى أين أنا ذاهب وأنا أجيبه فى غير التواء كذلك أنى ذاهب إلى الكونجرس !.. » .
وجلس لنكولن وضحكات الإعجاب تنبعث من جوانب المكان وقد كسب عدداً من المؤيدين له المحبين لشخصه ...

وعلم ابراهام أن خصومه يرمونه فيما يرمونه به من الأباطيل بأنه أرستقراطى لا يحفل رجاء العامة ولا يستجيب لهم دعاء ودليلهم على ذلك زواجه من مارى فدفع تلك التهمة عن نفسه بإشارته إلى حياته الأولى يوم كان « غريباً لم يلق حظاً من التعليم ، معدماً يعمل فى قارب نظير أجر لا يتجاوز بضع دولارات كل شهر » ...

وفى تلك السنة كانت الحرب بين الولايات المتحدة والمكسيك دائرة الرحى

بسبب مشكلة تكساس ، وكان پولك الديموقراطى الذى غلب هنرى كلى سنة ١٨٤٤ على الرياسة يشرف على شئون القتال وقد وعد قومه نصراً عاجلا وخيراً كثيراً ...

وقد تأثرت سمعة الهوج كثيراً بما كان من أمر زعيمهم كلى تلقاء مسألة تكساس وضمها إلى الاتحاد وما كان من معارضته فى إعلان الحرب على المكسيك وتنديده بمسلك الديموقراطى پولك ؛ ولهذا كان يلقى ابراهام عنتاً شديداً من الديموقراطيين إذ يذكرونه بمسلك حزبه وزعيم حزبه ومسلكه هو حين نشط لتأييد هنرى كلى قبل ذلك بعامين وعارض أشد المعارضة فى ضم تكساس إلى الاتحاد ، بينما يرونه اليوم يحث مواطنيه على التطوع فى صفوف القاتلين ، وكانوا يعيرونه بهذا التناقض بين يومه وأمسه ، ولو كان غيره فى مكانه لأخذته حيرة من أمره ، ولكنه أعلن فى شجاعة وفصاحة أنه إذا تهدد الخطر البلاد فلا عبرة بأسباب الحرب ولا بما تؤدي إليه وإنما يجب أن يكون هم كل امريكى أن يجنب بلاده مايحدق بها من خطر وأن يعمل على النصر بكل ما فى وسعه ، ثم إن العقلاء من الناس رأوا أن ابراهام بدعوته الناس إلى الحرب يقيم الدليل على أنه لا يتعصب لرأى له سلف لمجرد أنه اعتنقه يوماً ما وأنه ببصيرته يرى أوجه الرأى جميعاً فى كل ما يعرض له .

وانتهت المعركة بفوزه فوزاً لم يتح مثله لأحد قبله من الهوج فى إلينوى ؛ وكان يومئذ فى السابعة والثلاثين من عمره ؛ وكان الحزب قد اعطاه مائتى دولار لينفق منها فيما تتطلب المعركة الانتخابية من أوجه الإنفاق ، ولكنه بعد الفوز رد المبلغ ولم ينقص منه إلا ثلاثة أرباع دولار قائلا إنه لم تكن به حاجة إلى النقود حيث كان ينتقل من جهة إلى جهة على ظهر حصانه ، وأنه كان ينزل ضيفاً على أصحابه حيث تعد له الاجتماعات ...

وفرحت مارى بالنصر فرحاً شديداً وحق لها أن تفرح وإنها لتحس أنها تخطو خطوة نحو هدفها وهل كان ذلك الهدف إلا كرسى الرياسة يتربع عليه زوجها ؟ وإنها ما تفتأ تستحثه وتشد أزره وتحذره أن ينصرف عن وجهته ...

وكان هذا النجاح كفيلا أن يبث فى قلب إبراهام من الغبطة والابتهاج بقدر

ما بثـه فيه طول الانتظار من الضجر والملل ؛ ولـكنه كتب إلى صديقه سبيد ينبئه أنه لم يهتز كثيراً للنجاح كما خيل إليه من قبل أنه فاعل إذا ظفر ؛ وتلك حال من حالاته العجيبة بل هى حال من حالات النفس تدعو إلى العجب ! فـكثيراً ما يتمنى المرء ما ليس فى يده حتى لتكون سعادته كلها مجتمعة فى أن ينال ذلك الذى يتمناه فإذا اقترب من بغيته أو شبه له أنه مقترب منها راح يطفر من الفرح ورأى فى كل شىء حوله معانى الحبور والغبطة ، أما إذا بعد عن ضالته أو خيل إليه أنه مبتعد عنها ضاقت فى وجهه الدنيا وبات من همه كأنه فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج ، حتى إذا قدر له آخر الأمر أن يرسو على الشاطىء وأن ينال مبتغاه وقف حياله وقفة من لم يجد شيئاً وفتح عينيه على الحقيقة كمن يفيق من حلم ذابت ألوانه وتلاشت أطيافه وتبددت رؤاه ، ذلك هو غرور الحياة أو تلك هى أحلامها ؛ ولـكن ما قيمة الحياة فى جملتها إن هى خلت من هاتيك الأحلام ؟
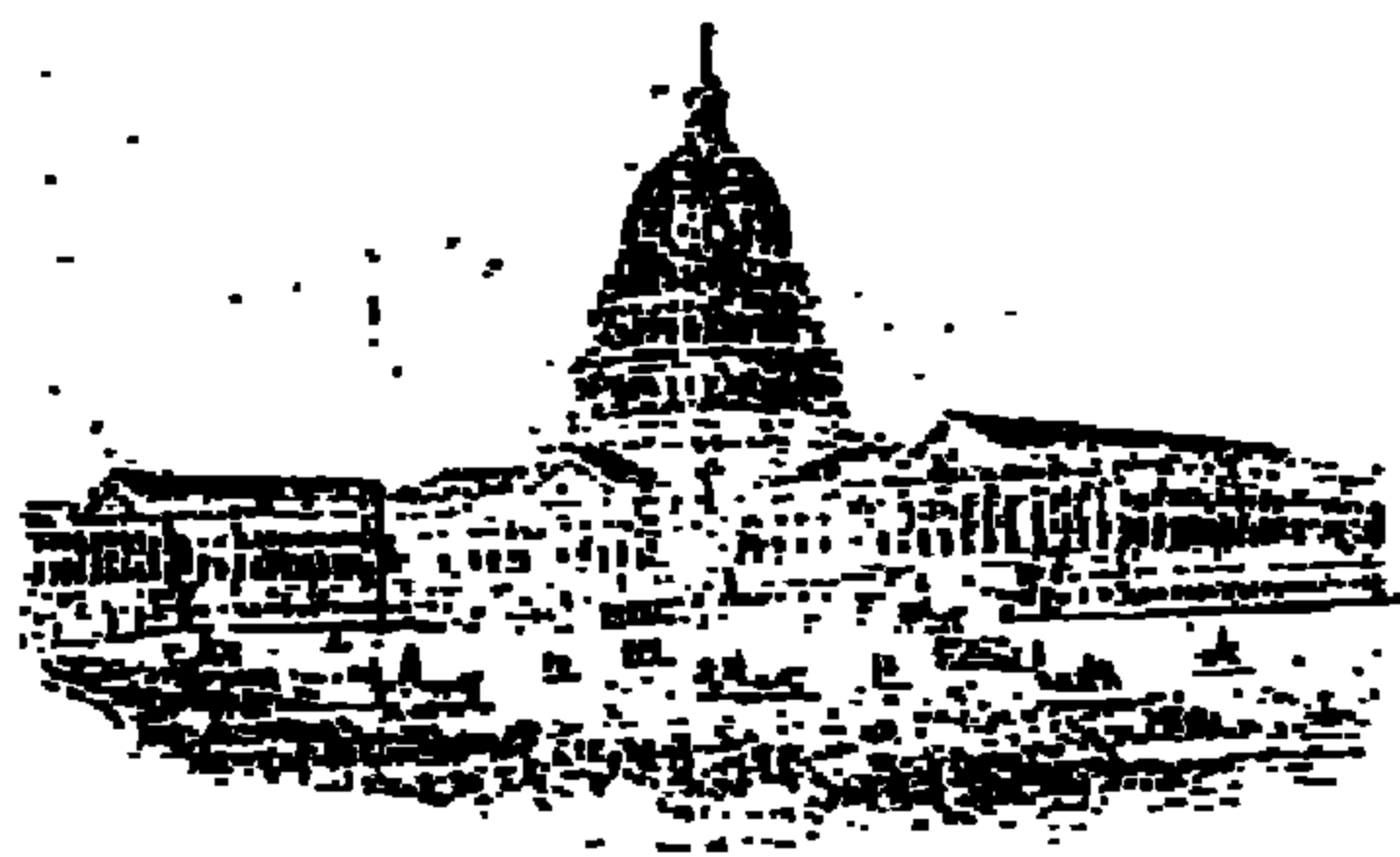
عضو فى الكونجرس

سافر أبراهام وزوجته سفراً طويلا إلى وشنطون فى شهر نوفبر سنة ١٨٤٧ ؛ وكانت مارى راضية عن زوجها متفاخرة به مطمئنة إلى مستقبله ؛ وفى هذه العاصمة شهدت مارى البيت الأبيض وأطلقت العنان لخيالها وأمانيها ؛ ورأت زوجة الرئيس بولك تقدم إليها السيدات احترامهن إذ تلقاهن فى مثل وقار الملكة المتوجة وعظمتها وإن لم يعل التاج رأسها ، وتطلعت مارى إلى المستقبل وهى تطيل النظر إلى مسز بولك فى إعجاب وإجلال .

وفى شهر ديسمبر اتخذ أبراهام مقعده فى الكونجرس عضواً فى مجلس النواب عن إلينوى وهو اليوم غيره حين دخل سبرنجفيلد قبل ذلك بعشرة أعوام على جواده الهزيل ؛ هو اليوم مهندم الملابس إذ تعنى زوجه بهذا عناية شديدة ، وقد ذهبت عن محياه نظرات السذاجة التى جعلت ذلك الإنجليزى بالأمس يصفه بأنه أشبه بفلاح يشهد البهلوان لأول مرة ؛ وهو اليوم ملم بالسياسة ومسائلها وبمشكلة العبيد وتاريخها ، وهو لا يخشى تهيباً ولا وجلا إذا تحدث أو تهيأ للخطابة ؛ وكانت زوجه تراه فى مقعده من شرفة الزائرين ، وفى وجهها ابتسامة الرضا عنه والزهو بجلوسه حيث يجلس ... وإن كانت لتغضب أحياناً حين تسمع من يتساءل عن ذلك الشخص النحيف الطويل فيكون الجواب أنه محام من الغرب ؛ وتسأل نفسها متى يذكرونه باسمه أو متى يعرف كما يعرف غيره من رجال السياسة فلا يتساءل أحد عنه ، وإنها لترى دوجلاس وهو فى الكونجرس عضو فى مجلس الشيوخ أعلى درجة من بعلها وتجده معروفاً لا يتساءل الناس عنه فتتألم وتعبس ، ولكن هاجساً يهمس فى نفسها بمستقبل أبراهام فيسرى عنها غضبها .

وسرعان ما أنس الناس بأبراهام ، فهم إذا جلسوا إليه يشعرون أن روحاً قوية تسرى إليهم منه ، وكذلك تطل عليهم نفسه فى فيض من قصصه ونوادره فكثيراً مايخرج من صمته مبتدئاً فى بشر بهذه العبارة «يذكرنى ذلك بحكاية ... »

ثم يتلو حكايته أو يحكى نادرته فى عذوبة روح وسراوة طبع وجمال أداء حتى ما يدع أحداً إلا وهو شديد الإعجاب به عظيم الانجذاب إليه سواء من كان مثله من الأصقاع الغربية أو من كان من أصقاع الشرق .

وكانت مسألة الحرب المكسيكية تشغل الأذهان يومئذ ، وقد أرسل الرئيس بولك رسائل إلى الكونجرس يبرر فيها أسباب إعلان هذه الحرب ويبرر طولها ويعبر عن أمله فى أن تنتهى قريباً بالنصر .

ونظر رجال الكونجرس فإذا بذلك المحامى النحيف الطويل القادم من الغرب يخطو خطوة جريئة تلفت إليه جميع الأعضاء كما تلفت إليه الصحافة ؛ ذلك أنه قدم أسئلة إلى الرئيس عن هذه الحرب ثم أعلن رأيه فى خطبة قوية احتفل لها وفيها وجه اللوم فى صراحة وجرأة إلى رئيس الاتحاد أن خرج بهذه الحرب على الدستور كما فرط بها فى أصول الخلق والعدالة ...

تساءل أبراهام هل كانت الحرب حرب عدوان أم حرب دفاع ؟ وهل كانت الولايات المتحدة هى البادئة بها أم المكسيك ؟ ثم قال : « ليجب الرئيس بوقائع لا بجدل وليذكر الرئيس أنه يجلس حيث جلس وشنطون وإذا ذكر ذلك فليجب كما كان يجيب وشنطون ، وكما أنه لا يليق بأمة أن تهرب من الحق والله لا يسمح أن يهرب منه ، كذلك فليتجنب الرئيس الهرب والمراوغة ؛ فإذا استطاع أن يقيم الدليل على أن الأرض التى سالت عليها الدماء أول ما سالت هى أرضنا فإنى أوافقه على ما يسوق من مبررات ولكنه إذا عجز عن ذلك أو أحجم عن البرهان كنت خليقاً أن آخذ على اليقين ما يهجس فى نفسى مما هو أكبر من الظن ، فأرى أنه يشعر بخطيئته وأن الدم الذى سال فى تلك الحرب هو كدم هابيل يستصرخ عليه السماء ، فقد ورّط الدولتين فى حرب ووثق من تجنبه الاستجواب بأن حسر الأبصار فى سنا العظمة الحربية ، قوس الغمام الجذاب الذى يعلو فى رذاذ من الدم أو عين الثعبان التى تسحر لتهلك ، ثم أثخن فى الأرض وسيق مرحلة بعد مرحلة حتى إذا فاته التوفيق فيما قدر لإخضاع المكسيك من سهولة ، وجد نفسه بحيث لا يعلم أين يكون مما هو بسبيله ... » .

عضو فی الکونجرس

ولكن الولايات المتحدة كانت ظافرة فكانت الحرب لذلك أمراً مستساغاً في نظر أكثر الناس لأنها سوف تضم إلى الولايات أرضاً جديدة ؛ ومن أجل ذلك لم ينل أبراهام بخطابه من الرئيس ولم يكن هناك ما يجبر الرئيس على أن يرد على تلك الأسئلة فكان الفشل نصيب هذا الخطاب من الناحية السياسية ؛ ولكن أبراهام قد جعل الأمر فى هجومه أمر عدالة وخلق لا أمر سياسة فإنه يندد بالعدوان على المكسيك ويستنكر ذلك الفعل وبخاصة من دولة تدعو إلى الحرية وتباهى العالم بأنها أرض العدالة ، ولئن كان موقفه ضعيفاً إذا أردنا السياسة فإنه كان عظيم القوة بما أظهر للملأ من اهتمام بروح العدالة فى أمر طرب له أكثرهم غافلين عما به من جور .

ومما جاء فى ذلك الخطاب قوله : « إن من حق أية أمة فى أية جهة إذا أحست فى نفسها الميل واستشعرت القوة ، أن تثور فى وجه الحكومة القائمة وتعصف بها ، ثم تقيم بعد ذلك من الحكومات ما يكون أكثر ملاءمة لها » . وإنا لنراه بذلك يجعل للثورات صفة شرعية ثم إنه يقرر مبدأ سلطة الأمة ويجعلها أساس كل سلطة .

تلك هى خطبة لنكولن التى افتتح بها عمله فى الكونجرس . تراها وإن لم تصب موضع العطف من نفوس الأعضاء قد رفعت ذكر ذلك المحامى فى قلوب رجال السياسة فى وشنطون ، وعلم من لم يكن يعلم منهم مقدار ما أوتى ابن الأحراج من قوة البادهة ومتانة الحجة وفصاحة اللسان ، ومبلغ ما رزق من قوة الجنان ويقظة الوجدان ، ورأوا فيه إلى جانب القصاص الذى لا يبارى الخطيب الذى يعرف كيف يسحر السامعين وإن كانوا عن آرائه معرضين .

وكم للتاريخ من مواقف تدعو إلى العجب ! فهذا لنكولن اليوم فى الكونجرس يقرر حق الشعوب فى اختيار ما ترضى من الحكومات ويندد بحرب العدوان ، ولسوف يتخذ أهل الجنوب فى غد من أقواله حجة عليه ؛ يوم يهمون بالانسلاخ من الاتحاد والرئيس لنكولن يأبى عليهم ما يبتغون ويعمد إلى الحرب فيصليهم نارها ويكرههم على البقاء فى الاتحاد وهم صاغرون !

ولم يقع خطابه موقعاً حسناً فى نفوس الهوج من أهل سبرنجفيلد وإن كانوا يرون فيه ما ألفوه منه من توخى العدالة فى كل أمر ؛ كتب إليه صديقه وشريكه

هرندن يخبره بذلك ويعلن إليه أنه كذلك يخالفه فيما فعل . ورد أبراهام على كتابه يوضح وجهة نظره ويذكر أنه ينكر من الحرب بعدها عن العدالة ومخالفتها روح الدستور ، ويؤكد لصاحبه أنه لو كان فى مكانه لفعل مثل فعله .

ولقد ساء لنكولن وبلغ من نفسه ما كان من سوء وقع خطابه فى سبرنجفيلد على النحو الذى ذكره هرندن ، فإنه ما كان يتوقع غير الإعجاب بذلك الخطاب الذى عنى به عناية شديدة ؛ وإنه ليجعل للخطابة أهمية كبرى يومئذ ويراها عدة السياسى الطموح ؛ تلمس ذلك فى كتاب أرسله إلى هرندن قال فيه : « إنما أمسك قلمى لأقول إن مستر ستيفن المنتمى إلى جورجيا وهو رجل ضئيل الجرم نحيف شاحب الوجه أنهكه السل له صوت مثل صوت لوجان ؛ قد فرغ لتوه من أحسن خطاب استغرق ساعة سمعته فى حياتى وإن عينى الذابلتين الجافتين لا تزالان مملوءتين بالدمع ولو أنه كتبه ونشره لرأى الناس نسخاً عديدة منه » .

ولم يعف أبراهام من استياء رجال حزبه فى سبرنجفيلد أنه وافق على الاعتماد المالى الذى قرره الكونجرس لمتابعة الحرب ، وكانت حجة أبراهام فى ذلك أنه لامناص من اعتماد المال وقد تورطت الولايات المتحدة فى الحرب فعلا ؛ أما مشروعية هذه الحرب أو دستوريتها فهذا ما لا يؤمن به وما لا يزال يدافع عن رأيه فيه . جاء فى كتاب له إلى هرندن قوله : « إن احتياط الدستور فى جعل السلطة فى شؤون الحرب إلى الكونجرس قد أملته كما أعتقد الأسباب الآتية : اعتاد الملوك أن يجروا دولهم إلى الحرب ويجلبوا إليها الفاقة مدعين فى أغلب الأحيان — إن لم يكن دائماً — أن خير أممهم هو رائدهم ؛ وقد فطن رجال المؤتمر الذى وضع الدستور إلى أن هذا فى استبداد الملوك أكثر أعمالهم طغياناً ؛ وعلى ذلك فقد صمموا أن يجعلوا الدستور بحيث لايسمح لفرد أن يملك من السلطة ما يفرض به علينا هذا الطغيان ، ولكن وجهة نظرك تقضى على هذا كله وتضع رئيسنا فى موضع هؤلاء الملوك » .

وكتب إليه هرندن بعد أيام كتاباً يصور فيه مبلغ ما وصل إليه استياء أصدقائه فى سبرنجفيلد من مسلكه بصدد حرب المكسيك ؛ وكان لنكولن قد اشترك فى مؤتمر عقد فى فيلادلفيا لترشيح رئيس جديد للاتحاد ؛ وفيه أيد أبراهام ترشيح ذكرى تيلور بطل حرب المكسيك وانصرف كما انصرف معظم الهوج عن تأييد هنرى كلي .

وكان إعجاب لنكولن بهنرى قد ذهب فجأة حين زار أبراهام مدينة لكسنجتن عام ١٨٤٦ ليستمع إلى خطاب أعلنت الصحف أن هنرى سيلقيه هناك ؛ فلما رآه أبراهام وسمعه وكان قد سافر هذا السفر الطويل ليسمعه لم يعجبه كخطيب لا فى سمته ولا فى صوته ، كما أنه رآه متكبراً يتعصب لآرائه ويظن أن الناس دونه فى الفهم والسياسة وقد لمس لنكولن فيه هذه الخصال عن قرب إذ دعاه هنرى فنزل ضيفاً عليه أياماً كان هنرى يتسامى فيها على كل شخص معجب به كأنما يشعر أن من حقه أن يكون موضع الإعجاب وأن يشمخ بأنفه كما يشاء .

وكان أبراهام عائداً من إحدى جولاته الانتخابية التى أخذ يدعو فيها لتيلور ضد كاس مرشح الديموقراطيين وهو ممتلىء حماسة وأملاً ونشاطاً شأنه فى كل دعوة يدعو إليها ، فوجد كتاب صاحبه هرندن فقرأه ورد عليه قائلا : « إن الأمل والثقة عظيمان فى الميدان الانتخابى كله ، وكنت أتوقع أن تصلح إلينوى موقفها وتنشط فى هذا المضمار ، ولك أن تحكم كيف كان ممزقاً للقلب أن أجىء إلى حجرتى فأجد كتابك المثبط وأقرؤه » ... على أن اليأس لم يتطرق إلى قلبه الكبير فقد استرسل فى كتابه يقول : « والآن فيما يتصل بالشباب ينبغى ألا تنتظروا حتى يدفعكم إلى الأمام من هم أكبر منكم وهل تظن مثلا أنى كنت أحظى بالاعتبار لو أنى لبثت حتى تصيدنى ودفعنى إلى الأمام الشيوخ ؛ اجتمعوا أيها الشباب وألفوا نادياً حيثما اتفق ورتبوا اجتماعات لكم وخطباً ، اقبلوا فى صفوفكم كل من تستطيعون قبوله ؛ اجمعوا الفتيان المتوثبين ذوى الجرأة أينما صرتم سواء من بلغ سن الرشد منهم ومن كان دونها قليلا واجعلوا كلا منهم يلعب الدور الذى يحسن لعبه أكثر من سواه ، فبعضهم يخطب وبعضهم يغنى وكلهم يهتفون ، واجعلوا اجتماعاتكم فى الأماسى فسيذهب الكبار من الرجال والنساء ليستمعوا إلى ما تقولون وبذلك لا تكون الفائدة من هذه الاجتماعات مجرد الدعوة لانتخاب « زاك العجوز » فحسب ، بل إنها تكون مع ذلك قضاء ممتعاً للوقت وسبيلا إلى إصلاح مواهب من يشهدونها » .

ولكن هرندن كان متشائماً يحس ضعف حزب الهوج ويتوقع قرب فنائه ، وقد نشرت بعض الصحف المحلية آراءه هذه فقص منها قصاصات وأرسلها إلى

لنكولن لجاءه منه هـذا الـكتاب الذى تجد فيه أمثلة واضحة لأخلاق لنكولن وسجاياه قال : « وصلنى كتابك المصحوب بقصاصات الصحف ليلة أمس ، وإن موضوع هذا الـكتاب ليؤلمنى أشد الألم ، ولا يسعنى إلا أن أفـكر أن هناك خطأ فيما تذهب إليه من الدوافع التى تحرك الشيوخ ، وإنى أزعم أنى الآن أحد الشيوخ ، وإنى أعان معتمداً على صدق الذى أثق من حسن رأيك فيه أنه ما من شىء يرضينى أكثر من أن أعلم أنك ومن معك من أصدقائى الشباب تأخذون قسطكم فى الصراع القائم وتعملون ما يحببكم إلى الناس ويرفعكم إلى منزلة أسمى مما استطعت أن أناله من إعجابكم ؛ ولن أستطيع أن أتصور أن غيرى يرى ما لا أرى وإن لم أكن قادراً على أن أبرهن على هذا الزعم الأخير ؛ بيد أنى كنت حدثاً مرة وإنى لواثق من أنه لم يلق بى أحد إلى الوراء إلقاء غير كريم ؛ إن سبيل الشاب إلى الرفعة هو أن يصلح حاله بكل ما استطاع من وسيلة دون أن يظن الظنون بأحد أنه يريد أن يعوق سبيله ؛ ودعنى أؤكد لك أن سوء الظن والحقد لم يعينا امرءاً قط على أمره فى أى موقف من المواقف ؛ أجل ربما وجدت محاولات غير كريمة لتحول بين شاب وبين طموحه ولتبقيه حيث هو ؛ وإن هذه المحاولات لتنتج إذا سمح لعقله أن يتنكب مجراه الحقيقى ليأسى مفكراً فيما يراد به من ضرر ؛ أنظر ألم يؤذ مثل هذا الشعور كل شخص وقع فيه ممن عرفت ؟ وبعد فأنا على يقين من أنك لن تظن شيئاً فى هذا الذى ذكرت إلا الصداقة الأكيدة ... إنى أريد أن أنقذك من خطأ قاتل ؛ لقد نشأت شاباً عاملا دائباً وإنك تعلم عن معظم المسائل أكثر مما كنت أعلم وأنا فى سنك ولا يمكن أن تفشل فى أمر تضطلع به إلا إذا وجهت عقلك وجهة غير صحيحة ، وإنى أفضلك بعض الفضل فى تجارب الحياة لأنى أكبر منك فحسب ، وإن هذا هو الذى يميل بى إلى أن أنصح لك » .

ولعل فى هذا الـكتاب ما يثير شبهة حول علاقة هرندن بصاحبه الذى عرفنا قبلا أنه كان من أكبر المتحمسين له المعجبين به ؛ ولعل هرندن قد ذكر شيئاً فى كتابه عن الشيوخ والشباب واختلاف نزعاتهم وميولهم ورغبة الشيوخ فى السيطرة والاستبداد بالأمور ؛ ولـكن الأمر فيما يظهر لم يعد أنه خلاف فى الرأى وعجيب أن يزعم لنكولن أنه شيخ وهو لم يتجاوز التاسعة والثلاثين إلا قليلا ...

ولم يقتصر الأمر على الخلاف بين أبراهام وصاحبه فى شؤون السياسة ولا بينه وبين أصدقائه من الهوج بسبب حملته على الرئيس فى حرب رحب بها الشعب كله ؛ بل لقد شاع عنه أنه يضن بوساطته وشفاعته على ناخبيه ، والواقع أنه لم يكن يقبل أن يتوسط أو يتشفع إلا بالحق ، وقد فشا فى الناس ما أشيع عنه بسبب حادثة تتلخص فى أنه رفض أن يكتب خطاباً طلب منه أحد ناخبيه أن يزكيه به فأطلق الرجل لسانه فيه بما لا يليق فكتب إليه لنكولن يقول : « لقد شعرت بأعظم العطف عليك منذ أن تعارفنا وافترضت أنك تبادلنى عطفاً بعطف ، وفى الصيف الماضى تحت تأثير ظروف ذكرتها لك تألمت إذ لم أستطع أن أجيبك إلى تزكية أردتها ، وعلمت بعد ذلك بقليل علماً يحملنى على التصديق أنك أسرفت فى الجهر بالطعن على ؛ ولقد جرح شعورى بالضرورة بسبب ذلك ؛ وعند ماتسلمت كتابك الأخير خطر لى هذا السؤال : أتراك تطلب عونى فى الوقت الذى تؤذينى فيه أم أنه قد أسىء تصوير ما حدث منك ، فإن كانت الأولى فما كان لى أن أرد عليك وإن كانت الثانية وجب على ذلك ولهذا بقيت زمناً معلقاً بين الوضعين ؛ وإنى الآن أرسل طى هذا الكتاب الذى يمكنك أن تستخدمه إذا رأيته مناسباً » .

وكان هرندن يتألم مما يشاع عن صاحبه فى سبر نجفيلد ويدافع عنه ما وسعه الدفاع وإن كان يتمنى لو لم يلق أبراهام ذلك الخطاب الذى يحار كيف يدافع معه عن صاحبه وإنه ليخالفه مع المخالفين فيما ذهب إليه .

على أن لنكولن لم يكن بالرجل الذى يتقيد بأهواء غيره فيما يأخذ أو يدع ؛ وإنما كان رائده الحق والعدل لا يهمه أغضب الناس أم أرضاهم . ولقد كان له فى هذا الدور الأول لانعقاد الكونجرس خطبتان غير تلك الخطبة أعلن فيهما لنكولن آراءه مجردة من كل اعتبار إلا العدالة كما يفهمها ويؤمن بها ؛ تكلم فى الخطبة الأولى بمجلس النواب عما يتصل بتركيز السلطة وما نجم عنه من عدم المساواة بين الحكومة المركزية وحكومات الولايات فى بعض المسائل فضرب لهم المثل بالأسطول فقال : « إن الأسطول مثلا هو أعم هذه الأشياء فائدة ومع ذلك فان له مزية خاصة لكل من شارلستون وبالتيمور وفيلادلفيا ونيويورك وبوستن أكثر مما له بالنسبة إلى داخلية إلينوى ، وعلى ذلك فثمة فوائد محلية فى مسائل عامة ؛

وعكس ذلك صحيح أيضاً فلن يكون شيء فى محليته بحيث لا ينطوى على بعض الفائدة العامة ، والذى يستخرج من هذا كله أنه إذا رفضت الأمة أن تنهض بإصلاحات تتوفر فيها الناحية العامة لأنها تنطوى على بعض الفائدة المحلية فكذلك تستطيع الولاية للسبب نفسه أن ترفض بعض الإصلاحات المحلية لأنها ربما تؤدى إلى فائدة عامة ؛ تستطيع الولاية أن تقول للأمة : إذا لم تعملى شيئاً من أجلى فلن أعمل من أجلك شيئاً ، وهكذا يتضح أنه إذا كان هـذا الجدل الدائر حول عدم المساواة كافياً لوجهة نظر فى جانب فإنه كذلك كاف فى كل جانب وفيه القضاء على الإصلاحات نهائياً ؛ ولكن لنفرض مع كل هذا أن هناك قدراً من عدم المساواة ، حقاً إن عدم المساواة لا يمكن أن يقبل فى ذاته ، ولكن هل يرفض كل أمر صالح لأنه يتصل صلة لا انفصام لها به ؟ إذا كان ذلك فيجب أن نلغى الحكومة كلها ؛ إن هذا البناء أعنى مقر الحكم قد أقيم بنفقة عامة من أجل الصالح العام ، ولكن هل يشك أحد أن هناك فائدة محلية تعود من وجوده على أصحاب الأملاك ورجال الأعمال من ساكنى وشنطون ؟ فهل نزيله من أجل هذا السبب؟ إنى لا أريد التعريض بالرئيس الحالى إذا قلت إنها حالات قليلة تلك التى يتمثل فيها الغنم للقلة والغرم للكثرة — أعنى عدم المساواة — بشكل أشد مما يتمثل فى منصب الرياسة كما يراه البعض ؛ إن عاملاً أميناً يحفر فى مناجم الفحم نظير سبعين سنتياً فى اليوم ، بينما يحفر الرئيس العقليات نظير سبعين دولاراً ؛ وواضح أن الفحم أكبر قيمة مما تساويه العقليات ، ومع ذلك فما أشنع ما نرى بين الثمنين من عدم المساواة ! فهل يقترح الرئيس لهذا السبب إلغاء الرياسة ؟ ! إنه لن يفعل ذلك وينبغى ألا يفعله ؛ إن القاعدة الصحيحة للبت فى قبول أمر أو رفضه ليست أن نتساءل هل ثمت شر فى هـذا الأمر ؛ ولكن هى أن نتساءل هل فيه من الشر أكثر مما فيه من خير ؟ فالأشياء التى هى خير كلها أو شر كلها قليلة ؛ ويكاد كل شيء ، وبخاصة سياسة الحكومة يكون مزيجاً لا ينفصل من الخير والشر ، وعلى ذلك فإن المفاضلة بينهما وهى أحسن ما نتبع للحكم على الأشياء أمر مطلوب أبداً » .

هذا هو منطق لنكولن القائم على الفهم والإنصاف ؛ تراه لا يتمسك برأى لمجرد المغالبة واللجاج ، وترى روح العدالة تسيطر على ما يعرض من الآراء

لا يستطيع أن يلتوى أو يداجى أو يتعامى عن الحق ، وله مع ذلك حصافة وقوة حجة وقريحة طيعة تواتيه بالأمثلة وتعينه خير عون على المقارنة والقياس والحكم فما يسع سامعه إلا الاقتناع .

وتجلت فى الخطبة الثانية مقدرته العظيمة على التهكم وزلزلة مجادليه بالفكاهة القوية فى غير تبذل أو ترخص أو مجانة فى القول ؛ وتعد هـذه الخطبة من أبلغ وأقوى ما نطق به لنكولن لا فى الكونجرس فحسب ؛ بل فى حياته السياسية كلها وبها برهن أنه قادر أن ينال من خصمه بسلاح السخرية بقدر ما ينال منه بالمنطق القويم والتحليل السليم والسياق البارع ...

عاب أحـد الديموقراطيين من أنصار كاس مرشح الحزب الديموقراطى على الهوج تناقضهم إذ ينكر بعضهم حرب المكسيك ثم يؤيدون ترشيح تيلور بطل هذه الحرب للرياسة ، وقال هذا الديموقراطى متهكما إنكم أيها الهوج تتخذون مأواكم تحت ذيل حلة حربية ؛ فقال لنكولن : «يقول هذا السيد إننا تركنا مبادئنا جميعاً واتخذنا مأوانا تحت ذيل حلة الجنرال تيلور الحربية وأن هذا مشين لنا ! وإذا كانت هذه هى عقيدته فله أن يعتقد ما شاء ؛ ولكن ألا يتذكر ذيل حلة حربية غير هذا اتخذ تحته مأواه حزب معين آخر زهاء ربع قرن ؟ أليست له معرفة بذلك الذيل القوى ذيل حـلة الجنرال جاكسون ؟ ألا يعرف أن حزبه قد خاض غمار الانتخابات الخمسة الأخيرة للرياسة تحت ذلك الذيل وأنهم الآن يخوضون المعركة السادسة تحت الغطاء نفسـه ؟ أجل يا سيدى إن ذلك الذيل قد استخدم لا فى انتخاب الجنرال جاكسون نفسه فحسب ، بل إنه منذ ذلك الوقت لا يزال كل مرشح ديموقراطى يستمسك به استمساك الاستماتة ؛ إنكم لم تجرؤا ولن تجرؤا أن تبرزوا من تحته ، وإن أوراقكم التى تنشرون فى المعركة ظلت دائماً ملأى بالإشارات إلى هيكرى العجوز[1] ، وبالرسوم الشوهاء التى تمثل الجنرال الشيخ ؛ كما أنها كانت مفعمة بشارات لا نهاية لها متخذة من جذوع الهكرى وأغصانها ؛ ولقد أطلقتم على مستر پولك نفسه شجرة « الهكرى الفتية » أو « الهكرى الصغيرة » وها هى

---

(١) اسم أطلق على الجنرال جاكسون تشبيهاً بشجرة الهكرى الشامخة المتينة السامقة الفروع .

ذى الآن أوراقكم الانتخابية تزعم أن كاس وبتلر من فصيلة العسكرى ... لا يا سيدى إنكم لا تجرؤون على التحرر من هذا ... ولقد لبثتم متعلقين بذيل ذلك الأسد فى منزله حتى نهاية حياته ؛ وها أنتم أولاء ما زلتم تتمسكون به ، وتستمدون منه عوناً بطريقة بغيضة بعد موته ؛ زعموا أن رجلا أعلن ذات مرة أنه أحدث كشفاً به يستطيع أن يصنع رجلا جديداً من رجل قديم ، وأنه قد بقى لديه فضل من مادة الرجل يكفى لصنع كلب أصفر صغير ، وهكذا كانت شهرة الجنرال جاكسون لكم كذلك الكشف المزعوم ، فإنكم لم تكتفوا بصنع رئيسين منه اعتماداً على شهرته ؛ بل إنه لا تزال لكم فضل منه يكفى لأن تصنعوا منه رؤساء هم أصغر قدراً إذا قيسوا بمن مضوا ، ولا زال أهم ما تعتمدون عليه الآن هو أن تصنعوا رئيساً جديداً ... !

والآن أيها السيد رئيس المجلس ، إن الخيل العتاق وذيول الحلل الحربية أو الذيول من أى نوع ليست من صور البيان التى أرتضى أن أكون أول من يدخلها فيما يجرى هنا من مناقشات ، ولكن بما أن ذلك السيد المنتمى إلى جورجيا قد وجدها لائقة لأن يدخلها فرحباً به وبك فى كل ما استطعتم أو ما تستطيعون أن تفعلوا بها ؛ وإن كان لديكم مزيد من الخيل العتاق فأطلقوها أو كان لديكم مزيد من الذيول فارفعوها وأقبلوا علينا ؛ إنى أكرر أنى ما كنت أحب أن أدخل هنا هذا النوع من الكلام ، ولكنى أرغب أن يفهم السادة من الجانب الآخر أن استعمال الصور البيانية المشينة لعب قد يجدون أنفسهم فيه بحيث لا يصيبون كل مغنم [صوت ... كلا نحن نتخلى عنه] أجل إنكم تتخلون عنه وحسن ما تفعلون .

وبهذه المناسبة هل علمت أيها الرئيس أنى بطل من أبطال الحرب ؟ أجل ياسيدى ؛ فى أيام حرب الصقر الأسود ، قد حاربت وجرحت ، وإن الحديث عن صنيع الجنرال كاس ليذكرنى بصنيعى ؛ إنى لم أشهد هزيمة ستل مان ، ولكنى كنت على مقربة منها بقدر ما كان كاس على مقربة من استسلام هل ؛ ولقد شاهدت المكان بعدها كما فعل هو ؛ وإنى على وجه اليقين لم أكسر سيفى ، لأنه لم يكن لدى سيف حتى أكسره ، ولكنى حرفت بندقيتى عن وجهها بصورة رديئة ذات مرة ؛ وإذا كان كاس قد كسر سيفه فالمفهوم أنه فعل ذلك يأساً ، أما أنا

فقد حرفت بندقيتي بغير قصد ؛ وإذا كان الجنرال كاس قد سبقني في التقاط البرقوق البرى فأظن أني ظهرت عليه في هجومي على برىّ البصل ؛ ولئن كان قد رأى هنوداً مقاتلين فقد فعل ذلك أكثر مما فعلت ؛ على أنني من ناحيتي قد منيت بمثل ما مني به من نضال دموى ولكن مع البعوض ! ولو أنني لم أدخ قط بسبب ما فقدت من دم إلا أنني كنت أحس جوعاً شديداً أكثر الوقت ...

أيها السيد الرئيس ، إذا استطعت أن يكون شأني مع الديموقراطيين بحيث لا يجدون لديهم ما يمنع من ترشيحي لرياسة الولايات فأني أقرر أنهم لن يسخروا مني كما يسخرون من الجنرال كاس بأن يجعلوا مني بطلاً من أبطال الحرب ...

إني أذهب مذهب أحد الأصدقاء ، أيها السيد الرئيس ، فأرى في الجنرال كاس قائداً موفقاً في هجماته ، فإن له هجمات حقاً لا على أعداء البلاد ولكن على خزانة البلاد ! لقد كان حاكما لمتشيجان من اليوم التاسع من أكتوبر سنة ١٨١٣ إلى اليوم الحادى والثلاثين من يوليو سنة ١٨٣١ ، وهى مدة سبع عشرة سنة وتسعة أشهر واثنين وعشرين يوماً ؛ ولقد استولى أثناء ذلك من خزانة الاتحاد على ثمانية وعشرين وتسعة وستين ألف دولار لخدماته الشخصية ونفقاته الشخصية ، فيكون لليوم الواحد أربعة عشر دولاراً وتسعة وسبعون سنتياً طيلة هذه المدة ؛ ولقد وصل إلى هذا المبلغ من المال بادعائه أنه كان يؤدى عملا في عدة أماكن مختلفة ، يظهر في كل منها عدة مواهب مختلفة ، كل ذلك في وقت واحد !

إني لم أشر إلى حساب الجنرال كاس إلا لأبين لكم مقدرته الجسمية العجيبة فإنه لا يؤدى عمل عدة رجال في وقت واحد فحسب ؛ بل يؤديه في عدة أماكن بينها مئات من الأميال ويفعل ذلك في نفس الوقت ! ...

أيها السيد الرئيس ، لقد سمعنا جميعاً نبأ ذلك الحيوان الذى ظل حائراً بين حزمتين من العلف وهو يموت جوعاً ؛ ولكن شيئاً من ذلك لن يحدث للجنرال كاس ، فاجعل بين الحزمتين ألف ميل فستجد لديه ما يأكله في سبيله إليهما ، ثم إنه يأكلهما غير مبطىء ؛ ولقد يصيب في الطريق بعض الحشائش الخضراء فوق ذلك ؛ ألا فلتجعلوه رئيساً بكل ما في وسعكم فإنه سوف يوفر لكم طعامكم إذا ... إذا بقى شيء بعد أن يأكل ! » .

ولقد علت ضحكات أعضاء المجلس؛ واتجه أبراهام إلى مقعده بعد أن أتم خطابه والأنظار جميعاً تتجه إليه ، وما فى الرجال من استطاع أن يملك نفسه من فرط الضحك ، الخصوم والأنصار فى ذلك سواء .

ولما انتهى دور الانعقاد هذا ، طوف لنكولن فى بعض الجهات الشرقية مثل نيويورك ونيوانجلند ، والغربية مثل مقاطعة إلينوى يستأنف الدعوة فى حماسة لمرشح الهوج تيلور . وكان الديموقراطيون كما ذكرنا يحاولون أن ينسبوا إلى مرشحهم كأس من البطولة الحربية مثلما ينسب الهوج إلى تيلور ، والحق أن الحزبين كانا يتمسحان فى المجد الحربى منذ أن رأوا أثره فى شهرة الرئيس جاكسون من قبل .

ولكن ثمة حزب ثالث وهو شعبة من الديموقراطيين جعلوا مقاومة انتشار الرق همهم الأول وسموا أنفسهم حزب « الأرض الحرة » ومن مبادئهم ألا يسمح بالرق فى أرض غير التى وجد فيها الرقيق من قبل وأن يسمح لكل فرد أن يعبر تعبيراً حراً عن آرائه بصدد الرقيق ؛ وكان بينهم أناس ذوو خطر ومكانة وكانوا يرشحون ڤان بيرن للرياسة .

وكان على أبراهام أن يدعو لتيلور ضد الفريقين المتنافسين ، وكان يستشعر الحرج تلقاء أنصار ڤان بيرن لأن دعوتهم ضد الرق كانت مما يتصل بنفسه بأقوى الأسباب .

وأخذ لنكولن يجوب البلاد ، فكان إذا قام فى جماعة لم يروه من قبل جذب إليه الأنظار بطول قامته وغرابة ملامحه ؛ فإذا أطلق العنان لكلامه سرت فى الجموع منه روح عجيبة لا يدرون كنهها وإن أدركوا فعلها ، ورأوا عينيه تلتمعان حتى ما يعرف الناس أنهم رأوا مثلهما قط وأبصروا فى ملامحه معانى أبلغ من كل كلام وأعمق أثراً من كل حجة ، والخطيب ينتقل بهم من مثل إلى مثل ، ومن قصة إلى قصة ؛ ثم إذا به يرسل النكتة البارعة بين حين وحين فإذا هم يضحكون ملء نفوسهم ؛ وهو فى حماسته يشمر ردنى حلته ويفعل مثل ذلك بقميصه ، ولقد يحل رباط عنقه أو ينتزعه من موضعه كأنه مقبل على مبارزة ، ولا يكاد يفرغ

من خطابه حتى يهرع الناس إليه متدافعين بالمناكب لكي يزدادوا نظراً إليه من كثب .

ولقد كان انقسام الديمقراطيين على أنفسهم من عوامل نجاح الهوج فإن مانااله ڤان بيرن من الأصوات كان كفيلاً أن يضمن النجاح للمرشح الديموقراطى كاس لو أضيف إلى ما حصل عليه ؛ ولقد فرح الهوج بانتصارهم فرحاً عظيماً ، وفرح لنكولن وارتاح إلى أن جهوده لم تذهب عبثاً كما ذهبت من قبل فى الدعوة لهنرى كلاى .

ولكن فرحه بالنجاح لم يصرفه عن هاجس يشبه الندم فى قرارة نفسه ؛ فإنه يذكر أنه وجه جهوده لنصرة الهوج كما ينبغى أن يفعل كل رجل يهتم بنجاح حزبه وأغضى مؤقتاً عن الكلام فى مسألة الرق ، بل إنه نشط فى صرف فريق من متحمسى الهوج ضد الرق عن مشايعة أنصار الحزب الجديد فى انتخاب ڤان بيرن ذاكراً لهم أن الهوج يكرهون الرق كما يكره هؤلاء ولكن المسألة فى ذلك الوقت مسألة المعركة الانتخابية أولا . على أنه يذكر كذلك أنه حين استمع إلى تلك الخطبة القوية التى ألقاها أحد كبار الداعين إلى التحرير فى بوستن ضد الرقيق وهو سيوارد لم يخف رأيه بل قال للخطيب « أعلن أنك محق ؛ لقد آن أن نطرق معضلة الرق وأن نلقى إليها من اهتمامنا بأكثر مما كنا نفعل من قبل » .

وفى أثناء عودته إلى وشنطون ليحضر الانعقاد الثانى للكونجرس أيد بكل قوته دعوة أخرى شهيرة قام بها داعية آخر من أشد دعاة التحرير هو ولمت الذى أخذ ينادى بوجوب منع انتشار الرق فى الأراضى التى تستخلص من المكسيك .

وأيد لنكولن دعوة ثالثة جاءت على يد رجل من ديموقراطيي الشمال فى المجلس النيابى إذ تقدم بطلب منع الرق فى كليفورنيا ومكسيكو الجديدة وهى أرض انتزعت من المكسيك وقد تحمس لنكولن لرأى هذا الداعية الديموقراطى كما تحمس له الهوج الشماليون .

وفكر أبراهام فبدا له أنه ينبغى أن يخطو فى هذا الانعقاد الثانى للكونجرس خطوة ضد الرق يكون بها داعية لا تابعاً لمن يدعون ، وما حمله عليها رغبته فى أن يكون داعية وإنما حمله كرهه للرق ذلك الكره المستمر فى أعماق نفسه منذ حداثته .

وأثار ذلك البغض فى نفسه ما رآه من اشتداد الدعوة فى البلاد لمحاربة هذا المنكر، ثم إن منظراً أليماً كريهاً كان يتراءى لأبراهام كلما اتخذ سبيله إلى مقر الكونجرس؛ ذلك منظر حظيرة للزنوج كانت تقع على مقربة من ملتقى رجالات الشعب وصرح حريته، وكان يحشر الزنوج فى تلك الحظيرة ريثما يرسلون إلى الأسواق فى الجنوب؛ وأى منظر أدعى إلى اشمئزاز النفوس الكريمة من تقابل هذين الضدين! ولئن كانت مرارة الحزن قد بلغت من نفسه فإنه آثر الاعتدال والركون إلى الحكمة وأعد لائحة يرمى بها إلى القضاء على الرق فى ذلك الحى حى كولمبيا، فينبغى ألا يكون هناك رق، وإنما يسمح مؤقتاً لرجال الحكومة أن يدخلوا الرقيق فيه ليكونوا لهم خدماً. وعلى الحكومة أن تدفع تعويضاً لملاك العبيد الذين تطلق اللائحة عبيدهم، وعليها كذلك أن تعلم من يولد من السود منذ اليوم الأول من عام ١٨٥٠ على أن يكونوا أحراراً، وبذلك ينقرض الرق على مر الأيام؛ واحتاطت اللائحة لمن يأوى من الرقيق إلى حى كولومبيا فقضت بردهم إلى حيث كانوا.

وكيف قنع لنكولن بالقضاء على الرق فى هذا الحى فحسب متوخياً فى ذلك الحذر كله؟ إن مرد ذلك فيما أرى إلى نظرته العملية إلى الأشياء ورغبته ألا يجعل لأحد حجة عليه، ثم لعله كان يريد أن يجعل من نجاحه إذا نجح حجة يحتج بها إذا نشط الرأى العام فى محاربة الرق ورغب فى القضاء عليه.

ولكنه على الرغم من اعتداله وحذره لم يقدر له النجاح فإن أنصار الرق فى الكونجرس قد ماطلوا فى عرض لائحته حتى أوشك دور الانعقاد على الانتهاء فكان لهم من ضيق الوقت عذر اعتذروا به، ومن يدرى فلعل صاحب اللائحة لا يعود إلى الكونجرس مرة أخرى، وهكذا قدر الفشل لهذه المحاولة. على أن أبراهام سوف يعود إلى وشنطون بعد اثنى عشر عاماً لا عضواً فى الكونجرس ولكن رئيساً للولايات المتحدة ويومئذ يتجه فى معضلة الرق الوجهة التى تمليها عليه خبرته وحصافته ومصلحة قومه.

وأخذ أبراهام أهبته للعودة إلى سبرنجفيلد وما كان يحس شيئاً من ذلك الذى يحسه من يغادر بلداً طاب له فيها المقام وذلك لأن قلبه لم يتعلق بوشنطون تعلق حب أو استمتاع، فمع أنها موطن العظمة ومنتجع الشهرة والجاه فإنها لم تستهو

فؤاده فهى كذلك ميدان الأرستوقراطية تعج الحياة فيها بالغرور واللؤم والأنانية والجشع وهو لايزال فى أعماق نفسه ابن الغابة ، أعظم ما يرتاح إليه أن يطلق نفسه على سجيتها فلا يتصنع ولا يتكلف ولا يحب أن يلتزم فى أمر من أموره بقيد من قيود المدنية وأوضاعها وتقاليدها ، وكم عجب الناس فى وشنطون من بساطته فى كل شىء ومن قصصه التى كان يسردها عن حياته فى الأصقاع البرية وعن نشأته الأولى وفاقته ودينه الأهلى ولا يزال بعض زملائه فى الكونجرس يذكر مرآه ذات يوم وقد سار فى الطريق يحمل على كتفيه كتباً ضخمة ربطها فى منديل أحمر كبير وقد استعارها من مكتبة المحكمة العليا ، فبدا كأنه بائع متجول أو كأنه لايزال ذلك العامل فى البريد ولولا أنهم يعرفونه لما صدقوا أنه عضو فى الكونجرس!

وكما أنه لم يأس على مفارقته وشنطون فإنه كذلك لم يندم على مقامه فيها مدة عامين فإنه قد أفاد خبرة وعلماً وعرف كثيراً من ذوى الشخصيات الهامة واستمع إلى كثير من الخطب ينطق بها أولو العلم والثقافة ، وخبر المناورات الحزبية والمجادلات السياسية فى مجال أوسع من مجال المقاطعات ونفذت عينه اليقظة إلى كثير من محاسن الحياة ومساوئها واختزنت ذاكرته العجيبة الشىء الكثير من الأمثلة والشواهد والمقارنات .

واتخذ لنكولن سبيله إلى سبرنجفيلد فمر بشلالات نياجرا وشاهد هذا المسقط المائى الهائل فأثار منظره شاعريته يدل على ذلك قوله : « كم ذا تبعث نياجرا الماضى السحيق ! إنه عندما كان كولبس يبحث عن هذه القارة بل عندما كان المسيح يعانى آلام الصلب وقبل ذلك عندما كان موسى يقود بنى إسرائيل على متن البحر، لا بل عندما كان آدم لايزال خارجاً من يد بارئه كانت نياجرا تهدر كما تهدر الآن » .

ولقد أشار صديقه هرندن إلى أثر هذا المنظر فى نفس لنكولن فقال : « لقد حدث بعد ذلك أن زرت نيويورك وعدت كذلك عن طريق نياجرا ؛ وأخذت بعد عودتى بأيام أقص فى المكتب على زميلى ما أردت أن أمتعه به من وصف لرحلتى وتحدثت فيما تحدثت عن شلالات نياجرا ، واسترسلت أثناء وصفى فى حميا التصوير ولما تملكتنى حماسة الحديث سايرت ملكة الوصف عندى هذه الحماسة ، ووجدت مادة غزيرة لصورة أخاذة فى الاندفاع الجنونى للماء الدفوق وفى هديره

وفيضه وانسيابه وفى قوس الغمام وقتذاك ، وأثار تذكرى هذا المنظر الهائل المروع قواى الخصبة لتمد أقصى مدها فى الوصف والتصوير ، ولما كدت أحس الجهد مما حاولت التفت إلى لنكولن أسأله رأيه فقلت : أى شىء أثر فى نفسك أعمق الأثر ساعة وقوفك لدى تلك العجيبة العظيمة من عجائب الطبيعة ؟ ولن أنسى جوابه ما حييت لأنه يرينا بصورة هى من خواصه كيف كان ينظر إلى كل شىء قال : إن الشىء الذى راعنى أكثر من كل شىء غيره هو هذا العباب الزاخر كيف تجمع ومن أين جاء ؟ ! لم يعد أبراهام عينيه إلى جمال المنظر وعظمته ولا إلى تدافع الماء واصطخابه وهديره ، ولكن عقله اتجه الاتجاه الذى تعوده فلم يحفل جمالا أو رهبة ، وانساق انسياقاً لا يقاوم يتقصى العلل باحثاً عن العلة الأولى وهذا هو سبيله فى كل أمر ... ولئن كان مرد قوته إلى سر ما فهذا هو السر » .
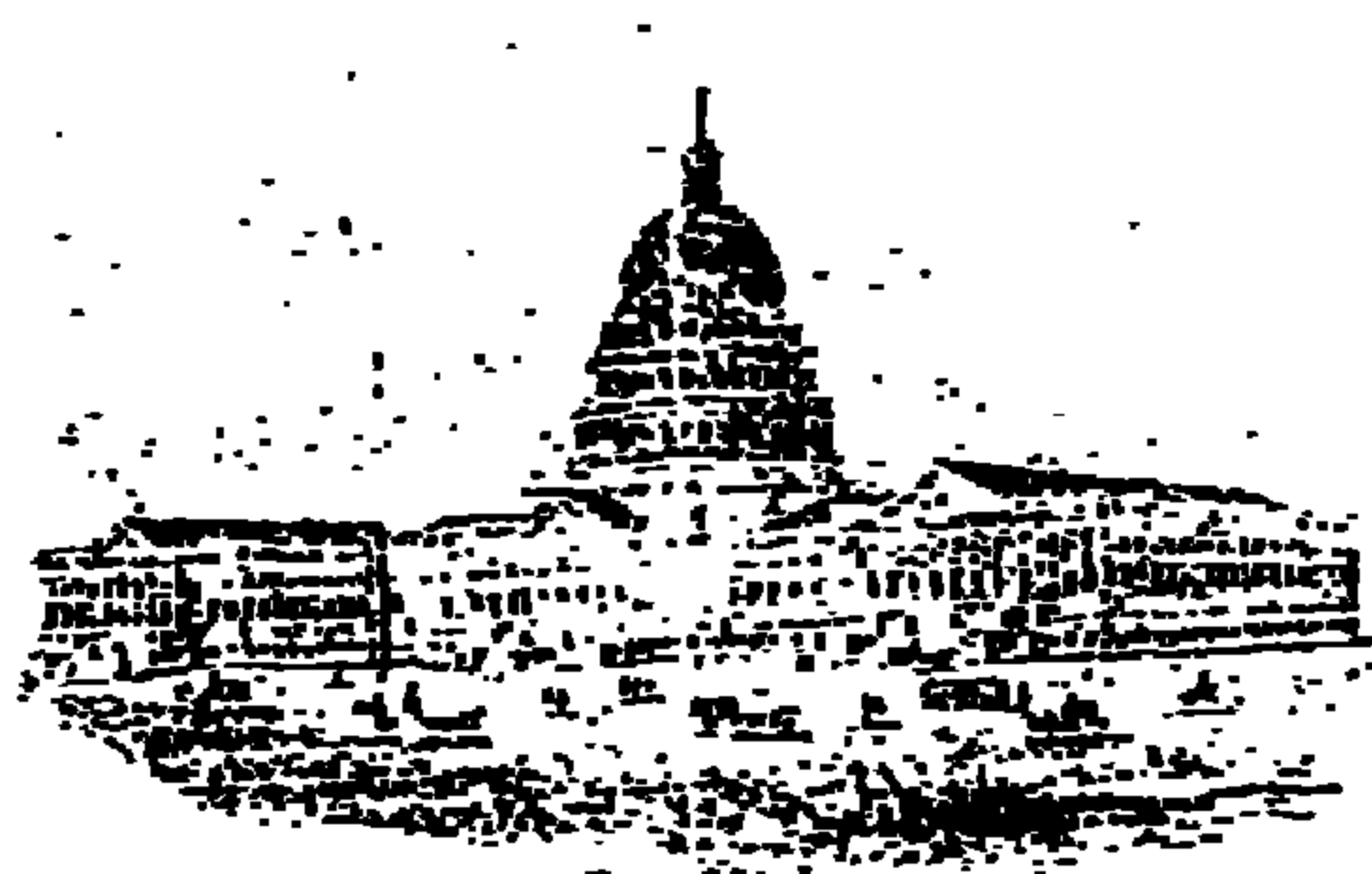
طالب وظيفــــة !...

كان أبراهام لا يأمل أن يظفر بترشيحه ثانية للكونجرس بسبب ما جره عليه موقفه من حرب المكسيك من استياء كثير من رجال حزبه ومنهم هرندن نفسه أحب أصحابه إليه . لذلك لم يكن أمامه إلا المحاماة وهى عمله الطبيعى بعد أن نفض من السياسة يديه ؛ ولكن بعض رجال حزبه كانوا قبيل انفضاض الكونجرس قد زينوا له أن يطلب منصباً رسمياً أشاروا إلى حقه فى طلبه وقد أبلى فى سبيل نجاح الرئيس ما أبلى .

ومن عجيب الأمور أن يتجه أبراهام هذا المتجه فيكون طالب وظيفة ! فهل بات الرجل الكادح الطموح يطلب الرزق من أيسر سبله ؟ أم هل بات يطمع فى الجاه الرسمى الذى ينال بالمنصب الحكومى ؟ ولكن ما له ولهذا وهو لا يتصل أقل صلة بطبعه ؟ أترى هو العسر يحمله على السعى إلى ما يكره ؟ لعل ذلك هو أقرب الفروض إلى المعقول .

وكان المنصب الذى يطمع فيه هو منصب رئيس ديوان الأراضى العامة بوشنطون ، وقد أزمعت الحكومة أن تعين فيه رجلاً من حزب الهوج ومن إلينوى على الأرجح ، وكان لأبراهام بما اكتسب من خبرة فى مسح الأرض ومن خبرة فى ممارسة القانون مايجعله يرى نفسه أهلا لهذا المنصب ، فكتب إلى الرئيس تيلور يطلب منه أن يعينه فيه .

ولكن بعض ذوى المكانة من الهوج تطلعوا مثله إلى ذلك المنصب ونافسوه فيه ومن هؤلاء رجلان يدعى أحدهما إدوارد والثانى موريسون كانا أقوى المتطلعين وأشد المنافسين .

ولما عاد لنكولن إلى سبرنجفيلد وفاتحه بعض أصحابه فى هذا الأمر قال إنه اتفق وبعض رجال الهوج فى وشنطون على أنه إذا تنازل أحد الرجلين إدوارد أو موريسون لصاحبه أيد الهوج من يبقى منهما يطلب المنصب ثم قال : « إذا ترك

هذا المنصب لولاية إلينوى وكان ذلك على أن أقبله ، لا لأى سبب آخر فإنى عندئذ أقبل » .

ورأى أبراهام أن لا بد من السفر إلى وشنطون ليكون على مقربة ممن بيدهم الأمر فسافر إليها ولنقص نبأ هذا السفر فإن فيه ما يزيدنا علماً بجانب من جوانب شخصية لنكولن .

بدأ رحلته فى الصباح الباكر ذات يوم من خان للسفر فى سبرنجفيلد ، ولم يكن فى الخان إلا مسافر واحد غيره من أهل كنطكى كان فى طريقه إلى موطنه فصحب أبراهام مسافة طويلة فى عربة السفر ؛ وشاهد المسافر ما آلمه من أمارات الهم والعبوس فى وجه لنكولن فأراد أن يمحو شيئاً من سأم الرحلة فعرض على أبراهام مضغة من الطباق فأجابه : « لا يا سيدى ، شكراً لك إنى لا أمضغ قط » ثم أعقب ذلك سكون طويل بينهما ؛ وأخرج الرجل بعد ذلك من جيبه علبة مكسوة بالجلد وانتزع منها دخينة فقدمها إلى لنكولن فاعتذر إليه شاكراً كما فعل من قبل لأنه لا يدخن قط ؛ ولما صارا على مقربة من إحدى المحطات التى تتغير عندها الخيل أخرج الرجل زجاجة خمر من بين متاعه وصب منها فى كأس ومد بها يده إلى رفيقه المسافر قائلا : « إيه أيها الرفيق الذى لا أعرفه هل لك وقد علمت أنك لا تمضغ ولا تدخن أن تتناول قليلا من هذا البرندى الفرنسى ؛ إنه ممتع من الطراز الأول وهو إلى جانب ذلك مثير للشهية » ولكنه قوبل كذلك بالإعراض من رفيقه الطويل المنطوى على نفسه وكان عذره أنه كذلك لا يشرب الخمر قط . ولما آن أن يفترقا قبل الظهر ليذهب الكنطكى فى طريق آخر صافح ذلك الرجل أبراهام وهز يده فى حماسة قائلا : « الآن اصغ إلى أيها الشخص الذى أجهله إنك رجل ذكى ولكن أمرك عجب ؛ ربما كان ذلك آخر لقاء بيننا وإنى لا أريد أن أسىء إليك ولكنى أحب أن أقول لك إن تجاربى علمتنى أن الرجل الذى لا رذائل له قليل الفضائل ... طاب يومك » .

وثمة حديث آخر فى هذا السفر يقصه رجل يدعى توماس نلسن اختاره فيما بعد لنكولن وهو رئيس وزيراً فى شيلى قال : فى ربيع سنة ١٨٤٩ ، كنت والقاضى هامند الذى أصبح فيما بعد حاكم إنديانا قد أخذنا الأهبة للسفر إلى إنديانا بولس فى

عربة من عربات السفر ، وكان يلزم لقطع هذه المرحلة عادة يوم كامل ؛ فنى فجر ذات يوم أقبلت عربة من الغرب،فلما ركبنا فيها وجدنا المقعد الخلفى يحتله شخص طويل يبدو كأنما تمتد رجلاه إلى نهاية العربة من ناحية ورأسه إلى نهايتها من الناحية الأخرى ولم يكن غيره فى العربة وكان يغط فى نوم عميق فربت هامند على كتفه فى غير كلفة قائلا : هل استأجرت العربة وحدك هذا اليوم ؟ فأفاق ذلك المجهول من نومه وأجاب قائلا : « يقيناً لم أفعل ذلك » ، ثم وثب إلى المقعد الأمامى تاركا لنا فى رقة وكرم مكان الراحة والتوقير ؛ وأخذنا هذا الشخص المجهول بلمحة فإذا هو غريب الهيئة زريها يرتدى حلة بادية القدم رديئة الهندمة بغير قميص ولا رباط عنق ويلبس فوق رأسه قبعة رخيصة من الخوص دفعها إلى الخلف ، وترى أبرز ملامحه فى حالة سكونه كئيبة لا معنى فيها ؛ ولما كنا قد رأينا فيه موضوعاً للمزاح فقد استرسلنا فى طائفة من النكات فلاقاها جميعاً فى براءة وطيبة قلب وشاركنا فى الضحك وإن كان الضحك على حسابه . وتوقفنا عند الظهيرة لنتناول شيئاً من الطعام فى مطعم على جانب الطريق ودعوناه ليأكل معنا فدنا من الخوان فى هيئة تنم على أنه عد ذلك شرفاً عظيما وجلس بنصف جسمه على مقعد صغير وكان يضع قبعته تحت إبطه أثناء الطعام ؛ وبعد أن فرغنا من طعامنا استأنفنا السفر ، ومال الحديث بنا إلى ذلك المذنب الذى كان يومئذ يثير دنيا العلم ورأينا رفيقنا المجهول ينصت إلى الحديث فى شغف عظيم ، ولقد أدلى بطائفة عجيبة من الآراء من فيض قريحته وسأل أسئلة كثيرة ، وملأنا عجباً بكلمات علمية طويلة راعدة الجرس ؛ وبعد أن ألقينا عليه ما يملأ الفؤاد دهشة من تهاويل كلماتنا العلمية سألنا ذلك الشخص المجهول وقد ملكته الحيرة والدهشة : « وماذا عسى أن تكون آخرة هذا الذنب ؟ » وأجبته أنى لست على بينة من أمرى بيد أنى أخالف معظم العلماء والفلاسفة وأميل إلى الرأى القائل بأن الدنيا كلها ستذهب هباء فى إثر ذلك الشيء المخيف ! وفى ساعة متأخرة من المساء بلغنا إنديانا بولس وخففنا إلى فندق برونفج وافترقنا نهائياً عن ذلك الشخص المجهول وآوينا إلى حجرتنا لنغسل التراب عن وجوهنا ، وبعد دقائق نزلت إلى ردهة الفندق فوقعت عيناى على ذلك الرجل الطويل الواجم المحيا وسط جماعة من المعجبين به من رجال القانون تبينت

بينهم من القضاة مكليان وهانتنجتون وألبرت هويت وإدوارد هانيجان وريتشارد تومسون وبدا عليهم جميعاً أنهم مقبلون فى شغف وإعجاب على قصة كان يقصها عليهم فسألت برونتنج صاحب الفندق من يكون ذلك الشخص الطويل فقال « هو أبراهام لنكولن من إلينوى أحد أعضاء الكونجرس » فصعقت لهذا النبأ وهرولت إلى الطابق العلوى حيث قصصت على صاحبى هامند ذلك الخبر الدهش وسرعان ما غادرنا الفندق خفية من باب خلفى إلى فندق غيره كيلا نتصل بعد ذلك برفيقنا فى السفر الذى علمنا أنه من ذوى المكانة ؛ وكان من عجب الأمور حقاً بعد ذلك بسنوات أن تخلى هامند عن منصبه كحاكم إنديانا لبضعة أيام قبل وصول لنكولن إلى إنديانابولس وهو فى طريقه إلى وشنطون ليحتفل بولايته الرياسة ؛ أما أنا فلقد واتتنى الظروف لأزداد معرفة وقرباً إلى لنكولن منذ تلك الرحلة التى صحبناه فيها دون أن نعرفه ولقد صرت من أكبر المتحمسين له والعاملين على ترشيحه وانتخابه للرياسة ؛ وقبل أن يغادر لنكولن موطنه إلى وشنطون دعا جون ب أشر كما دعانى لمرافقته إلى هناك واتفقنا على أن نوافيه فى إنديانابولس ومن ثم نسافر معه ولما بلغنا تلك المدينة علمنا أن الرئيس ومرافقيه قد بلغوها لتوهم وأنه يتناول طعامه فى حجرة الطعام بالفندق ، فدخلنا نبحث عنه ووجدنا الرجال يشغلون جميع المقاعد المرصوصة حول عدد كبير من الموائد ولكنا لم نر الرئيس ، فلما كنا على مقربة من باب إدارة الفندق امتدت ذراع طويلة إلى كتفى وسمعت صوتاً حاداً يقول : « هالو ! نلسون ألا زلت تعتقد أن الدنيا كلها ستذهب هباء فى إثر ذلك الشيء المخيف ؟ » وكان المتكلم هو مستر لنكولن !...

ولنعد إلى ما كنا بصدده من حديث ذلك المنصب الذى طمع فيه . لما بلغ لنكولن وشنطون تبين أن هناك منافساً خطيراً له ولصاحبيه موريسون وإدوارد وذلك هو بترفيلد وكان لهذا الأخير شفعاء من بعض ذوى النفوذ وكان لا ينكص عن السعى لديهم بكل وسيلة بينما كان لنكولن متردداً يقدم رجلا ويؤخر أخرى ؛ أشار إلى ذلك صديقه هرندن فى قوله « لقد كان يخالج لنكولن شعور خفى من الأنفة والكبرياء فضلا عما كان ينقصه من إصرار ، فكان ذلك الشعور الخفى يأبى عليه تلك المرونة فى الرأى التى لا بد منها لطالب وظيفة رسمية كى ينجح فى تحقيق

طلبه » وقال لنكولن نفسه فى هذا الصدد : « ليس ثمة عندى ما يحمل لى من الحول ما أطلب به منصباً من الدرجة الأولى ، وإن منصباً من الدرجة الثانية لا يعوضنى عما عسى أن ألقى من سخرية ممن يطلبونه لأنفسهم » .

ويريد الرئيس أن يجامله فيعرض عليه منصباً غيره هو منصب حاكم إحدى المقاطعات الداخلية ؛ ولكن زوجه تقف بينه وبين هذا المنصب وتصر على موقفها معلنة أنها لن تقبل لزوجها عملا يعود به إلى الأدغال ولا ترجى لها منه عودة ، ويرفض أبراهام المنصب آخر الأمر وهكذا نرى زوجته للمرة الثانية حريصة على أن توليه القبلة التى لا ترضى له غيرها قبلة فهل كانت تدرى أية خدمة تؤديها بمسلكها هذا لزوجها ولوطنها وللانسانية ؟

عاد لنكولن إلى المحاماة وقد ترك السياسة وراء ظهره وإنه ليعزم العزم كله ألا يعود إليها وفي نفسه مرارة منها ومن أساليبها .

وكان قد هجر مكتبه زمناً ليس بالقصير تاركا هرندن يعمل فيه وحده ، ولقد بذل هرندن من الهمة والمثابرة ما جعل للمكتب مكانة لا تقل عن مكانة أكبر المكاتب حوله ؛ فلما عاد لنكولن حدث صاحبه أنه يرى أن ليس له أن يشاركه لا في الربح ولا في العمل وقد بلغ المكتب بفضل جهوده ما بلغ ولكن هرندن أبى أن يسلم بذلك قائلا له لقد أخذتني معك وعلمتني ما لم أكن أعلم وأعنتني على أمري وأنا صغير أحتاج إلى العون فإن لم أكن كريم اليد فلا أقل من أن أكون حافظاً للجميل وعلى هذا فلن أترك صحبتك ومشاركتك إياي في عملي ؛ وقبل لنكولن وعادا يعملان معاً شريكين .

وأحس لنكولن أن السياسة قد باعدت بينه وبين القانون فلا بد له أن يعوض ما فاته من درس ومذاكرة فأقبل على كتب القانون إقبالا لم يشهد صاحبه له مثيلا من قبل فقد ذكر هرندن أنه رافقه أكثر من مرة إلى بعض المحاكم وكانا يبيتان ليلهما في الفنادق فكان ينام وصاحبه على سرير واحد أكثر الأحيان وإن هرندن ليغط في نومه فما يصحو إلا بعد ساعات فإذا بصاحبه متمدد إلى جانبه وفي يده كتاب كبير من كتب القانون وإلى جانب رأسه شمعة أوشكت أن تنفد وقد أوشك الصبح أن يتنفس !

وكان أبراهام في مكتبه يرسل نفسه على سجيتها شأنه في ذلك كشأنه في كل شيء يتصل به ، فهو في المكتب لا يعنى بأعماله الكتابية وإنما كان أول أمره يتركها لصاحبه هرندن ثم كان بعد ذلك يستعين بمن يطلبون المران عنده من الشبان ؛ وهو لا يهتم بأن يكتب حساباً بينه وبين شريكه وإنما يقسم ما يجيئهما من ربح بينهما وهو يعطى صاحبه نصيبه في ثقة وأمانة ؛ ولا يعنى بكتابة دفاعه كتابة منمقة بليغة بل يكتفي بقراءة القضية ودراستها دراسة جيدة ثم يعتمد على
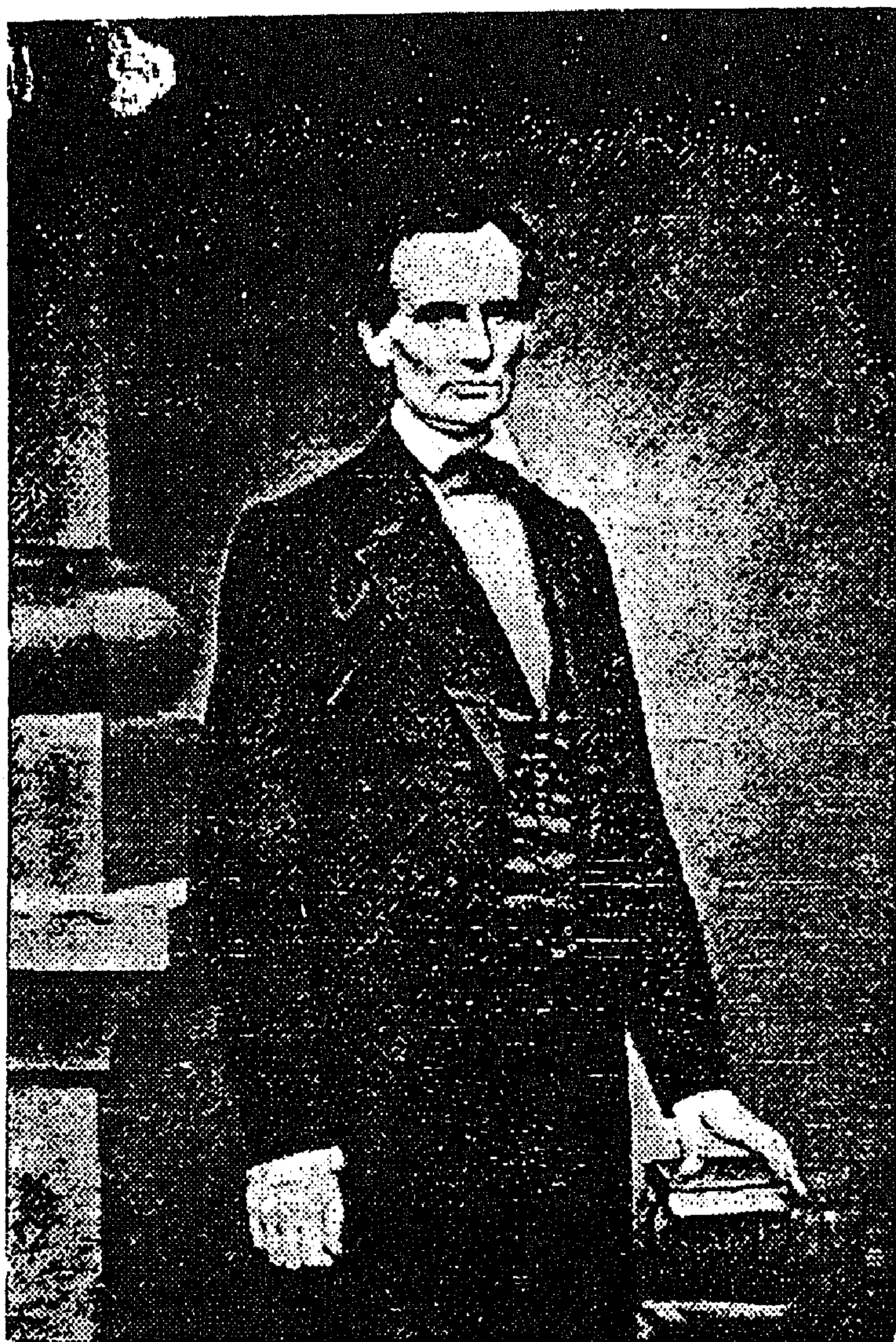
انكولن المحامى

ذكرائه وعلى معونة الله كما نعود أن يقول ، وعلى ما يوحى به الموقف وملابسات الحال ومقتضياته عند المرافعة ؛ وكان إذا جلس لدراسة قضية أسند ظهره إلى ظهر كرسيه ومدد رجليه على كرسى آخر ووضع المراجع على مقربة منه عن يمينه وعن شماله فما يشغله شاغل مهما جل عما هو فيه حتى يفرغ منه وما يصرفه عن انتباهه شيء ولا يحب أن يقطع عليه أحد تيار فكره ولو لبث على تلك الحال ساعات ...

وكان قمطره الرئيسى وحافظة أوراقه الهامة هى قبعته الطويلة فقد كانت تتسع بصورة عجيبة لكل ما يدس فيها من ورق حتى لقد عجب صاحبه أشد العجب كيف يضع فيها لنكولن ما يضع ولو أنه ألقى إليه به ما عرف كيف يدسه فى حقيبة صغيرة ...

على أنه قد وضع فى زاوية من زوايا الحجرة إضبارة من الورق على منضدة صغيرة وكتب فوق غلافها « فتش فى كل مكان فإن لم تجد فابحث هنا » ؛ وهكذا لم يخرج الأمر عن قبعته وهذه الإضبارة ، فلا تصنيف ولا تبويب فى الأوراق ولا عناوين تميزها بعضها عن بعض حسب محتوياتها ولا شيء من ذلك التقسيم والترتيب للقماطر على نحو ما يحدث فى مكاتب المحامين ...

وأحب أبراهام أن يعمل فى المحاكم المتجولة فيقضى أشهراً بعيداً عن المدينة وعن بيته يتبع المحكمة أينما اتجهت إذ كانت المحاكم يومئذ فى تلك الأصقاع هى التى تنتقل إلى الناس ؛ وكان سروره عظيما بهذا التجوال فهو ابن الأحراج والغابات والبقاع المترامية وهو الذى لم يألف الاستقرار فى موطن وإنه ليرى المدينة أضيق فى عينه اليوم منها قبل .

على أن شيئاً أقوى من ذلك يحبب إليه الابتعاد عن المدينة وعن البيت وذلك أنه قد ضاق ذرعاً بما تثيره زوجه من عوامل الشقاق فهى ما تفتأ تريه التبرم والسخط وتأخذه بألوان من العنف يوشك أن ينفد لها صبره لولا أنه يعود بالسبب إلى حدة مزاجها ؛ وإن كان ليسأل نفسه أحياناً أهى مغضبة حانقة عليه لما أصابه من فشل فى السياسة فما تزال تتعلق بأوهى الأسباب لمجادلته ومغاضبته وقد صغر فى عينيها وهان لديها شأنه ؟ ولكنه يحس من زوجه أنها على شغفها بتعنيفه تضمر له المحبة والإعجاب كعهده بها فيطمئن قلبه ويرد الأمر فى هذا الشقاق إلى ما يعرف من طباعها .

وكم كان حبيباً إلى نفسه أن يركب مع بعض زملائه فى عربة أو يمتطى جواداً ويصحب القضاة والحامين على جيادهم إلى حيث تعقد جلسات المحكمة ، فإذا فرغوا من جهة انتقلوا إلى غيرها ويبقون على هذه الحال أشهراً ، فإذا تصادف أن كان أحدهم أو بعضهم على مقربة من موطنه ذهب ليقضى الراحة الأسبوعية بين أهله وقد غاب عنهم بضعة أسابيع أو أشهر إلا أبراهام فما كان يذهب إلى بيته مهما كان قربه منه إلا إذا انتهت الدورة القضائية وكانت تستغرق أحياناً ستة أشهر .

وكان القضاة والمحامون إذا فرغوا من الجلسات يأوون إلى أحد الفنادق القريبة حيث يطعمون وينامون ؛ وكانوا يتحلقون ليالى الآحاد حول أبراهام وينضم إليهم عدد كبير من الناس فيمتعهم بأحاديثه وقصصه ساعات وقد اشتهر أمر لياليه تلك حتى لقد كانت تبلغ الحلقة حوله أحياناً مائتين أو ثلاثمائة رجل كلهم معجب بحديثه شديد الإقبال عليه وهو ينتقل بهم من نادرة إلى نادرة ومن قصة يستخرج منها عبرة إلى أخرى يثير بها الضحك ؛ وهو إذ يشاركهم فى ضحكهم فى عذوبة روح ودماثة وظرف لا ينخلع عنه وقاره ولا يتسرب إلى شخصيته شىء من الابتذال ، ولو كان غيره مكانه لخيف أن يمسه من ذلك شىء ، ولكنه لم يزدد إلا محبة فى نفوس الناس ولم تزدهم أحاديثه إلا تعلقاً به ، ومن عجب أن اسمه الذى عرف به كان يجرى على ألسنة الناس فى كل جهة من هاتيك الجهات فيذكرون أيب الأمين كأنهم وثيقو المعرفة به وكأنما كان يسبقه هذا الاسم حيثما ذهب ...

وكان لنكولن يرى فى هذا الطواف مدرسته التى يتلمس فيها المعرفة وأى معرفة أحب إليه من دراسة طباع الناس والوقوف من كثب على أحوالهم بل والنفاذ إلى سرائرهم وخلجات نفوسهم ؟ لذلك كان فى طوافه يغشى المجالس وينطلق إلى البلاد القريبة فيسمع ويرى ويأخذ بقسط من الأحاديث ويدلى بآرائه إذا عن له أن يبدى آراءه فى أمر ويستفهم الناس ويسألهم عن أمانيهم ؛ ويظل هذا شأنه حتى ينتهى دور المحكمة فيعود إلى سبرنجفيلد وتنظر زوجه فإذا هو يدخل الدار وفى عينيه الحنين إليها وإلى أولاده ، وفى أساريره من البشر بقدر ما يكون فى جيبه من المال ؛ ثم يدفع إليها بمظلة قديمة مهلهلة حائلة الصبغة تمسكها بعضها إلى بعض خيوط ورقع ويلقى إليها حقيبة اتخذها من رقعة بساط قديم بها من الأوراق

ما ضاقت عنه جيوبه وما صغرت دونه قيمته ، ويقبل على بنيه فيرفعهم على كتفيه وذراعه كالعملاق وهم فرحون يتسابقون إلى محادثته حتى لتضيع كلماتهم فيما يثيرون من زياط ، وأمهم تكظم الغيظ من هذا الخروج على النظام …

وعادت تبرز فى المحاماة مواهبه وتظهر خلاله ، وأخذ ينشر فيها مبادئه بالعمل لا بالقول ؛ جعل الحق رائده والصدق غايته ، كما جعل مرد كل أمر عنده إلى معانى الإنسانية والفضيلة لا إلى أصول القانون وملابساته ، وليس بمعنى ذلك أنه أهمل جانب القانون ؛ كلا إنما كان يهمل جانب القانون إذا أدت ملابساته إلى التعمية وإظهار الباطل فى زائف من ثياب الحق ؛ ولذلك جعل الفضيلة فوق القانون والصدق فوق المهارة فى الحوار واللباقة فى الجدل ؛ وكان يحث أصدقاءه من المحامين ومحبيه من الناشئين على ألا يفرطوا فى جنب الفضيلة قائلا فى صراحة وبساطة : « إن هناك رأياً شائعاً فى الناس مؤداه أن المحامى رجل يتهاون عادة فى حق الأمانة ؛ ولذلك فلا بد من أن يتمسك المحامى بالأمانة فيما صغر أو كبر من الأمور كى يدرأ تلك التهمة الشنعاء عنه وعن مهنته » ، ومن شهير عباراته قوله : « يجب أن تبث فى المهنة روح الفضيلة كى تطرد تلك الروح منها ذوى الرذيلة » وقوله ينصح أحد الناشئين : « إعمل على أن تكون محامياً أميناً فإذا لم تستطع أن تكون أميناً وأنت محام فخير لك أن تكون أميناً وألا تكون محامياً » .

وكان إذا جاءه أحد الناس يطلب إليه الدفاع عنه استفهمه حتى يستقصى خبره وهو على طيبة قلبه يقرأ فى وجه محدثه أمارات الكذب إذا هم أن يكذب فما زال به حتى يرده إلى الصدق فى مهارة دون أن يسىء إلى شعوره ، فهو وإن لم يك من الماكرين لا يستطيع أن يمكر به أحد وقد كان لشخصه هيبة وجلال وإشعاع ينتشر منه إلى محدثه فيوحى إليه وجوب التمسك بالصدق والنفور من الكذب فيكون شعور محدثه بإزائه كما يكون شعور المرء فى مكان مقدس يستفظع فيه الذنب وإن هان …

وكثيراً ما كان يحاول الصلح بين المتقاضين ومما نصح به فى محاضرة عامة قوله : « إحرص على أن تقنع المتخاصمين بالصلح ما أمكنك ذلك وبين لهم أنه غالباً ما يكون الفائز فائزاً اسماً فحسب وهو فى الواقع خاسر بما دفع من أجر أو أنفق من

مال أو أضاع من وقت والعمل بعد ذلك كثير للمحامى ... وإنه لتتهيأ للمحامى فرصة ثمينة ليصبح طيباً خيراً وذلك بما يسعى إليه من سلم ، فلا تلجأ إلى التقاضى والشحناء فقلما وجد من هو أكثر سوءاً من رجل يفعل ذلك ؛ ولا تأخذ أجرك سلفاً إلا قدراً صغيراً منه ، فإنك إن أخذت أجرك كله مقدماً وبقى اهتمامك بالقضية كاهتمامك بها فى حالة ما إذا كان لا يزال أمامك من الأمل ما تتطلع إليه تطلع موكلك إلى النجاح ، فأنت إذاً فوق مستوى البشر » .

وكثيراً ما كان يقنع أبراهام بالقليل من الأجر إذ كان يعد طلب الأجر الباهظ من أكبر آثام المهنة ، ثم إنه كان يأخذ المسألة من ناحيتها الإنسانية فيرى فى عمله مثل عمل الطبيب والواعظ الدينى والمعلم وعنده أن واجب هؤلاء أن يمدوا يد المعونة للناس وألا يتقاضوهم من الأجر إلا ما كان فى وسعهم ؛ ومما يذكر برهاناً على هذا أنه دافع مرة عن حق رجل فى مبلغ ستمائة دولار ولم يطلب منه أجراً على ذلك إلا ثلاثة ونصفاً ؛ ويذكر أيضاً أنه لم يتفق على الأجر مرة فلما ربح القضية أرسل إليه موكلوه خمسة وعشرين دولاراً فرد إليهم عشرة منها قائلا إن ما بقى هو ما يستحقه ؛ وكان أحياناً يعفى موكله من الأجر إن كان مملقاً قانعاً من الأجر بالثواب وبالجميل يغرسه فى قلبه ، وذلك ما حدث حين دافع عن ابن متحديه القديم وصديقه بعد التحدى والمشاجرة آرمسترنج فإنه لم يسأله أجراً على ما بذل فى الدفاع عنه من جهد شديد إلا المودة .

يذكر صديقه وزميله فى العمل هرندن أنه سار فى قضية ذات مرة فى غيبة لنكولن أثناء طوافه ولأمر ما لا يدخل فى نطاق مسؤوليته حدث إبطاء فى سير القضية ، فعمد موكله إلى محام آخر وترك هرندن فرفع هرندن أمره إلى القضاء يطلب أجراً على ما بذل من جهد فحكم القاضى على الرجل بدفع أجر معين ، وإذ ذاك قدم أبراهام فأسرع إليه الرجل يسأله أن يعفيه مما يقضى به الحكم من أجر مظهراً له فقره وسوء حاله فنظر إليه أبراهام لحظة ثم أطلقه وقد أعفاه لم يأخذ منه درهما ، فلما حدثه هرندن فى ذلك وأشار إلى ما كان من سوء صنع الرجل فى نقل القضية إلى غيرهما قال أبراهام إنه لا يتمالك نفسه إذا اشتكى إليه أحد الفقر والبؤس وإنه ليحبس دموعه فى جهد إذا بكى لديه إنسان ثم ضحك ضحكة من ضحكاته العذبة وقال:

« إنى أحمد الله إذ لم يخلقنى امرأة وإلا لما كنت أرفض لأحد قط طلباً ليس فيه ما يمس الشرف » ...

وكان أبراهام فى المحكمة كما كان فى خارجها الرجل المتواضع المحتشم يدخلها وجيوبه منتفخة بأوراقه وقبعته ثقيلة بما حوت منها ، لا يشغل نفسه بأبهة المظهر وقد سلم له الجوهر ولا يدرى ما التطاول والتعاظم وقد عظم حتى صارت العظمة هى ما يفعل .

كان الصدق فى الدفاع أول وسائله فى الإقناع ، وقد يتبين له أثناء دفاعه أن الحق قد ألبس عليه بالباطل فيتنحى عن القضية من فوره لأنه لا يستطيع أن يلائم بينها وبين طبعه أو أن يرفعها إلى مستوى حماسته وصدق شعوره ، وكان المنطق السليم والإنصاف بعد ذلك من أهم أدواته يضاف إليهما الدراسة الدقيقة لما ينهض له والإحاطة بجميع تفاصيله ؛ هذا إلى ما امتاز به من صفاء الذهن صفاء يساعده على تبين الطريق إلى غايته فى يسر ووضوح ، وما أوتيه من ذاكرة عجيبة تواتيه بما يطلب حتى ما يلتوى عليه أمر أو يعزب عن ذهنه حادث ...

وكان يتوخى العدالة فيما يعمل ويعنى أشد العناية بالأمانة فى كل صغيرة أو كبيرة من المسائل ؛ حدث صديقه هرندن أنه اضطر ذات مرة إلى تأجيل قضية من القضايا إلى دور مقبل ولكنه لم يجد فى نفسه أسباباً يطلب من أجلها التأجيل وأحس أنه لو ترافع خسر القضية لقلة استعداده لها ، فبينما هو فى حيرته إذ سمع محامى الخصوم يذكر خوفه من أن يعلم هرندن بحقيقة من الحقائق ، فأسرع هرندن يطلب التأجيل مشيراً إلى تلك الحقيقة ذاكراً للمحكمة أنه يستطيع تقديم أدلة إثباتها إذا أعطى مهلة وكاد يظفر بالتأجيل لولا أن قدم لنكولن فسأل زميله هل بنى طلبه على هذا السبب حقاً وهل يستطيع تقديم أدلة إذا أمهل ؟ فذكر له هرندن أنه تسقط تلك الحقيقة من محامى الخصوم ولا ضير أن يطلب التأجيل عله يقع على أدلتها فيما بعد ، فتجهم وجه لنكولن ولعب فى شعر رأسه ملياً بأصبعه ثم قال : « كلا إن هذا نوع من الخداع والخداع فى أكثر الأحيان اسم آخر للكذب نخير لنا أن نسحب طلبنا فإننا لا نأمن أن نواجه يوماً ما بما فعلنا بعد أن تكون هذه القضية قد نسيت منذ زمن طويل » ... وسحب هرندن طلب التأجيل وبعساع أخرى بذلها

الوكل ولا دخل لهرندن وصاحبه فيها أجل القاضى القضية إلى دور مقبل ونجت القضية من خطر الخسارة ...

وكان إذا ترافع يؤثر الهدوء ويعنى بإبراز الحقائق ولا يحفل بفخامة الألفاظ وصوغ العبارات فى صورة خطابية هى إلى الصخب والضجيج فى رأيه أقرب منها إلى البلاغة الصحيحة إذ أن البلاغة الصحيحة عنده هى التعبير السليم الواضح عما يراد لا أكثر من ذلك ولا أقل أوهى الوصول إلى المعنى من أقرب السبل وبأيسر الطرق ؛ وكان لا يتكلف الإشارات والانفعالات والمبالغة فى إظهار بعض الألفاظ أو النطق بها نطقاً تطابق نغمته لهجة تأكيد أو إيضاح أو إبراز غضب أو ماشا كل ذلك ؛ فإن هذه أمور يراها بعيدة كل البعد عن سلامة الأداء وحسن الإقناع . حدث مرة أن لجأ أحد المحامين عن خصوم موكله إلى الضجيج بالعبارات الطويلة الصاخبة والكلمات الفخمة البراقة فانتظر لنكولن حتى سكنت ريحه وابتسم فى هدوء ، ثم عمد إلى حكاية من حكاياته فسردها ؛ وهى حكاية عن رجل لا يتقيد بالأديان وجد نفسه وسط عاصفة فيها رعد وبرق نخر على ركبتيه واتجه إلى السماء قائلا : يا رب إن كانت تجرى عندك الأمور هكذا حينما اتفق وكل وجوهها عندك سواء فأعطنا من الضوء أكثر من هذا البرق ومن الضجيج أقل من هذا الرعد ... وهكذا نراه أبداً لا تعوزه النادرة أو القصة يصور بها ما يقوم فى نفسه من معنى أو يرتسم بذهنه من سخرية ...

وعرف عنه فيما عرف الأناة ؛ فما يقدم على فعل أو قول إلا بعد تثبت ليكون على بينة من أمره وكثيراً ما تبرم صديقه هرندن وتململ من هذه الأناة فانظر إلى أبراهام يسأله أن يأتيه بمبراة وسكين فإذا أحضرهما قال له : « إن سلاح تلك المبراة أقصر وأحد ولعلك بذلك تظنها أنفع من السكين إذ هى أسرع منها ، ولكن انظر أيهما أبعد من الأخرى غوراً إذا نفذتا فى جسم ؟ ومثل السكين كمثل عقلى فى تدبير المسائل والنظر فيها فقد يبدو أنى بطىء فى قطع الأمور ولكنى إذا قطعت أمراً فإنه يكون بعيد المدى » ... ويقتنع صاحبه أن التأنى أبعد فى سبر الأمور غوراً ويعزم الا يشتكى بعد من أناته ثم إذا هو يطيق معه صبراً .

وكان مما يهابه منه المحامون تهكمه ، فهو يعمد فى دفاعه أحياناً كما كان يفعل

فى خطبه السياسية إلى التهكم اللاذع البارع فيزلزل به قدمى خصمه حتى ليذهل عن رشده بين ما ينبعث من جوانب القاعة من الضحك .

على أنه كان يغضب أحياناً فلا يقف غضبه عند حد وذلك إذا وجد فى أحد مجادليه من المحامين أثناء الدفاع ميلا إلى الخديعة أو الكذب ؛ أو إذا اشتم من أحد القضاة شيئاً من التحيز ، وعندئذ يغلظ فى القول ، ويقسو فى تعبيره أشد القسوة ، ويرى الناس منظره فى هياجه كريهاً يبعد كل البعد عما ألفوه من دماثته وهدوئه ورقة حاشيته ...

ويرى هرندن أن أبراهام كان محامى قضية أكثر منه رجل قانون أعنى أنه كان ماهراً فى تقصى الوقائع والتفاصيل الجزئية والوصول بها إلى النتائج التى كان يريدها ، أما التطبيق القانونى أو الفقه الذى يقوم على الدراسة والضلاعة فلم يكن فيه أبراهام طويل الباع ؛ وقد شايع هرندن فى رأيه هذا بعض الناس وخالفه فيه بعض ؛ ويرى هؤلاء المخالفون أن أبراهام كان يعتمد على حاسة العدالة فى نفسه ، وكانت هذه الحاسة قوية عنده أشد القوة ، كما كان يعتمد على المنطق وقد بلغ فى قوة المنطق الذروة ، وعلى هذا فقد كان من الأفذاذ القلائل الذين يرد القانون إلى إدراكهم وشعورهم ومنطقهم ، ولا يرد ذلك فيهم إلى أوضاع القانون واصطلاحاته وما هو فى حاجة بعد إلى الاستناد إلى المواد والنظر فى مدى انطباقها أو عدم انطباقها على ما فى يده من قضايا اللهم إلا فى حالات معينة لا محيص فيها عن القانون وهم يرون أن الأمر فى مثل تلك الحالات أمر شكل لا أمر فقه فهو فى إمكان كل من مرن على مواد القانون وأعانته ذاكرته على حفظها .

ومع هذا فان صديقه هرندن نفسه يحكى عنه أنه ذات مرة شهده أثناء الدفاع يتعرض للقانون ويستطرد فى تاريخ التشريع وآنس صاحبه فى كلامه الضلاعة والإحكام ولكنه ظن ألا فائدة ترجى منه فإن المحكمة تعرف كل هذا ، ولما فاتحه فى ذلك بعد خروجهما من المحكمة قال لنكولن : « ذلك موضع خطئك فإنى لم أجرؤ على أن أكل القضية إلى ما يفترض من معرفة المحكمة بكل هذا والحق أنى سرت فيها على افتراض أن المحكمة لا تعلم شيئاً من هذا » .

وما من قضية من القضايا التى تناولها إلا وفيها شاهد أو شواهد على سمو الدوافع التى أدت به إلى تناولها وسمو الروح التى تسيطر عليه أثناء العمل فإحقاق الحق والدفاع عن المستضعفين غايته أبداً والأمانة والصدق وتوخى الإنصاف والعدالة سبيله إلى بلوغ تلك الغاية ، وهو فى القضايا الصغيرة كما هو فى الكبيرة متحمس للحق مهتم بالدفاع عنه والاقتناع به ...

جاءته ذات مرة عجوز هى أرملة أحد جنود الثورة تشكو من أحد القائمين على شؤون المعاشات أنه اقتطع منها ظلماً نصف المعاش المقرر لها ؛ فتأثر لنكولن أشد التأثر من حكايتها وذهب إلى ذلك الرجل فسأله أن يرد إليها مالها فلما رفض أن يفعل ذلك قدمه إلى المحكمة من فوره ؛ وفى اليوم السابق للدفاع طلب إلى صاحبه أن يجيئه بكتاب فى تاريخ حروب الثورة وظل يقرأ فيه زمناً ؛ وفى غداة دفاعه حمل على ذلك المغتصب حملة شديدة ولبث ساعة يصف للمحكمة مبلغ ما لقى جنود الاستقلال من مصاعب وما تحملوا من آلام فى سبيل قضية أمريكا الكبرى ، حتى إذا بلغ فى قضيته موضع اغتصاب قسط من معاش أرملة أحد الجنود التمعت بالغضب عيناه واربد وجهه وتدفق فى حماسة قائلا : « لقد ذهب هؤلاء الأبطال وتصرمت بعدهم الأعوام ، واستراح الجندى من عنائه والآن تسعى إليكم وإلىّ أرملة مقوسة مضعضعة عمياء تطلب إليكم أن تردوا عنها الحيف ... نعم إنها تتوسل إلينا نحن الذين نتمتع اليوم بما اكتسب لنا أبطال الثورة من نعم ؛ تتوسل إلينا طالبة أن نعينها متعطفين وأن نحميها كما يفعل الرجال وكل ما أتساءل عنه الآن : هل نكون لها أصدقاء ؟ ». ورد لنكولن إلى الأرملة مالها ولم يكافها شيئاً من أجر بل لقد دفع من ماله نفقات إقامتها فى أحد فنادق سبرنجفيلد ونفقات سفرها إلى مقرها ، فهى إنما جاءت إليه إذ سمعت عن شممه ومروءته وحمايته للضعفاء ...

واتهم بارتكاب جريمة القتل ابن متحديه القديم فى مدينة نيو سالم وهو آرمسترنج الذى غدا صديقاً لأبراهام وظل على وفائه له حتى مات ؛ وما إن وقع نظر أبراهام على هذه التهمة حتى كتب إلى أمه ينبئها أنه على استعداد لقبول قضيته ليدافع عنه لأنه يستبعد أن يرتكب ابنها مثل هذه الجريمة ؛ وجاءت الأرملة

ملهوفة تسأل أبراهام أن يدافع عن ابنها وتؤكد له براءته مما اتهم به ؛ ولم يكن أبراهام يعلم شيئاً عن القضية ولكنه قبلها بدافع النجدة والوفاء ولما قرأها وثق من براءة ذلك الشاب ووقف فى ساحة المحكمة يدافع عنه وكانت تهمته تتلخص فى أنه أثناء شجار عنيف بين أصحاب له وفريق آخر ضرب أحدهم على رأسه فقتله ، وظل أبراهام يسرد الوقائع فى أناة ووضوح ويفند أقوال خصومه واحداً بعد الآخر حتى أقنع المحلفين أو أوشك أن يقنعهم ببراءته ، ولكن أحد الشهود أقسم أنه رآه رأى العين يضرب القتيل على رأسه وأنه مات بضربته ولما كانت المعركة حدثت ليلا سأله لنكولن كيف تسنى له أن يرى فقال « فى ضوء القمر وكان نوره ساطعاً » فطلب أبراهام تقويماً وفتحه وقال : «انظروا أيها المحلفون لقد كانت ليلة الحادثة من ليالى العتمة التى لا يرى فيها شيء » . وكان كذب ذلك الشاهد من أقوى أسباب اقتناع المحلفين ببطلان التهمة وحكم القاضى ببراءة المتهم ، وفرح أبراهام فرحاً شديداً بإحقاق الحق وبهذا الجميل يؤديه إلى صديقه المتوفى فى شخص ابنه وشخص أرملته التى تلقت النبأ وفى مقلتيها دموع الشكر والفرح وفى قلبها الحب والإجلال لذلك المحامى الذى بذل أعنف الجهد ولم يقبل شيئاً مما قدم له من أجر ...

وحدث مرة أثناء محاكمة متهم بجريمة قتل أن حمل أبراهام فى عنف على ذلك المتهم وكان الدفاع عنه يقوم على أساس أنه مجنون ولما خرج لنكولن من المحكمة سمع عرضاً أحد المحامين يقرر وقد سمع اسم المتهم أنه مجنون حقاً وأنه يعرفه من زمن طويل وقد خبر بنفسه خبله فى أمور كثيرة ، وفى اليوم التالى ذكر لنكولن لصديقه هرندن وهما فى الطريق إلى المحكمة أنه لم ينم ليله من شدة ما ساوره من ألم لحملته على المتهم وقسوته عليه ومما قاله « لقد سلكت هذا السبيل مقتنعاً أنه يدعى الجنون وإنى لأخشى الآن أن أكون آذيته بما كان من عنفى عليه ، وقد يكون ذلك المسكين مجنوناً حقاً وإذا كان كذلك فهو لا يتبين باطل فعلته وإذاً فأنا المبطل إذ أعين بقولى على عقابه » وظل أبراهام كسيف البال مهموماً لا يفتر له هم .

وجاءته سيدة تملك أرضاً غالية الثمن تسأله أن ينظر فى مقدار ما فرض على أرضها من ضريبه ليقدم دعوى إلى المحكمة إن كانت تدفع أكثر مما يجب ، وعمد أبراهام إلى أدواته القديمة فعاين الأرض وقاسها وأحكم قياسها فوقع على أمر آخر وذلك أن السيدة تضع يدها على مساحة أكبر من حقها حسب ما يتيحه لها الثمن الذى دفعته وذلك لخطأ وقع فيه البائع ، فأهمل أبراهام مسألة الضريبة وطلب إلى السيدة قبل كل شيء أن تدفع ثمن باقى المساحة ليؤدى إلى ورثة البائع فغضبت السيدة وثارت ثائرتها فأعلنها أنها إن لم تدفع فسيتقدم بدعوى ضدها وأذعنت السيدة ودفعت المال المطلوب فحمله إلى الورثة وأدى لكل منهم نصيبه منه حسب ميراثه .

هذا هو لنكولن المحامى تراه يسير على نهج من طبعه وتراه يسمو بالمهنة فيجعل منها مسألة إنسانية غايته فيها أن يحق الحق وهو فيها كما هو فى غيرها الرجل العظيم الذى يبث فيها من روحه ويلقى عليها نور عبقريته .

متـــاعب وآلام

وماذا يتعبه اليوم ويؤلمه وقد أصبح فى سبرنجفيلد وفى إلينوى كلها المحامى المظيم القدر الذاهب الصيت ؟ ماذا عسى أن يتعب أبراهام وقد دفع دينه وبات فى سعة من الرزق ؟ لقد كان عسياً أن ينعم اليوم بهدوء البال وقد أزيح عن كاهله شقاء أمسه ، فما باله يراه الناس مهموماً كلما وقعت أعينهم عليه فى الطريق حتى لتأخذهم به شفقة تشبه أن تكون رثاء لحاله وإن دعوتهم إياه اليوم لتكولن العجوز كادت تطغى على دعوتهم إياه أيب الأمين ولم يك يومئذ بالعجوز إذا نظرنا إلى سنه فما تجاوز الأربعين إلا قليلا ، ولكن مسحة الهم فى وجهه المسنون ونظرات الحزن فى عينيه المتسائلتين ، ومض الألم فى شفتيه الزمومتين ، تجعله يبدو أكبر من سنه فى أعين ناظريه .

وكثيراً ما يراه الناس فى الطريق وكأنما أخذته عن نفسه حال فما فى وجهه غير دلائل الهم الذى يجيش فى نفسه ؛ ويحييه الناس جميعاً إذا مر بهم أو إذا مروا به فهو حبيب إلى نفوسهم وقل فى المدينة من يجهله ؛ وإنهم ليتبينون شخصه من بعد بقامته المديدة وخطواته التى يعرفونها وسرواله الذى ما زال قصيراً يكشف جزءاً من ساقيه ؛ فإذا دنا منهم نظروا إلى وجهه الذى أحبوه ، والذى يملأهم انجذاباً إليه وعطفاً عليه ما يرتسم فوقه من دخائل نفسه فضلا عما فيه من معانى البساطة والدماثة وحسن الطوية ، وهو يرد تحية ذاك بقوله سعد صباحك يا عزيزى الأخ ، أو تلك بقوله طاب يومك يا أختاه ، ثم ينطلق وكأنما يحس كل من لقيه كأنما سرى إليه شىء من همه ....

وكثيراً ما كان يقف وهو فى طريقه إلى بيته عند الظهيرة أو فى المساء يتحدث إلى هذا ، ويسأل ذاك عن حاله ؛ ويتم لصديق أو جار حكاية كان قد بدأها من قبل ، أو يعلق على حديث محدثه بنادرة أو يذكره من أمسه بما يشبه حاله اليوم ، أو يستخرج من كلامه عبرة أو عظة ، وقد ألف الناس مرآه على هذه الصـورة وألفوا أن يستوقفوه وأن يستوقفهم ولو طال بهم الوقوف .

ويسأل الناس إذ يرونه أحياناً يضحك ملء نفسه ماذا يكربه ويلقى ذلك الهم على محياه فأنهم ليحسون أن ضحكه إذا ضحك وأن نادراته إذا تندر إنما هى جميعاً متنفس يلجأ إليه ليخفف عن نفسه بعض ما بها ؛ يحسون ذلك إحساساً صادقاً فليس يقع مرحه فى نفوسهم كما يقع مزاح غيره فما يذوقونه إلا وفيه طعم الهم .

وإن صديقه هرندن وهو العليم به ليحار فى أمره ويحاول أن يرده إلى ما يعلم من حال معيشته وعلاقته بزوجه فيجد فى هذا ما هو عسى أن يكربه كما يكرب من كان فى مثل موضعه من الناس ، ولكنه يرى همه أكبر من تلك الأمور التى يعرفها ويظنها أسباباً له ...

هل عادت السياسة تشغل نفسه ؟ أم هل عادت معضلة الرق تقلق خاطره ؟ أم إن ما يكربه اليوم هو ما ذكرناه من قبل مما يكرب كل نفس كبيرة إذ يحس صاحبها أنه قد يعيش مجهولا غير مفهوم ؟ أهو الأرهاص الذى يسبق كل رسالة كبيرة ؟ ولكن هذا الهم بين جنبيه من قديم ولا تزيده الأيام إلا وضوحاً . هو فى الواقع ذلك الأحساس الذى يهجس فى كل نفس ملهمة والذى يبدو على ملامح صاحبها فى صورة من صور الهم وما هو إلا التطلع للمستقبل تطلعاً يكاد يخترق حجب الغيب ...

وليته يجد فى كنف امرأته ما يذهب عنه بعض همه ، وأين هو من هذا وهى كثيراً ما تكون سبب ما به فما تزال تعنف عليه وتغلظ له فى القول ، وإن ذلك ليؤلمه وإن يكن ألفه ووطن النفس فيه على الصبر ؛ وإنما مرد ألمه إلى أنه يطمع أن يسكن إلى زوجه كما يسكن الناس إلى زوجاتهم فلا يجد إلى ذلك سبيلا .

على أنه يشق اليوم أن مسلكها معه وليد مزاجها الحاد وأعصابها المرهفة ، فلم يعد يظن بنفسه الظنون ويخشى أن يكون ذلك منها استخفافاً بأمره فهى تعيش اليوم فى رغد بفضل ما يكسب من مال ؛ بنت طابقاً ثانياً لمنزلها وقد أصبح المكان الذى يقع فيه من أحسن جهات المدينة واشترى لها زوجها عربة جميلة تغدو فيها وتروح فى أنحاء سبرنجفيلد وإن لم يره فيها الناس قط ؛ ولن يمر أسبوع دون أن تدعو الأصدقاء والصديقات إلى حفل بهيج تقيمه فى بيتها وقد جددت أثاثه وزينته

أحسن زينة ؛ وبلغ عدد من حضروا حفلا عندها مرة ثلاثمائة من خمسمائة مدعو حال المطر دون حضور بقيتهم ...

وإنه ليضع ماله كله فى متناول يدها لتصيب منه ما تشاء بغير حساب ؛ وقد ترك لها أن تفعل ما تحب فيما يتصل بأمر المنزل والحديقة ، يثنى على كل ما تفعل ويرضى بكل ما تقول ؛ إذا عن لها أن تسأله مرة عن أمر فجوابه الذى لا يملك غيره هوامتداح ما ترى هى من رأى ؛ حتى ملابسه تشتريها هى له كما تشترى ملابس أحد أبنائهما ؛ وهو بهذه الطاعة يطمع أن يسكن هياجها ويخفف حدتها ولكنه يجد منها التبرم حتى بمسلكه هذا ؛ قالت لأختها مرة « إنه لا وزن له إذ يكون فى البيت ، ولن يفعل هنا شيئا أكثر من أن يدفىء نفسه ويقرأ ، وما ذهب إلى السوق مرة فى حياته ، وإنى أنا التى أعنى بكل هذا ... إنه لا يعمل شيئا وإنه لأقل الناس فائدة وأضيعهم حياة على وجه الأرض» ؛ على أنها على الرغم من ذلك يشيع السرور فى وجهها إذ تثنى أختها على أبراهام وتتنبأ له فى غده بعظيم القدر . وكثيرا ما كان يراه صديقه فى مكتبه قد بكر إليه قبله بساعات فيدرك لم ترك منزله هكذا مبكرا ، وكثيرا ما كان يعلم أن صاحبه بقى بالمكتب فى الظهيرة فأكل بعض لقيمات وقليلا من الجبن يشد بها متنه ؛ وكثيرا ما علم كذلك أن أبراهام لبث فى المكتب إلى قبيل منتصف الليل

وقد تنتظر امرأته مقدمه عند الغداء فلايحضر فترسل ابنيها الكبيرين يبحثان عنه فاذا هو فى دكان يحيط به نفر من الناس بين عامل وحوذى ونجار وتاجر وهو مسترسل بينهم فى قصصه ونوادره يشاركهم فى ضحكهم إذا ضحكوا ويسألهم عن أحوالهم إذا فرغ من حكاية ويرد على أسئلتهم ويقرأ لهم خطاباتهم كما كان يفعل وهو عامل فى دكان أو وهو موظف فى البريد ...

فاذا انطلق إلى داره لم يمنعه تأخره حيث كان من أن يقف مرات يكلم هذا ، ويرد على تساؤل ذاك ؛ ثم هو يعابث ابنيه ويمازحهما جاهرا بصوته وهما يتواثبان حوله يحاول كل منهما أن يسبق أخاه فى تناول ما يعد به إليهما يده من حلوى ، ويشرح أبوهما للناس سبب تصايحهما مرة بقوله « ما الحيلة وليس معى إلا ثلاث قطع وكل منهما يريد لنفسه اثنتين » ؛ وتعلم أمهما منهما بكل ذلك فتغضب وتصرخ فيطرق

أبوهما برأسه ويدعها فى هياجها لا ينبس ببنت شفة حتى تنفس عن نفسها غيظها كله . . .

ويحذر وهو يلاعب ابنيه فى بيته أن تفاجئهم أمهما فتقلب سرورهم نكدا إذ تعد عملهم عبثا بالنظام ؛ ولذلك يستصحب الابنين الكبيرين أيام الآحاد إلى المكتب فيلاعبهما كيفما شاء ثم يدعهما يمرحان ويلعبان ، وكأنما ينتهزان بعد رقابة أمهما فيأخذان من المرح والرياط بأكبر نصيب ؛ ويشهد أثر ذلك هرندن فى اليوم التالى فيما يرى من أوراق ممزقة ومقاعد ملقاة ومداد سائل على القماطر .

ودخلت عليه ذات ليلة وبين يديه ضيف من رجال القانون فسألته هل نفذ ماطلبت إليه من أمر ، فأجاب أنه نسى فعنفته قائلة إنه يهمل ما تطلب إهمالا معيبا ثم خرجت معجلة وشدت وراءها مصراع الباب فى عنف فدقت به مصراعه الثانى دقة قوية ؛ وعجب الضيف ونظر إلى أبراهام فضحك يهون المسألة لصاحبه ثم قال « لو أنك علمت مبلغ ما فى هذا العمل من شفاء لها ومبلغ ما فيه من خير وكيف تستمتع به حقا ، ولو أنك عرفتها كما أعرفها لسرك أنها تجد فرصة لتنفجر ولتنفس عن نفسها ما تشعر به »

وراض أبراهام نفسه على ألا يغضب مما تؤذيه به فـــلا فائدة من الغضب ولا نتيجة له إلا ازدياد غضبها وثورتها ، ولقد بلغ بها الأمر أن رآها بعض الناس ذات يوم تدفعه إلى خارج البيت بخشبة مكنسة قديمة !

على أن هرندن يجده ذات مرة قد بكر إلى المكتب ويراه صامتا كئيبا يرد تحيته فى صوت أجش وفى كلمة مقتضبة ويرى فى وجهه عنفا وغضبا ثم يلاحظ أنه يطيل الأطراق ويسترسل فى التفكير ، ويلمح حمرة يحس أنها حمرة الخجل تغشى أحيانا فى صفحة وجهه ؛ ولكنه لا يسأله عما به حتى يقبل عليه أبراهام يريد أن ينفس عن صدره فيقص عليه أمره ، وذلك أن امرأته أخذت تغلظ له فى القول وتسىء إليه فى الصباح الباكر وهو لا يرد على ذلك بكلمة فلا تهدأ بل تزداد عنفا وتزيده إهانة حتى أحس أنه يفقد صبره شيئا فشيئا ؛ فخرج من حجرة الطعام ليبتعد عنها فلما عاد إليها بعد لحظة لأمر اقتضى عودته عادت إلى صراخها ولقيته بعاصفة جديدة أفقدته صبره وأطارت صوابه ، فأمسك بذراعها فى عنف ودفعها

في شدة وغلظة أمامه إلى الدهليز فالفناء ومازال يدفعها حتى قذف بها في الشارع ، وفعل ذلك على أعين بعض الناس وكانوا في طريقهم إلى الكنيسة الأمر الذي أخجله أشد الخجل حتى وهو في سورة غضبه ...

وهو إذ يرى زوجه تمد الموائد المرة بعد المرة في سخاء لصاحباتها ، يجد نفسه عاجزاً عن أن يدعو إلى الطعام في منزله أحداً من أصحابه ، حتى أهله وذوى قرباه فلم يجرؤ أحد منهم أن ينزل ضيفاً عليه وهم يعلمون من تكبر زوجه وعنفها مايعلمون

ولقد قدر على هذا الرجل أن يجد الشقاء في علاقته بالمرأة من أيامه ، فطالما تألم لفقد حبيبة قلبه إذ طواها الموت ولطالما شقى بزوجته قبل زواجه بها من جراء حيرته وتردده ثم هاهو ذا يشقى بها بعد الزواج وكان يأمل أن يجد بين يديها ما هو في حاجة إليه من الهدوء والراحة بعد ما لقيه من عنت الأيام وقسوة الحياة ...

ولكن قلبه الانسانى الكبير وتمكن العدالة من نفسه يجعلانه على رغم ذلك يعطف على المرأة فيتحمس لها إن استضعفت ويدافع عنها ما وسعه الدفاع ؛ سئل مرة عن حقيقة إحساسه نحو المرأة فأجاب بما يفهم منه أنه من أكثر الناس حباً للمرأة ولكنه من أقلهم حظاً في الظفر بما يحب ؛ وهو لا يعدم في أى موقف أن يوضح المعنى الذى يريد بحكاية أو نادرة ؛ قال في هذا الصدد « أذكر أيام كنا نعيش في إنديانا أن صنعت أمى ذات يوم كعكا مخلوطاً بالزنجبيل فلما شممت رائحته أسرعت إليها لآخذ نصيبي منه وهو ساخن وناولتنى أمى ثلاثة صنعتها لى على هيئة رجال فأخذتها ومضيت إلى ظل شجرة من أشجار الهكرى القريبة لآكلها وكانت تعيش على مقربة منا أسرة أرق حالا منا ، فبينما أنا في ظل الشجرة إذ أقبل صبى من تلك الأسرة وقال : أعطنى واحدة من الزنجبيل يا أيب ، فمددت إليه يدى بها فالتهمها التهاماً وابتلع الرجل في نهم بينما كنت لا أزال أقضم الساقين وعاد فسألنى أن أعطيه رجلا آخر وكنت أريده لنفسى ولكنى مددت يدى إليه به فالتهمه كما التهم الأول ؛ فقلت له يظهر أنك تحب كعك الزنجبيل يا صاحبي ؟ فقال ما من شخص في الدنيا كلها يحبه كما أحب وما من أحد ينال منه أقل مما أنال »

ورأى الناس لنكولن يختلف إلى مغنية فيستمع إليها في إعجاب وشغف ، ويتحدث إليها كذلك إذا فرغت من غنائها ؛ وضايقه بعض أصحابه باستنكارهم

ذلك منه وهز البعض رؤوسهم محذرين فأجابهم « دعونى وشأنى ... إنها المرأة الوحيدة التى أسمعتنى أحاديث جميلة » ؛ على أن أحدا من خصومه السياسيين لم يستطع وهو يتصيد له ما يشينه أن يجد غميزة فى خلقه من هذه الناحية ...

وكان لأبراهام يومئذ أى عام ١٨٥٠ ثلاثة بنين كان أكبرهم فى السابعة من عمره وثانيهم يقرب من الخامسة وثالثهم فى سنته الأولى ؛ ولئن أعوزه أن يحس السرور بين يدى زوجته فلقد كان يجد بعض العزاء عن ذلك فى ملاعبة ابنيه وفى رؤية ابنه الثالث فى مهده ولكن الزمن القاسى يأبى إلا أن يسدد إلى قلبه سهما من أحد سهامه وأوجعها فينتزع الموت ابنه الثانى وهو فى الخامسة من عمره فيذهب كما تموت الريحانة الغضة ، ويجدد موته آلام أبيه وأشجانه حتى كأنها تجتمع كلها فى هذا الموت .

وكأنما لم يكفه ما كان يلاقى من عنت زوجه حتى تأتيه المتاعب من جهة أخرى فأن أقاربه فضلا عن أبيه ومنهم ابن زوج أبيه جون جونستون لا يفتأون يطلبون منه مالا ويرجعون إليه فيما ينجم من خلاف ليصلح ذات بينهم ، وحسبه ما كان فيه من شغل وهم

وكان أبوه توماس لنكولن يومئذ شيخا كبيرا قد تجاوز السبعين وكان يعيش فى إلينوى عيشة البساطة التى شاركه فيها ابنه زمنا ، ولقد امتد به العمر حتى رأى ابنه الذى كان يحمل الفأس معه فى الغابة من ذوى المكانة ؛ يعيش عيشة المدنية فى سعة من الرزق ؛ وكان يسر أبراهام أن يرسل إلى أبيه ما يسعه إرساله من المال والهدايا ؛ وكان دائم السؤال عنه بكتبه التى يرسلها إلى من يقرؤها له ممن يعرفهم من المقيمين على مقربة منه ...

وفى عام ١٨٥١ برحت العلة بالشيخ ودنا الموت منه ، فكتب جونستون إلى أبراهام يخبره هذا الخبر فعظم وقعه فى نفسه ، ولكنه لم يستطع أن يسافر ليرى أباه. فكتب إلى جونستون يقول « إنك تعلم أنى أريد ألا يحتاج أبى أو أمى[1] إلى شيء فيه راحتهما سواء فى مرضهما أو فى عافيتهما ماداما فى عداد الأحياء ، وأشعر

---

(١) زوجة أبيه

شعور اليقين أنك لم تدخر وسعا فى الاعتماد على اسمى فى استحضار طبيب أو أى شىء آخر يطلبه أبى فى مرضه ؛ إننى اليوم بحيث لاأستطيع أن أبتعد عن بيتى حتى ولو لم يكن مرد ذلك إلى سبب قائم هو مرض زوجتى ؛ وإنى لآمل أن يسترد أبى عافيته ، وعلى أى حال فأنى أرجو منك أن تذكره بأن يتجه إلى خالقه ويدعوه فلن يتولى عنه العظيم الرحيم إذا دعاه فى أية شدة ؛ وهو الذى لا يغيب عنه موت العصفور ويعلم عدد شعرات رؤوسنا ؛ ولن ينسى الخالق رجلا يقضى نحبه وقد وثق قلبه به ؛ قل لأبى إنه لوكان من المستطاع أن نلتقى الآن فأن لقاءنا يكون أدعى إلى الألم منه إلى السرور ، وإذا قدر عليه أن يفارق الحياة فأنه سينعم بأكثر من لقاء بكثيرين ممن سبقونا إلى الموت حيث يأمل بقيتنا أن يذهبوا بعد قليل برحمة من الله وفضل ؛ أكتب لى ثانية بعد وصول هذا إليك »

وكأنما يذكره موت أبيه بموت أمه وإلا فما بال خيالها يطوف بخاطره أكثر من ذى قبل كأنها هى التى تموت اليوم وقد مر على موتها زمن طويل .

وإنه ليفضى إلى صاحبه هرندن ذات يوم بحديث عن أقاربه وصلته بهم ؛ ويتطرق الكلام أثناء هذا الحديث إلى منشأه فيكشف لنكولن لصاحبه عن سر يتصل بأمه ؛ وذلك أنه لا يعرف أجداده لأمه فقد كانت أمه التى أحبها والتى يجل ذكراها ابنة رجل مجهول وسيظل هذا الرجل مجهولا أبدا ؛ وكل ما يستطيع أن يعرفه عنه أنه من أهل الجنوب ؛ وبيان ذلك أن جدته لأمه كانت تعيش وهى فتاة فى ولاية فرجينيا فى الجنوب فأصبحت ذات حمل وإن لم تتزوج ووجدت نفسها بعد أشهر الحمل تضع أنثى وكانت هى وحدها التى تعرف والد هذه الأنثى ولقيت من أهلها أشد الغضب لزلتها ولكنهم احتضنوا بنتها فنشأت بينهم تنتسب إليهم وليست منهم ؛ ذلك هو السر الذى يفضى به لنكولن إلى صاحبه على مافيه مما يوجب الكتمان

ويردف أبراهام قائلا لصاحبه إنه إن كان ثمة من ميزة فيه لا يوجد مثلها فى أحد من ذوى قرباه فردها لا ريب إلى أجداده المجهولين من أهل الجنوب

ويحرص أبراهام على وفائه لزوج أبيه بعد موته ويدعوها أمه فى كتبه التى يرسلها إلى ابنها جون جونستون ، وهو لا ينسى ما كان من حدبها عليه ومحبتها

إياه بعد موت أمه حتى لـكأنه كان ابنها ، وقد كان يسمع عن زوج الأب ما زاده إجلالا ومحبة لهذه السيدة العطوف الرحيمة القلب التى أحس أنها تقوم منه مقام أمه التى ولدته

حفظ لها جميل صنعها وهو الوفى بطبعه ، العظيم الأنسانية بقلبه ، وراح يدافع عنها ويمد لها يد العون ويحميها حتى من طيش ابنها وسوء تدبيره

وكان جونستون يكدرخاطرأبراهام بطلب المال منه المرة بعد المرة ؛ وما يتكدر خاطره إلا لأن هذا الطلب دليل على فساد جونستون أو كسله ؛ اقرأ هذا الـكتاب الذى أرسله إليه أبراهام ، وقد كثر طلبه المال منه فستجد فيه أسلوبه فى الأقناع وطريقته فى الأحاطة بما يعن له من أمر ؛ ومهارته فى أن يؤنب فى غير إساءة أو استفزاز ، وأن يجلو الرأى حتى ما يدع حجة لمجادل ؛ وهذه صفاته التى سوف تبرز غداً فى مجال فسيح هو مجال الصراع بين الشمال والجنوب بسبب معضلة الرق ؛ قال أبراهام :

« عزيزى جونستون :

« لست أرى من الخير الآن أن أوافقك على طلبك فأرسل إليك تلك الريالات الثمانين ؛ لقد كنت تقول فى كل مرة من المرات السالفة التى أعنتك فيها إعاناتى اليسيرة أنك سوف تسير فى الحياة بعدها سيراً مرضياً ، ثم لا ألبث أن أجدك حيال صعوبة تعترض لك ؛ وليس يحدث ذلك إلا لعيب فى مسلـكك ، وأظننى أعلم ما ذا يكون ذلك العيب ؛ ليس الخمول من صـفاتك ، ولـكنك مع ذلك تتقاعد ، وإنى لأشك فى أنك منذ رأيتك قد ملأت بالعمل يوماً واحداً من أيامك ؛ إنك لا تكره العمل كرهاً شديداً ، ومع ذلك فأنك لا تحب أن تقبل كثيراً على العمل لما يخيل إليك من أن ذلك لا يعود عليك بكثير جدوى ، إن هذه العادة عادة إضاعة الوقت فى غير ما يجدى ، هى سبب ما تلقى من مصاعب ؛ وإنه لأمر عظيم الأهمية بالنسبة لك ، وأعظم أهمية بالنسبة لأولادك أن تتخلص من هـذه العادة ، وهو أعظم أهمية بالنسبة لأولادك ، لأن أمامهم أن يعيشوا أطول مما تعيش ولأيسر عليهم أن يتجنبوا عادة سيئة قبل أن تحيط بهم من أن يخرجوا منها بعد إذ دخلوها ؛ إنك الآن محتاج إلى بعض المال ، وإنى أقترح أن تؤدى عملا ما

بسنك وظفرك لن يدفع لك أجراً على هذا العمل ، ولكى أضمن لك جزاءً حسناً على اجتهادك ، فأنى أعدك أن أدفع لك نظير كل ريال تكسبه أو تنقصه من دينك ريالا من عندى ، وذلك منذ اليوم حتى أول مايو ؛ وبهذا فأنك إذا استؤجرت بعشرة ريالات كل شهر تحصل منى على عشرة مثلها ، فيجتمع لك عشرون ريالا فى الشهر أجراً لعملك . ولست أعنى أن تذهب بعيداً إلى سنت لويس ، أو إلى مناجم الرصاص ، أو مناجم الفحم فى كاليفورنيا ، وإنما أعنى أن تبحث عن أحسن أجر يمكنك أن تحصل عليه على مقربة من مقرك ؛ إنك إن فعلت هذا تخلصت من دينك وظفرت بما هو خير من ذلك ، ألا وهو عادة تعصمك من الوقوع فى الدين كرة أخرى ؛ ولكنى إن خلصتك من دينك الآن ، فأنك سوف تغرق منه فى عامك القادم إلى مثل ما تغرق كل حين .

تقول إنك تكاد تعطى مكانك فى الجنة فى مقابل سبعين أو ثمانين ريالا ، وإنك بذلك لتجعل لمكانك هذا قدراً رخيصاً جداً ، لأنى واثق أنك تستطيع مع ما أعدك به من عون أن تحصل على هذا المبلغ إذا اشتغلت أربعة أشهر أو خمسة ؛ وتقول كذلك إنك مستعد أن تودع قطعة الأرض رهينة عندى إذا دفعت لك ذلك المال حتى إذا عجزت عن سداده تنازلت عن ملكك إياها ، ألا إن هذا للغو ! فإذا كنت لا تستطيع العيش ومعك الأرض فكيف تستطيع أن تعيش بدونها فيما بعد ؟ لقد كنت دائماً رحيما بى ولست أقصد أن أكون بك اليوم غير رحيم ، كلا فأنك إن قبلت نصحى كان أغلى لك ثمانين مرة من الريالات الثمانين !

أخوك المحب أ . لنكولن »

وظل جونستون فى اضطرابه وكسله حتى لم يعد يجد أمامه مخرجاً إلا أن يبيع ما خلف زوج أمه من أرض ، ولكن أبراهام عارض فى ذلك معارضة شديدة وكتب إليه كتاباً شديد اللهجة يعنفه ويحذره ؛ وحاول أبراهام أن يحول بينه وبين أن يبيع نصيب أمه فى هذه الأرض ولكنه لم يفلح ؛ وكان يخشى أبراهام أن تسوء حال زوج أبيه ، وإنه ليألم ألا يستطيع أن يدعوها لتقيم معه فى بيته ؛ وكذلك كان لا يفتأ يسأل عن حالها ويعدها بما يستطيع من عون ... وكتب يعرض على جونستون أن يرسل إليه أحد أبنائه ليربيه عنده .

وانقضى عامان ، فبعد أن فرغ ذات ليلة من محاضرة عامة كان يلقيها فى مدينة صغيرة أشار إلى أحد الرجال وانتحى به جانباً وهمس فى أذنه قائلا « إن عندك فى السجن فتى حدثاً أريد أن أراه على ألا يعلم أحد بذلك » ؛ وكان هذا الحدث هو أحد أبناء جونستون وكان متهماً بسرقة ساعة وبعض أشياء أخرى ، وقال أبراهام « إنى سأنقذه مما هو فيه هذه المرة ولئن عاد بعدها إلى السرقة فلن تكون لى به صلة » .

وذهب أبراهام وكلم ذلك الفتى من خلال قضبان السجن ؛ ثم وقف يتحدث مع أصحاب المتاع المسروق وما زال بهم حتى أقنعهم بالعدول عن الاتهام بعد أن دفع لهم ثمن مسروقاتهم وتوصل بهذا إلى إطلاق سراح الفتى ولقد وصفه من شهد موقفه يومئذ فقال « لقد كان أبراهام شديد الأسف وما رأيته قط يبدو على وجهه أكثر من هذا الحزن » .

وحق له أن يحزن وهو بفعلته هذه يقف فى وجه العدالة فينقذ من القصاص مجرماً ؛ ثم إنه لقى عنتاً شديداً من أصحاب المتاع المسروق وأحس بين أيديهم بالخجل الشديد ، وليس هذا بالأمر الهين على من كان فى مثل مركزه ومن كان له مثل خلقه ؛ على أنه يحتمل ذلك من أجل زوج أبيه ، من أجل تلك المرأة الطيبة الرحيمة التى أحسنت معاملته وهو حدث ، وإن قلباً مثل قلبه الكبير لا يمكن أن ينسى صنيعها ، وكيف ينسى وهو يسمى بالمعروف أبداً لكل من يطلب المعروف فكيف به حين يرد الجميل لمن بدأه بإحسانه ؟

كان أبراهام قد بلغ أشده واستوى ، وأخذت نظرته إلى الحياة والناس تزداد عمقاً فى أول العقد الخامس من عمره ؛ ولكنه ما برح يحس كأن شيئاً يقلقه ؛ شيئاً خفياً لا يجهله ولا يدريه يشغل باله وينقبض له صدره ؛ فهل أخذت السياسة توسوس له من جديد فهو يتأهب لها ويتحفز ؟

ويلاحظ أصحابه أن أمارات الحزن التى ارتسمت على وجهه منذ حداثته تزداد وضوحاً كلما تقدم به العمر وقد ازداد ما يخطط ذلك الوجه من تجاعيد هى من أثر الهم لا من أثر السنين ؛ وهو على الرغم من عذوبة روحه فى أحاديثه وطلاقة بشره فى قصصه ، تنطوى نفسه على كثير من الهم لا يتبين مبعثه ؛ وهو إذا خلا إلى نفسه فكر وأمعن فى التفكير ، وتربد وجهه وانعقدت عليه كآبة مخيفة ينزعج لها خاطر من يراه ، وكثيراً ما وافاه صديقه هرندن وهو على هذه الحال ، وكثيراً ما سمعه يغمغم بمثل أنين المحزون ...

سمعه أحد رفقائه فى السفر أثناء تجواله إلى المحاكم وقد نهض ذات صباح مبكراً ، يحدث نفسه ، واستمر يفعل ذلك بضع دقائق وهو يلبس ملابسه حتى لقد ظن صاحبه به الظنون ، وحسب أنه قد مسه الخبل بغتة ، ثم رآه صاحبه يضع كفيه على وجهه وقد أطرق ملياً حتى نبهه جرس الطعام فى فناء الفندق فوثب واقفاً وفى وجهه حزن عميق ...

وكان إذا سمع أبراهام مغنياً يغنى قطعة حزينة ، يسأله أن يكتبها له فيترنم بها ويرددها كأنما يجد فيها عزاء لنفسه أو شفاء لهمه .

وكثيراً ما يتأمل فى الكون تأمل الشاعر تارة وتأمل الفيلسوف تارة أخرى ؛ حدث عنه مضيف له فى شيكاغو مرة أنه جلس ذات ليلة موزع البصر بين البحيرة العظيمة والسماء ثم نظر نظرة طويلة فى النجوم وراح يحدث من حوله عما بينها من مسافات هائلة وعما توحيه إلى النفس من شعر وسحر ، وعن العلم وما كشف من أبعادها وأحجامها ، وعن المناظر الكبيرة وما يرجى من فوائدها وما يتوقع من تقدمها

كل ذلك فى حسن سياق ودقة وصف وصحة فهم .

وكان يبدو شديد المرح أحياناً فيرسل طائفة من النكات واحدة تلو الأخرى ويقص بعض نوادره وحكاياته ، فما يشك سامعه أنه من ذوى النفوس الراضية التى لا تعرف الهم ، ولكن واعيته الباطنة فى الواقع هى التى كانت تميل به إلى هذا تخلصاً مما يساوره من هم ، وكثيراً ما كان يتلمس السلوة فى مثل هذه الأحاديث ، وما كان ميله إلى الفكاهة إلا نوعاً من الهرب مما يوسوس به الهم فى صدره .

وكان يخيل إلى محدثه أنه مصيخ إليه مقبل عليه إذ هو فى الواقع فى شغل عنه بما يهجس فى خاطره من قلق أو يعتلج فى نفسه من ضيق ، فلا يلبث أن يقطع الكلام على محدثه فى صوت عال مندفعاً فى كلام لا يمت إلى ما يقول بصلة ؛ وكثيراً ما كان يبعث الضحكة العالية تصحبها هزات من رأسه وقد ساد الصمت بعد الصخب فى مجلس من المجالس التى تحتويه ، وليس الوضع موضع ضحك ، فيعجب الجالسون من فعله إلا من يعرفه منهم ؛ وقد يخرج دفتراً صغيراً من جيبه فيدون فيه بعض كلمات أو يقلب صفحاته ثم يسترسل فى سرد قصة أو يبعث فكاهة فى إثر فكاهة ...

وهو منذ حداثته يأبى إلا أن يرسل نفسه على سجيتها لا يقيد نفسه بشىء ، وما تزيده الأيام إلا حرصاً على رغبته فى التخلص من القيود لا يعنى بمظهر ولا ولا يلتزم وضعاً من الأوضاع فى ملبس أو مأكل ؛ وكان قوى البنية نشيط الحركة لا يركن إلى قعود وذلك دأبه منذ كان فى الغابة ، وهو فى جميع أفعاله تتكشف جوانب نفسه عن طبيعة صادقة كأنما تتحرك عن إلهام أو تعمل بوحى ؛ وتتمثل فيه البشرية فى سذاجتها وكمالها وفى ضعفها وقوتها ، ويلمح الناس فى سجاياه براءة الطفل وتوقد عاطفته إلى جانب نزعات الفيلسوف ورجاحة عقله ...

وكأنك تقرأ سجاياه فى أسارير وجهه ؛ وتحس فيها ما تعوده فى حياته من البأساء والضراء فإذا نظرت إلى صورته رأيت شبح حياته الأولى فى رأسه الأشعث ، ولمحت زكانة نفسه فى جبهته العالية العريضة ، وأحسست طيب قلبه وصفاء طويته ورقة عاطفته ونفاذ بصيرته فى عينيه الوديعتين المتسائلتين ، وتبينت صرامته ومضاء عزيمته فى أنفه الغليظ الأشم ثم أبصرت قوة صبره وشدة تحمله

وروعة استبسلامه تختلج كلها على شفتيه المضمومتين المعبرتين عن مض الحوادث وطالعتك من هاتيك الملامح فى جملتها سذاجة الأطفال وهيبة الرجال؛ ثم تهلل من وراء ذلك كله سر العبقرية الذى يدق عن كل وصف ويسمو على كل تحليل ...

وكان يلوذ بالكتب إذا فرغ من قضاياه وخاف وساوس همه ، وإن له فى الكتب لغنية ومتعة ؛ وقد ازداد شغفاً بشكسبير إذ يرى ومض عبقريته يمس النفس البشرية فينير أكثر نواحيها ، وهو مولع منذ حداثته بدراسة النفس البشرية والنور إلى أعماقها ومن غير شكسبير يهديه السبيل ؟ لذلك كان إذا تناول كتاباً من كتب القانون ساعة أو بعض ساعة ثم ألقاه ، عمد إلى مأساة أو ملهاة من آثار شكسبير فأكب عليها ونسى كل شىء سواها ؛ فإذا أتى عليها فكر وفكر وظل شاخصاً ببصره فى ثرى الأرض أو فى لازورد السماء كأنما أخذته عن نفسه حال .

وكانت له فى بعض آثار بيرون متعة ، ومن بينها قصته العظيمة دون جوان ؛ وهو بين هذا وذاك يقلب صفحات التاريخ العام وصفحات تاريخ بلاده ؛ ويقرأ الفلسفة فيدرس كانت ولوك ونخت وإمرسون وغيرهم .

ومن عجيب أمر هذا المحامى أنه تناول فيما تناول كتب العلوم وأخذ يدرسها وقد جعل لها ساعات من فراغه ، فهذا علم النبات له نصيب من جهده وذاك علم الحيوان له نصيب ، ثم هذه الكهربة تصيب من عنايته حظا ليس باليسير !

ولكن ما العجب ؟ وهل تضيق العبقرية عن شىء ؟ هذا لنكولن ابن الغابة الذى علم نفسه ، لولم يكن المحامى أو رجل السياسة ما قعد به شىء عن أن يكون الشاعر الفحل ! أو لو أنه أفرغ إلى العلم جهده وجعل للدراسة والتحصيل وقته لكان لنا منه العالم الفذ أو الفيلسوف المبتدع . وهو فى ذلك أكثر الناس شبهاً بجوت شاعر ألمانيا الأكبر ، الذى يجمع بين اللمعة الخيالية والنظرة العلمية والحكمة العملية .

وفكر إبراهام فى المسيحية وقلب الرأى على وجوهه فى تلك العقيدة ، وكان شأنه إذ يفكر فيها كشأنه فى كل ما يعرض له من أمر ؛ فاستقلال الفكر قوامه والمنطق سبيله ، والإحاطة بالموضوع من جميع أقطاره غايته ؛ ثم إنه يقابل بين الآراء ويتقصى تفاصيل كل رأى فى غير تحيز حتى يتبين ما لهذا الرأى وما عليه ؛

ويخلص من هذا إلى النتيجة التي يراها فتكون فى ذهنه واضحة كل الوضوح .

وكان فى صدر شبابه لا يتحرج من إعلان رأيه فى هذه المسألة وهى ما يتحرج منها معظم الناس ، ولقد أشيع عنه وهو فى نيو سالم أنه كافر ينكر الله على الرغم من تمثله فى أحاديثه وخطبه بالأنجيل ومواعظ الأنجيل ... ولكنه أخذ يتحفظ فى رأيه بعد ذلك فلا يفضى بما يعتقد إلا إلى خواصه ، على أنه لم يظهر مرة غير ما يبطن فما يتكلم إلا بما يعلم ، على قدر ما يتفق له من فهم

حدث هرندن عن صديق لأبراهام كتب عنه وهو فى الثلاثين من عمره فقال « لقد كان يركن أحيانا إلى مبدأ إنكار الله ، ولقد ذهب فى هذه الناحية إلى مدى بعيد روعنى ، وكنت وقتها حدثاً أعتقد فيما تقوله لى أى الطيبة ؛ وكان يأتى إلى مكان الكتاب حيث كنت أجلس وبعض الفتيان ، وقد أحضر معه الأنجيل فيفتحه ويقرأ فصلا منه ثم يأخذ فى تفنيده »

وحدث ستيوارت أول شريك لأبراهام فقال « لقد ذهب فى معارضة العقائد المسيحية وقواعدها ومبادئها إلى أبعد مما ذهب إليه أى رجل سمعت عنه ... وقد أنكر لنكولن دائما أن المسيح ابن الله كما تفهم وتدين الكنيسة المسيحية ، وبعد ذلك بعشرة أعوام علمت من القاضى دافسن أن ابراهام لا يؤمن بالمسيحية كما تأخذ بها الكنيسة ، وليس يؤمن إلا بالقوانين والمبادىء والعلل والنتائج »

وحدث آخر عنه فقال « كان يصدق بخالق خلق كل شىء لا أول له ولا نهاية ، وله القدرة كلها والحكمة وقد وضع ذلك الخالق مبدأ تتحرك العوالم طوعا له وتقوم به ، ويعيش الحيوان والنبات على مقتضاه . ويورد لعقيدته هذه سببا هو أنه بالنظر إلى ما فى الطبيعة من نظام واتساق نجد أن مجيئها على هذه الصورة المحكمة بطريق المصادفة أدعى إلى العجب مما لو كانت من خلق قوة عظيمة مدبرة أحكمتها .. إن ما جاءنا من بينة على ما فى المسيح من الله قد أتى على صورة ما ، يحيطها الشك ؛ ولكن نظام المسيحية كان نظاما جيداً على الأقل »

ومما ذكره كذلك عنه هذا الرأى « إن ما عبر به لنكولن عما يرى فى هذا الأمر وما يتصل به يخرجه من دائرة المسيحية ؛ ومع هذا فأن مبادئه وما يجرى عليه فى أمور حياته والروح المسيطرة على حياته كلها لا تخرج عما يتفق الكافة على عده من المسيحية »

وقالت زوجه بعد موته « لم يكن استر لنكولن عقيدة ولا أمل فيما يصدق عادة من تلك الكلمات ، ولم يتصل بكنيسة قط ، بيد أنه مع هذا كان كما أعتقد رجلا دينا بفطرته .. وكان الدين نوعا من الشعر فى طبيعته ، ولم يكن مسيحيا بالمعنى المتعارف عليه »

وقال أبراهام مرة إن مذهبه كمذهب رجل شيخ سمعه مرة يقول عقب اجتماع من اجتماعات الكنيسة : « إنى إذا فعلت الخير أحسست بالخير وإذا فعلت الشر أحسست بالشر وهذا هو دينى » ، وذكر هرندن رأيه فيه فقال « ما من رجل يؤمن بالله فى قوة وثبات أكثر مما يؤمن لنكولن ، ولكن ينبغى ألا نأخذ تكراره لفظ الله فى آخر حياته على أنه يعنى إلها مجسدا ؛ وفى سنة ١٨٥٤ طلب إلى أن أحذف كلمة « الله » من خطاب كتبه وقرأته عليه لينقده ، وذلك لأن عبارتى كانت تشعر بأنى أقصد إلها فى شخص وإنه ليصر على أن مثل هذه الشخصية لم يكن لها وجود قط »

وما يعنينا من أمره هذا إلا مبلغ ما فيه من دلالة على استقلال رأيه ، وإصراره على تبين ما يأخذ مما يدع من أمور الحياة كلها ولو كان ذلك الأمر هو الدين ، ثم حرصه فى كل شىء على الاقتناع والفهم ، ثم تصريحه بما يعتقد فى غير التواء أو مواربة ، وما ذلك إلا لأن الرجل قد جبل على أن يسير على سجيته ، وأن يعمل بوحى من فطرته ، وفى هذا جانب من جوانب عظمته وناحية من دعائم قوته.

وعجيب بعد ذلك ألا يخلو هذا الرجل الذى يتفلسف فى دينه هذا التفلسف ويتدبر فيه هذا التدبر ، من صفة تحملنا على العجب منه أعظم العجب ، وتجعلنا من أمره حيال تناقض ليس من الدهشة منه بد ؛ وذلك أن لنكولن يؤمن أو على الأقل يذعن لتلك الناحية الخرافية من أوهام الناس ؛ فيصدق فى فائدة حجر من الأحجار مثلا ؛ ويرى فى بعض الظواهر أمارات خير أو شر مقبل ، كما يفعل بسطاء الناس إذ يرون مثل ذلك فى رفيف العين مثلا ؛ ويعلق أهمية كبيرة على الأحلام ويجتهد فى استنباط ما عسى أن تنبىء عنه أو تدل عليه ؛ وتحدثه نفسه أحيانا وتوسوس له فيترقب فى اطمئنان أو فى خوف

عض ابنه كلب مجنون فحمل ابراهام الطفل مسافة طويلة إلى إنديانا ليلمس

هناك حجراً مشهوراً يؤمن الناس أن لمسه يصنع العجائب ؛ وأى فرق بينه فى هذا العمل وبين فلاح ساذج محتطب ممن اختلط بهم أمس فى الغابة ، بل أى فرق بينه اليوم وبينه أيام كان ينصت وهو فى كوخ أبيه فى الغابة إلى صفير الرياح فى ثقوب ذلك الكوخ أو إلى خشخشة الأغصان على بعد فى الظلام كأنها صوت ينبعث من البحر ؟ وإذا كانت هاتيك الأوهام قد انبثت فى نفسه فى ذلك العهد فكيف لم تقض عليه قراءاته وخبرته وصلته بدنيا العلم والحضارة ؟ ترى هل فعل ما فعل من فرط محبته ابنه فهو ينتقل به إلى ذلك الحجر كما يصنع الغريق إذ يحاول أن يمسك شعاع الشمس؟ أم ترى أنه كان يؤمن أن فى الحجر سراً يشفى كما يصدق بسطاء الناس ؟ ذلك ما يحار عنده المرء فلا يرى وجه الصواب فيه

صدق أبراهام بالعلامات والأحلام والعجائب ، فذلك أمر يحسه فى نفسه ، وليس مرده إلى العقل والمنطق ، وظل مصدقاً بها عمره كله ، يرتقب ما توحى به من خير أو شر ؛ ولكنه لم يصدق أنها تلوى القدر عن وجهه ، لأنه يؤمن أن كل شىء مقدر على المرء من قبل أن يبرأ ، فلا تجدى وسيلة من صلاة أو دعاء فى تغيير ما تجرى به المقادير . يقول فى ذلك : « إن كل أثر له سببه ، فالماضى سبب الحاضر ، والحاضر سوف يكون سبب المستقبل ، ليس فى فلسفتى أن شيئاً يأتى عفواً ... »

ولذلك فأنه وإن نظر فى الأحلام وما عسى أن توحيه ، وفى بعض العلامات وما عسى أن يكون ما تنذر أو تبشر به ، لا يأخذ بها فيما هو فاعل من شىء ، فلن يغير خطة رسمها ، أو يقبل على عمل ما ، لأن حلماً من الأحلام يوحى بذلك ، أو نذيراً من النذر يوسوس به ، أو بشيراً يومىء إليه ، فكل أولئك لا يقره عقله ولكنه على الرغم من ذلك يحس ويتوقع ويخاف ويستبشر ، كما حدث فى آخر يوم من حياته ، إذ أفضى إلى صاحب له أن فؤاده يحدثه بمكروه ؛ وكما حدث إذ تحدث إلى هرندن ذات يوم قبل ذلك بأعوام قائلا : « بلى ... إنى لأخشى أن سوف تأتى نهايتى على صورة مرعبة ! »

شمـــال وجنوب . . . !

كان اتساع هوة الخلاف بين الشمال والجنوب أمراً لا بد أن تفضى إليه الظروف ، فأن مشكلة الرق أمست كبرى المشاكل القومية ، حتى إنه ليمكن القول بأن أكثر ما نجم من المسائل منذ منتصف القرن التاسع عشر ، إنما يرد إلى تلك المشكلة التى أعضلت على الحل ، والتى وصفها جفرسون من قبل وصفاً بليغاً فى قوله : « إنها مثل الذئب نمسكه من أذنيه فلا نستطيع أن نظل ماسكيه ، ولا نستطيع أن نطلقه ونضمن السلامة » .

خفف اتفاق مسورى حدة الخلاف بين الشمال والجنوب زمناً ليس بالقصير ، فقد عقد ذلك الاتفاق سنة ١٨٢٠ ؛ وعاد الخلاف يتهدد الاتحاد بسبب مسألة كليفورنيا سنة ١٨٥٠ .

أراد الجنوبيون أن تكون كليفورنيا من ولايات الاسترقاق ، وأراد الشماليون أن تكون من الولايات الحرة ، وشايع أهلها الشماليين فيما ذهبوا إليه ، واحتدمت الخصومة بين الجانبين ، حتى لقد بلغ الأمر بالجنوبيين أن رددوا كلمة الانسحاب من الاتحاد ، وحتى ظن بعض الناس أن هذا الخلاف الجديد لا بد مؤد إلى انقسام البلاد إلى اتحاد شمالى واتحاد جنوبي .

كان أهل الجنوب ينظرون فى قلق إلى تزايد عدد الشماليين نتيجة لما درته الصناعة والتجارة عليهم من خير ونتيجة لتيسير سبل الاتصال بين الشرق والغرب بتعبيد الطرق ومد سكك الحديد مما أدى إلى نزوح أهل الشمال إلى الجهات الغربية يعمرونها وينسلون فيها ؛ هذا إلى أن دعاة التحرير تزداد أصواتهم ارتفاعاً ، كأن لم تكف أهل الشمال عداوتهم السلبية للرق فيريدون أن يقضوا عليه بين يوم وليلة

لهذا أصر الجنوبيون على أن تكون كليفورنيا من ولايات الرق ، فأن سكان الولاية عند الانتخاب للمجلس النيابى يقدر عددهم على أساس البيض كلهم مضافاً إليهم ثلاثة أخماس السود ؛ وكان الجنوبيون يطمعون أن يعمروا بقاعاً جديدة ، كما يفعل الشماليون وينشروا فيها الرقيق ، فلا أقل اليوم من أن يقروا مبدأ الرق

فى كليفورنيا ؛ وما أجدرهم أن يعظم سخطهم على الشماليين لوقوفهم بينهم وبين مايبتغون؛ وكان الرئيس يومئذ هو تيلور فأعلن رأيه مؤيدا الشماليين قائلا فى صراحة إن من السخف أن يحمل أهل كليفورنيا على أمر لا يريدونه ؛ وزاد رأيه هذا بالضرورة سخط أهل الجنوب وملأ قلوبهم غيظاً وثورة ؛ ولـكن تيلور ما لبث أن مات وحل محله نائب الرئيس ، فسهل موته العمل على الوصول إلى اتفاق جديد إذ كان تيلور عنيداً يتمسك برأيه ولو أنه بقى لبعد الأمل فى التسوية ، وكان نائبه سهل الخلق لا يأبى إذا حزبه أمر أن يترك الرأى فيه لمن يراه أقوى على الخلاص منه .

ومن عسى أن يدبر للبلاد مخرجاً من هذه الأزمة؟ بهذا تلفت الناس يتساءلون فاتجهت قلوبهم إلى صاحب اتفاق مسورى ؛ إلى هنرى كلى ، ومن غير كلى إذا اشتد بالناس الخلاف ؟ وكان الرجل فى عزلته منذ فشله سنة ١٨٤٤ ؛ وقد تقدمت به السن وأخذ الضعف يدب فى بدنه ولـكنه وقد أهاب به داعى الوطن لم يكن ليستطيع أن يتخلف وهو الشهير بصدق وطنيته وقوة حرصه على بناء الاتحاد ، فبرز من عزلته يمد يده إلى وطنه من جديد ...

وأملت عليه مهارته حلا يرضى الجانبين المتنازعين ؛ فلتكن كليفورنيا ولاية حرة كلها وإن كان ما يقرب من نصفها يقع جنوبى خط اتفاق مسورى ؛ وفى مقابل ذلك تفتح للرق أريزونا ومكسيكو الجديدة وهما من البقاع التى لم تستعمر بعد استعماراً تاماً ، إذا شاءت حكومتاهما ذلك بعد تكونهما ، وإنما يكتفى الآن بتقرير المبدأ ؛ يبقى بعد ذلك أمران أولهما وجود الرق منذ القدم فى منطقة كولومبيا التى تقع فيها مدينة وشنطون ، بل ووجود مستودع كبير للرقيق على خطوات من مقر الحكم وهذا مما اشمأزت منه قلوب الأحرار وتأذت نفوسهم سنوات طويلة وكان مصدر شقاق وشحناء بين أنصار التحرير والمتمسكين بالرق ؛ أما الأمر الثانى فهو قانون الرقيق الآبقين إلى ولايات غير التى كانوا فيها وكان يقضى الدستور بإعادتهم إلى حيث كانوا ، ولـكن كثيراً من الولايات أصدرت تشريعات محلية تعطل حكم الدستور فى هذا الأمر ...

ورأى كلى فى أول الأمرين أنه مع الاعتراف بأن كولومبيا منطقة من مناطق الرق إلا أنه يجب أن يوقف بيع العبيد وشراؤهم فى العاصمة وفى ذلك ما ترتاح له

نفوس الشماليين وأنصار التحرير على العموم ؛ ورأى فى ثانى الأمرين أن تنفذ الولايات حكم الدستور فيعاد الآبقون إلى ولاياتهم ولا يحق للولاية التى لجأوا إليها أن تدافع عنهم ، وفى هذا ما يرضى أنصار الرق الذين خافوا من تسرب الرقيق إلى الولايات الحرة فراراً من العبودية .

وهكذا يحاول كلى كما فعل فى اتفاق مسورى سنة ١٨٢٠ أن يرضى الجانبين فى اتفاق كليفورنيا سنة ١٨٥٠ وقد ارتاح الناس فى الشمال والجنوب لهذا الاتفاق حرصاً على الاتحاد .

ولكن ارتياحهم وا أسفاه لم يطل ، فلم يلبثوا حتى دب بينهم الخلاف ، إذ كان اتفاق كليفورنيا على الرغم مما فى ظاهره من عوامل التوفيق ينطوى على أسباب تقوية النزاع .

كره أهل الشمال تنفيذ حكم الدستور فيما يتعلق بالرقيق الآبقين ، ورأوا فى ذلك تمكيناً للرق وهم يعملون على استئصاله ؛ وكان قد صدر قانون سنة ١٧٩٣ ، بمقتضاه يتعقب مالك الرقيق أو من ينوب عنه طلبته حتى إذا وقع عليها قدم حيث وجدت للسلطات ما يثبت ملكيته وبذلك يحصل على أمر مكتوب به يستطيع أن يرجع بالمارين إلى مقرهم ، ويحكم بغرامة قدرها خمسمائة ريال على من يضع العقبات فى سبيله ؛ ولم يكن للرقيق الفارين حق الدفاع عن أنفسهم وقد احترف بعض الناس تصيد هؤلاء الآبقين نظير أجر معلوم ، وكثيراً ما كان هؤلاء المحترفون يضعون أيديهم على أى فريق من السود ممن لا يتبعون أحداً ويقسمون جهد أيمانهم أنهم هم المطلوبون ؛ وعلى هذا فلن ينفع السود الفرار إلا أن يبلغوا كندا ، وقد وصف القصصى العظيم شارلز دكنز تلك الحال عند زيارته أمريكا فكان مما قاله « باسم الرأى العام وضع ذلك القانون ، كان لأى شرطى فى وشنطون ، تلك المدينة التى سميت باسم زعيم الحرية الأمريكية ، أن يأخذ بناصية أى رجل من السود ويلقى به فى السجن وإن لم يرتكب أية جريمة ، وحسب الشرطى أن يقول إنه يظن ذلك الأسود من الآبقين ؛ ويمكن الرأى العام لهذا الشرطى أن يعلن فى الصحف عن هذا الأسود فيدعو مالكه أن يأتى فيطلبه وإلا بيع ليدفع نفقات الحبس ؛ ولنفرض أنه قد تبين أن هذا الأسود ليس عليه أحد أعنى أنه حر فالذى يتبادر

إلى الذهن هو إطلاق سراحه ، ولكن الحال لم يك كذلك ، وإنما كان يباع ليكون ثمنه عوضاً لسجانه ؛ وكان يقع ذلك ثم يقع مثنى وثلاث ورباع ؛ وليس للأسود ما يثبت به حريته ولم يكن له ولى ولا ناصح ولا رسول ولا مساعد على أية صورة ولا من أى نمط ؛ وربما كان هذا الأسود ممن خدموا سنين طويلة ثم اشترى حريته ولكنه هكذا يلقى به فى غيابة السجن فى غير ما جريرة ولا تفكير فى جريرة ، ثم يباع ليدفع نفقات سجنه » .

تلك هى حال الفارين حتى سنة ١٨٥٠ ، وكانت بعض الولايات الشمالية قد أرادت أن تشترط أن يثبت طالبوا الفارين السود أن هؤلاء كانوا رقيقاً لم يعتقوا قبل فرارهم ، ولكن المحكمة العليا أصدرت وهى المرجع فى تفسير الدستور سنة ١٨٤٢ قراراً مؤداه أن تدخل الولايات فى هذا الشأن عمل غير دستورى ؛ وأراد أهل الجنوب أن يزيدوا سلطة ذلك القانون البغيض ؛ وعلى ذلك أضافوا إلى مواده بعد اتفاق كاليفورنيا ما زادوا به الغرامة على من يعوق تنفيذه إلى ألف ريال مع الحبس ستة أشهر ؛ وفضلا عن ذلك يكون عرضة للعقاب من لا يلبى طلب المساعدة عند القبض على الفارين .

ولقد ترتب على ذلك أن ازداد الناس نفوراً واشمئزازاً من هـذا القانون ؛ وبسبب تنفيذه احتدمت المعارك بين الشرطة والناس فى بعض الولايات الشمالية ؛ ودخل السجن بعض ذوى المكانة من الأساتذة والأطباء ورجال الدين ؛ وتنبه إلى دعوة التحرير من لم يكونوا يبالون بها من قبل ، وطاف بالناس شعور عام أن الرق لم يعد يطاق وأنه عمل تتبرأ منه الإنسانية وخليق أن يخجل منه كل منصف وألا يسكن أولوا النخوة حتى يقضوا عليه .

وفى سنة ١٨٥٤ نجمت مشكلة جديدة عصفت باتفاق كاليفورنيا ولما يمض عليه إلا أربع سنوات ، وزلزلته من أساسه وتلك هى مشكلة كنساس نبراسكا وكانت البلاد قد فقدت هنرى كلى منذ سنتين وانطوت حياة الرجل الذى عمل مرتين على حفظ بناء الاتحاد .

وشهد الكونجرس رجالا جدد أبرزتهم السياسة ، فمن الشماليين سيوارد وهو من نيويورك وينتمى إلى ...وجر ، وقد اشتهر بمعارضته قانون الرقيق الفارين

فهيأه ذلك لزعامة أنصار التحرير فى الشمال ؛ ومن الجنوبيين جفرسون ديفز وكان خطيباً مفوهاً وجندياً أبلى بلاء حسناً فى الحرب ضد المكسيك ؛ ومن الجهات الغربية ستيفن دوجلاس الذى انتخب عن إلينوى لمجلس الشيوخ وكان يلقب بالمارد الصغير .

ولقب دوجلاس بالمارد على صغر جرمه لعظم قوته وشدة حوله ، فقد كان خطيباً يتدفق حيوية وبلاغة وهبه الله صوتاً يسمع الآلاف ، كما وهبه جلداً على الكلام ساعات ، يخرج من الخطبة الطويلة قد جرد لها عزمه وبذل فيها غاية جهده ، وكأنه أكثر فتوة وأعظم حيوية منه حين بدأ الكلام ؛ وكان له من قصره واستدارة وجهه وكبر رأسه وثاقب نظراته وشدة تأثيره فيمن هم دونه ما يجعله قريب الشبه بنابليون ، فلا عجب أن ينعته الناس بالمارد فهم إنما يشيرون إلى قوة نفسه وشدة مراسه ؛ وما لبثت الظروف أن جعلته فى الكونجرس أعلى الرجال صوتاً وأبعدهم صيتاً ...

كانت كنساس ونبراسكا تقعان شمالى خط اتفاق مسورى وبناء على هذا الاتفاق لا يسمح بالرق فيهما ؛ فلما أريد تعميرهما والحث على الهجرة إليهما كخطوة نحو الغرب جعلها الشماليون والجنوبيون مسرحاً للنزاع القائم بينهما فالشماليون يتمسكون باتفاق مسورى والجنوبيون يريدون ألا يعبأوا به ، وهذه هى المعضلة .

ويخطو حينئذ دوجلاس خطوة يرج البلاد بها رجة عنيفة ويزيد مشكلة الرق تعقيداً ، ويوقد نار الفتنة فى البلاد ؛ وكان دوجلاس مقرر اللجنة التى تنظر فى مشكلة كنساس نبراسكا فى الكونجرس ، فأعلن أن تقييد حرية الولايات عمل يخالف روح الدستور الذى يقرر مبدأ سيادة الشعب ، ويجعل لكل ولاية الحق أن تضع دستورها كما تريد ، وعلى هذا فليترك لأهل كنساس ونبراسكا حرية الاختيار فتكون هاتان الجهتان من مواطن الرق أو من مواطن الحرية حسبما ينتهى إليه رأى السكان ، وحمل دوجلاس الكونجرس بنشاطه ومهارته على قبول هذا المبدأ وصدرت به لائحة

ومعنى ذلك أن اتفاق مسورى قد نقض من أساسه ، فلا عبرة اليوم إلا بما يشاء أهل أى جهة تريد الانضمام إلى الاتحاد ؛ ولقد سرت فى الشمال موجة من

الهياج والسخط لن يصفها كلام ، وباتت نذر الشر تهدد البلاد .

وتنافس الشماليون والجنوبيون فى الهجرة إلى كنساس تريد كل طائفة أن تكون أكثر عدداً وأعز نفراً ، وأقامت كل منهما حكومة وزعمت كل حكومة أنها الجهة الشرعية ؛ ورأى حتى أقصر الناس نظراً فى هذا نذر التفرقة وشرارة الحرب الأهلية ، واشتد النضال بين الجانبين عند انتخاب المجلس التشريعى ولجأ الناس من الجانبين إلى التزوير والشغب ؛ وقتل فى ذلك الصراع فريق من كل جانب وجرح فريق وصارت تذكر كنساس باسم كنساس الدامية ؛ وظهر للناس أول الأمر أن الفوز للجنوبيين لكثرة عددهم ، ولكن جمعيات فى الشمال تألفت من أجل هذه المشكلة جمعت المال وأمدت به من استحثتهم للهجرة وانتهى الأمر بعد عامين بفوز الشماليين وجاءت أغلبية أعضاء الولاية من أنصار التحرير

بقى بعد ذلك أن تضع الولاية لها دستوراً ولابد من مؤتمر عام لتقرير مبادىء هذا الدستور ، ثم إن الولاية سوف تطالب بعد أن يتم وضع الدستور بانضمامها إلى الاتحاد ، وسوف تكون مسألة الرق هى المشكلة عند وضع دستور الولاية ، وسوف تكون مثار نزاع عظيم بين أنصار الرق وأنصار التحرير

ومهما يكن من أمر كنساس ، فإن وجه المشكلة الآن هو أن كل ولاية تستطيع إذا شاءت أن تقرر مبدأ الرق ، ومرد ذلك كما هو واضح إلى خطوة دوجلاس

وما كان دوجلاس ليعجز عن أن يبرر عمله أو أن يتلمس له الأوجه القانونية ؛ وإذا عجز دوجلاس عن هذا فمن يقدر عليه ؟ وإنه لأعلم الناس يومئذ بألاعيب السياسة وأضاليلها يصدر فى ذلك عن طبع وعن خبرة ويســـدد الرمية فى لباقة وخفة . .

ولم يكن اهتمام دوجلاس بتلك المسألة إلا جزءاً من خطته التى رسمها وأراد أن يداف بها إلى الغاية التى لا يرى دونها غاية ، ألا وهى الظفر بالرياسة متى حان الوقت وهو يتحرق شوقاً إليها ويتقطع تلهفاً عليها ؛ ولا يفتأ يتبين السبيل المؤدية مهما كانت وعورة مسالكها ؛ والآن تسنح الفرصة فيقتنصها وهو باقتناص الفرص جد خبير ؛ موه على الناس أنه يمكن لسلطان الأمة إذ يرد مسألة الرق إلى رأى الأمة ، وأنه يجعل بذلك كلمة الشعب هى العليا لا كلمة الكونجرس ؛ وهو

إنما يرمى فى الواقع إلى كسب قلوب أهل الجنوب الذين كانوا يرون من أول الأمر أن يكون لكل ولاية من الحرية ما يحفظ لها شخصيتها أن تتلاشى فى الاتحاد ، والذين يريدون أن يتخلصوا من اتفاق مسورى .

وكانت أوشكت أن تنتهى أثناء ذلك مدة مجلس الشيوخ ، وانصرف الأعضاء سنة ١٩٥٤ إلى البلاد يدعون لأنفسهم تمهيداً للانتخابات الجديدة ؛ وكان دوجلاس نائباً عن شيكاغو فى شمال إلينوى ، فذهب إلى هناك يدعو لنفسه ، ولكن هاله من رآه من غضب الناس عليه ، فهو أينما تولى يجد من الناس إعراضاً عنه ، بل إنهم كانوا يجبهونه بالسوء من القول ويظهرون له ما كانوا يضمرون من حقد ومقت .

وإنه ليجزع ويستولى عليه الحنق إذ يرى الرايات فى شيكاغو منكسة فى هامات السفن ، ويرى الجدران وعليها عبارات صارخة تلذع قلبه ، ويسمع النواقيس تجلجل فى الجو فى نغمة حزينة كأنما أصبحت المدينة فى مأتم شعبى وهو يحاول أن يخطب الناس ولكنهم يرعدون فى وجهه ويسلقونه بألسنة حداد ؛ وتتهاوى لكماتهم على أشياعه وهم بينهم قلة ، حتى يرغموه على الرحيل وقد امتلأ قلبه عليهم غيظاً كما امتلأ منهم كمداً .

وينتهى بالمسير إلى سبرنجفيلد ، ولو كان يعلم الغيب لتحول عنها ، فنى تلك المدينة سوف يأفل نجمه ويمد بينه وبين غايته ؛ وكانت المدينة غداة وصوله إليها تموج بالناس إذ كانت فى موسم سوق من أكبر أسواق الزراعة ؛ ولقد خيل إليه أن فى وجود مثل هذا الجمع الحاشد فرصة ؛ ووقف يخطب الناس ثلاث ساعات وختم خطابه بقوله « علمت أن مستر لنكولن أحد سكان هذه المدينة يريد أن يرد على خطابى هذا وإنى لآمل أن يفعل ذلك » ، وكان لنكولن فى جولة من جولاته القضائية فى المحاكم مع القاضى ديفز حين بلغه نبأ هذا التحدى ، وكان قد آلمه وضايقه ما فعله دوجلاس بشأن مشكلة كنساس .

تحـــــد ونزال ... !

كان هذا التحدى الذى أعلنه دوجلاس هو الذى نهض بإبراهام ليعود إلى السياسة ثانية بعد أن انصرف عنها سنوات ؛ والحق أنه كان على أهبة ليحول وجهه للسياسة بسبب معضلة الرق ، تلك المعضلة التى باتت تحمل في تضاعيفها الخطر كل الخطر على وحدة البلاد ؛ وإنما عجل هذا التحدى عودته أو كان السبب المباشر لتلك العودة ، ومتى كان أبراهام يرهب التحدى أو ينكص على عقبيه إذا دعا داعى النزال ، ولا سيما إذا كان المتحدى هو دوجلاس ، وكان تحديه أبراهام على هذا النحو مثيراً له فهو يتجاهله ويترفع إذ يذكره فلا يشير إليه إلا بقوله «مستر لنكولن أحد سكان هذه المدينة » ؛ ولم ينس لنكولن ما كان من منافسته إياه بين يدى مارى كأنما أولع هذا الرجل بمغالبته فلا يحب أن تفلت منه فرصة دون منازلته أو التعرض له .

وقد مضت سنوات خمس على انصراف أبراهام عن السياسة فقد انصرف عنها سنة ١٨٤٩ عقب انتهاء عضويته فى الكونجرس ، ولم يعرف عنه اشتغال بالسياسة فى تلك المدة ، اللهم إلا خطابه فى رثاء هنرى كلى سنة ١٨٥٢! إذ أعد ذلك اشتغالا بالسياسة ! وكانت سنة ١٨٥٢ هى السنة التى قوى فيها نفوذ دوجلاس والتى بات فيها الحزب الديمقراطى يتحمس له ويعلق عليه آمالا كبارا ...

ويخطو دوجلاس خطوته الشهيرة سنة ١٨٥٤ ، فيغدو اسمه على كل لسان فى طول البلاد وعرضها وهو بين مادح يغلو فى مدحه وقادح لا يتهاون فى قدحه

وإننا لنرى فيما فعل دوجلاس ليكسب عطف الجنوبيين مهارة الرمية ؛ كما نلمح فيما قال للدفاع عن موقفه أمام الشماليين حذق السياسى وعمق فكرته وسعة حيلته ، وكم فى الحياة له من نظراء ممن يأخذون فى سياستهم بآراء أستاذهم الأكبر مكيافلى لا يحيدون عنها ولا يفوتهم شيء من تفاصيلها ودقائقها كأنما عاد أستاذهم نفسه يصرفهم ويوجههم ؛ ولقد برع دوجلاس فى هذا المضمار فإنه ليجمل الغاية عنده

كل شيء ، ولا عبرة بعد بالوسيلة ، وهل كان مثله من السذاجة بحيث يتمسك بشرف الوسيلة ويرعى جانب الفضيلة فيؤدى بذلك إلى فوات الفرصـــة وضياع الغاية ؟

وكان لنكولن صريحاً لا يعرف المراوغة ، ولا يطيق الالتواء ؛ فهل كانت له طاقة بمناضلة ذلك القزم الماكر الخاتل ؟ وأى عود عليه اليوم من طوله والمسألة مسألة مدافعة بالحجج ومقارعة ، وليست مسألة مكافحة ومصارعة كما كان الحال يوم لف ذراعه الطويلة حول أرمسترنج وألقى به على الأرض ؟ ... إن الفرق بين الرجلين هو الفرق بين الطبيعتين ، فهذا ماكر محتال غامض كالبحر ، وذلك بسيط صريح كوجه السهل ...

وكان حزب الهوجز يومئذ فى الشمال فى أخريات خطواته إلى الفناء ؛ بينما كان يولد حزب آخر سيأخذ عما قريب مكانه هو الحزب الجمهورى ؛ وكان لنكولن هو الرجل الذى اتجهت إليه أنظار أهل سبرنجفيلد ليكون لسانهم فى الحزب الجديد ؛ لهذا ولما اشتهر به بينهم من خلال أكبروها ، لم يجدوا من هو أقدر منه على مدافعة دوجلاس ؛ وهكذا التقى الرجلان من جديد فى عراك عنيف ، ولم يلتقيا منذ كانا نائبين فى مجلس المقاطعة

وقف دوجلاس يخطب ، وكان وهو فى صغر جرمه قزم أو كالقزم مارداً جبارا برأسه الضخم ولسانه الذى لا يقف ونشاطه الذى لا يفتر ، ودهائه الذى لا ينخلع عنه ، ومهارته التى لا تغيب ولا تتخلف مهما تعقد الموقف والتوت مذاهب الكلام ...

ولقد كان دوجلاس فى الحق من أقوى الرجال فى عصره ، إن لم يكن أشد منهم جميعاً قوة ، وكان الحزب الديمقراطى يباهى به ويفخر وهو يعتقد أن لم يبق بينه وبين كرسى الرياسة إلا خطوات مع أنه لم يكن قد جاوز الأربعين بعد

أخذ يخطب ويدافع عن رأيه فى حماسة وكياسة وإنه ليشعر أنه يطلق آخر سهم فى كنانته ! وكان محور دفاعه أنه يعمل على توطيد سلطة الشعب ، وكانت العبارات معسولة والحجج تلقى فى روع السامعين ألا سبيل إلى رفضها إذ لم يبد ثمة من سبيل إلى نقضها

وجاء دور لنكولن فى اليوم التالى ، واحتشد الناس ليروا ما عسى أن يقوله فى الرد على هذا الداهية ووقف ابن الأحراج يقابل الدهاء بالصراحة ، والمكر بالصدق ، والغرض بالإخلاص ، والمراوغة باليقين والباطل بالحق ، والدليل الأعرج بالمنطق الأبلج ، ومن وراء هذا كله عبقرية دونها كل تأهب بل وكل كفاية ، واستمع الناس إليه أربع ساعات كاملات ومنافسه يعض على ناجذه ، وينقم على تلك الأقدار التى ألقت به بين براثن ابن الغابة ...

بدأ خطابه بقوله إنه لا يتوخى إلا الحق ولا رائد له إلا الصدق ، فإذا أحس مستر دوجلاس خطأ فيما يقول فأنه ليسره أن يرده خصمه اساعته إلى الصواب ؛ ولقد استغل دوجلاس هذا الحق وجعل يقاطعه بين حين وحين ليلويه عن قصده وليلبس عليه الأمر حتى ضاق لنكولن بتلك المقاطعة فصاح قائلا : « أيها السادة إنى لا أستطيع أن أنفق وقتى فى مساجلات ، وعلى ذلك فأنى آخذ على نفسى المسؤولية أن أحق الحق وحدى فأعفى القاضى دوجلاس بذلك من ضرورة تلك التصحيحات المنيفة »

وأخذ بعدها يتكلم والأبصار شاخصة إليه والسكون شامل على شدة ازدحام المكان ، والخطيب المرتجل لا يعرف اضطرابا ولا اعوجاجاً ، يهدر كالسيل لا يصرفه عن وجهه عائق ، وكأنما ينطق عن وحى فما سمعه الناس من قبل يقول مثل هذا الكلام ولا رأوه يبين كهذه الأبانة ، وإنه فى حركاته وإشاراته ونبرات صوته لأوفق توفيقاً ما شهد الناس مثله قبل هذا .

وفرغ من خطابه وهو فى قلوب قومه أرفع قدراً مما كان ، ومنافسه مبتئس زائغ البصر موزع الفؤاد بين كلمات الاستحسان تنثر على صاحبه كما ينثر الزهر وكلمات الاستهجان تصوب إليه كما تصوب السهام ونظر فإذا هو بما أدلى من حجج كالعنكبوت اتخذت بيتاً ؛ ولم يبق فى قلوب الناس أثر لما ردده من عبارات معسولة تدور حول سلطة الأمة إذ لم يترك له أبراهام دليلا إلا سفهه وأظهر للناس ما يقوم عليه من بهرج وما يستتر وراءه من طلاء ؛ وبهذه الخطبة فتح لنكولن فصلا جديداً فى تاريخ حياته وقطع شوطا كبيرا نحو الرقى عوض عليه ما فاته بسبب ما مر من الركود ، وذلك لأن موضوع الكلام كان يتصل بأمر عظيم

الخطر يشغل الرأى العام فى الشمال والجنوب ، ولأن منافسه كان من الذين يحسب لهم الناس ألف حساب .

ورأى أصحاب لنكولن أن يذهب إبراهام فى إثر دوجلاس أينما ذهب ليرد عليه كلما خطب الناس ؛ وذهب لنكولن إلى بيوريا بعد ذلك باثنى عشر يوماً ، وقد أعد خطبة مكتوبة وبدأ دوجلاس فى بيوريا كما بدأ فى سبرنجفيلد واستمر يخطب ساعات ثلاثاً ، ورد لنكولن فى المساء فاستغرق خطابه مثل هذا الزمن ، ويشهد الذين سمعوه فى المرتين أنه كان يوم ارتجل أعظم شأناً وأعمق فى نفوس سامعيه أثراً ؛ حقاً لقد كانت خطبته المكتوبة أحكم بناء وأحسن نسجاً ولكنها لم تكن أكثر من سابقتها سحراً ...

قال إبراهام يرد على دوجلاس قوله إن من الامتهان لأهل نبراسكا أن نعتبرهم غير جديرين بأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم « إنى أسلم أن المهاجر إلى كنساس ونبراسكا جدير أن يحكم نفسه ولكنى أنكر عليه الحق فى أن يحكم شخصاً آخر بغير رضاء ذلك الشخص » ؛ وكانت عبارته هذه كالرمية القاتلة فهى تهدم ما بنى دوجلاس من أساسه ولا تدع لذلك الذى زعمه من دفاع عن سلطة الأمة أية قيمة . .

وقال إبراهام فى رده على ما زعمه دوجلاس من أن الحكومة إنما أقيمت لصالح البيض لا لصالح الزنوج « إنى أوافق على ذلك من حيث ما هو واقع فى ذاته ولكنى أرى فى هذه الملاحظة التى ساقها القاضى دوجلاس معنى هو عندى مفتاح تلك الغلطة الكبرى التى فعلها فى قرار نبراسكا إن كان ثمة من غلطة كهذه إنها تدل على أن القاضى لا يقوم فى ذهنه ما يريه أن الزنجى إنما هو إنسان ، وعلى ذلك فليست تقوم فى رأسه ضرورة وجود العنصر الخلقى إذا أراد أن يشرع له »

ومما جاء فى خطابه عن قرار نبراسكا قوله « إن هذا القرار يؤيد حياد الحكومة ولكنه ينطوى فى الواقع فى جانب انتشار الرق على حماسة لا يسعنى إلا أن أمقتها ؛ أمقتها لما ينطوى عليه الرق فى ذاته من جور قبيح ، وأمقتها لأنها تسلب نظامنا الجمهورى الذى نسوقه مثالا للعالم من أثره الحق فى هذه الدنيا ، وأمقتها على الأخص لأنها تدفع كثيراً من رجالنا الأخيار إلى حرب صريحة ضد المبادىء

الأساسية للحرية الدينية فهم يوجهون انتقادهم إلى وثيقة إعلان الاستقلال مصرين على اعتقادهم أنه ليس ثمة من مبدأ حتى تقوم عليه أعمالنا فما هناك إلا المصلحة الشخصية »

وقال لنكولن فى تلك الخطبة الشهيرة « إن مبدأ حكم الشعب نفسه مبدأ صحيح ، صحيح بلا أقل ريب وسيظل إلى الأبد صحيحاً ؛ ولكن إذا كان الزنجى إنساناً ألسنا بقدرما فى المبدأ من صحة نرى أننا إذا حرمناه من أن يحكم نفسه إنما نحطم بذلك مبدأ سيادة الشعب ؟ حينما يحكم الرجل الأبيض نفسه فإن ذلك فى رأينا هو مبدأ سيادة الشعب ؛ ولكنه حينما يحكم نفسه ويحكم فى الوقت ذاته رجلا آخر فأن ذلك يكون أكثر من سيادة الشعب فهو الاستبداد ؛ ليس فى الناس من يتوفر لديه الخير إلى حد أن يحكم غيره دون رضاء ذلك الغير ؛ هذا هو المبدأ الأول والمرفأ الأمين لنظامنا الجمهورى »

واستمع إليه إذ يأسر لب السامعين بقوله « إن رداءنا الجمهورى قد علقت به الأقذار وجر فى التراب ذيله ؛ ألا فلنعمل على تطهيره مما علق به ، دعونا نرجع إلى الماضى فنغسله فى روح الثورة إن لم نستطع أن نغسله فى دمائها »

ذلك منطق ابن الغابة وتلك آياته البينات وهو الذى نشأ كما رأينا عصامياً لم يعلمه أحد ؛ إنما يصدر الرجل عن طبع ويترجم عن فطرة مثله فى ذلك كمثل غيره من أعلام البشرية وقادة القافلة فى طريق الأنسانية ...

وماذا عسى أن يقول دوجلاس رداً على هذا مهما كان ما أوتى من فصاحة وما رزق من فطنة ؟ أنظر إليه يمشى على استحياء فيتقدم إلى خصمه فيسلم إليه سيفه وقد بهره الحق ؛ قال دوجلاس وهو يومئذ من هو ، يخاطب لنكولن « إنك لتفهم مسألة منع انتشار الرق فى الأراضى أكثر مما تفهل المعارضة كلها فى الكونجرس ، ولست أستطيع أن أظفر بشىء من مجادلتى إياك فى هذا الأمر ولقد وضعت فى طريقى هنا وفى سبرنجفيلد من المتاعب ما لا يضع مثله رجال المعارضة فى الكونجرس مجتمعين »

وإنا لنستطيع أن نعود بالسبب فى نجاحه فى هذه الخطبة إلى صفاته الأساسية التى فطر عليها وفى مقدمتها تبين ما يعرض له والأحاطة به جملة وتفصيلا ثم النفاذ

إلى جوهره ، والاستعانة بذلك على توضيح ما يريد أن يقول فى بساطة ويسر مع توخى الصدق والأمانة كما يفعل حين ينهض للدفاع فى المحكمة ، هذا إلى لقانة عجيبة يميز بها فى سرعة الصواب من الخطأ والحق من الباطل ، وذهن منطق مصقول كأنه الميزان الدقيق يرى باللمحة أن هذا الرأى عليه ضباب الشك وذاك عليه نور اليقين

وعمل دوجلاس على الفرار من الميدان فطلب إلى لنكولن أن يقطعا حبل ذلك الجدل ؛ وأجابه لنكولن إلى ما يريد ، وهكذا انتصر ابن الأحراج وفر ابن آوى ولكن كان ذلك إلى حين فلسوف يلتقيان عما قريب فى صراع يتضاءل أمامه هذا الصراع .

وانصرف دوجلاس ولكنه قبل أن ينصرف أبى إلا أن يأتى بما يدل على طبعه ، فقد نقض العهد وألقى بعد يومين خطاباً جديداً حاول فيه أن يدافع عن آرائه ولم يستطع لنكولن إلا أن يظل عند كلمته فما كان هو من ينقض عهداً قطعه على نفسه .

ولقد كان لانتصار أبراهام على دوجلاس السياسى الملحوظ المكانة أثر بعيد فى حياته ، وازدادت ثقة ابن الغابة قاطع الأخشاب فى نفسه فأخذ يشتد طموحه ويعتـــد بصره ، واطمأن عامل البريد وفتى الحانوت بالأمس إلى مكانته فى نفوس قومه اليوم .

لنكولن والرق

حينما بلغ لنكولن نبأ نجاح دوجلاس فى حمل الكونجرس على قبول رأيه فى مشكلة كنساس نبراسكا وإصدار اللائحة الشهيرة بذلك ، كان فى جولة من جولات عمله فى المحاماة ؛ ويشهد من صحبه يومئذ أن وقع ذلك القرار كان عظيم الألم فى نفسه ؛ لقد ظل مسهداً طول ليله يتفكر فى موضوع ذلك القرار ومغزاه وفى الصباح أفضى إلى أحد زملائه بقوله « أقول لك يا دِكى إن هذه الأمة لا يمكن أن تعيش ونصفها رقيق والنصف الآخر أحرار » .

وظل لنكولن ربيع سنة ١٨٥٤ فى تجواله كما تطلب عمله حتى عاد إلى سبرنجفيلد ؛ وكان بينه وبين دجلاس ما كان من تحد ونزال .

بسبب مشكلة الرق خاصم أبراهام دوجلاس ، وبسبب تلك المشكلة سيعود أبراهام من المحاماة إلى السياسة ليكون محامى الحرية الأكبر ؛ وبالوقوف فى وجه الرق ستسمو منزلة أبراهام فى قومه ويعظم فيهم خطره ويلتمع فى أفق السياسة نجمه ، وبقضاء الرئيس لنكولن على الرق سيغدو بطلا من أبطال أمريكا وعلماً من أعلام الانسانية .

وما كان لرجل مثل أبراهام أن ينبه فى الناس شأنه إلا لصلته بقضية من قضايا الأنسانية ؛ أما الدوافع الشخصية والأطماع الدنيا فلم تك مما يتفتح له قلب مثل قلبه ولا مما يمتد إليه بصر كبصره .

كانت تقع عينا الصبى أبراهام لنكولن على نفر من هؤلاء السود أحياناً وهو مع أبيه فى الغابة فتأخذه الحيرة من أمرهم والشفقة والرثاء لهم ؛ ولن تبين له كلمات أبيه سبب شقاء هؤلاء السود ولم كانوا كدواب الزراعة فى نظر البيض ؛ فهل كانوا كذلك لأنهم سود فحسب ؟ ومن أين جىء بهؤلاء السود ولم كانوا سوداً ولم يجعلهم سوادهم أذلة ؟

ولن ينسى أبراهام رحلته إلى نيو أورليانز فى أول شبابه وانقباض نفسه وانكدار خاطره إذ رأى جموعا من هؤلاء السود فى الأصفاد يحشرون إلى حيث

يباعون كأتباع الماشية ؛ ولن يبرح يطوف بخياله فيؤلمه مرأى تلك الجارية الحسناء التي عرضت هناك في أحد الأسواق نصف عارية على المشترين كما تعرض الفرس الكريمة .

منذ ذلك اليوم استقر في أعماق نفسه كراهة الرق ، وفي ذلك اليوم قال كلمته وهو يشير بجمع يده « لئن قدر لي يوماً أن أسدد ضرباتي إلى هذا النظام فسأضرب بشدة » ؛ وكأنما شاءت الأقدار أن تريه ما رأى عن قصد ليكره الرق منذ حداثته كما يكره الأخيار المصطفون منذ نشأتهم الكفر والفسوق والعصيان .

ومنذ ثلاثة عشر عاما من يومه هذا يوم سماعه بلائحة كنساس كتب أبراهام كتاباً إلى أخت صديقه سبيد يصف رحلة له على صفحة المسيسبي جاء فيه « وفي تلك الأثناء كنت تلقاء مثل جميل على ظهر القارب يصلح لأن أنا . لفيه لأرى كيف تؤثر الظروف في سعادة الأنسان ؛ اشترى أحد السادة البيض اثني عشر زنجياً من جهات مختلفة في كنطكي ؛ وكان بسبيله إلى الجنوب ومعه زنوجه وقد سلكوا كل ستة في سلسة ؛ وكان يدور غل صغير بمعصم اليد اليسرى لكل منهم ، ويوثق بسلسلة صغيرة تنتهي إلى السلسلة الكبيرة على مسافات تدع بين الواحد ومن يليه بعض الفراغ ، فكانوا أشبه حالا بسمكات في مثل عددهم تعلق بحبل الصائد كل منها في شص ؛ وكانوا على مثل هذه الصورة ينتزعون إلى الأبد من مجالي طفولتهم ومن أصدقائهم ومن آبائهم وأمهاتهم وإخوتهم وأخواتهم وفيهم من انتزعوا كذلك من زوجاتهم وأولادهم ، ليساقوا إلى رق أبدي ، حيث لا تقل ضربات السياط من يد سيدهم فوق أجسادهم لهيباً عنها من أي يد أخرى ؛ وفي مثل هذا الوضع وهاتيك الظروف التي ما حسبناها باديء الرأي إلا محزنة لنفوسهم ، كانوا أكثر من على ظهر القارب مرحاً وأكثرهم فيما يبدو من أمرهم سعادة ؛ أما أحدهم وقد كانت جريمته التي من أجلها بيع فرط محبته وولوعه بزوجته ، فكان لا يكاد يدع الزمار من يده أو يمل ألحانه فيه ، وأما الآخرون فكانوا يرقصون ويغنون ويتبادلون النكات ويلعبون ألعاباً مختلفة بالورق من يوم إلى يوم ؛ ألا ما أصدق قول القائل « إن الله يسكن الريح من أجل الحمل المجذوذ » وفي عبارة أخرى إنه يجعل أتعس الظروف الأنسانية محتملة في حين أنه لا يسمح لأسعدها أن تكون أكثر من

أنها محتملة »

وهو اليوم فى الخامسة والأربعين من عمره لا يزال يمقت الرق من أعماق قلبه الأنسانى الكبير ، ولكن المسألة ليست اليوم مجرد عاطفة بل هى مسألة سياسة ؛ وهو اليوم ينظر إليها من ناحيتيها العاطفية والسياسية جميعاً ، يتألم قلبه أشد الألم كلما فكر فى حال الرقيق ولكنه حذر من الدعوة إلى التحرير لا يميل إلى أصحابها كل الميل لأن سياستهم المتعجلة المتحمسة تؤدى إلى فصم عرى الاتحاد وذلك ما يخافه أشد الخوف فأن المحافظة على بناء الاتحاد لا تقل عنده أهمية عن القضاء على الرق

إذاً فليقتصر اليوم على الوقوف فى وجه الداعين إلى مبدأ السماح بانتشار الرق وهؤلاء هم الديموقراطيون حتى تحين الفرصة التى تمكنه من العمل الحاسم ثم من الضربة القاضية .

تألم لنكولن من قرار الكونجرس فى مسألة كنساس نبراسكا ألماً شديداً كما أسلفنا القول فقد كان قبل هذا القرار فضلا عن كراهة الرق كرهاً شديداً لا يفتأ يفكر فى هذه المعضلة ويديرها فى رأسه وإن كثرت فى المحاماة مشاغله ؛ تحدث عنه چون ستيوارت فقال إنه بينما كان وإبراهام فى طريقهما ذات يوم أثناء جولة من الجولات القضائية سنة ١٨٥٠ أى قبل قرار الكونجرس بأربعة أعوام قال له وهو يحاوره « لنكولن ! إنا مقبلون على الوقت الذى سوف نكون فيه إما من دعاة التحرير جميعاً أو ديموقراطيين جميعاً » وفكر ابراهام لحظة ثم قال فى لهجة التأكيد « إذا ما جاء ذلك اليوم فقد جمعت له عزمى لأنى أعتقد أن معضلة الرق لن ينجح فيها بعد ذلك مساعى التوفيق »

وكان يكره لنكولن دائماً ما يزعمه الجنوبيون من مبررات لتمسكهم بالرق فلا يفتأ يرد على مزاعمهم بما يدحضها ، وإنه لحريص على أن يلزم جانب الحق والأنصاف فيما يرد به لتكون لحججه وقعها الطيب فى النفوس كما هوشأنه فى كل ما يقول كما أنه حريص على الأبانة والوضوح والسهولة ، نجد خير مثال لذلك فى قوله « نعلم أن أهل الجنوب يقولون إن رقيقهم أحسن حالا من العمال المأجورين عندنا ، ألا ما أقل إدراكهم ما يقولون ؛ ليس لدينا طبقة دائمة من الأجراء

فمنذ خمس وعشرين سنة كنت أنا نفسى أجيراً ؛ وإن أجير الأمس ليعمل اليوم لحسابه وسوف يأجر غيره ليعملوا له غداً ؛ إن الرق والتقدم من طبيعة الجماعة المكونة من نظراء ؛ وبما أن العمل هو العبء المشترك فى هذا الجيل ، فأن محاولة بعض أهله أن يلقوا بنصيبهم من هذا العبء على عواتق الآخرين لهى النكبة الخطيرة التى يقدر لها الدوام ، وهى فى أصلها نكبة تتنقل فى الجيل كله فأذا حصرها الرق فى طائفة منه فأنها تصبح بذلك نكبة مضاعفة يصيب الله بها عباده. إن العمل الحر يمتاز بأنه يبعث الأمل فى النفوس ، أما العبودية فلا أمل فيها ، وإن للأمل لقوة عجيبة فى جهود الإنسان وسعادته ، ويدرك هذه القوة مالك الرقيق نفسه ومن ذلك كان نظام العمل بين الرقيق ، فأن العبد الذى لا تستطيع أن تدفعه بالسوط ليقطع خمسة وسبعين رطلا من الألياف اليوم إذا أنت دفعته ليقطع مائة ووعدته أن تدفع له أجره على هذه الزيادة فأنه يقطع مائة وخمسين فلقد أحللت الأمل محل العصا ، ولعله لم يخطر ببالك أنك بقدر ما تكسب من فائدة بهذه الطريقة قد تركت نظام الرق إلى نظام العمل الحر »

وكان يحس ابراهام أن قضية الرق تزداد خطراً فى وضعها يوماً بعد يوم نجد مصداق ذلك فى هذه العبارة وقد نطق بها فى جماعة من خلانه سنة ١٨٥٤ قبيل منازلته دوجلاس قال يصف الفكرتين ، فكرة الرق وفكرة الحرية «مثلهما كمثل وحشين كل منهما على مقربة من الآخر ولكن يرتبط كل منهما فى سلسلة ويحال بينه وبين الآخر ، ولسوف يكسر أحد هذين العدوين اللدودين أو الآخر سلسلته يوماً ما و عندئذ يوضع حد للمسألة »

ولن تزال منذ قرار نبراسكا يعلن سخطه على الرق قال ذات يوم عن امتلاك الرقيق ، « أنه أكثر أنواع الملك فى العالم بريقاً وفخراً وغروراً ، فأذا تقدم شاب ليخطب فتاة فإن أول سؤال يتلى عليه كم من الرقيق يمتلك ويسأل هو كم تمتلك فتاته ؛ إن حب امتلاك الرقيق يبتلع كل امتلاك آخر ، ألا إن الرق لظلم صارخ عظيم وإنه لجريمة قومية فادحة » .

وأبدى لنكولن تعجبه ذات يوم قائلا « إن من العجب ألا ترى المحاكم سقوط حق الرجل فى متاع له سرق منه ، ولكنها ترى أن حقه فى نفسه يسقط بمجرد

أن يسترق هو »

من هذا ومن كثير مثله يتبين لنا إلى أى مدى كان لنكولن عدواً للرق وإلى أى مدى كان يعده ظلماً وإثماً ، وقد رأينا ما كان منه أثناء مجادلته دوجلاس فى خطبتيه فى سبرنجفيلد وبيوريا .

ولكن أبراهام على الرغم من هذا الكره يرى كما رأى چفرسون قبل ذلك بسنوات أن مشكلة الرق « كالذئب نمسكه من أذنيه فلا نستطيع أن نظل ماسكيه ولا نستطيع أن نطلقه ونضمن السلامة » فأنه يخشى أن يؤدى التطرف فى دعوة التحرير إلى انسحاب الجنوبيين من الاتحاد فينهار بناء الوحدة وتكون الطامة الكبرى على البلاد ؛ وكل همه الآن أن يظل الرق منحصراً حيث هو فيقوى الأمل فى فنائه يوماً ما ، أما أن يسمح بانتشاره فى مواطن جديدة فلا أمل مع هذا فى فنائه .

لذلك نراه فى موقف دقيق بعد خطابه فى بيوريا فلقد أعجب به دعاة التحرير وبلغ من إعجابهم به أن دعوه ليكون قائداً لجماعتهم ، ورأى لنكولن أنه إن أجابهم إلى ذلك أغضب الذين يقصرون همهم على معارضة قرار الكونجرس لأنهم يخشون من دعوة التحرير أن تفصم عرى الاتحاد ، وإن رفض دعوتهم أغضبهم هم وإنه ليشاركهم عاطفتهم وإن كان يخالفهم فى سياستهم كما أنهم خصوم لدوجلاس وإن عددهم ليزداد يوماً بعد يوم ؛ ولم يجد أبراهام مخرجاً من هذا المأزق إلا الهرب مؤقتاً فذهب فى جولة من جولات عمله فى المحاماة .

والواقع أن لنكولن المحرر الأكبر فى غده يخشى أشد خشية من دعاة التحرير اليوم لأنه يرى فى عملهم إذ ذاك ثورة فى غير أوانها قال يرد على أحدهم « إن المقاومة الدامية أمر يعد خطأ من أساسه وهو عمل غير دستورى بل إنه خيانة ، ففى الديموقراطية التى تحكم فيها الأغلبية عن طريق الانتخاب العام وفق القانون لا يوجد مكان لتلك الثورة ... فإن شئتم أن تثوروا فليكن ذلك خلال صناديق الانتخاب »

طموح وفشـــــل !

أراد أبراهام على أثر انتصاره على دوجلاس أن يخطو خطوة جديدة فى مضمار السياسة فطمع أن ينتخب عضواً فى مجلس الشيوخ وأمل بذلك أن يعود إلى وشنطون ، ولم يك يرى نفســه دون دوجلاس مقدرة ومكانة وهو قاهره على أعين الناس فى أمر له عند الناس خطره ؛ وكان قد انتخب فى تلك الأثناء عضواً فى مجلس مقاطعة إلينوى ولـكنه ما لبث أن استقال منه وأخذ يدعو لنفسه ليختار عضواً فى مجلس الشيوخ للولايات .

وفرحت مارى بذلك بعد أن لبثت خمس سنوات طويلة تترقب اليوم الذى يعود فيه زوجها إلى السياسة ليخطو فيها خطوة أو خطوات نحو الهدف الذى لا ترضى له هدفاً دونه .

وكان منافس إبراهام فى الظفر بعضوية الشيوخ شيلدز ، ذلك الرجل الذى تحداه إلى مبارزة بالسيف قبيل زواجه من مارى لـما كتبه لنكولن عنه يومئذ فى إحدى الصحف وعده إهانة له ؛ وهكذا يعود الرجلان إلى المبارزة ولـكن فى صورة أخرى ليس يجدى فيها طول الذراع ولا قوتها على حمل السيف .

وكان أعضاء مجلس المقاطعة هم الذين ينتخبون عضو مجلس الشيوخ ، وكان مجلس مقاطعة إلينوى يومئذ يجمع أعاطاً من الرجال فرقت بينهم الأهواء وباعدت الآراء ، ففيهم بقايا حزب الهوجز الذين يمقتون التطرف وفيهم الديموقراطيون من أنصار مبدأ انتشار الرق ومن معارضى قرار نبراسكا ، وفيهم غير هؤلاء وهؤلاء ممن تتذبذب سياستهم وفق ما يقوم فى رؤوسهم من الآراء فى مسألة الرق .

وكاد يظفر أبراهام بما كان يتوق إليه وبما باتت زوجه تمنى النفس به لولا أن دعا الديموقراطيون فى اللحظة الأخيرة إلى رجل غير لنكولن ومنافسه ، وهو من معارضى قرار نبراسكا ومن الذين يخشون من دعوة التحرير ، وعندئذ أشار لنكولن على نصرائه أن يمنحوا هذا الرجل الجديد أصواتهم ليفوت الأمر على منافسه الأول إذ كان من أصحاب دوجلاس ومن مؤيدى قرار نبراسكا ، بينما

كان المنافس الجديد تتفق سياسته مع سياسة لنكولن وإن كان ديموقراطياً من الوجهة الحزبية ... وهكذا يذوق لنكولن طعم الفشل مرة أخرى .

ولكن الفشل هذه المرة لم يبلغ من نفسه ما بلغه فى الأيام السابقة ، فهو اليوم مطمئن إلى نصيبه من رضاء الناس وإلى حظه من النفوذ والصيت ؛ ولقد قابل الأمر بدون اكتراث لولا ما أظهرته زوجته من حنق وغضب ، على أنها ما لبثت أن رضيت وسكنت ثورتها ، ذلك أنها كانت تكاد ترى رأى العين ما ينتظر زوجها من مستقبل عظيم ...

ولم يصرفه الفشل عن السياسة كما كان عسياً أن يفعل فى ظروف غير هذه ؛ فلقد عرف أن فشله يومئذ إنما يرجع إلى أسباب لا يستخذى لها ، ومن أهم تلك الأسباب ما فعله دعاة التحرير فلقد حشروا اسم لنكولن على غير علم منه فى معضديهم وراحوا يباهون به الأحزاب ، ولقد أدى هذا إلى انزعاج كثير من الديموقراطيين إذ حسبوا أنه مال إلى الطفرة فى مشكلة الرق ؛ كذلك أنكر عليه الهوجز أن ينحرف عن سياسته القائمة على الحذر ، ولقد كانوا يحبون منه اكتفاءه بمقاومة انتشار الرق ، أما أن يميل إلى التحرير فجأة فيعمل مع المتطرفين على القضاء على الاتحاد فذلك ما لا يقبلونه منه ، وهكذا أخذ على الرجل ما لم يجنه فأصابه من الخذلان ما أصابه ...

لا جرم أنه اليوم رجل سياسة أكثر منه رجل محاماة ، ولا جرم أن معضلة الرق قد صار لها المكان الأول من همه فهو لن يرجع حتى ينفس عن صدره بما يفعل فى هذه المعضلة التى صارت المحور الذى تدور عليه سياسة الاتحاد ، والعقدة التى يتوقف على حلها مصير البلاد ؛ وإنا لنرى فيه الرجل الذى يتطلبه الموقف شأنه فى ذلك شأن غيره من عظماء الرجال الذين يظهرون فى فترات الزمن ليتم بهم للتاريخ وسيلة تحركه ، إذ يصبح التاريخ ولديه الرجل العظيم والفكرة العظيمة ، فما أن يتمثل العظيم الفكرة ويمزجها بنفسه حتى يقدم لا يلويه شىء عن الغاية فيصل إليها أو يهلك دونها ويذر لمن بعده أن يتم ما بدأ ...

على أنه كان فى سنه يومئذ قد وصل من المحاماة إلى أوج الشهرة ، فكان وهو فى السابعة والأربعين الرجل الذى يظفر فى مهنته بأطباق الناس على توقيره

وإجماعهم على التسليم له بالنبوغ وطول الباع وسعة الخبرة ، هذا إلى ما انفرد به من سجايا جملته بينهم وكأنه أكثر من أن يكون منهم !

وتوافى له فيما توافى من أسباب العظمة تلك الخصلة التى لاتقوم عظمة بدونها ، والتى تجعله يظهر بين الناس وفيه شىء يحملهم على إكباره طائعين أو كارهين ؛ شىء يحسونه وإن كانوا يجهلونه ، شىء مبعثه ذلك السر العجيب الذى نعبر عنه بقولنا روح الرجل العظيم والذى يسميه بعض الناس الحماسة ويسميه بعضهم الأخلاص ويسميه آخرون الأيمان والذى هو فى الحق مزيج من هذا كله لا ندرى كيف يتم ، مزيج ينبض به قلب العظيم ويجرى فى نفسه جريان الدم فى عروق جسده ؛ ومن الناس من وهبوا الذكاء الحاد والمهارة الفائقة ولكنهم حرموا تلك الخصلة فما استطاعوا فى أعمالهم أن يرقوا بأنفسهم إلى مستوى أعلى من مستوى غيرهم من عامة الناس ؛ ومنهم من يعظم ذكاؤهم وعس قلوبهم قبس من ذلك السر العجيب فأذا هم غير الناس ، ثم إذا هم فوق الناس .. ومن هؤلاء النفر ذلك الرجل الذى درج فى الغابة والذى بنى نفسه فسار فى الحياة على نهج من قلبه وعلى دليل من طبعه ، ذلك الرجل الذى لا يذكر لأحد عليه يداً والذى تنكرت له الأيام وعركته المحن فبقى كما يبقى الجوهر الحر لا تترك فيه النار من أثر إلا البرهان القاطع على أنه جوهر لا مظهر ..

وتشاء الأقدار أن تقوم عظمة أمريكا على كاهلى رجلين من أبنائها درجا فى مدرج الشعب وبرزا من صفوف العامة وهما جورج وشنطون وأبراهام لنكولن ، أما أولهما فيرفع القواعد ويقيم الصرح ، وأما الثانى فيمسكه أن ينهار ؛ وتكون بذلك عظمة أمريكا عظمة ذات أصالة إذ لم تنشأ عن تقليد أو تستند إلى بهرج من سلطان زائف ، ويكون صرحها كالجبال التى هى أوتاد الأرض لا كالبناء الذى يجوز أن يجتث من فوق الأرض ...

مضت الأيام تسير بابن الغابة سيراً معجلا وثيقاً ليؤدى رسالته ولعله أشرف من حاضره على ما يعده له الغد القريب ؛ أجل لعله أخذ يدرك أن مشكلة الرق مفضية به حتما إلى خطوة واسعة يخطوها غداً فيترك فى تاريخ بلاده ما تذكره به الأجيال ، اقرأ كتابه هذا إلى صديقه سبيد تقع فيه على مدى اهتمامه بتلك المشكلة

وتتبين كثيراً مما كان يجول فى نفسه يومئذ قال « إنك لتعلم أنى أكره الرق كما أنك توافق أن الرق خطأ فى ذاته فليس ثمة خلاف بينى وبينك إلى هذا الحد ؛ ولكنك تقول إنك تفضل أن ترى الاتحاد وقد انفصمت عراه قبل أن تتنازل للرقيق عن حقوقك المشروعة وبخاصة إذا كان هذا التنازل إذعانا لإلحاح من لا مصلحة لهم فى ذلك ؛ ولست أعلم أن أحداً يدعوك إلى ذلك التنازل ولست على اليقين أدعوك إلى هذا ؛ وإنى أصارحك يا صديقى أنى أكره أن أرى هؤلاء المساكين يصطادون ويوضعون فى الأغلال ويعادبهم إلى حيث يجدون النصب والعناء ولكنى أعض على شفتى وألزم الصمت ؛ فى عام ١٨٤١ قمنا معاً برحلة مملة على صفحة ماء منخفض فى قارب بخارى من لوسفيل إلى سان لويس ، ولعلك تذكر كما أذكر أنه كان على ظهر القارب عشرة أو اثنا عشر عبداً مقرنين فى الحديد ، ولقد كان هذا المنظر مبعث عذاب دائم لى ، وإنى لأحس شيئاً مثله كلما لمست نهر الأهايو أو أية جهة من جهات الرق ؛ وخلاف الجميل منك يا صديقى أن ترى أنى لا أهتم بذلك الشىء الذى ينطوى على قوة تكربنى والذى لا يفتأ يسبب لى الكرب ؛ لقد كنت حرياً أن تتبين إلى أى مدى يخنق سواد الناس فى الشمال مشاعرهم لكى يستطيعوا أن يحتفظوا بولائهم للدستور والوحدة ؛ إنى أعارض انتشار الرق لأن رأيى وشعورى يؤديان بى إلى ذلك ، وليس هناك ما يجبرنى على العمل بخلافه ، فإذا كان هذا هو مبعث الخلاف بينى وبينك فلنختلف إذاً ؛ تقول لو أنك كنت الرئيس لأرسلت جيشاً على التمسكين باتفاق مسورى فى انتخابات كنساس ؛ وتقول إنه إذا انتهت الانتخابات هناك إلى جانب الرق فيجب أن تقبل ولاية وإلا وجب حل الاتحاد ؛ وكذلك تقول إنه لو انتهت الانتخابات إلى جانب الحرية فأنك كمسيحى تفرح لذلك ، ويقول مثل هذا الكلام كل ذى دمائة من مالكى الرقيق ولست أشك فى إخلاصهم ، ولكنهم لن يسلكوا فى الانتخابات مسلكا وفق ما يقولون ؛ إن اطرادنا نحو الانحطاط يسير فيما أرى سيراً معجلا ؛ لقد بدأنا أمة بإعلاننا أن الناس جميعاً خلقوا متساوين ، وتجدنا نقول اليوم خلق الناس جميعاً متساوين إلا الزنوج ، وسيكون قولنا فى المستقبل خلق الناس جميعاً متساوين إلا الزنوج والأجانب والكاثوليك ؛ ولئن بلغنا هذا المدى فسأفضل

الهجرة إلى دولة أخرى لا تدعى حب الحرية ، إلى الروسيا مثلاً حيث يتخذ الاستبداد صورة سهلة ، خالية من النفاق » .

ويقص صديقه هرندن قصة جديرة بأن نثبتها هنا لنتبين كيف يهتم أبراهام اهتماماً كبيراً بالمعنى العظيم وإن جاء فى أمر صغير ، ولنرى مبلغ حرصه على مقاومة الرق ؛ قال هرندن « حدث أن ذهب زنجى من سبرنجفيلد إلى نيو أورليانز ولم يصطحب معه أوراقه التى تثبت عتقه ، فاستوقف هناك وألقى به فى السجن ليباع عما قريب فيكون ثمنه أجر إقامته فى السجن ؛ وفزعت أمه إلى لنكولن وإلىَّ فذهبنا إلى حاكم إلينوى وكلناه فى الأمر فأظهر لنا أسفه ألا يستطيع أن يقدم لنا معونة حسب القانون ، فنهض لنكولن قائلا فى لهجة تنم عن التأكيد : أقسم لك بالله أيها الحاكم لأجعلن الأرض فى هذا الاتحاد أسخن من أن تطأها قدم زنجى سواء وجدت من القانون ما يبرر إطلاق هذا الغلام أو لم تجد ؛ واتصل أبراهام بحاكم لويزيانا فلم يك أحسن حظاً عنده منه عند سالفه ؛ ولم يعدم أبراهام حيلة فقد افتتح اكتتاباً عاماً لجمع ثمن هذا الغلام الزنجى وسرعان ما اجتمع لديه المبلغ فدفعه إلى حاكم لويزيانا وأعيد الغلام إلى أمه فى الشمال » وما قصد أبراهام بالاكتتاب العام إلا التشهير بالرق والتنديد بهذا الظلم المظلم ...

وكان يوحى إليه ذهنه المنطقى العجيب وبعد نظره فى قياس الأمور ما عسى أن تنتهى إليه مشكلة الرق وكأنما كان يشرف من حاضره على مستقبله ؛ كان يعتقد أنه بالخروج على اتفاق مسورى لم يعد هناك أمل فى الأبقاء على أى اتفاق يقام ؛ وسيتمادى أنصار الرق فى غيهم حتى يخرجوا على الدستور نفسه ، ولكن الوطنيين المتمسكين بالدستور لن يقروهم على ذلك فيكون ثمة صراع عظيم بين الجانبين وفى هذا الصراع يجتث الرق من جذوره فما له بعد من قرار ؛ ولسوف تأتى الحوادث مصدقة لما يرى ولسوف يكون هو بطل الصراع ؛ والذى يقتلع الرق من جذوره .

ولن يضيره اليوم ألا يصل إلى مقعد الشيوخ ، بل ربما كان الشر فى أن يظفر بهذا المقعد ، فلقد كان له بعد فشله هذا جولات سوف يكون لها خطرها فى حياته ؛ جولات سوف تنتهى به إلى رياسة الاتحاد فلم يبق على الدرب إلا مرحلة .

وكثيراً ما يبتئس المرء إذا فاتته فرصة كأنما أغلقت بفواتها مسالك الفوز من دونه ولا يدرى أنه ربما كان الخير فى فواتها ؛ والحياة مليئة بالأمثال حافلة بالعبر ، والعظماء وحدهم هم الذين لا يلويهم فوات الفرص ولن تبتئس لفواتها نفوسهم ، بل إنهم ليحمون على الشدائد ويستمرون على الكفاح ويستشمرون اللذة فى النصر كما يستشمرونها فى ركوب الصعاب إلى ذلك النصر ، ولن ينقص منها ما قد يصيبهم من خذلان .

ولقد كان لنكولن من هؤلاء البواسل الأفذاذ الذين لا يحفلون بالصعاب ، والذين لا يحول بينهم وبين وجهتهم خذلان مهما عظم ؛ بقى فى سبرنجفيلد بعد فشله ليكون فى المدينة زعيم الحزب الجديد الذى كانت تستقبل البلاد يومئذ مولده ؛ وهل كان غيره فى المدينة يجتمع عليه القلوب والأهواء ؟

حزب جـــــديد

كان من نتائج قرار الـكونجرس فى مسألة كنساس نبراسكا مولد حزب جديد فى البلاد ؛ فقد اجتمع فريق من رجال السياسة على فكرة يمكن تلخيصها فى العمل على مقاومة انتشار الرق حسب اتفاقية مسورى وكان هؤلاء السياسيون أنماطا من كل حزب ففيهم الديموقراطيون وفيهم الهوجز وفيهم غير هؤلاء وهؤلاء ممن يحصرون همهم الآن فى العمل على مقاومة انتشار الرق ؛ ولقد كان أول اجتماع عام لأنصار هذا الحزب الجديد فى مدينة فيلا دلفيا سنة ١٨٥٦ ؛ واتخذ المجتمعون اسما لحزبهم فسموه الحزب الجمهوى واختير لرياسته الـكابتن فريمونت أحد أهالى كليفورنيا وكانت له شهرة عند الجمهور باكتشافه الطرق وشقه الأحراج إلى الغرب فكانت تضيء حوله هالة من البطولة ؛ ثم أخذ أنصار الحزب بعد ذلك ينشرون الدعوة إليه فى كل ولاية .

وانتشرت الدعوة إليه فى إلنيوى كما انتشرت فى غيرها من الولايات ، ودعا أنصار الحزب الجديد فيها إلى اجتماع تمهيدى يتدارسون فيه الأمر ويحددون الغاية ويسددون إليها الوسيلة .

وانعقد هذا الاجتماع فى مدينة ديكاتور وشهده لنكولن فيمن شهد من رجال السياسة البرزين وأدلى إليهم برأيه وإن كان لا يزال من الهوجز ، وفطن المجتمعون إلى سياسته التى لن يتحول عنها والتى تتلخص فى أمرين ! مقاومة انتشار الرق والمحافظة على كيان الاتحاد ...

وانضم هرندن إلى الحزب الجديد وتحمس له ؛ ودعا أنصار الحزب إلى مؤتمر عام يعقد فى مدينة بلومنجتن لاختيار ممثلى الحزب فى الولايه ؛ وكان لنكولن فى جولة من الجولات القضائية فوضع صديقه هرندن اسمه فى قائمة الداعين إلى المؤتمر دون أن يرجع إليه ، ثم أرسل إليه ينبئه بذلك فجاءته برقية منه قال فيها « لا ضير . إمض قدما » ، وبذلك وافق أبراهام على الانضمام إلى الحزب الجديد وأصبح عضواً من أعضائه .

واحتشد رجال هذا الحزب فى بلومنجتن لينظروا فى أمرهم وأدلى أبراهام برأيه فقال لمن حوله « دعونا نجعل حجر الزاوية فى بناء حزبنا الجديد هو قرار إعلان استقلال أمريكا » وهو يريد بإعلان الاستقلال ذلك الحادث التاريخى الذى ظهرت به الولايات المتحدة أمة مستقلة فى هذا العالم وكأنه يشير إلى ما يتضمن الاستقلال من معانى الوحدة والأخاء والحريه والمساواة ، تلك المبادىء التى جعلها رجال الثورة شعار ثورتهم ؛ وأصدر المؤتمرون قرارهم بعد أن اختاروا ممثلى الحزب فى الولاية فقالوا «أجمعنا أمرنا على أننا نعتقد وفق تجارب وآراء رجال السياسة البرزين جميعاً من كافة الأحزاب فى السنوات الستين الأولى لحكومة الاتحاد ، أن المؤتمر يملك فى ظل الدستور السلطة التامة لمقاومة انتشار الرق فى الولايات ، وأنه كما يحرص على جميع الحقوق الدستورية لأهل الجنوب يعتقد كذلك أن العدالة والأنسانية ومبادىء الحرية — كما نص عليها فى إعلان استقلالنا وفى دستورنا القوى وما نتوخاه لحكومتنا من بقاء ودوام — تستدعى أن يكون تنفيذ السلطة بصورة تمنع انتشار الرق فى الولايات التى تعد حرة حتى الآن »

وإنا لنرى سياسة لنكولن واضحة تمام الوضوح فى هذا القرار الذى أعلنه المؤتمرون ؛ وفى ذلك يتضح الدليل على أنه كان غداة المؤتمر الرجل الذى ينبض بعبادته كل قلب ويتحرك باسمه كل لسان ، ونحن إذا نظرنا إلى مبادىء الحزب الوليد فى الولايات جميعاً نجدها لا تختلف كثيراً عما جاء فى قرار رجال إلينوى وبعبارة أخرى نجدها لا تختلف كثيراً عن مبادىء لنكولن ، وفى ذلك دليل جديد على عبقرية الرجل وصدق نظرته وأصالته ...

ونظر أبراهام فأذا رجال المؤتمر على اتحادهم فى الغاية يختلفون فى الوسيلة التى يصلون بها إلى غايتهم ، وإذا هم باعتبار ما سلف من أمرهم فئات متباينة الآراء ، وإنه ليخشى أن يؤدى الاختلاف على الوسيلة إلى ضياع الغاية ، بل إلى طمس معالم الطريق وركوب الظلام وفى ذلك سوء المنقلب ، وإنه ليتحرق شوقاً أن يرى هؤلاء القوم وقد اجتمعت على الوسيلة كلمتهم كما اجتمعت على الغاية ، إنهم إذاً لفائزون وإن لهم لبأساً يهون عنده كل عسير ، ثم إنهم لخطب فادح لا يطيقه المتمسكون بالرق من أهل الجنوب ...

وتجاوبت أرجاء المؤتمر باسم لنكولن ؛ وراح المؤتمرون يتصايحون لنكولن .. لنكولن ... نريد أن نسمع لنكولن ! وما كان له أن يتخلف وهو الخطيب الذى تهيب به مثل هاتيك المواقف وتواتيه عبقريته كلما أحست نفسه جلال الحادثات وكأنما أحس لنكولن أن هذه ساعته وأنه يوشك أن يخطو خطوة واسعة نحو غايته الكبرى لذلك ما لبث أن وثب من مكانه ووقف فيهم وقفة الخطيب وهو لا يدرى أول الأمر ماذا يقول ؛ وسكتت الأصوات بعد جلبة ، واستقر الرجال بعد أن كان بعضهم من فرط الحماسة والتطلع يموج فى بعض ...

وقف الخطيب أول الأمر صامتاً كأنما أغلقت من دونه مسالك القول ، والناس ينظرون إلى قوامه السمهرى وقد مال برأسه إلى الخلف وبرز بصدره إلى الأمام ، والتمعت عيناه وتشكلت أساريره بما فى نفسه ، فبدت فى مظهر يقصر عن وصفه معنى الجمال ؛ وصفه أحد الحاضرين فقال « كان فى تلك اللحظة أوجه من رأت عيناى أبداً » .

وتكلم فأذا المستمعون كأنهم رجل واحد ، لا اختلاف بينهم ولا جدال ، وقد سرت إليهم من الخطيب موجة قوية من السحر ، وسرى إليهم منه تيار شديد من الحماسة وهو يرسل فيهم القول يجمع بين العاطفة تهز المشاعر ، والحجة تبهر العقول ، والأمثلة تبهج النفوس ؛ وكانت تشتد العاطفة حيناً فتفيض عيون ، ويلتمع البرهان آونة فتصفق الأكف حتى تكاد تدمى ، وتنطلق بالهتاف الحناجر حتى توشك أن تبح ، ويروق المثال أو تملح النكتة بين هذا وذاك فتجلجل الأفواه بالضحكات والخطيب يلعب بالأفئدة ويستهوى المشاعر ، ويتدفق لا يكل منطقه ولا تفتر حماسته ولا يضعف صوته ، والسامعون مأخوذون عن أنفسهم بما يقول حتى لقد ألقى مندوبو الصحف أقلامهم وأقبلوا بعقولهم وقلوبهم عليه يحرصون ألا تفوتهم كلمة من هذا السحر الحلال ... وصفه أحد المستمعين فقال « لم أعلم قبل ذلك قط أن مستمعين لخطيب فعلت فيهم الفصاحة الأنسانية فعل الكهرباء كما فعلت فصاحة لنكولن بهؤلاء ؛ لقد كانوا يثبون من أماكنهم نهوضاً على أقدامهم أو فوق المقاعد بين حين وحين ، وكانوا يعبرون عن مبلغ ما أثرت كلماته فى عقولهم وقلوبهم بصيحات طويلة وبالتلويح بقبعاتهم فى أيديهم » .

ذلك ابن الغاب قاطع الأخشاب ؛ ذلك هو النجار هدية الأحراج إلى عالم المدنية ، قد هيأته الأقدار لرسالته فبعثته من موطنه قوياً قوة الطبيعة لا يعتريها ضعف واضحاً وضوح الشمس لا يحجبها غيم ؛ ولكنها أودعت فى نفسه سر العظمة رهيباً عميقاً خافياً عن الأبصار تحس النفوس تلقاءه بمثل ما يحس به من يقف فى مدخل الغابة .

أوضح فى خطابه سياسته فلم يترك مجالا للبس أوشك ؛ وكان إلى التحذير والأنذار أقرب منه إلى التفاؤل والتمنى ؛ حذر الناس أن يشتطوا فيؤدى شططهم إلى انسحاب أهل الجنوب من الاتحاد فأنه ليحس أن فى الجو مثلما يسبق العاصفة وأنذرهم أن يتهاونوا أو يتخاذلوا فتذهب ريحهم وتضيع أصواتهم بدداً ؛ وهو فى كل ما يزجى من القول صريح كأعظم ما تكون الصراحة واضح كأتم ما يكون الوضوح .

تعرض لمسألة كنساس فقال فى قوة اليقين وفى جلال الحق « ستكون كنساس حرة » ؛ وكانت الولاية لم تستقر بعد على وضع والصراع فيها بين أنصار الرق وأنصار الحرية على أشده ، وذكر السامعين أن الخروج على اتفاق مسورى والسماح بانتشار الرق وراء الحد الفاصل مفض حتما إلى جعل الرق مسألة قومية عامة ، ولذلك فانه للفوز أبداً أو الهزيمة أبداً ، فإنه ليشعر بتزايد قوة أنصار الرق ، بينما يتراخى الداعون إلى مقاومة تياره ؛ وكان يبدو منه فى خطابه ما يبدو من رجل مقبل على موقف حاسم فى تاريخ حياته ، فى نبراته رنين الأخلاص ، وفى مقاطعه وابتداءاته لهجة اليقين وبينات الحرص الشديد على أن يتدبر المنصتون كلامه ، وعلى وجهه علامات الاهتمام حيناً ، وأمارات القلق حيناً ، ومخايل الحذر والخوف واللهفة أحياناً ؛ وكذلك العظيم إذا تكلم كان كلامه من وجدانه ومن لبه ، وكانت حركاته خفقات جوانحه ووثبات قلبه ...

ولقد تنبأ ذلك الرجل العظيم فذكر للناس أن مسألة الرق لن تحل حتى تنتهى إلى أزمة تجتازها الأمة بفضل صلابتها وقوة إرادتها ، فأن تلك الأرادة متى أوقظت اجتاحت الصعاب ؛ وكأنه كان يتطلع من وراء حجب الغيب على ماينتظر البلاد من حرب أهلية ضروس وامتزجت فى قلوب السامعين الحماسة لما يقول

الخطيب بالوجل الذى يلقيه فى روعهم بما ينذر ، فلقدت اشتدت فى الجنوب الحركة التى ترمى إلى الانسحاب من الاتحاد حتى باتت خطراً قريباً يحسب له حسابه ..

* * *

وحدث أن كان مولد الحزب الجديد فى نفس السنة التى كانت تختار فيها البلاد رئيساً جديداً للولايات وهى سنة ١٨٥٦ ، فكان النشاط السياسى بذلك مضاعفاً ، وأحس الناس جميعاً أن مسألة الرق قد أصبحت القطب الذى يدور عليه هذا النشاط السياسى فألقوا بالهم إليها على نحو لم تسلف بمثله فترة فى تاريخ البلاد.

وكان مرشح الجمهوريين هو كابتن فريمونت ، وكان أول مرشح للحزب الوليد كما كانت الانتخابات فى تلك السنة أول انتخابات يخوض هذا الحزب معركتها ... ورشح الحزب لمنصب نائب الرئيس وليام ديتون من ولاية جرزى الجديدة ، ولكن أهل سبرنجفيلد وأهل إلينوى أرادوا أن يكون لنكولن من يرشح لهذا المنصب ...

ورشح الديموقراطيون للرياسة بوكانان وهو من ولاية بنسلفانيا ؛ وقد حاول دوجلاس بكل ما فى وسعه أن يظفر بهذا الترشيح ولكن بوكانان تغلب عليه وظفر بتأييد أغلبية أنصار الحزب

وظهر فى الميدان حزب ثالث باسم حزب أمريكا وهو فى الواقع بقية الهوجز وقد رشحوا للرياسة فلمور ، وكان نائباً للرئيس تيلور سنة ١٨٤٨ ...

واشتدت المعركة بين الأحزاب ، وكان مدار الدعاية اليوم قضية الرق وموقف كل حزب منها وما يعتزم أن يفعل إذا قدر له الفوز ، وهكذا يشمل الاتحاد إحساس عام أن هذه القضية أصبحت المحور الذى تدور عليه سياسة البلاد ...

وأعلن الجمهوريون أثناء المعركة مبادئهم وعملوا على إذاعتها فى طول البلاد وعرضها ومؤداها أنه لا الكونجرس ولا أى مجلس غيره فى أية مقاطعة ولا أى فرد من الأفراد ولا جماعة من الجماعات ، لا أحد من هؤلاء جميعاً يملك أن يجعل امتداد الرق أمراً مشروعاً فى أية بقعة من بقاع الولايات المتحدة ؛ وذهب الجمهوريون إلى أكثر من ذلك فقالوا إن الدستور قد جعل للكونجرس سلطة الحكم فى جميع الولايات وعلى ذلك فن حق الكونجرس ومن واجبه عند تنفيذ

هذه السلطة أن يقضى فى الولايات على « التوأمين الباقين من عهد الهمجية وهما تعدد الزوجات والرق »

أما الديموقراطيون فلم يعلنوا آراءهم واضحة فى المشكلة كلها ، وإنما أعلنوها واضحة فى مشكلة كنساس نبراسكا فقالوا كما قال دوجلاس إن لأهل الولايتين أن يقرروا ما إذا كانوا يأخذون بالرق أو يرفضونه ؛ وترى من ذلك أن قرار كل من الحزبين يناقض الآخر ، ومن هنا كانت المعركة بين الرق والحرية

وقد اختير لنكولن فى ولايته فيمن اختيروا من هيئة انتخاب الرئيس ؛ وراح يبذل أقصى جهده فى الدعوة لمرشح الجمهوريين أينما حل ، وتكلم كثيراً وندد بالرق كثيراً ، بيد أنه كان لا يغفل عن تأكيد رغبة حزبه فى الحرص على كيان الاتحاد

وكان أنصار الرق من أهل الجنوب ومشايعوهم من الشماليين ينشرون فى طول البلاد وعرضها مبدأ دوجلاس الخلاب وهو تقرير سيادة الشعب ، ولن يكون ذلك إلا أن يترك الناس أحراراً فى نظرهم إلى الرق ، وكانت كنساس حتى ذلك الوقت لا تزال يتوزعها أنصار الرق وأنصار الحرية وكان النضال بينهم فيها عنيفاً ، كل يطمع أن ينتصر مبدأه

ومما يذكر من فكاهات لنكولن فى معركة الرياسة هذه أن فاجأه أحد المستمعين فى جهة من الجهات بسؤال أراد به أن يزعزعه فقال «أحقاً يا مستر لنكولن أنك دخلت هذه الجهة أول ما دخلت حافى القدمين تسوق أمامك عدداً من الثيران؟ » وأجاب لنكولن « إن لدى هنا «دستة» من الرجال على الأقل يشهدون بصحة هذه الواقعة إذا كان اثباتها أمراً ضرورياً فى القضية التى نحن بصددها »

وتحمس لنكولن فقال إن ما بلغه من مكانة إنما كان ثمرة من ثمار الحرية ؛ وعلى ذلك أليس محقاً فى أن يمقت الرق الذى يوبق الروح ويستذل النفوس فى صفوف السود والبيض جميعاً ويمجد الحرية التى يبلغ المرء فى كنفها ما يطمح إليه من رفعة ؟ وختم خطابه بقوله « نعم سنتكلم فى سبيل الحرية وضد العبودية طالما يتيح لنا دستورنا حرية الكلام حتى لا تشرق الشمس على هذه الأرض العريضة ولا ينزل الغيث ولا تهب الريح على رجل يقسر على مالا يؤجر عليه من عمل » ،

وكان يستطيع أن يقول على رجل يسترق ، ولكنه لم يزل حريصاً لا يحب أن يندفع فى محاربة الرق إلى حد الجهر بالتحرير .

وانجلت المعركة الانتخابية عن فوز بيوكانون، ولكن نجاح الحزب الديموقراطى كان ينطوى على معنى الضعف ، فأن ثلث عدد أصواته انضم إلى الحزب الجديد الذى كان يتلو على حداثته الحزب الفائز فى عدد الأصوات ؛ حتى لقد اعتقد الكثيرون أن الفوز الحقيق إنما كان للجمهوريين ؛ ولولا الخوف من دعوة التحرير وسرعة انتشارها فى البلاد وشدة إشفاق الجنوبيين وأنصار الرق فى الشمال منها لجاز أن كانت تأتى نتيجة الانتخاب يومئذ بخلاف ما انتهت إليه ...
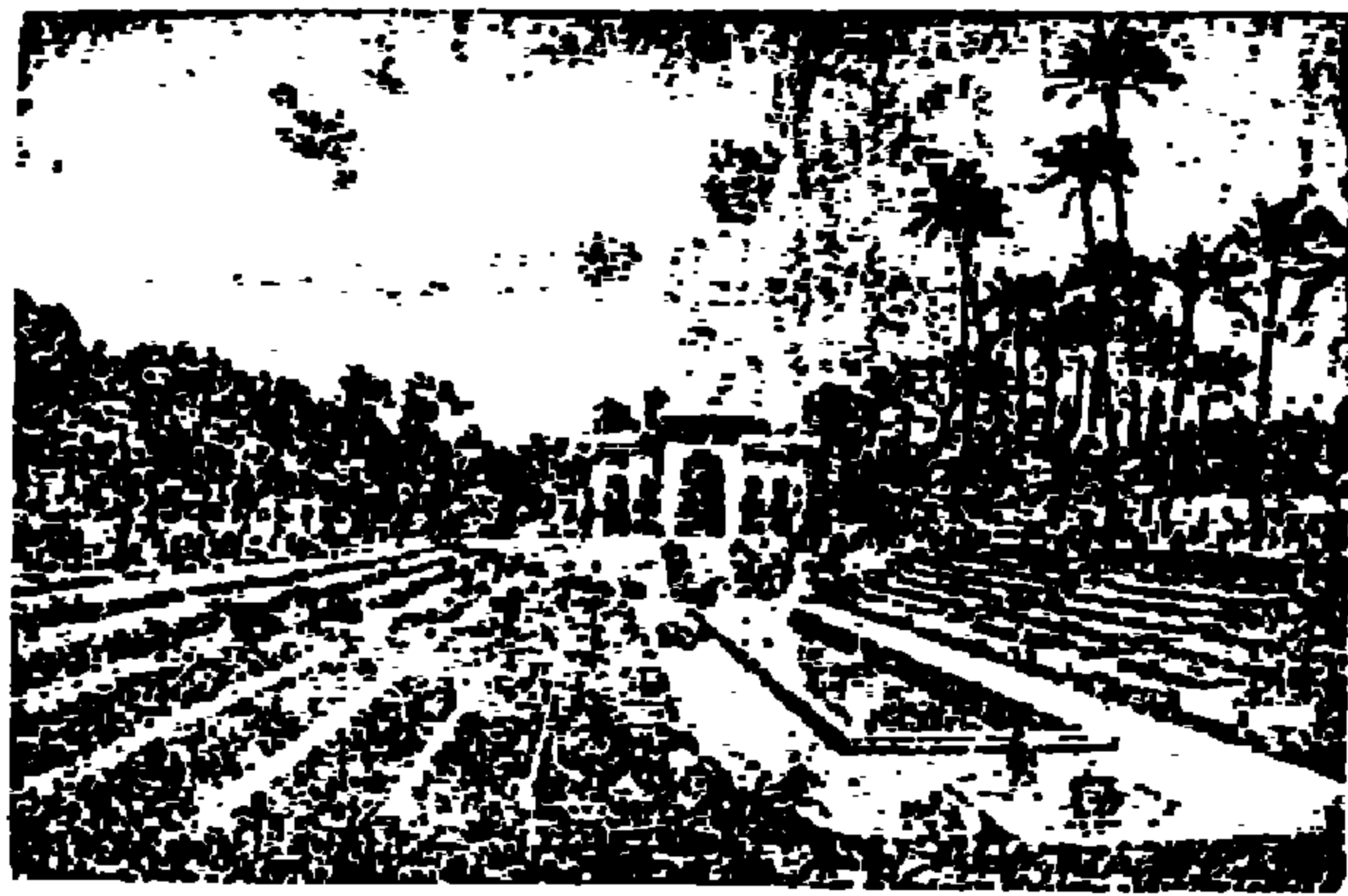
ما لبثت أن بدرت فى البلاد بوادر الطامة الـكبرى ، فقد تلاحقت الأحداث وجرت الشائعات بالنـذر وانبعثت الأحن والحزازات وتنابذ الناس وتباغوا ، وأصبح بأسهم بينهم شديداً ، فما هى إلا رجفة ثم ينفجر البركان ويزلزل البنيان .

وكانت أولى تلك الأحداث ما وقع فى مجلس الشيوخ ، فقد كان فى المجلس رجل يدعى سمنر وكان أستاذاً للقانون بجامعة هارثارد وتلقى العلم أثناء شبابه بأوربا وقد عرف بقوة الجنان وزلاقة اللسان وتوقد القريحة وكان ممن يكرهون الرق أشد كره ، فحمل فى قوة وجرأة على قرار نبراسكا وأهاب بالناس أن يتمسكوا باتفاق مسورى ، وكانت لهجته لاذعة وحجته قاطعة وعبارته مقذعة ، وقد تهكم تهكماً قاسياً على أحد الأعضاء وهو المدعو بتلر وجعله سخرية الساخرين ، فلما كان ذات يوم بعدها جالساً إلى مكتبه فى المجلس يكتب فى سكون إذ هجم عليه أحد أقارب بتلر فأهوى على أم رأسه بعصا غليظة فخر على الأرض صعقاً ... وظل بعد ذلك سنوات يقاسى آلام العلة من هذه الضربة .

وكانت هذه الضربة فى الواقع أولى ضربات الحرب الأهلية ، فأهل الجنوب بدل أن يستنكروا هذه الفعلة هللوا لها واعتبروا صاحبها بطلا جديراً بالأعجاب والتوقير ، وقدم له جماعة من الطلبة عصا ذات رأس من الذهب ، أما أهل الشمال فلك أن تتصور مقدار ما بلغته الفعلة من نفوسهم وما تركته من الغيظ فى صدورهم فذلك ما لا ينهض لتصوره كلام .

وجاءت بعد ذلك قضية دردسكوت ، فكانت حادثاً رج البلاد من أركانها وإن كان هيناً فى ذاته ؟ وذلك أن عدداً من العبيد رحلوا مع سيدهم إلى ولاية من الولايات الشمالية الغربية ، وكان فيهم عبد ذكى رزق حظاً من التعليم ويدعى دردسكت ؛ أدرك أنه وراء الحد الفاصل بين ولايات الرق والولايات الحرة أى حد اتفاق مسورى ، فرفع أمره إلى القضاء يطلب أن يتمتع هو وأسرته بالحرية ما داموا فى ولاية حرة ...

ولكن هذا العبد كان يحمل ومن معه بالقوة من جهة إلى جهة فصار ينقل قضيته من محكمة إلى محكمة وحجته أنه ظافر بالحرية فعلا ، إذ كان وراء خط اتفاق مسورى ، ولذلك فأن نقله بالقوة إلى الجانب الآخر من خط الاتفاق أى إلى الجهات التى تأخذ بالرق لا يذهب عنه حريته لأنه انتزع رغم أنفه .

وكان دردسكت فى الواقع يمثل ملايين العبيد فقضيته قضية الرقيق جميعاً فما يجوز عليه يجوز على كل زنجى فى البلاد ، ومن هنا جاءت أهميتها ؛ ثم إنها وقعت فى وقت كانت تتصارع فيه الآراء والمبادىء وأذهان الناس جميعاً متجهة إلى ما عسى أن تفضى إليه معضلة الرق ، ولو أن هذه القضية قد جاءت قبل ذلك لما كان لها مثل ما اتفق لها الآن من خطر .

انتقلت القضية من محكمة إلى محكمة حتى وصلت إلى المحكمة العليا للولايات ؛ ويصف دردسكت موقفه فى إحدى المراحل فى كتيب تداولته الأيدى ونقلت عنه الصحف حتى بات حديث البلاد كلها ومما جاء فيه قوله « قال القاضى إننى وفق تلك القوانين كنت حراً كمالكى على سواء أثناء أن كنت فى الينوى وقسكنسن ، وكان لى أن أجعل من الرجل الأبيض عبداً لى كما يجعلنى عبداً له ؛ وشعرت بالأسف لأن أحداً لم يقل لى مثل هذا الكلام وقت أن كنت هناك ، وقد استشعرت الفرح إذ حسبت أن القاضى سيهبنى الحرية ؛ ولكن القاضى تكلم بعد هنيهة فقال إنه بمجرد أن جاء بى مالكى إلى هذه الناحية من خط اتفاق مسورى ذهب حقى فى الحرية ، وعدت أنا وأطفالى وأسرتى متاعاً من المتاع فحسب ؛ وأحسست القسوة فى أن يرسم البيض خطاً من صنع أيديهم على سطح الأرض على جانب منه لا يكون الرجل الزنجى رجلا بأى حال وأنهم يبقون ذلك سراً فلا يطلعون أى زنجى عليه حتى يعودوا به إلى هذا الجانب من الخط ، ولذلك لم أجد بداً من الالتجاء إلى المحكمة العليا ... يا إخوانى فى الإنسانية ، هل فيكم من يستطيع مساعدتى يوم الفصل فى القضية ؟ ألا يتكلم أحد كلمة من أجلى فى وشنطون ولو لم يكن له عليها من أجر إلا دعوات رجل أسود وأسرته ؟ لست أدرى ما ذا أفعل ؛ ولست أملك إلا أن أصلى وأدعو الله أن يتحرك قلب كريم بالشفقة على فيفعل لى ما لست أستطيع أن أفعله لنفسى ، وأن تعلن المحكمة العليا

إذا رأت الحق فى جانبي للناس هذا الحق ...

وبات الناس ينتظرون حكم المحكمة وقلوبهم مليئة بالأشفاق على هذا الزنجى الفرد الذى تجاوبت البلاد كلها صدى كلماته مفعمة بالرثاء له ، ثم إن قرار المحكمة لن يكون إلا حكما فى قضية الرق كلها ، وكانت المحكمة العليا هى التى تفسر ما يختلف الناس فيه إذا كان اختلافهم على دستورية قانون من القوانين وقولها فى ذلك الفصل ...

وقضت المحكمة بحكم لم يكن للناس فى البلاد حديث غيره زمناً لفرط دهشتهم منه ولأهمية مغزاه فى تلك الظروف ومؤدى هذا الحكم أنه ما كان لأى زنجى أن يرفع قضيته أمام محكمة من محاكم البلاد كما يفعل الرجل الأبيض وأنه ليس للكونجرس ولا لأى مجلس من مجالس الولايات أى سلطة تخوله أن يمنع أى شخص من أن يعود برقيقه من الولايات الحرة إلى ولايات الرق وليس لأحد أن يتدخل بين مالك الرقيق ورقيقه فى أى جهة من الجهات . .

ومغزى هذا الحكم أنه يجعل اتفاق مسورى اتفاقاً غير ذى موضوع ، لأن مالك الرقيق بمقتضى الحكم حر فيما يفعل برقيقه فى أية ولاية من الولايات ما كان منها فى هذا الجانب من خط اتفاق مسورى أو فى ذاك . وكذلك يقضى هذا الحكم على قرار نبراسكا الذى يجعل لمجلس الولاية الحق فى تقرير مبدأ الرق فى الولاية أو رفضه فرد المسألة الآن إلى مالكى الرقيق أنفسهم ، وفى هذا وحده من معنى حماية المحكمة العليا لملاك الرقيق فى البلاد ما حق لأهل الجنوب أن يطفروا فرحاً به ...

أما أهل الشمال فكان الحكم فى نفوسهم غمة وفى حلوقهم شجى فلا حديث لهم أينما تلاقوا إلا ما ينطوى عليه من معان ، وأدرك الشماليون أن قد أزفت الآزفة واقترب اليوم الذى يحتكم فيه أنصار الحرية وأنصار الرق إلى السيف ، فقد أعلن الجنوبيون أن على الشماليين أن يذعنوا للحكم وإلا انسحبوا هم من الاتحاد ، وكانوا يتهمون دعاة التحرير بأنهم هم الذين دبروا هذه القضية وأن دردسكت ما عمل إلا بوحيهم ؛ وأيقن لنكولن أن الحوادث تؤيد ما ارتأى ، ولعله كان يحس بينه وبين نفسه أن قد اقتربت الساعة التى يتناول فيها معولا لا ليقطع الأخشاب

كما كان يفعل من قبل فى الغابة بل ليهوى به على ذلك النظام البغيض فيضربه الضربة الحاسمة .

أيقن لنكولن ذلك فهو وإن لم يكن يعرف الذهاب بنفسه يدرك اليوم أن قد صار له فى السياسة مكانة الزعماء فلقد ذاع اسمه خارج ولاية إلينوى وتقبله الناس بقبول حسن ؛ وقد رأينا أن أهل إلينوى رشحوه لمنصب نائب الرئيس ونذكر أنه نال من أصوات المؤتمر الأهلى للجمهوريين فى مساشوست مائة صوت وعشراً ونال ديتون مائتين وستة وخمسين فأصبح ديتون مرشح الحزب ، على أن حصول لنكولن على هذا العدد وإن لم يرشح دليل على نمو مكانته فى نفوس الجمهوريين ؛ ولما علم لنكولن بذلك تبسم ضاحكا وقال « حسبت أول الأمر أن هناك رجلا عظيما فى مساشوست يدعى كذلك أبراهام لنكولن » .

وقد تألم لنكولن وانكدرت نفسه لذلك الحكم الذى أصدرته المحكمة العليا ، تلمح ذلك فيما عقب به عليه إذ أخذ يقارن حال العبيد يومئذ بما كان يرجى لهم غداة إعلان استقلال الولايات قال « فى هاتيك الأيام كان إعلاننا الاستقلال أمراً يعده الناس مقدساً كما أنهم عدوه ينتظم السكان جميعاً أما اليوم فقد سخر منه وهوجم وأول وفق الأهواء ومزق شر ممزق ، حتى أنه لو أمكن أن يبعث صانعوه اليوم من مراقدهم ما أمكنهم أن يتعرفوه ، وذلك بما فعلنا إذ حاولنا جعل استعباد الزنجى أمراً عاماً أبدياً ؛ وإن جميع قوى الأرض لتظهر كأنها تتحد سريعاً عليه ، فأله المال « ممون » فى أعقابه ومن ورائه الطمع ثم من وراء هذا الفلسفة ، تتلوها جميع نظريات العصر التى تتكاتف جميعاً لتؤيد الصيحة ضده ؛ لقد ألقوا به فى سجنه بعد أن فتشوه ولم يدعوا فى يده أية آلة ينقب بها الجدار ، وأغلقوا عليه الواحد بعد الآخر أبواباً ثقيلة من الحديد كل منها ذو مائة مفتاح ، ولا يمكن فتحه إلا أن تتفق على ذلك كل هاتيك المفاتيح ، وإنها لفى أيدى مائة من الرجال مختلفين مبعثرين فى مائة مكان سحيق ؛ وإنهم فوق ذلك ليفكرون أى اختراع فى كافة جوانب العقل والمادة يمكن أن يضاف إلى ذلك ليتأكد لهم استحالة هربه أكثر مما يتأكد على هذه الصورة » .

وحق لأبراهام أن ينطلق لسانه بهذا الغضب ، وأن تجزع نفسه لهذا الحكم

إذ ما نصيب موقف حزبه من القرب أو البعد من روح الدستور بعد هذا الحكم وهو الحزب الذى يجعل اتفاق مسورى القاعدة التى يصدر عنها فى معضلة الرق ؟

وظلت الأحداث والنذر تأتى بعضها فى إثر بعض ، فهذه كنساس لا تزال تتوثب فيها الفتنة ويتحفز الشر ، فقد أخذت تضع لها دستوراً وكان أنصار الحرية فيها أكثر عدداً من أنصار الرق ، ولكن هؤلاء عمدوا عند انتخاب مؤتمر عام يضع الدستور إلى القوة المادية وتألفت عصابات منهم ومن بعض مؤيديهم من الولايات القريبة ، وحالوا بين الأحزاب وبين أمانيهم بوسائل الأرهاب والتنكيل وجرت الانتخابات على صورة مؤلمة فلم ينتخب إلا أنصار الرق فانفردوا بوضع الدستور وقرروا فيه أن كنساس من ولايات الرق ؛ واجتمع أنصار الحرية وأعلنوا احتجاجهم وأعدوا دستوراً آخر يحرمون فيه الرق .

ويأبى الرئيس بيوكانون فى تلك الآونة العصيبة إلا أن يعتمد قرار المؤتمر فيقبل الولاية فى الاتحاد على أنها إحدى الولايات التى تأخذ بنظام الرق كما جاء فى دستورها

وجاء هذا مع الحكم فى قضية دردسكوت ألماً على ألم لنفوس الأحرار ، ولشد ما تألم لنكولن لهذا القرار ؛ ولكن ذلك كان عنده الألم الذى يلد الأمل ويحفز النفوس إلى العمل ويغريها بالجهاد ، ولولا أن كان من المؤمنين الصادقين لتطرق إلى نفسه الوهن ومشى فى عزمه اليأس ...

وفضلا عما أحدث دستور كنساس من أثر فى قضية الرق العامة ، نراه يؤثر فى موقف لنكولن من خصمه دوجلاس ، فقد كان يرجى للنكولن أن يظفر بأصوات الناس إذا رشح نفسه مرة ثانية لمجلس الشيوخ ، ولكن دوجلاس عرف كيف يستغل هذا الموقف ويكسب تأييد عدد من الجمهوريين أنفسهم بتلونه واتباعه سياسة اقتناص الفرصة المواتية ...

رأى دوجلاس أن قرار المحكمة العليا قد قضى على ما راح يدعو إليه من توطيد مبدأ سيادة الولايات فى تقرير مصيرها ، ذلك المبدأ البراق الذى ظل يخلب الألباب ويلوح به لأهل الجنوب ليكونوا عدته فى الوصول إلى الرياسة ، ولقد بات من أمره فى حيرة شديدة فهو يخشى أن يفقد محبة أهل الجنوب إذا عارض دستور كنساس ، بينما هو يخشى كذلك أن يفقد ثقة أهل إلينوى إذا هو نسى مبدأ

سيادة الولايات وسلطانها فيؤدى ذلك إلى خذلانه فى الانتخاب لمجلس الشيوخ وقد أوشكت مدته فيه أن تنتهى .

وآثر الآن أن يحرص على ثقة ناخبيه لمجلس الشيوخ فأعلن عداءه لدستور كنساس، ووقف يحمل عليه فى المجلس حملات شديدة بعثت فى قلوب الديموقراطيين الغيظ وأثارت فى عقولهم الدهش ، فهذا الرجل الذى يعدونه من أقوى رجالهم لا يستحى أن يخرج على هذه الصورة ولا يتورع أن يعارضهم فى غير هوادة كأنما انقلب بغتة فصار من رجال الحزب الجديد ...

ولقد هلل بعض زعماء الجمهوريين لموقف دوجلاس واستبشروا به بل لقد أخذوا يوحون بضم دوجلاس إلى حزبهم ليزدادوا به قوة ومنعة ، وراح جريلى أحد أصحاب الصحف بنيويورك وهو من قادة هذا الحزب يدعو القراء إلى انتخاب دوجلاس وأخذ يثنى على صفاته ويتوخى فى مديحه الأطناب والمغالاة ؛ وكان هذا الرجل من أشهر رجال الصحافة فى الشمال وكانت له عند الناس مكانته ، كما كان لصيحفته عدد كبير من القراء المعجبين به .

ولكن أبراهام أنكر كل هذا الاتجاه ولم يحس فى نفسه الميل إلى هذا التناقض ، وهنا تعود للظهور خصلة من أبرز خصاله ألا وهى الاستقامة إذا صح أن تعبر هذه الكلمة عن المعنى الذى نريد ، والذى نراه ينحصر فى إطلاق النفس على سجيتها لتسير على نهج من فطرتها فى غير تناقض أو تذبذب أو اضطراب ، وما كان أبراهام ليتكلف شيئاً لا ينزع إلى وجدانه ، ومن هنا كانت خطواته بطبيعتها مسددة صوب الغاية مفضية إليها مهما كثر ما يعترضه من الصعاب ، ثم من هنا كان خطره إذا هم بأمر ، قال حين علم بتلك الدعوة الجديدة « لقد أتى جريلى نحوى بما لا يعد عدلا . إنى جمهورى منى صميم الجمهوريين ، ولقد وقفت دائماً فى طليعة الصفوف عند المركة ، والآن أراه يفاوض دوجلاس خير من يمثل رجل الاتفاقات وأنصاف الحلول ، ذلك الذى كان ذات مرة آلة أهل الجنوب والذى هو اليوم أحد معارضيهم ؛ ذلك هو الرجل الذى يحاول أن يضمه فى صفنا الأمامى ... إنه يحسب أن مكانه الرفيع وشهرته وتجاربه ومقدرته إذا سره ذلك تقوم مقام المركز الجمهورى الخالص الذى ينقصه بل وتزيد على ذلك ... ولذلك

«أن إعادة انتخابه للشيوخ على أن يمثل القضية العامة لحزبنا أجدى علينا من انتخاب من هو خير منه من رجالنا الجمهوريين الخلص ممن ليست لهم مثل شهرته ؛ ماذا تعنى «نيويورك تريبيون» بذلك الاطراء والأعجاب والتعظيم الذى توجيه دائبة لدوجلاس ؟ هل تعبر بذلك عن شعور الجمهوريين فى وشنطون ؟ هل وصلوا نهائياً فى رأيهم إلى أن قضية الحزب الجمهورى على العموم تتقدم خيراً من ذى قبل بتضحيتنا هنا فى إلينوى ؟ إن كان ذلك كذلك فنحب أن نعلمه عاجلا ؛ على أنى حتى الآن لست أعلم بجمهورى هنا يرغب أن ينضم إلى دوجلاس ؛ وإذا استمرت التريبيون ترن باسم دوجلاس فى مسامع الخمسة أو العشرة الآلاف من قرائها فى إلينوى فأن ذلك يكون أكثر من أن نأمل معه أن يظل الشمل جميعاً ؛ إننى لا أشكو ولكننى أرغب فى أن أصل إلى بينة من الأمر» .

ذلك هو لنكولن اليوم ، انظر كيف يجمع بين منطق المحامى وحصافة السياسى ، وانظر كيف يدفع عن نفسه بما نشأ عليه من دماثة ما يجد فيه عدواناً على شخصه ونيلا من كرامته ؛ فهو يطيق أن يكون دوجلاس خصما له ولكنه لا يطيق أن يراه مرشح الحزب دونه فى إلينوى وهو فيما يعتقد لا يرى كفايته تتقاصر عن ذلك .

وسافر صديقه هرندن إلى الجهات الشرقيــة ليرى ما حال الحزب هناك ، وليقابل زعماءه البارزين فعاد إليه ينبئه بأن اسمه يقابل بالاحترام من كثير من قادة الحزب ، بيد أنه يحمل إليه مع ذلك أنباء لا تسره ؛ فرجال الحزب منقسمون بعضهم على بعض ، فأن لجريلى آراءه ولستيوارد أطماعه ولغيرهما من أساطين الحزب من أوجه الرأى ما يخشى منه انحلاله ...

هكذا صارت السياسة شغله الشاغل فهو لا يستطيع اليوم غير ذلك ، لا لأنه يتخذ من السياسة وسيلة إلى تحقيق أطماع شخصية كما عسى أن يفعل غيره ؛ ولكن لأن عقيدة تحرك نفسه وتستثير وجدانه ، ولأن رسالة من الرسالات الإنسانية الكبيرة ينبض بها قلبه الكبير . وهل عهدنا عليه من قبل ما تحمل معه اشتغاله بالسياسة على غير محمله ؟

على أنه لم ينفض يده من المحاماة بعد ، فلا زالت المحاماة مرتزقه ، ولقد ارتفع

فيها إلى مستوى يحق معه لرجال المحاماة جميعاً فى كل جيل وفى كل بلد أن يذكروه كعلم من أعلامها ، وأن يضيفوا اسمه إلى ما يمدونه فى مهنتهم من دواعى الشرف وبواعث الفخار .

ومن أعماله فى المحاماة يومئذ قضية أرمستر نج التى سلفت الأشارة إليها ، فقد وقع بصره فى إحدى الصحف على جريمة قتل يدعى أحد المتهمين فيها أرمستر نج ، فدهش وتساءل هل يكون ذلك ابن متحديه القديم فى نيو سالم ثم صديقه بعد ذلك منذ كان فتى يبيع فى الحانوت ولما تبين له أنه هو كتب إلى أمه يقول : « عزيزتى مسز أرمستر نج علمت الآن بألمك العميق وبألقاء القبض على ابنك متهما بالقتل ؛ ويصعب على أن أصدق أنه عسى أن يرتكب ما اتهم به ؛ إن ذلك لايبدو ممكناً ، وإنى لأرجو أن يجرى معه تحقيق عادل على أى حال ؛ وإن عرفانى بالجميل نحوك وما كان لى منك أيام شدتى من عطف طالت أيامه ليحدونى أن أتقدم فى سماحة نفس بخدماتى المتواضعة لصالحه ؛ فأن هذا سوف يتيح لى الفرصة أن أرد ولو بقدر ضئيل تلك المبرات التى نلتها على يديك ويدى زوجك المأسوف عليه ، إذ لقيت تحت سقفكم مأوى كريماً بغير مال وبغير ثمن » .

وثمة حادثة أخرى لها دلالتها على عظمة الرجل ونبله وسمو نفسه ، ذلك أنه تقدم عن طيب خاطر ليدافع عن حفيد القس كارترايت ذلك الرجل الذى طعنه فى دينه قبل ذلك بعشرين عاماً وهو ينافسه فى الوصول إلى مقعد فى مجلس الولاية ، وكانت هذه التهمة كذلك تهمة القتل ؛ ولشد ماتأثر كارترايت وهو اليوم شيخ كبير إذ شاهد حرارة دفاع خصمه القديم لنكولن عن حفيده الذى ما لبث أن برئت ساحته .

على أن للسياسة اليوم أكثر همه ، فما يفرغ من عمله إلا أخذ يتقصى حال حزبه ، وكان نشاط دوجلاس يومئذ ، ورغبته أن يظفر بمقعده ثانية فى مجلس الشيوخ وميل بعض زعماء الجمهوريين من أمثال جريلى إلى اجتذابه للحزب الجمهورى كل أولئك كان موضع اهتمامه ؛ لا ينى يفكر فيه وذلك لصلته بالقضية الكبرى التى باتت قضية الاتحاد كله ألا وهى قضية الرق ، فها هى ذى الأحداث والنذر كالاعتداء على سمنر وحكم المحكمة العليا فى قضيه دردسكوت وقبول الناس فى الاتحاد ولاية من ولايات الرق ، تسبق العاصفة وتنذر بالراجفة .

أيقن أبراهام بينه وبين نفسه أنه أصبح أعظم الجمهوريين مكانة فى سبر نجفيلد وإلينوى ، ولـكن موقف دوجلاس من دستور كنساس وإقبال بعض الجمهوريين عليه من أجل ذلك لا يعجبه ؛ ولشد ما ضايقه وكدر خاطره موقف جريلى إذ عد أبراهام ثناءه على دوجلاس نيلا منه غير مباشر ...

دخل على صديقه هرندن ذات يوم فى مكتبهما فرآه صاحبه مهموماً مكتئباً وما لبث أن تبين أن مرد ذلك لم يكن إلى شىء من جانب زوجه كما حسب بادىء الرأى ولـكن دعوة جريلى هى التى كدرته ، وقد تحدث بهذا إلى صاحبه شاكياً مبيناً ما فى هذه الدعوة من ظلم وخطر عليه ، ويقول صاحبه إنه انصرف من المكتب ولم يزايله همه ولم يستطع أن يأتى عملا حتى انتصف النهار ...

وسافر هرندن إلى الولايات الشرقية فوجد لاسم لنكولن شهرة على بعد الشقة ، يحبه الناس وإن لم يروه فما ذكر صاحبه اسمه إلا قوبل بالبشاشة والثناء ؛ وكتب هرندن إلى صديقه ينبئه بذلك وأفضى به إليه حين عاد فطابت بذلك نفسه ...

ولقى هرندن دوجلاس فيمن لقى ، وأشارا إلى لنكولن فأحس هرندن أن دوجلاس يوجس من صاحبه خيفة ، وقد قال له إذ هم بالانصراف « لست أضمر للنكولن شراً ولست أفكر أن أعترض طريقه ، بلغه احترامى » .

وانعقد سنة ١٨٥٨ مؤتمر من الجمهوريين فى سبرنجفيلد لترشيح عضو عن الولاية لمجلس الشيوخ ، واجتمعت كلمة رجاله على ترشيح لنكولن وفعلوا ذلك فى غبطة وفى حماسة شديدتين .

وهكذا اتفقت كلمة الجمهوريين على لنكولن يقدمونه لينافس دوجلاس رجل الديمقراطيين ، وسيلتقي الخصمان ويكون بينهما هـذه المرة صراع دونه كل ما سلف من صراع .

وعرف لنكولن مبلغ ماينطوى عليه الموقف من خطر ، وأدرك أنه ملاق منه

دوجلاس

رهقاً شديداً وعنفا ، ولكنه يحس فى قرارة نفسه أن له فى ذلك ما يشفى نفسه ، فهو يحمى على الصراع ولا تظهر مواهبه على أحسن ما تظهر إلا حين يتمشها ضجيج الموقف وتستثيرها حرارة الدفاع .

وكذلك أشفق دوجلاس وأوجس فى نفسه خيفة ، فلقد فطن وهو الخبير بأقدار الرجال البصير بأمور السياسة إلى دقة الموقف ، وأدرك أن أبراهام اليوم غيره بالأمس ، فهو منه اليوم حيال قوة لا تنفع معها حيلة ولا يجدى مكر أو دهاء .

وفيما كان رجال حزبه يقدمونه ، كان أبراهام يعد خطاباً حاسماً يعبر به عما فى نفسه ؛ ولقد ظل يثبت ما يجرى فى باله على قصاصات من الورق يدسها فى قبعته حتى استوى له موضوعه فجمعه بعضه إلى بعض فى عناية شديدة ، وظل يراجعه فقرة فقرة حتى اطمأنت نفسه إليه ؛ وأغلق أبراهام باب المكتب ذات يوم وأنزل الستارة من داخله على الجزء الزجاجى منه ، ثم جلس يتلو هذا الخطاب على صديقه هرندن ، وكان يبدو على وجهه الاهتمام الشديد وتدل ملامحه على أنه مقبل على عمل حاسم ، وكان يقف فى نهاية الفقرات ثم ينظر فى وجه صاحبه يتبين موقعها فى نفسه أو ينتظر رأياً منه ؛ واعترض هرندن حين وصل أبراهام إلى قوله « إن البيت المنقسم بعضه على بعض لن تقوم له قائمة » وهى فقرة من الإنجيل أشفق منها أن تؤول تأويلا سيئاً فتلقى فى روع الناس أن الاتحاد انقسم بعضه على بعض أو هو بسبيل الانقسام ، ولكن لنكولن أصر على بقاء هذه الفقرة قائلا إنه يفضل أن يكون نصيبه الفشل وتبقى فى خطابه هذه العبارة لأنه تعمد أن يأتى بعبارة قوية قصيرة تألفها أذهان الناس وألسنتهم من قبل بينما هى تناسب المقام فتقع من نفوسهم موقعاً يهز مشاعرهم هزاً . . .

وجمع لنكولن بعض خلصائه قبيل الموعد الذى حدد لخطابه فى المؤتمر الجمهورى وتلاه عليهم فأنكروه جميعاً وأظهروا خوفهم على مكانة الحزب وعلى لنكولن ، ونصحوا إليه ليصرفوه عن كثير مما جاء فيه إلا هرندن فقد أيده وقال متحمساً « ألق هذا الخطاب فسيجعلك رئيس الاتحاد » ولم يك يدرك هرندن مبلغ ما فى نبوءته هذه من صدق ...

وكان لنكولن إذا صمم على أمر لن يلويه عنه شىء فقال لأصحابه « أى

أصدقائى ، إن هذا الشىء قد أجل إلى مدة طويلة أرى فيها الكفاية ؛ لقد حان الوقت الذى ينبغى فيه أن أعبر عن وجدانى فأذا قدر لى أن يكون مصيرى السقوط بسبب هذا الخطاب فلأسقطن مربوطاً إلى الصدق دعونى آتى حتفى فى الدفاع عما أرى أنه الحق والعدل » ...

وقام لنكولن يلقى فى المؤتمر خطابه فقال « حضرة الرئيس : حضرات السادة رجال المؤتمر : إذا استطعنا بادىء ذى بدء أن نعلم أين نحن وإلى أى وجهة نريد أن نتجه ، أمكننا أن نعرف ماذا نصنع وكيف نصنعه ؛ إننا الآن قد قطعنا شوطا فى العام الخامس منذ تلك السياسة التى أردنا بها وضع حد لما تثيره معضلة الرق من قلق ، ولكن هذا القلق لم يقتصر أمره على أنه لم يوقف فحسب بل لقد ظل يتزايد أبداً وفى رأيى أنه لن ينتهى حتى يفضى بنا إلى أزمة لا بد أن نجتازها ؛ إن البيت المنقسم بعضه على بعض لن تقوم له قائمة ؛ وإنى أعتقد أن هذه الحكومة لا يمكنها أن تدوم ونصفها إلى الرق والنصف الآخر إلى الحرية ، ولست أبغى أن ينهار البيت ، ولكننى أريد ألا يستمر فى انقسامه . ولسوف يكون كله إلى هذا الجانب أو إلى ذاك ، فأما أن يحول أعداء الرق دون أى اتساع له فى المستقبل ويضعوه حيث يرتاح الرأى العام إلى أنه وضع فى الوضع الذى يفضى به إلى الفناء النهائى ؛ وإما أن يدفعه أنصاره إلى الأمام بحيث يصبح أمراً مشروعاً فى جميع الولايات ، القديم منها والجديد ، الشمالى والجنوبى »

ذلك جانب من الخطاب الذى أفضى به لنكولن إلى رجال المؤتمر فى صراحة وجلاء ، ولقد أشفق منه كثير من رجال المؤتمر كما أشفق خلصاء لنكولن وخافوا وهو يريد بالبيت المنقسم على نفسه الولايات الأمريكية أن يظن خصومه أنه يشير بقطع العقدة لا بحلها وأنه يلمح بذلك إلى الحرب .

ولكن أبراهام كان يعبر بهذا الكلام فى الواقع عن شعور أعداء الرق جميعاً فقد باتت المعضلة تستوجب الحل وكل تهاون فيها إنما يزيدها سوءاً على سوء كالجرح الذى ظهر خطره إن هو أهمل كان فيه الموت المحقق ؛ ومن هنا كانت أهمية هذا الخطاب ، ثم من هنا كانت أهمية موقف أبراهام يومئذ فقد بات لقومه نذيراً ، ونفذ قوله إلى الأسماع والقلوب ، وطالما أنذرهم غيره فلم تغن النذر .

وكان دوجلاس قد نزل بشيكاغو يدعو الناس إلى تجديد انتخابه لمجلس الشيوخ فوجد فى خطاب خصمه لنكولن فرصة يغتنمها فاتهمه أنه من دعاة التحرير بالقوة وأخذ يحذر الناس من انتخابهم إياه واغتاظ لنكولن لتلك التهمة النكراء ، ولكنه لم يستكثرها على دوجلاس وإنه لواثق أنه سيقذف عما قريب بحقه على باطل خصمه فيدمغه فأذا هو زاهق .

وما كان أبراهام ممن يقرون الثورة والعنف مهما بلغ مقته للرق ومهما ضاق به صدره ولسوف يبقى دستوره حل تلك المعضلة على أن يكون ذلك فى كنف الاتحاد وتحت رايته التى لا يرضى إلا أن تظل خفاقة عالية تجمع على محبتها وإكبارها بنى الوطن جميعاً .

وعول دوجلاس على أن يخوض المعركة على أساس خصومته لبيوكانون فى مسألة دستور كنساس لا على أساس مخاصمته منافسه لنكولن فيما جاء فى خطابه الجديد من آراء ، كأنما يستعظم أن يكون ذلك الرجل الذى ما زال شأنه منحصراً فى ولايته نداً له ؛ وإن كان دوجلاس ليحس بينه وبين نفسه مبلغ ما تنطوى عليه نفس خصمه من عظمة ومبلغ ما يحمله قلبه من إيمان ...

ولقد شاع خطاب أبراهام فى الولايات ، وتناقلته الصحف فى طول البلاد وعرضها ، فكان ذلك أبلغ رد على ترفع دوجلاس وذهابه بنفسه ، وأحس أبراهام مبلغ ما أحدثه ذلك الخطاب من أثر فى البلاد تتبين ذلك فى قوله « إذا كان لى أن أمر بالقلم على صفحات تاريخى وأمحو حياتى كلها عن الأنظار وقد ترك لى أن أختار شيئاً أستثنيه من هذا المحو فأنى أختار هذا الخطاب فأدعه للعالم لم تذهب مساله » .

وليس فى قوله هذا شىء من المغالاة فأن خطابه كان أكبر حافز لأولى الرأى أن يقفوا من مسألة الرق موقف الذى يريد الوصول إلى الغاية فلا تهاون ولا تلكؤ بعد اليوم وإلا تفاقم الخطب واستعصى على الحل ، ودخلت البلاد فى طور من الفوضى الجامحة تأتى على الأخضر واليابس ؛ كما أن هذا الخطاب كان أهم حادث فى تاريخ حياته فبعده صار للسياسة كل همه ، وبه قدر له أن يصبح فى السياسة من رجال أمريكا كلها لا من رجال إلينوى فحسب

وخطب لنكولن بعد ذلك فى شيكاغو يرد على ما اتهمه به دوجلاس ؛ فأعلن أن الوثيقة الكبرى التى يجب أن يتقيد بها الأمريكيون ويسيروا على نهجها هى وثيقة إعلان الاستقلال ، وأنه يجب أن ينظر إلى مسألة الرق نظرة إنسانية وأن يراعى اتفاق مسورى فيما ينجم بين الفريقين من خلاف . .

وتكلم دوجلاس بعد ذلك فى بلومنجتن ثم فى سبرنجفيلد ورد عليه لنكولن فى المرتين ؛ ثم بدا له فخطا خطوة لم يسبقه إلى مثلها رجل من قبله فى التاريخ السياسى للبلاد وذلك أنه أرسل إلى دوجلاس رسولا يعلن إليه أنه يتحداه أن يلتقى وإياه فى مبارزة خطابية يستمع فيها الناس إليهما ويحكموا بينهما حسبما يرون من كلامهما .

ولقد ضاق دوجلاس بهذا التحدى وهو الذى يعرف أصالة صاحبه وشدة إيمانه ذلك الأيمان الذى رسخ حتى ما يحتال عليه بحيلة أو تزعزعه مطاولة أو يفل منه جاه أو إغراء والذى جعل كل وسيلة من وسائل المغالبة بحيث تكون منه كالموج من الصخر لا يلطمه إلا لينحسر عنه ولم يبق فيه من طبيعة الموج شىء

وأبى على دوجلاس كبرياؤه وغلواؤه أن يتخاذل عن هذا النزال فقبله على كره منه قال « سوف تصبح يداى مليئة ؛ إنه رجل حزبه ذو البأس ، ملؤه الذكاء والحقائق التاريخية وإنه لأمين بقدر ما هو حذر أريب ولئن قدر لى أن أظهر عليه فسوف يكون انتصارى بشق النفس » وأسر فى موضع آخر إلى صديق له قوله « إنى لا أحس أنى أرغب فى الذهاب إلى هذا الجدال؛ إن البلاد كلها تعرفنى ولقد سبق أن قدرتنى وإن لنكولن إذا قيس إلى ليمد غير معروف فأذا أتيح له أن ينتصر علىّ فى هذا الجدل ، وإنى لأود أن أذكر أنه أقدر رجل فى الحزب الجمهورى فأنه يكسب كل شىء بينما أخسر أنا كل شىء ، أما إذا قدر لى الفوز فأنى لن أغنم إلا قليلا ؛ إنى لا أحب أن أذهب إلى تلك المجادلة معه . »

وحددت سبع مدن يلتقى فيها الرجلان فيتناظران والناس من حولهما يشهدون ما يكون بينهما ؛ وفرح لنكولن وقد أتيحت له أعظم فرصة ليعبر عما فى نفسه وأية فرصة هى ؟ ألم يك دوجلاس فى الناس أكثرهم استفزازاً له وأدعاهم أن يبرز له ما استكن من مواهبه ؟ ثم أليست هذه المجادلة كفيلة أن تجمع إلى أنصاره ومحبيه أنصار دوجلاس ومحبيه فيكون الكلام فى حشد قلما يتسنى أن يكون مثله
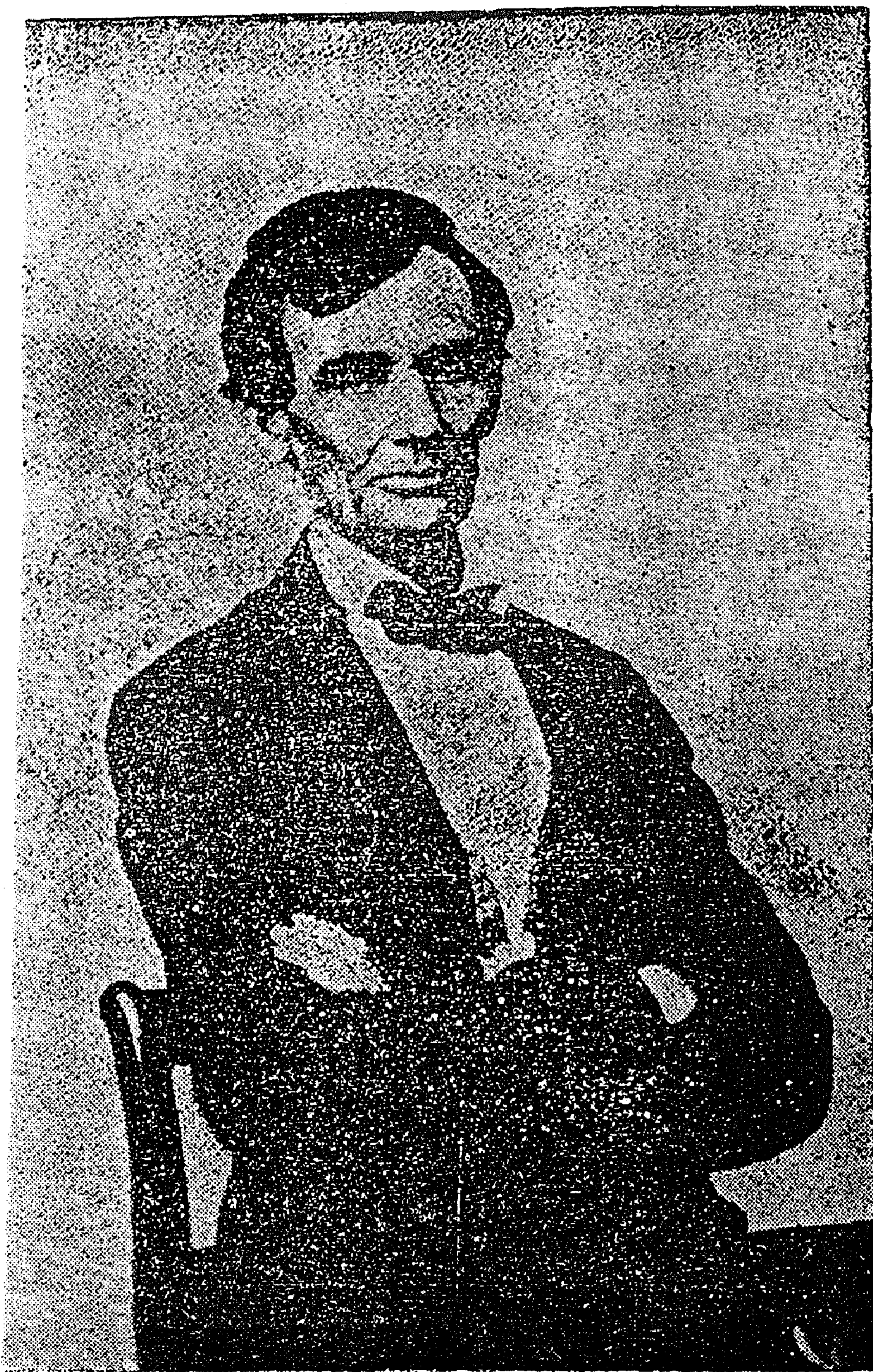
أثناء النزال

فأذا قدر له أن يكسب هذه القلوب أو يصل إلى إقناع هذه العقول فأى فوز هو وأى فخر ؟

والحق أن هذا التحدى كان خطوة من خطوات لنكولن بالغة المهارة ، فليس أفضل منها وسيلة لأذاعة رأيه فى معضلة الرق وفى النيل من الديموقراطيين فى شخص دوجلاس الذى يباهون به

واتخذ دوجلاس للأمر عدته ، لم يدع وسيلة أو يغفل عن حيلة ؛ أما أبراهام فلم تكن به حاجة إلى ما يحتال به من أساليب التأثير المتكلفة الخادعة ، ولديه البيان والمنطق ، فما هو إلا أن ينصت له الجمع حتى يبتعث اليقين ما قر فى نفسه فيحرك به لسانه ، فأذا بيانه كالنهر الحادر يفهق بما لا يفتأ يواتيه به المنبع ، ويجيش بهذا الفيض ويهدر ، ويتدفق لا يصده عن وجهه شيء ...

وكان لدوجلاس من بعد الصيت ما جعل اسمه ملء الأسماع فى طول البلاد وعرضها ؛ وكان فى رأى الأمريكيين أقدر رجال حزبه وأكثرهم فطنة وأطولهم فى السياسة باعا وأقواهم بمساعيها اضطلاعاً ، بل لقد كان عند الكثيرين من ذوى الرأى أعظم رجال أمريكا كفاية يومئذ وأعزهم مكانة وكان يلقب بالمارد الصغير ، أن كان له على صغر جرمه وقصر قامته قوة المارد وسلطان المارد ودهاء المارد ، وكانت له حيوية تتقطع دونها حيوية الرجال ، وتتقاصر عنها هممهم؛ ومن وراء ذلك ثروة شخصية ضخمة وجاه حزبه وقوته ؛ والحق لقد كان دوجلاس يومئذ أنبه الناس شأناً وأعزهم نفراً وهو من عهد قريب لم يك يسمع به أحد خارج إلينوى

لذلك كان للناس عجباً أن يطاوله أبراهام وأن يدعوه إلى نزال ، وأخذ من لم يكن يعرفه منهم هذا الفعل من جانبه على أنه ضرب من الغرور أو نوع من الغفلة ، ولو أنهم عرفوا دخيلة صاحبهم الذى افتتنوا به وتبينوا ما هجس فى نفسه من خواطر إزاء هذا التحدى الجرىء لأيقنوا أن جبروت ماردهم وأساليبه ما كانت لتغنى عنه شيئاً من هذا العملاق الذى درج من الغابة ليقف أمامه كالسنديانة

وكانت أتاوا أولى المدن السبع التى اختيرت ميادين لذلك الصراع ؛ وقد جاءها الناس ليشهدوا مالم تقع عليه من قبل أبصارهم أو تتعلق به أوهامهم ؛ وقد اتفق أن يكون الكلام أول الأمر لدوجلاس فيخطب الجمع ساعة ؛ ثم يتكلم بعده أبراهام

ساعة ونصف ساعة ، ويختتم دوجلاس هذا الدور بمده بحديث يستغرق نصف ساعة ...

وكان دوجلاس فى انتقاله بين المدن يتخذ مركبة فخمة تجرها ست من كرائم الخيل ، وحوله ستة وثلاثون فارساً رمزاً لعدد الولايات يومئذ يتزيد بهم من الهيبة والأبهة ؛ وكان وراء ركبه مدفع يرسل ستاً وثلاثين طلقة إذا دخل مدينة من المدن ، وقد وقف فى مركبته الفخمة وتكلف أكثر ما يطيق من الصرامة ، فما يكاد يلتف حوله الناس مصفقين مهللين حتى تنقلب صرامته وسامة فيحيي الجموع بيديه وإيماءاته وابتساماته ، ويلتفت نحو هذا ويهش لذاك كأنه ملك يطلع على شعبه ؛ وإذا هو حل بقوم أو سار إليه قوم عرف كيف يوحى إليهم تبجيله والأعجاب به ، فهو بين الصاف وخفض الجناح يحيى وجوههم وكبراءهم ويغمرهم بنعمة منه وفضل

أما لنكولن فكان ينتقل بين الناس كأحدهم ، وكثيراً ما يكون دون بعضهم ، فأذا أخذ مكانه فى قطار أو فى مركبة عامة كان بين ركابها كما كان بين الناس فى نيوسالم إذ كان يبيع فى حانوت ؛ يتبسط لهم فى القول ويسترسل معهم فى شتى الأحاديث ويقص عليهم من قصصه ، وإن له فى هذا كله لمتاعاً ولذة لن يحسها إلا من كان له مثل قلبه

وكان بعض أصحاب لنكولن يشفقون من مطاولة دوجلاس ويظنون أنه تورط فى هذا الأمر ؛ لقيه أحدهم فى سبرنجفيلد قبيل سفره للقاء الأول فصارحه بخوفه وأظهره على مخاوف كثير من أصحابه ، فشت فى وجه لنكولن كدرة ثم ما لبث أن أشرقت صفحته وابتسم ابتسامة عذبة وقال وقد التمعت عيناه «اجلس هنا دقيقة يا صاحبي سأقص عليك قصة : لقد سافرنا فى الجولات القضائية معاً وشهدنا جلسات المحاكم وكثيراً ما رأينا رجلين على وشك أن يتصارعا ؛ أما أحدهما وهو المارد الكبير أو الصغير حسبما تكون الحالة ففخور ذو جلبة يقفز عالياً فى الهواء ويضرب قدميه إحداهما بالأخرى ويدق جُمعي يديه واحدة بأختها يشير إلى ما يعتزم أن يصنع محاولاً أن يخيف خصمه ؛ وأما الثانى فلا ينطق بكلمة وذراعاه إلى جانبيه وكفاه مبسوطتان ورأسه ثابت فوق عاتقيه ، وهو

يدخر نفسه وقوته للصراع . سيضرب هذا الرجل إذا وقع الصراع وسيكون له فيه مثل ما ترى من ثباته قبله . أذكر ذلك ولا تنسه ... رافقتك السلامة »

والتقى الرجلان فى أتاوا واحتشد الناس فى الموعد المضروب فضاق بهم مكان الاجتماع ؛ وحانت ساعة الكلام فوثب « المارد الصغير » إلى موقع مرتفع أطل منه على الناس فتمزقت بالتصفيق أكف أنصاره وتشققت بالهتاف حناجرهم ، وهو يرسل نظراته فى جنبات المكان ويوزع إيماءاته هناك وهنا حتى سكنت ريحهم فبدأ الكلام ...

وكان يومئذ فى الخامسة والأربعين بادى الفتوة مرموق الشباب يتهلل وجهه لولا كدرة طفيفة هى مما فعلته به ابنة المنقود وسكنى المدن ولكنها كدرة كانت تنقشع حين تلتهب بالحماسة وجنتاه ؛ وكان فى موقفه بارز الصدر قوى العاتقين ، تتجه نظرات الجمع إلى رأسه الضخم فما تلبث أن تلتقى بعينيه الزرقاوين السريعتين فترتد حاسرة كأنما عشيت من ضوء وهاج ؛ وكانت تفتن الأنظار أناقة ملبسه ونظام هندامه ، كما كانت تسحرها لفتاته وحركاته ، كأنما كان يحس مثل ما يحس الممثل القدير قد عرف سبيله إلى قلوب محبيه فهو يحرص الحرص كله ألا ينحرف قيد شعرة عما يشيع فى نفوسهم السحر من مظهره ...

وتكلم فكان فى كلامه ثبت الجنان زلق اللسان ، وكانت له فى هذا الاجتماع خطة بالغ فى إحكامها ومؤداها أن يرمى لنكولن والمتشيعين له بأنهم من المتطرفين الذين يريدون حل مسألة الرق بالقوة ثم يحمل على بقية الجمهوريين فيرميهم بالتذبذب ، وراح يلقى تلك التهم فيتحمس ويعلو صوته ويكثر من الإشارات يحسب أن ذلك يغنى عن الاقناع بالحجة ؛ وكان يسمو بعباراته أحياناً فلا ترتقى إليها أفهام الكثيرين أو كما يقول الأنجليز كان يتكلم من فوق رؤوس سامعيه ؛ على أنه كان له من جاهه ونفوذه وهيبته فى قلوب الجماهير عوض عن ذلك أى عوض فحسبهم أنهم يستمعون إلى ذلك الذى بات يتحدث باسمه كل انسان ؛ حسبهم أنهم يستمعون إلى دوجلاس السياسى الأشهر والثرى العريض الثراء ، والأمريكى العزيز الجانب الذى سافر إلى أوروبا وحظى بلقاء بعض الرؤوس المتوجه؛ وإن فى كثير من النفوس البشرية من الغرائز ما يميل بها إلى الخضوع للسلطان

والانقياد للقوة ولو كان فيما تأمر به القوة ما هو جدير أن يقابل بالعصيان ...

وجاء دور أبراهام فطلع على الناس بقامتـه الطويلة فهتف باسمه أنصاره وتحمسوا له واتجهت إليه الأنظار وإنه ليبدو كأنما أخذته من الموقف ربكة فليس له تطلع دوجلاس وتحفزه ؛ ونظر الناس إلى شعره الأشعث وملابسه المتهدلة وبخاصة سرواله الذي يكشف لقصره عن جزء من ساقيه وقارنوا دون أن يشعروا بين تلك الملابس وبين حلة دوجلاس الأنيقة فبدت أكثر حقارة مما هي عليه ، وكانت تستقر الألحاظ من حين إلى حين على محياه وقد ازدادت مسحة الهم فيه وضوحاً وبدا عليه ما يشبه المسكنة والانكسار ولـكن الناس على الرغم من ذلك أو بسبب ذلك على الأصح يرتاحون إلى مظهر ذلك المحيا ويشعرون نحو صاحبه بالحب

بدأ الخطيب فى صوت أجش تتخلله حشرجة ثقيلة ؛ ثم ما هي إلا برهة حتى انطلقت نفسه على سجيتها ، فإذا ذلك المحيا يتهلل ويشرق وتتشكل أساريره بما يهجس فى خاطره ، وإذا تلك العينان الواسعتان المتسائلتان تنفذان إلى أعماق القلوب ، وإذا الرجل يبدو فى هيئة يتقاصر عن وصـفها الـكلام ؛ وتتفتح مسالك صوته فينطلق رائقاً له نبرات تتشكل حسبما يعبر عنه من المعانى ، وكان إذا تحمس يعلو صوته فيدوى فى أرجاء الـكان ويكون لفحولته وروعته وقع فى النفوس أى وقع .

تدافعت إلى ذهنه الألفاظ وقد جاءت كما يحب وكما يتطلب المعنى فى غير زيادة أو نقص ؛ وتزاحمت عليه المعانى وقد أسفرت عن وجوهها ومشت إلى غايتها فى غير تحرج أو التواء . وبرزت فى ذلك الموقف مواهبه فى كمالها فـكان له ما شاء من سهولة اللفظ مع إشراقه وبلاغته ودقة المنطق مع سلامته وسلامته ، هذا إلى يقين ينفث فى قوله الحرارة وتمكُّـن مما يقول يذيع فيه الروعة ؛ وأمثلة ينسوقها للناس من حياتهم فتستقر فى نفوسهم وكثرتهم من العامة ؛ ومن وراء ذلك العبقرية التى تستعصى على التحليل وتسمو على التأويل .

وينساب السيل لايصده عن وجهه شيء ولا تمشى ، على تدفقه وجيشانه ، فى صفائه كدرة ، والناس مفتونون وإن هم لم يفطنوا إلى سر فتنتهم ، فهم مأخوذون بما يسمعون عن أن يفـكروا فيما سحرهم ، وإنهم لفى سكرة أشبه بما يجدون فيه

أنفسهم إذ يصغون إلى لحن من تلك الألحان التى تسحر الأنفس وتملك الألباب ..

ونزل لنكولن وله فى قلوب السامعين من أنصاره وخصومه مكانة فوق ما كان له من قبل من مكانة ، فلقد استطاع أن يقنعهم ، كما استطاع أن يشعرهم بما هو أقوى من الأقناع وأبعد أثراً ، ألا وهو الأعجاب ، وإنهم ليتهامسون بعضهم إلى بعض : ليت لسادتنا وكبرائنا قلوباً مثل قلب هذا الرجل .

ولقد ارتكب دوجلاس من الخطأ فى هذا الاجتماع الأول ما عده عليه المنصفون أنه أفحش أخطائه جميعاً فى هذا النزال كله ؛ وذلك أنه أبرز مكتوباً موقعاً عليه باسم لنكولن يفهم منه أن أبراهام من زعماء المتطرفين ؛ ولكن سرعان ما أقام أبراهام الدليل فى دوره على أنه زائف وأنه مما جاء فيه براء وكانت الطمة قوية استخزى لها دوجلاس فى سامى منزلته ، وفقد بعدها ثقة الكثيرين ..

وحل موعد الاجتماع الثانى فتسابق الناس إليه أفواجاً وقد اشتهر أمر ذلك الصراع ، إذ لم تبق صحيفة إلا وقد أسهبت فى الحديث عنه ؛ وفى هذا الاجتماع طعن لنكولن خصمه طعنة لم يفطن أول الأمر إلى خطرها ؛ فلقد أعد له سؤالا ليلقيه عليه : إذا أرادت ولاية أن تلغى الرق فيها فهل هى مستطيعة أن تفعل ذلك دون أى حرج ؟ ولقد أنكر عليه أنصاره هذا السؤال إذ لم يفهموا الغرض منه وهم يعلمون أن دوجلاس سيجيبه : بلى تستطيع الولاية ذلك ؛ فقال لهم ولكنه يفقد بذلك عطف الجنوبيين وإن كسب عطف أهل إلينوى من خصوم الرق ؛ ولن يضير لنكولن أن يظفر دوجلاس اليوم بمقعد فى مجلس الشيوخ ويفشل غداً إذا هو تطلع للرياسة ..

ووجه لنكولن السؤال إلى دوجلاس فأجاب بقوله : « نعم .. تستطيع الولاية أن تفعل ذلك فى غير حرج » ؛ وابتسم أبراهام وهو يدرك ما سيكون من وقعها فى نفوس أهل الجنوب ؛ ولقد برهنت الأيام فيما بعد على بعد نظره ؛ ومما قاله لنكولن فى ذلك « إن دوجلاس يتبعه عدد كبير من العميان ؛ وإنى أريد أن أجعل بعض هؤلاء يبصرون » .

وفى الاجتماعين الثالث والرابع لم يأت كلاهما بجديد وإنما اجتهد لنكولن فى مدافعة ما رماه به خصمه من اتهامات ؛ ولوحظ على دوجلاس فى الاجتماع الرابع

أنه كان ضائق الصدر ، يروح ويغدو على المنصة أثناء تكلم خصمه وهو مربد الوجه زائغ البصر ينظر الفينة بعد الفينة فى ساعته حتى نفد الوقت المحدد فصاح به : « إجلس يا لنكولن ! إجلس قد انتهى زمنك » ونظر الخطيب إليه فى هدوء وقال «أجل..أحسب وقتى انتهى» ورد أحد الجلوس قائلا « حسب دوجلاس ما لاقى»

وفى الخامس من هاتيك الاجتماعات اتخذ لنكولن خطة الهجوم ، بعد أن أخذ ينشر خصمه ويطويه فى الاجتماعين الماضيين حتى دوخه ، وكان هجومه شديداً ضاق به دوجلاس وانخلع عنه مكره فقد عاب عليه لنكولن أنه لا يحفل بالاعتبار الخلقى فى النظر إلى الرق ، مع أن النظرة الخلقية بعد الخروج على اتفاق مسورى هى الوسيلة الوحيدة التى يعول عليها فى منع انتشار الرق ؛ وعلى ذلك يكون دوجلاس داعية إلى أن يصبح الرق مسألة قومية عامة لا تحرج ولا تأثم منها !

وأحس دوجلاس مهارة الرمية فراح يرد على رمية برمية ؛ وعاد فاتهم لنكولن والحزب الجمهورى أنهم من دعاة الثورة وأنهم يدفعون البلاد إلى الدمار .

ولكن لنكولن جمل الاجتماع السادس لتحديد مذهب الحزب الجمهورى فقال فى جلاء : « إن الجمهوريين هم أولئك الذين يعدون الرق خطأ من النواحى الخلقية والاجتماعية والسياسية ، ولكنهم يتمسكون بدستور الاتحاد ويسيرون فى تحقيق أغراضهم على نهجه ، أما الذين لا يرون عيباً فى الرق فهم الديموقراطيون وهم ليسوا من الجمهوريين فى شىء .. كذلك ليس من الجمهوريين من لا يعبأون بالدستور فى موقفهم من مشكلة الرق مهما بلغ من مقتهم لذلك الوزر .

وحار دوجلاس ماذا يفعل أمام تلك القوة وأمام ذلك الوضوح الذى لا يدع مجالا لمستريب فأخذ يداجى ويعبث ، وتثعلب بعد ما سبق أن استأسد .

وضيق لنكولن عليه الخناق بسؤال آخر طلب إليه أن يجيب عنه فى غير مداجاة فقال « أيعد الرق صواباً أم خطأ ؟ » وازدادت حيرة المارد الصغير وأحس أنه على جبروته يتلوى فى قبضة ذلك العملاق وأحس لنكولن مثل ما كان يحسه من ثقة فى قوة ساعده أيام كان يهوى بفأسه فى الغابة على جذع من تلك الجذوع التى ما كانت تقوى عليه مهما بلغ من متانتها ، ولكنه اليوم يحس الثقة فى قوة قلبه ولسانه » .

وعجب الناس لهذا الرجل الذى لا يرى نظيره فى الرجال وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون : ماذا دهى اللارد الصغير ؟ وكيف تسنى لابن سبر نجفيلد المتواضع الذى لم يعرف سلطاناً ولا جاهاً أن يأخذ الطريق هكذا على ابن وشنطون الجبار المدل بماله ومنعته ونفوذه ؟

ولكن هاجساً يهجس فى نفوسهم أن للحق سلطاناً دونه كل سلطان ، وعزة يستخزى عندها كل اعتزاز ومنعة ترتد عنها كل مطاولة ؛ وأن الباطل مهما تنمر ومهما استمدى على الحق من أساليب بهتانه وألاعيب مكره لا يكون منه إلا كما يكون الليل من وجه الصباح ... أدرك الناس أن خير خادم للناس من يدرج بينهم فيحس إحساسهم ، ولا يزال مهما بلغ من سمو منزلته واتساع ثقافته قادراً على أن يشاركهم عواطفهم وألا يضيق بأحلامهم ؛ وأى هذين الرجلين أخلق بهذا ؟ أهو دوجلاس الذى أثرى بغتة بحيلة لم تتطلب منه إلا أن يشترى مساحات من الأرض بأبخس الأثمان ثم يعمل بنفوذه على أن تتخذ سكة الحديد فيها مجراها فيبيعها بما تمتلىء به خزائنه ؟ والذى باعد بينه وبين الناس وتكلف مظهراً أرستوقراطياً تطرب له نفسه ولا ترتاح إلا له ؟ أم هو لنكولن الذى مابرح يأكل من كده والذى ظل فى الناس على رجاحة عقله وعلو همته أحد الناس ؟ والذى لا يطيب له العيش إلا إذا استشمرت نفسه آمال الناس وآلامهم ولا يحلو له السمر إلا حيث يجلس فى قوم ارتفعت بينه وبينهم الكلفة وازدادت الألفة مهما يكن من الفوارق العلمية أو الفوارق المدنية ؟

تحدث إبراهام مرة يصف دوجلاس فقال : « لقد سوته الطبيعة بحيث أن ضربة السوط إذا نزلت على ظهره تؤلمه وتؤذيه ، بينما هى لا تؤلم ولا تؤذى إذا نزلت على ظهر أى شخص غيره » ، وما كان إبراهام مسرفاً فى قوله وما نحن بمسرفين إذا قلنا إن أبراهام قد سوته الطبيعة بحيث يحس ضربة السوط على ظهره إذا نزلت على ظهر أحد غيره من الناس ..

وما كان إبراهام يطمع من وراء هذا النزال أن ينال لنفسه شيئاً ؛ وهل عرفت فى خلقه غميزة منذ كان يقطع الأخشاب فى الغابة ليشترى بالمئات من شرائحها سروالا ؟ إنه منذ صدر شبابه يسير إلى غاية ، شعر بذلك أو لم يشعر به ،

فلقد استقر فى نفسه من مقت الرق ما لا يستطيع أن يقعد معه عن العمل أو ينصرف عن الغاية ؛ فكانت ثمة عزيمة تهون أمامها جسيمات الأمور ؛ وكانت ثمة رسالة يحلو فى سبيلها الجهاد ؛ ومرد ذلك كله إلى قلب إنسانى كبير ونفس مطمئنة صابرة وبصيرة كأنما تشرف من حاضره على المستقبل فلا تقف من دونها حجب الغيب ...

إنه اليوم ينافس دوجلاس على مقعد مجلس الشيوخ فهل كان ذلك قصارى همه ؟ كلا ؛ وما كان بعض همه أن يرق إلى كرسى الرياسة ذاته ؛ وإنما كان همه أن تتحقق مبادئه ولو بذل فى سبيلها نفسه ؛ ولن يكون مقعد الشيوخ أو كرسى الرياسة عنده أمراً ذا بال إلا أن يكون وسيلة إلى السير بمبادئه إلى حيث يعتنقها الناس ، وإلا فالجاه والثراء والحكم عنده من صغيرات الأمور ، وهو إنما ينفر من من كل أولئك بطبعه الذى يعزف عن الزهو ويتخوف دواعى البطر ..

وإن أمثال ابن الأحراج هذا فى تاريخ البشرية لقليلون ولكنهم هم الذين رسموا لها طريقها ، وولوها قبلتها التى ارتضوها لها ؛ وما كان أتعس البشرية لو لم يوجد هؤلاء الذين يتمثل بهم ضميرها أناساً يمشون على الأرض .

قال إبراهام ذات يوم من أيام هذا النزال « لست أدعى أيها السادة أنى غير أنانى ولن أتظاهر بأنى لا أحب الذهاب إلى مجلس الشيوخ ؛ لن آتى هذا الادعاء المنافق ، ولكنى أقول لكم إنه فى هذا الجدال الصارم ليس يعنيكم ولا يعنى عامة الناس فى هذه الأمة ما إذا كان القاضى دوجلاس أو ما إذا كنت أنا بحيث تسمعون عنا شيئاً بعد هذه الليلة أو لا تسمعون ؛ ربما كان هذا أمراً تافهاً بالنسبة لنا كلينا ؛ وهو إذا نظر إليه تلقاء هذه المسألة العظيمة التى ربما يتوقف عليها مصير البلاد فأنما يكون فى حكم العدم » وقال فى معرض آخر « لا تشغلوا أنفسكم بالتفكير فيما عسى أن يكون المصير السياسى لأى رجل مهما يكن ذلك الرجل ، ولكن انظروا فيما تنطوى عليه وثيقة إعلان الاستقلال من حق ؛ وإنكم لتظفرون منى بكل ما تريدون إذا وعيتم تلك المبادىء المقدسة ... وفى الوقت الذى لست أدعى فيه عدم المبالاة بأى مجد من أمجاد هذه الدنيا ، أعلن أنه ما ساقنى إلى هذا ، التطلع إلى منصب ؛ وإنى لأطلب إليكم أن تسقطوا من عقولكم أية فكرة

لا مغزى لها من نجاح شخص ما ، إن تلك الفكرة ليست بشيء يذكر ولست أنا شيئاً مذكوراً وكذلك ليس القاضي دوجلاس ، ولكن لا تقضوا على ذلك الرمز الخالد للإنسانية ألا وهو قرار استقلال أمريكا » .

هذا هو أبراهام رجل المبدأ لا يعنيه أن يظفر أو أن ينهزم ، وإنما تعنيه قضية البلاد الكبرى بل قضية الأنسانية كلها ؛ ولن يهدأ له بال حتى تحل أو تسير في سبيلها إلى الحل

وأنى لدوجلاس أن يقف في وجه تلك القوة العاتية ؛ أنى له أن ينال من ذلك الذي يتكلم فيخيل إلى سامعيه أن الأخلاق نفسها تقول كلمتها ؛ حاول دوجلاس ذات مرة أن يعبر عن عدم مبالاته بقضية الرق فانبرى له أبراهام قائلا « إنني أبغض مثل هذا المظهر ، مظهر عدم المبالاة ، إن من شأنه أن يضعف حاسة العدالة في دولتنا ، وإنه ليمد أعداء النظام الدستوري السلمي بما يشبه الحق أن ينظروا إلينا كأننا منافقون ، كما أنه في الوقت نفسه يمد أنصار الحرية الحقيقيين بسبب وجيه لتشككهم في إخلاصنا » ... وقال أبراهام في مجال آخر : « انكم باعتيادكم أن تطأوا حقوق غيركم إنما تفقدون بذلك حقيقة استقلالكم وتصبحون طعمة لكل طاغية يخرج من بينكم . دعوني أخبركم أن مثل هذا إنما يمده لكم منطق التاريخ ؛ إذا جاءت أدوار الانتخاب الآتية بحيث تجعل الحكم في قضية دردسكوت التالية وغيره من الأحكام أمراً يقبله الناس . إنكم تستطيعون أن تخدعوا كافة الناس ردحا من الوقت ، وأن تخدعوا بعض الناس طول الوقت ، ولكنكم لن تستطيعوا أن تخدعوا إلى الأبد جميع الناس »

بمثل هذا المنطق السائغ ، وبمثل هذه العبارات السهلة كان أبراهام يأخذ الطريق على دوجلاس في غير مشقة ؛ وكان الناس يلمسون الصدق في هذه العبارات وأمثالها وهم واثقون من نزاهة غرضه وشرف مقصده .

ويريد أبراهام أن يصور موقف كل من الولايات القديمة والجديدة من الرق فيصل إلى غايته في وضوح ويسر إذ يقول « إذا أنا أبصرت ثعباناً قاتلا يزحف في الطريق فأن أي رجل يقرني على أن أعمد إلى أقرب عصا فأقتله ؛ ولكنني إذا وجدت هذا الثعبان بين أطفالي في سريرهم فأن المسألة تتخذ وضعاً آخر فأني ربما آذيت أطفالي أكثر مما أوذي الثعبان ؛ وربما عضني ذلك الثعبان ؛ وتختلف

المسألة أكثر من ذلك إذا أنا وجدت ذلك الثعبان فى سرير جارى وكنت على اتفاق وثيق مع ذلك الجار ألا أتدخل فى شؤون أطفاله مهما يكن من أمر ولكن إذا كان ثمة سرير صنع حديثاً وأزمع حمل الأطفال إليه ، واقترح فى نفس الوقت أن يحمل إليه عدد من الثعابين ، فليس فى الناس من يرى خلافاً فى أى الطرق أسلك».

ويعمد أبراهام إلى تهكمه فى عذوبة روح وترفع عن الأساءة وحذر شديد أن يجرح شعور أحد ، ومهارة يضيق عنها ذكاء خصمه وتتخلف دونها بديهته ، ويذهل عندها مكره . استمع إليه كيف يسفه وسائله ويزيف رأيه ، وقد رأى منه أنه أنكر ما سلف أن أقره ؛ قال أبراهام « أقول إنك خلعت قبعتك ، ولكنك تريد أن تكذبنى ، فتضعها على رأسك وتثبت بذلك أنى كاذب ؛ وهذا قصارى مالك من قوة فى هذا الجدل » ثم انظر إليه كيف يحمل الناس على الضحك بأن يستخرج من إحدى عبارات دوجلاس ما يشبه القانون الرياضى قال دوجلاس « إذا كان ثمة عراك بين رجل من البيض وبين زنجى فأنى أقف إلى جانب الأبيض ، أما إذا كان بين زنجى وتمساح فأنى مع الزنجى » فأجاب أبراهام بقوله « يستخلص من ذلك أن الأبيض من الزنجى كالزنجى من التمساح ، وعلى ذلك فبقدر ما يكون من الحق فى معاملة الزنجى للتمساح يكون منه فى معاملة الأبيض للزنجى »

ورأى دوجلاس يعمد إلى المداجاة ؛ ويجهد أن يلبس الحق بالباطل فشبهه بنوع من السمك من خصائصه أن يفرز مادة سوداء كالمداد يضل بها الصيادين ، فهو لا يفتأ يرسل من العبارات الجوفاء ما يرى به إلى التعمية وطمس الحقائق ... والناس يضحكون مما يقول أبراهام معجبين به مستزيدين منه ..

ويتساءل لنكولن ضاحكا ذات مرة « لماذا لا يجيب القاضى دوجلاس عن الحقائق ؟ لو كنت درست علم الهندسة فأنك تتذكر أن إقليدس أثبت بالبرهان أن مجموع زوايا المثلث يساوى زاويتين قائمتين ؛ وقد بين إقليدس الخطوات التى توصل بها إلى هذا ؛ فأذا أردت أن تنقض هذه النظرية وأن تبرهن على خطئها ، أتفعل ذلك بقولك إن إقليدس كاذب ؟ » ويضحك الناس فيدعهم لنكولن حتى يسكتوا ثم يقول « بمثل هذه الطريقة يجيب القاضى دوجلاس عما يجادل فيه »

ولم يدع أبراهام قولا مما ساقه دوجلاس مساق المبادىء إلا حمل عليه و كشف عما فيه من بهرج ومن ذلك ما أعلنه دوجلاس فى مسألة نبراسكا وسماه مبدأ سيادة الشعب ؛ قال أبراهام « مبدأ سيادة الشعب معناه حق الشعب أن يتولى حكم نفسه ، فهل اخترع القاضي دوجلاس هذا المبدأ ، كلا ... فقد اتخذت فكرة سيادة الشعب طريقها إلى النفوس قبل أن يولد صاحب مشروع نبراسكا بعصور ، بل قبل أن يطأ كولمبس بقدميه أرض هذه القارة . . فأذا لم يكن القاضي دوجلاس هو مخترع ذلك المبدأ فدعنا نتتبع الأمر لنتبين ماذا اخترع غيره ؛ أهو حق المهاجرين إلى كنساس ونبراسكا فى أن يحكموا أنفسهم وعدداً من الزنوج معهم إذا أرادوا ذلك؟يظهر فى وضوح أن ذلك لم يكن من اختراعه، لأن الجنرال كاس أعلن ذلك من قبل أن يفكر دوجلاس فى مثله بست سنوات . ، وإذا فماذا اخترع « المارد الصغير ؟ » لم يخطر على بال الجنرال كاس أن يسمى اكتشافه بذلك الاسم القديم ألا وهو سيادة الشعب ؛ أجل ... لقد استحى أن يقول إن حق الناس فى أن يحكموا الزنوج هو حق الناس فى أن يحكموا أنفسهم؛ وهنا أضع تحت أنظاركم اكتشاف القاضي دوجلاس بكل ما فيه؛ لقد اكتشف أن تربية الرقيق والأكثار منهم فى نبراسكا هو سيادة الشعب »

ورأى أبراهام فى هذا الصراع فرصة قلما تتاح له مثلها ، فعول ألا يدع فى مسألة الرق شيئاً غامضاً وأخذ يقلبها على وجوهها فى سهولة تستهوى الألباب ، تلمس ذلك فى قوله هذا عن المتمسكين بالرق ، قال «يظهر لى مبدأ الاستعباد عندهم كما يأتى : ليست العبودية صواباً من جميع الوجوه ، وليست كذلك خطأ من جميع الوجوه وإن من الخير لبعض الناس أن يكونوا عبيداً ، وأنهم فى هذه الحالة يكونون خاضعين لأرادة الله .. حقاً ما كان لنا أن نعارض مشيئة الله ؛ ولكن لا تزال ثمة صعوبة فى تطبيقها على بعض الحالات الخاصة ؛ فلنفرض مثلا أن شخصاً يدعى الدكتور روس الموقر يملك عبداً اسمه سامبو؛ فأنا نتساءل هل مشيئة الله هى أن يظل سامبو عبداً أم هى أن يطلق سراحه ؟ ولن نظفر من الله بأجابة سريعة عن هذا السؤال ، ولن نجد فى كتابه جواباً لذلك ، أو لا نجد فى الغالب إلا ما يثير الجدل حول معناه ... وليس يفكر أحد أن يسأل سامبو ما رأيه فى ذلك ، وعلى ذلك يترك الأمر للدكتور

روس ليفصل فيه ، وبينما يفكر فى الأمر تراه يجلس فى الظل وعلى يده قفازه يقتات بالخبز الذى يكسبه سامبو تحت الشمس المحرقة ، فأذا هو قرر أن مشيئة الله هى أن يظل سامبو عبداً فأنه بذلك يحتفظ بمكانه المريح ؛ أما إذا قرر أن مشيئةالله هى أن يصير سامبو حراً فأن عليه أن يخرج من الظل وينزع قفازه ويكدح من أجل خبزه ؛ فهل يفصل الدكتور روس الموقر فى الأمر بما تقضى به النزاهة المطلقة التى لابد منها فى كل فصل حق ؟ »

وانتهى بعدثلاثة أشهر ذلك الصراع الذى اشتهر أمره، فكان نصيب لنكولن من المؤيدين مائة وخمسة وعشرين ألفاً ، ونصيب دوجلاس دون ذلك بأربعة آلاف؛ ولكن مجلس الولاية كان هو الذى يختار عضو مجلس الشيوخ وفق القانون ، وكان بهذا المجلس أربعة وخمسون عضواً من الديموقراطيين وستة وأربعون من الجمهوريين ، لذلك فاز دوجلاس فصار عضو مجلس الشيوخ ؛ ولقد عد انتصاره فى نظر بعض المؤرخين بعد هذا الصراع أعظم انتصار شخصى فى تاريخ أمريكا السياسى .

وهكذا يفشل أبراهام مرة أخرى فى محاولة الحصول على مقعد فى مجلس الشيوخ ، ويحظى دوجلاس دونه بذلك المقعد ؛ ولكن أبراهام على عادته لا يعبأ بهذا الفشل ، بل أنه ليستشعر الراحة بينه وبين نفسه أن استطاع أن يسمع هاتيك الألوف صوته ؛وإنه ليحس أن مبادئه قد أخذت سبيلها إلى قلوب الكثيرين منهم على صورة طالما منى نفسه بها وأى شىء أحب إليه من ذلك ؟ لقد أصبح اسمه على كل لسان وتسامعت أمريكا كلها باسم أبراهام لنكولن ، وصار يعد من رجال وطنه الأفذاذ ، وأضاف الناس إلى ألقابه فى الشمال لقباً جديداً ، فقالوا لنكولن قاتل المارد؛ وطنطنت باسمه الصحف ؛ ومن ذلك ما قالته إيفننج نيويورك بوست ، « لم يصل رجل فى هذا الجيل إلى الشهرة فى قومه بمثل تلك السرعة التى وصل بها لنكولن فى هذا الانتخاب » ؛ وكتب إليه شخص يقول « إن مثلك اليوم كمثل لورد بيرون الذى أفاق ذات يوم من نومه ليجد نفسه ذائع الصيت ؛ إن الناس يستنبئون عنك بعضهم بعضاً ؛ لقد قفزت دفعة واحدة من محام له الصدارة فى إلينوا إلى سياسى له الشهرة فى قومه »

أما هو فقد وصف شعوره يومئذ بقوله « مثلى كمثل الصبى اصطدم إصبع قدمه بشىء آلمه ، فكان الألم أشد من أن يصحبه ضحك ، وكان الصبى أكبر من أن يبكى » .

ولاقى أبراهام عنتاً من بعض خصومه فى تبرسبرج وبعض جهات غيرها ، فأرادوا إيذاءه وتصايحوا ضده فأسمعوه من البذاء ما أعرض عنه إعراض المؤمنين الصابرين ؛ وكانوا يطلقون عليه اسم الجمهورى الأسود مبالغة فى الزراية به ؛ تقدمت سيدة تحمل فى يدها عروساً سوداء من الخشب فرفعتها أمام وجهه فنظر أبراهام إليها باسماً وقال « أهذا طفلك الرضيع يا سيدتى ؟ » فاستخزت أيما استخزاء ولم يقو خصومه أنفسهم على كتم ضحكاتهم منها ؛ وجاء شاب على ظهر جواده فمشى به رقبل لنكولن حتى أصبح فى محاذاته ورأى أبراهام فى وجهه أمارات السفه فما زاد على أن نظر إليه نظرة حملته على الفرار فى فرق وخزى ..

ولكنه استقبل فى أثناوا استقبال الفاتحين فحمله شباب المدينة فوق أعناقهم والألوف تهتف به ، إذ هو ضائق بهذا يطيقه على رغمه ولو أنه استطاع أن يفلت منه لفعل مسرعاً ؛ وما كان أشبهه ساعتئذ بخليفة المسلمين عمر حين صاح بقومه فى موقف لهم من مواقف الزهو أن كاد يقتله الزهو ..

أجل ! تبرم أبراهام بهذا الزهو فما كان من شيمته أن يزهى ، ولا كان من خلقه أن يترفع أو أن يطغى ؛ بل إنه كان لا يزداد حظه من الصيت إلا تواضع ، ولا يعظم نصيبه من الجاه إلا خفض جناحه وألان جانبه للناس جميعاً ، أنصاره وخصومه فى ذلك سواء ...

يحكى صديق له أن عاصفة الجأته وأبراهام أثناء ذلك الصراع إلى عربة مظلمة من عربات سفن الشحن ؛ وجلس أبراهام القرفصاء على أرض العربة كما كان يفعل فى كوخ أبيه فى الغابة وكلم صديقه وسط الظلام فقال « كانت أعظم أمنية لى أيام كنت أبيع فى حانوت بمدينة نيوسالم أن أدخل المجلس التشريعى للولاية » ؛ وسكت لحظة ثم استأنف قوله ضاحكا « أما أن أطمح إلى عضوية مجلس الشيوخ فى وشنطون فذلك ما دفعتنى صاحبتى إليه ... والآن أحس أنى إذا أردت الحق كفؤ لذلك ، ولكنى مع هذا لا أبرح أقول لنفسى : إن هذا

الأمر أكبر من أن أضطلع به ولن أصل إليه أبداً ؛ على أن مارى لا تزال مصرة على رأيها فى أنى سوف أكون عضواً فى مجلس الشيوخ ورئيساً للولايات المتحدة» ، ثم ضحك من قول زوجته ضحكة اهتز لها كيانه كله وقال ويداه تمتقلان ركبتيه وإنه ليزال يضحك ملء نفسه « صور لنفســـك يا صاحبى كيف يكون أبله مثلى رئيساً »

وعاد أبراهام إلى سبرنجفيلد بعد أن قضى فى ذلك النزال أكثر من شهرين ؛ عاد إلى زوجه وأولاده فلقيته مارى راضية عنه على الرغم من إخفاقه ؛ أو ليست ترى الصحف كلها تذكر زوجها وترى أكثر صحف الشمال تطنب فى مدحه وتعده بطلا من أبطال قومه ؟ أو ليست هذه هى النغمة الحلوة التى تحب سماعها ؟ وأى شىء هو أحلى وقعاً فى قلبها من أن ترى نفسها زوج رجل عظيم يعترف الناس بعظمته ؟

وأقبل على المحاماة من جديد فلقد أنفق فى هذا الصراع من المال ما أرهقه من أمره عسرا هذا إلى أنه بانقطاعه عن مهنته طوال تلك الأيام لم يكسب من المال شيئاً ؛ وهـكذا يعود ابن الغابة إلى كدحه ليقيم أوده وأود أسرته بينما يذهب دوجلاس يرفل فى النعمة إلى وشنطون ويجر ذيل الخيلاء السابغ الضافى .

عاد المحامى يكدح من أجل قوته كدحاً شديداً ويأخذ قسطه من النصب مع صديقه هرندن ، وكان قد تركه وحده طيلة ذلك الصراع العنيف ؛ وإن به بعد عودته هذه لحاجة إلى المال شديدة ، فهو اليوم ذو عسرة وليس يطلب المال ليستعين به على الوصول إلى جاه كما يفعل دوجلاس ومن على شاكلته من الناس وإنما ليؤدى به ما تتطلبه أكلاف العيش

وكان من العادات المعروفة فى مجال السياسة أن يكلف ذوو المكانة من السياسيين من أى حزب بدفع قدر من المال لتستعين به اللجنة المركزية للحزب فى الولاية على ما يتطلبه العمل السياسى من أوجه الأنفاق وكتب رئيس اللجنة المركزية للحزب الجمهورى فى إلينويا إلى لنكولن يطلب إليه أن يرسل ما عليه من المال فرد عليه يقول « إنى على استعداد لأدفع على قدر ما أستطيع ... لقد قضيت زمناً طويلا أنفق ولا أكسب شيئاً ، وإنه ليعوزنى المال اليوم فلا أكاد أجده حتى لطالب بيتى ؛ على أنك إذا أديت عنى مبلغ مائتين وخمسين ريالا مما على من دين للجنة فأنى سأحسب هذا المبلغ متى التقينا لنصفى ما بيننا من حساب شخصى ؛ فأذا أضفت إلى ذلك ما دفعته فعلا وأضفت إليه كذلك مكتوباً بدين يحق لى قدمته فأن هذا كله يفوق ما على للحزب وقدره خمسمائة ريال ؛ وإن هذا فضلا عما أنفقته فى المعركة السالفة وما ترتب على دخولى تلك المعركة من ضياع لوقتى وشؤون عملى لخليق أن يرهق من لم يكن له أكثر مما لى من طيبات هذه الدنيا » .

وكانت مارى على ما به من خصاصة لا تفتأ تطلب منه الكثير من المال لتظهر به فى المظهر الذى يليق بما أصبح له من مكانة ، فلن ترضى حتى تشترى عربة جديدة وملابس جديدة وحتى تزيد أبهة البيت وتضيف إليه أثاثاً جديداً ؛ ولقد أدى إليها ثمن هذا كله ولم يتفوه بكلمة فما يقوى على مخالفتها فى هذا وإن اشتد به العسر .

على أنه يقوى على مخالفتها فى أمر غير هذا تطلبه إليه فهى تريد أن تفرق ابنه

وبين صاحبه هرندن لأنها لا تطيق أن يقاسم زوجها ربح المكتب لكل نصفه مع ماله اليوم من شهرة هى فى زعمها أساس الربح فضلا عما هو معروف من ضلاعته وطول عهده بالحرفة ؛ ويأبى أبراهام عليها ذلك مهما يكن من غضبها ، فما كان هو والأمر أمر وفاء بالذى يتنكر لصديق بله هرندن الذى يحبه ويكبره ويتحمس له ؛ ولا تبرح مارى تذكر صاحبه بالسوء فتشير إلى وضاعة منبته فى لهجة ارستوقراطية وتشير إلى إلحاده وإلى أنه يشرب الخمر ، وتقول أنه لا يليق أن يكون مثله صاحباً له ، ولكن زوجها يعرض عن حديثها فى إصرار وقوة ...

وإنه ليفطن إلى أن عودته إلى المحاماة إنما هى إلى أجل قريب ، فلقد خطا فى السياسة خطوة لن يكون بعدها نكوص ؛ على أنه لم يجعل للمحاماة كل همه ، فأن للسياسة اليوم نصيباً كبيراً من وقته ومن جهده فهو يقرأ الصحف قراءة تمعن ليرى ماذا يقول الناس فى مسألة الرق ، ولينظر فى الأمر ليتعرف كيف يتطور وإلى أى متجه تتجه البلاد فيها ، وهو يدعم بنيان حزبه فى إلينوا ويمد له ما استطاع من قوة يمتد بها فى غد ..

على أنه يخشى الفاقة فقد كتب إليه بعض أصحابه ليستأنف طوافه فى البلاد ويخطب الناس فرد عليه بقوله إنه يخشى ألا يجد قوته إذا هو انصرف عن حرفته كما انصرف عنها أثناء مجادلة دوجلاس ..

وعول على أن يجمع خطبه وخطب دوجلاس فى كتاب يذيعه فى الناس ، وفعل ذلك دون أن يزيد على خطبه شيئاً أو ينقص من خطب خصمه شيئاً ؛ فقد نقل كلام دوجلاس من صحف الحزب الديموقراطى كما هى ، وإنه ليعلم أن أصحاب دوجلاس نمقوها وأضافوا إلى مواضع الحماسة فيها ما يزيدها حماسة وحذفوا من مواضع الضعف ما سبب هذا الضعف ؛ وذلك أنه واثق من أن حجته هى العليا وحجة خصمه السفلى لأنه تكلم عن يقين وتكلم دوجلاس عن غرض ... وإنه للقوى الأمين الذى لا يستطيع أن يخادع أو يغش أو يحتال ..

وكان أبراهام يومئذ ممتلئاً نشاطاً وقوة على الرغم من طول الصراع وعنفه بينه وبين دوجلاس وكان الناس يعجبون من قوة بدنه وخفة حركته ونضارة محياه على الرغم مما يعلق به أبداً من أمارات الهم والقلق ؛ ولو أنهم ذكروا كيف

سوته الغابة وكيف بنته يوم كان يهوى بفأسه على شجرها ما داخلهم من بأسه عجب ..

وينظر الناس إليه اليـوم نظرتهم إلى ذى جاه ، ويشيرون إليه فى إعجاب وإكبار ، ويتهامسون أنه لابد مرشح للرياسة بعد أمد قريب ، ولـكنه لا يزداد إلا دعة ولينا فيدل بذلك على أن عظمته هى العظمة الحق تبدو للناس فى أبسط مظهر فتـكون بذلك فى أبهى مظاهرها .

والعظمة الحق كالذهب الحر فى بساطة جوهره وروعة منظره ، ولن يخرج الذهب عن صفته خلوه من الزينة ؛ والنحاس لن يكون إلا نحاساً مهما نقش وزين ؛ والعظيم لا يتـكلف ولا يتصنع ، أما المتعاظم فهو إنما ينبه الناس إلى حقيقة أمره بما يدعى لنفسه من أوجه الـكمال فيرونه صغيراً وإن تـكبر ولا تقع أعينهم منه إلا على مظهر وإن خيل إليه أنه جوهر . .

ولقد كان لنـكولن يفعل الفعل أو يرى الرأى فى أمر من الأمور عن لقانة مدهشة وطبع معجب بكماله ، فإذا رددت فعله أو رأيه إلى ما تواضع الناس عليه من عرف ، وما اتفقت عليه قلوبهم وعقولهم ما وجدت فيه شذوذاً ولا نقصاً ؛ كان فى أعماله وأقواله كالـكوكب فى هذا الفلك الدائر يتحرك وفق نظام فلا يضطرب ولا يتذبذب إلا أن ينفرط عقد ذلك النظام ..

وظل من أحب الأشياء إلى نفسه أن يرفع بينه وبين الناس الكلفة ، فيصاحبهم ويباشرهم كأنه أصغرهم قدراً وله اليوم مكانته وصيته ؛ فإذا غشى مجلساً لهم رآهم يتنحون له عن مكان الصدارة فيأبى أن يجلس إلا حيثما اتفق له ، وإنه ليحب أن يناديه الناس باسمه مجرداً من كل لقب يراد به التعظيم وهو عندهم « أيب الأمين » أو « أيب العجوز » أو هما معاً وهى ألفاظ لها فى أذنه سحر وفى قلبه وقع لأن فيها جمال الصدق وجلال التواضع .

أقام أبراهام فى سبرنجفيلد يكدح من أجل قوته ، ولـكن اسمه ملء الأسماع فى كل مدينة من المدن الـكبيرة وبخاصة فى الشمال ، والصحف لا تفتأ تشير إلى ما كان بينه وبين دوجلاس ، ولا تـكاد تذكر مسألة الرق اليوم إلا مقترنة باسمه ، ثم إن مسألة الوحدة تذكر كلما ذكر الرق ، فقد أخذت تزداد فى الجنوب دعوة

الداعين إلى الانفصال عن الشمال، وكان خصوم إبراهام دائبين على أن يرجعوا إليه وإلى الحزب الجمهورى ما ينذر البلاد من بوادر الفرقة ، ودأبوا كذلك على نعته بالجمهورى الأسود حنقاً عليه وكيداً له ...

وفكر إبراهام فى أن يزيد كسبه من المال بأذاعة بعض المحاضرات ؛ فأعد أول الأمر واحدة شهد صديقه هرندن كيف أعدها فقد رآه كلما جالت بخاطره فكرة أثبتها فى ورقة صغيرة ودسها كما هى عادته فى قبعته حتى تهيأ له موضوع فى « الاختراع والاكتشاف والتقدم » فأذاعه على الناس ؛ ولكنه لم يحس فيه من النجاح ما يحس مثله فى خطبه السياسية ، وما لبث بعد محاولة أو اثنتين غير هذه أن انصرف عن هذا الميدان .

وانهالت عليه الدعوات من مدن كثيرة فى الشمال ليخطب الناس فيها فأعرض أول الأمر عن هذه الدعوات قائلا إنه إن ترك عمله فى المحاماة كما فعل من قبل فسوف لا يجد ما يمسك به صلبه وصلب أولاده .

ولكن خصومه لن يدعوا الكيد له ولن يتوانوا عن تشويه مبادئه ؛ وكان لا يزال يرى فى دوجلاس أخطر خصومه ، لا لما كان بينهما من منافسة ، بل لما كان يمتاز به ذلك الرجل من مكر شديد ومقدرة على أن يخدع الناس فى سياسة بلادهم ليصل من وراء ذلك إلى تحقيق أطماعه الشخصية فهو لا يرعى فى الحق إلا ولا ذمة .

وكأن دوجلاس لم يكفه ما كان بينه وبين إبراهام من جدال فعاد يحمل فى أهايو على الحزب الجمهورى ويقذفه بما شاء من التهم ، وإذاً فإلى الرد عليه من جديد ما من ذلك بد ، وهكذا يعود أبراهام إلى خطبه السياسية ...

ذهب لنكولن نخطب فى كولمبس وسنسناتى راداً على دوجلاس ، وكان مما ذكره فى سنسناتى قوله « إنى أعلن أول الأمر لأهل كنطكى أنى كما يقولون — ولكن كما أفهم أنا — جمهورى أسود ؛ إنى أعتقد أن الرق خطأ خلقى وسياسى وإنى أود ألا تنتشر العبودية من بعد فى هذه الولايات المتحدة ، ولست أعارض إذا وجدته يسير إلى الفناء فى الاتحاد كله » ؛ وقال يخاطب خصوم الحزب الجمهورى « إننا معشر الجمهوريين نذكر أنكم أخيار مثلنا وأنه لا فرق بيننا وبينكم

إلا ما جاءت به الظروف ، ونعلم دائماً ونُخطر فى بالنا أنكم تحملون فى صدوركم قلوباً لها من الطيبة ما لقلوب غيركم من الناس أو مثل ما نزعمه لقلوبنا نحن وعلى هذا الأساس كانت معاملتنا إياكم ؛ ونحن نريد أن نتزوج من بناتكم كلما سنحت فرصة وأقصد البيض منهن ! وإنه ليشرفنى أن أعلن إليكم أنى قد سنحت لى مثل هذه الفرصة مرة .. أفتقاتلوننا وتقتلوننا جميعاً ؟ لماذا أيها السادة ؟ إن ظنى بكم أنكم بواسل أماثل كأحسن ما يكون الناس ، وأنكم قادرون على أن تقاتلوا من أجل غرض سام رجلا لرجل فى شجاعة وإقدام كما يفعل أى قوم غيركم من الأحياء ؛ ولقد برهنتم على أنكم بذلك خليقون فى بعض الظروف ؛ ولكنكم رجلا لرجل لن تكونوا خيراً منا وليس بينكم من هؤلاء الشجعان مثل ما بيننا منهم قوة وعدداً ؛ ألا إنكم لن تضربونا ، فأننا لو كنا أقل منكم عدداً لجاز لكم أن تفعلوا ، ولو كنا وإياكم متساوين لتعادلت كفتا المعركة ، أما وأنتم أقل منا عدداً فأن محاولتكم السيطرة علينا لن تغنى عنكم شيئاً » .

هكذا يسير إبراهام دائماً على نهج من خلقه فيكون مع خصومه دمثاً مهذب الحديث ولكنه لن يرضى أن يكون لين الغمز ضعيف المريكة ؛ يحفل أبداً بأن يقول ما يعتقد أنه الحق فى وضوح ويسر ويحرص أبداً على ألا يسىء إلى أحد أو يستثير غضبه .

وعاد ينتقد ويفند مزاعم دوجلاس فيما يبدىء فيه ويعيد مما سماه مبدأ سيادة الشعب فقال « ما هذه السيادة الشعبية فى حقيقة أمرها ؟ إنها كمبدأ لن يخرج عن أنه إذا أراد أى رجل أن يستعبد رجلا آخر فليس لهذا الرجل المستعبد ولا لأى شخص غيره حق الاعتراض ؛ إن استعباد الغير أمر يبدو هيناً عند عضو الشيوخ دوجلاس ؛ لقد سوته الطبيعة بحيث أن ضربة السوط إذا وقعت على ظهره تؤلمه وإذا وقعت على ظهر غيره لن يحس لها ألماً قط ... إن هذه السياسة التى يجرى عليها بأعلانه هذا المبدأ إنما هى عقبة دائمة فى سبيل الوصول إلى حل لتلك المشكلة ؛ وإنى أعتقد ألا ضرر منها إذا كانت هى السياسة الدائمة للامة كلها لأنها فى مثل تلك الحالة لا يكون وراءها تحيز أو غرض . ليس فى الناس من لا يعنى بشىء ، فما فى الناس جميعاً إلا من يعنى بهذا الجانب من المسألة أو ذاك . أما دوجلاس

فأنه الرجل الوحيد فى الأمة كلها الذى لم يقل ما إذا كان يعد الرق خطأ أم صوابا »

وفيما هو ينافح عن حزبه ويجادل خصومه فى مبادئه إذ وقع فى البلاد من الأحداث والنذر حادث جديد زاد هياجها وكان كالزيت يلقى به على النار ، وذلك هو حادث جون برون . فأن هذا الرجل على كبر سنه قد أعلن الثورة لتحرير الرقيق ، ولقد كانت له قبل ذلك بثلاث سنوات حركة جريئة لنصرة قضيتهم فى كنساس ؛ ولقد عول اليوم على أن يذكى نار الثورة فى البلاد إذ لم يعد يطيق صبراً على هذا الوضع البغيض ؛ وكان أهل الجنوب قد قتلوا ابنه من قبل وباتوا يتربصون به كذلك ليقتلوه ..

خرج هذا الرجل فى ثمانين لا أكثر من الرجال منهم خمسة من الزنوج ، وكان قلبه على رغم شيخوخته يفيض حماسة وقوة ، فأعلن خطته فى جرأة الأبطال واستهتارهم بالموت ، ألا وهى حق كل زنجى فى أن يثور على مالكه فلم يعد أمام الزنوج إلا القوة ..

ولكن جون لم يكد يخطو الخطوة الأولى فى سبيل غايته ويستولى على مركز أراد أن يجعله قاعدة لحركته حتى أحيط به وغلب على أمره ثم حوكم وأعدم ... ولقد قابل الموت بجنان ثابت ونفس مطمئنة ، ولما حانت منيته استنزل فى ثبات وقوة لعنة الله على أعداء الحرية الظالمين ، واغتدى جون بجرأته ثم بميتته هذه بطلا عند دعاة التحرير فى الشمال ، وأخذوا ينظمون الأناشيد فى بطولته ويجعلونه رمزاً لأحرار الشمائل ومثالا يجب أن يحتذيه كل من كان يخفق قلبه بحب الحرية .

ويرى دوجلاس فى هذا الحادث فرصة يحذر أن تفوته ، فيعلن أن ذلك ليس بعجيب فلن تفضى مبادىء الجمهوريين إلا إلى مثله ، ولقد جعل هذا المارد الصغير ديدنه الطعن على الجمهوريين لا تفلته حادثة ولو كانت أبعد ما تكون عنهم كهذه الحادثة التى لا تمت إليهم من قريب ولا من بعيد

وأدرك لنكولن خطر التهمة ، ولو كان غيره مكانه لأخذته مما هوش به المارد الصغير ورطة ولكن صوت الحق لن يضيع فى ضجيج الباطل ، فها هو ذا لنكولن يتلقى دعوة من نيويورك فيلبيها مسرعاً ويلقى هناك خطاباً من أبدع وأبرع ما واتته به عبقريته وفى جمع لم يسبق أن وقف فى مثله ..

تلقى أبراهام الدعوة فى اكتوبر سنة ١٨٥٩ وهو الشهر الذى وقع فيه حادث جون برون بينما كانت البلاد مقبلة على موسم انتخاب رئيس جديد للولايات إذ كانت سنة ١٨٦٠ هى نهاية مدة الرئيس القائم ، وكان انتخاب رئيس الولايات أهم الحوادث السياسية التى تشهدها البلاد ، وإنه لأعظم خطراً اليوم وأبعد فى مصير البلاد أثراً ؛ ذلك أن الانتخاب يقوم هذه المرة على ما يشغل الناس من أمر الرق ومن أمر الاتحاد ؛ لهذا كان ذلك العام نقطة يبدأ منها تاريخ البلاد عهداً جديداً ويتدرج فى مسلك جديد ...

ورغب الناس فى الولايات الشرقية أن يروا لنكولن ، هذا الذى سمعوا عنه أنه من أهل الغرب ، رأى العين ، وأن يستمعوا إليه خطيباً وأن يناقشوه ويتبينوا سياسته ؛ وما تلتفت قلوبهم إليه يومئذ إلا لأنهم أحسوا ما بات له من شأن وخطر

وأجاب لنكولن الدعوة وحدد شهر فبراير سنة ١٨٦٠ لألقاء خطبة ، وقضى الوقت بين تلقى الدعوة واليوم المحدد للسفر فى إعداد تلك الخطبة والتأهب لهذا الموقف الخطير ..

واحتشد لسماعه فى تلك المدينة العظيمة جمع من كبار الساسة وقادة الرأى وذوى الثقافة وأساطين الصحافة ، فكان لهذا الحفل بهم مهابة وجلال وخطر .. واحتشد كذلك عدد هائل من عامة الناس ليروا لنكولن هذا الذى كان يشتغل نجارا أول ما نشأ فما زال يرقى حتى استطاع أن يقف من دوجلاس الشهير موقف الند وأن يظهر عليه فى الخطابة والمجادلة ..

ولقد ارتاع فؤاد أبراهام عندما بلغ مكان الاجتماع وذلك حينما رأى هؤلاء السادة فى ملابسهم الأنيقة ورأى فى وجوههم نضرة النعيم وفى أحاديثهم وتحياتهم روح المدنية ، ولما نهض للخطابة شاهد الناس علامات الحيرة بادية عليه ، فقد كان على غير ما ألِفَ مشغول البال بحلته المتيقة التفصيل والحياكة ، التى تبدو بمقارنتها بما يقع عليه بصره كأنما جىء بها من متحف ، وقد كانت فى الواقع حلة جديدة ولكنها كانت على نمط أهل الغرب فى حياكتهم كما أنها تكسرت من طول وضعها فى الحقيبة .

وتطلع الناس إليه فى دهشة وقد قدمه للخطابة وليم جلن براينت الشاعر

والسياسي والصحافي الشهير الذي ربما كان أبرز شخصية يومئذ في نيويورك ؛ وتقسمت ألحاظ السامعين بين قامته الطويلة وبديه الكبيرتين اللتين تدلان في جلاء على أنهما خلقتا للمعول لا للقلم، ووجهه الصفار المسنون الذي تغشاه سحابة عميقة من الهم، وعينيه الواسعتين اللتين تعبران عن وداعة الأطفال وحماسة الرجال ، وأنفه الأشم الغليظ الذي يترجم عن صرامة عزيمته وقوته في الحق ، وشعره الأشعث الذي يعلو رأسه الكبير في غير نظام كأنه ألفاف الغابة ..

وصفه أحد من شهد الحفل فقال « كان يستقر رأسه على جذع طويل نحيف ، ولم أتبين ما بلغت يداه من الضخامة حتى بسطها في إشارة من إشاراته ، وقد بدأ في صوت عميق أشبه بصوت من اعتاد الكلام في الفضاء الطليق ، ويخشى أن يجهر بصوته وقال مستر تشيرمان واستعمل غيرها من العبارات العتيقة وقلت لنفسي : لن تفلح يا صاحبنا الكهل ؛ إن ما يبدو منك صالح الصلاح كله للغرب البرى ولكنه لن يشاكل نيويورك ؛ وكان من جميع أقطاره أشبه بهؤلاء البسطاء من الناس الذين يسره أن يعد واحداً منهم . ولم يك ثمة شيء أخاذ في مظهره ، وكانت تتهدل ثيابه على هيكله البائن الطول كأنه المارد ، وكانت ملامحه مغبرة شاحبة لا يتردد فيها لون ، غير مستوية ، تحمل أمارات البؤس والحرمان ؛ ولاحت عيناه الغائرتان يملأهما الهم ، ولكنه حين استرسل أخذ يضيء وجهه بما في باطنه من نيران ، وجلجل صوته وعظمت قوة خطابته واتفق له إلى مدى عظيم مثل سهولة الإنجيل البالغة ؛ وكان يسود المكان صمت عميق بينما كان يتكلم حتى لقد كان يسمع إذا سكت هسيس الغاز منبعثاً من ثقوب المصابيح ، فإذا تحمس السامعون دوت في جنبات المكان رعود قاصفة من الاستحسان ، ولما فرغ من خطابه وثبت على قدمي وصرخت كما يفعل هندي مجنون وفعل بقية الناس مثل فعلي . إنه لشخص مدهش » .

بهذه الموهبة التي منّ الله بها عليه استطاع ابن الغابة الذي علم نفسه بنفسه والذي لم يدخل قط مدرسة أو جامعة ، أن يسحر السامعين في دنيا الحضارة ، في نيويورك العظيمة وأن يحمل على الأعجاب بشخصه والافتتان به الألوف من ذوي الثقافة والمدنية ؛ هذه هي العبقرية إذ تستعلن في مظهر من مظاهرها ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ..

ولقد عد خطابه هذا من أبلغ الخطب السياسية فى تاريخ أمريكا كله ؛ قال عنه جريلى وهو الذى رأيناه منذ عامين يدعو لدوجلاس ويتمنى انضمامه إلى الجمهوريين « ما من رجل استطاع أن يبلغ بخطابه لأول مرة ما بلغه لنكولن من عظيم الأثر فى جمهور السامعين فى نيويورك » .

عاد لنكولن فأوضح خطة الحزب الجمهورى وموقفه من الرق فأتى بما لا يدع مجالا بعد ذلك لدسائس خصومه ، ثم استنكر ما فعله جون برون وأعلن براءة الحزب الجمهورى منه إلى أن قال فى هذا الصدد « لا يمكننا أن نعارض فى الحكم على جون برون جزاء خيانته ولاية من ولايات الاتحاد ؛ لا يمكننا أن نعارض فى ذلك ولو أنه يوافقنا فيما يراه من خطأ الرق ، فأن ذلك لا يبرر العنف وسفك الدماء والخيانة » .

ومما قاله عن الجنوبيين عبارته هذه التى توضح أسلوبه فى الجدل؛ قال« إنكم كما تقولون لا تطيقون انتخاب رئيس جمهورى لأنكم إن فعلتم ذلك قضيتم على الاتحاد ثم إنكم لتلقون فى هذه الحال تبعة انهيار الاتحاد على عاتقنا ؛ مثلكم فى ذلك كمثل قاطع الطريق الذى يصوب غدارته إلى رأسى ثم يتمتم بين أسنانه : قف وأعط ما معك وإلا قتلتك فتكون أنت المسئول عن جريمة القتل ! »

وأقبل عليه الناس يهنئونه بما ظفر من توفيق فى هذا الحفل المشهود ويعلنون إليه حبهم وولاءهم وإعجابهم بعبادته ، ولقد طار صيته بهذا الخطاب على نحو لم ير مثله من قبل .

وأخذ يحس الناس أنه الرجل الذى تجتمع عليه القلوب والأهواء ؛ ورأى بعض الصحف تتحدث عن احتمال أن يكون هو مرشح الجمهوريين للرياسة فى الانتخاب الذى يحل ميعاده فى صيف هذا العام ؛ وقبل ذلك بأسابيع قليلة نشرت بعض الصحف أسماء أربعة وثلاثين من مشاهير الساسة الذين يمكن أن يطمحوا إلى الرياسة فلم يك من بينهم اسم إبراهام لنكولن .

وسافر لنكولن من نيويورك إلى نيوإنجلند قبل عودته إلى سبرنجفيلد ليزور ابنه الأكبر روبرت وكان يتلقى تعليمه فى مدرسة هناك ، وكان يسأله الناس أن يخطبهم فى بعض الأماكن وقد ذاع فيهم اسمه فيفعل ويعلائهم إعجاباً به ومحبة له ،

وفى اليوم السادس من شهر مارس خطب خطبة قوية فى نيوهفن جاء فيها عن الرق وأنصار الرق « إن الشخص الذى يقتنى الرقيق لا يحب أن يعد شخصاً وضيعاً بسبب تملكه هذا النوع من الملك ، وعلى ذلك يقوم صراع بينه وبين نفسه ولا يزال يجهد فى إقناع نفسه بأن الرق صواب ، وذلك لأن الملك يؤثر على عقله ... تناقش مرة أحد أحرار الفكر من رجال الكنيسة مع آخر ممن يتمسك بآراء الكنيسة فكان هذا يجيبه دائماً : لست أرى ذلك كذلك ؛ ففتح الأنجيل وأراه عبارة ولكنه أجابه : لست أرى ذلك كذلك ؛ فعمد إلى كلة واحدة وسأله هل ترى هذه الكلمة فقال نعم أراها ، فوضع الفكر الحر جنيهاً فوق الكلمة وسأله : هل تراها الآن ؟ وهكذا الحال فأن من يتملكون هذا النوع من الملك هم الذين يقررون ما إذا كانوا يرونه فعلاً على حقيقته ؛ ولكنهم فى الواقع يرونه خلال بليونين من الدولارات وهذا غطاء كثيف ؛ ومن المؤكد أنهم لا يرونه كما نراه نحن »

وتحدث لنكولن إلى هرندن بعد عودته إلى سبرنجفيلد عما لقيه من نجاح فى نيويورك ، ويقول صاحبه إن هذا النجاح قد زاد ثقة إبراهام فى نفسه زيادة كبيرة حتى ليظنه يومئذ يطمح إلى أعلا منصب فى البلاد ويراه قريباً منه ؛ ويعجب هرندن من طيب قلبه إذ يراه بعد أن يقص عليه أنباء الاحتفال وإقبال الناس عليه بعده وتهافت الصحف على خطابه وثناء كبريائها عليه ، يشير وعلى شفتيه ابتسامة وفى عينيه وملامحه أمارات الخجل إلى ما كان من أمر حلته وغرابة هيئتها وما لاقاه من ضيق أثناء خطابه كلما فكر فيها وقارن بينها وبين ما تقع عليه من حلل فى هذا الحفل ، بله ياقته فقد كان نصفها الأيمن يثب إلى أعلى كلما رفع ذراعه بأشارة فتظهر جزءاً من عنقه بينه وبين القميص ، ويضحك لنكولن ضحكة يخالطها شيء من الاستخزاء كأنما يريد أن يقول أنى لمثله أن يكون له مكان بين هؤلاء السادة فضلا عن مكان الرياسة ومقعد الزعامة ، وإن حاله الآن ليشبه إلى حد ما حالته يوم كان يستخزى كلما فكر فى زواجه من مارى ...

فالق الأشجار . . !

وثق أبراهام من نباهة شأنه عند الناس واستفاضة شهرته فحدثته بالأماني نفسه ، وحدثته كذلك بالعبء الجسيم إذا قدر لتلك الأماني أن تتحقق ..

وكان أبراهام في الحادية والخمسين من عمره في سنة ١٨٦٠ وهي السنة التي كانت تتأهب فيها البلاد كما سلف القول لانتخاب رئيس جديد ؛ وكان الانتخاب في هذه السنة أمراً بالغ الخطورة لصلته بمصير الاتحاد كله ، أيبقى كما هو أم ينصدع فإذا به شمال وجنوب

وكان الحزب الجمهوري الذي يعد أبراهام اليوم من أبرز رجاله أقوى الأحزاب نفوذاً وأعزها نفراً إذ كانت مبادئه أقرب من غيرها إلى جمهرة الناس في الشمال ، فهو يحول دون انتشار الرق وإن كان يرعى جانب الدستور في كل ما يقول أو يعمل ...

وأخذ الجمهوريون يستعدون للمعركة القادمة فامتلأت صحفهم بفيض أقلامهم ، وماجت كبريات البلاد في الشمال بمظاهر نشاطهم ومعالم استعدادهم

ولبث أبراهام في سبرنجفيلد خائفاً يترقب ، وأي شيء أدعى إلى الخوف عنده من تصدع الاتحاد؛ فلئن فاز أحد الجمهوريين بالرياسة فماذا يكون موقف أهل الجنوب؟

وماذا يكون الحال لو فاز هو بالرياسة ؟ طفق أبراهام يسأل نفسه هذا السؤال فتجيبه نفسه أو تسأله سؤالا آخر أواثق هو من ترشيح حزبه إياه حتى يفكر في الرياسة ؟ ..

وماذا عسى أن يحول بين الحزب وبين أن يرشحه ؟ إن نفسه لا تفتأ توحي إليه أنه مرشح الجمهوريين في الانتخاب القادم ؛ وكلما استبعد ذلك هجس في نفسه هاجس لا يتبينه ولا يجهله فيملأه ثقة وأملا بأنه الرجل الذي سوف تجتمع عليه القلوب . .

ولم يقنع أبراهام بانتظار ما عسى أن تأتي به الأيام ، فشمر عن ساعديه يدعو لنفسه ولكن بين خاصته ومحبيه وذلك بكتبه إليهم وأحاديثه معهم؛ أما إذا

سأله من لا يطمئن إلى إخلاصه هل يطمح إلى الرياسة رد عليه فى تواضع وكياسة بما لا يدع مجالا لاتهامه بالتطلع ولا بالأحجام ؛ نجد ذلك فى رده هذا « إننى إذ أتذكر ما يكون عليه حال رجل ليس بالعظيم جداً حين يذكر اسمه ليشغل منزلة عظيمة جداً ، وما يصيب رأسه إذ ذاك من دوار ، أصارحك أنى لست أليق شخص لأجابتك على ما سألتنيه من سؤال »

وكان فى الحزب الجمهورى رجلان يخشى أبراهام منافستهما إياه ؛ أولهما هو سيوارد حاكم نيويورك السابق ، وهو من أقدم رجال الحزب ومن أوسع الناس ثقافة ومن أعظم السياسيين جاها ، فضلا عن أن كرهه للرق ونضاله ليحول دون انتشاره لا يقل عما بذل أبراهام من جهد فى هذا السبيل ؛ وثانيهما تشيس حاكم أهايو وهو كصاحبه ثقافة وجاهاً ولعله أعرق منه فى محاربة الرق ؛ وكانا كلاهما عضوين فى مجلس الشيوخ ومن أساطين القانون والمحاماة ...

وكان أبراهام يرجح أن يختار أحدهما لولا ذلك الصوت الذى يهجس فى نفسه فيحس أنه هو المختار على الرغم مما يبدو له من رجحانهما ؛ وكان صديقه هرندن يستبعد أن يكون أبراهام هو المرشح قال فى ذلك « لم يكن أبراهام ذا مال. وكان يعوزه أى تنظيم لأموره مهما يكن نوعه ، وكان لسيوارد ذلك كله ومن ورائه سجل راق فى مجلس شيوخ الاتحاد ، به يبهر عيون أتباعه »

وكان يشعر الناس أن مرشح الجمهوريين هو الفائز فى المعركة بالرياسة ، لذلك كان اتفاقهم على رجل هو كل شىء بالنسبة إلى هذا الرجل إذ لا يبقى بينه وبين الرياسة بعد ذلك إلا خطوة ...

وفى ربيع ذلك العام الفذ عقد الجمهوريون فى ولاية إلينوى مؤتمراً لينظروا فى نشر الدعوة لأبراهام فيما يصل إليه سعيهم من الولايات ليحظى بترشيح الحزب إياه فى مؤتمره العام الذى سوف ينعقد عما قريب ليختار رجله لمعركة الرياسة.

وعقد المؤتمر التمهيدى فى مدينة ديكاتور ، وهناك اشتدت حماسة المؤتمرين لأبراهام فما تهتف الألسن إلا به وما تحنو الجوانح إلا عليه ؛ والخطباء يتعاقبون على المنصة متنافسين فى الثناء عليه والدعوة له

ولم يكد يلمح المؤتمرون أبراهام يدخل الباب ويطلع عليهم بقامته الطويلة ،

مرشح الحزب الجمهوى سنة ١٨٦٠

حتى وثبوا واقفين مصفقين وما منهم إلا من ينافس جاره فى الهتاف ؛ وما سكنت ريحهم حتى عاودوا الهتاف والتصفيق وهم أكثر حماسة وأروع مظهراً مما كانوا ؛ وظلوا على تلك الحال لا يسكتون إلا ليعودوا إلى هتافهم وتصفيقهم حتى ليظن من يراهم أنهم لن يسكتوا أبداً

وبينما هم فى جلبتهم وضوضائهم إذ سمعوا خارج المكان ما زاد على ضوضائهم جلبة وضوضاء فأطلوا يستطلعون فأذا بموكب كبير يذهب فيه البصر من ها هنا ومن ها هنا إلى آخر ما يمتد ، تختلط فيه أصوات الهاتفين بألحان الموسيقى ؛ ونظروا فأذا فى مقدمة هذا الموكب علم منشور على قطعتين شوهاوين من الخشب شد إليهما بأشرطة ما بين حمراء وزرقاء وبيضاء ؛ وكان يحمل العلم جون هانكس ابن عم أبراهام وهو يهتف من أعماق نفسه لأبراهام فالق الأشجار وشاق الأخشاب ، ووقف يخطب الناس فقال إن هاتين القطعتين شقهما أبراهام بنفسه بين ثلاثة آلاف غيرها قطعتها فأسه فى الغابة أيام كان صبياً يمين أباه ؛ وكان أبوه أحد الطلائع الذين افتتحوا الغرب وتعرضوا للمهالك من أجل وطنهم وطلب إلى الجمع أن يهتف باسم أبراهام شاق الأخشاب ؛ وسرعان ما ذهبت هذه الكلمة فى الناس فصار لا يذكر أبراهام بألقابه السالفة وأصبح عند الجموع شاق الأخشاب

ووقف أبراهام مأخوذاً بما يرى من حماسة الناس لهذا الاسم الجديد ؛ وفى وجهه دلائل الشكر والرضاء عن ابن عمه ، ولكن فيه كذلك ما يشبه الأنكار ؛ وتجمع الناس حوله فأطل عليهم قائلا « أظن أنه يجب على أن أقول شيئاً حول هاتين الخشبتين ؛ لقد كان ذلك منذ زمن بعيد ، ومن الممكن أن أكون أنا الذى شققتهما بيدى بيد أنى لا أستطيع أن أتعرفهما ... وكل ما أستطيع قوله هو أنى شققت من الأخشاب كثيراً غيرها أحسن منها مظهراً »

واشتد تصفيق الجموع لهذه الكلمة ، فما تخذل الأمانة أبراهام فى موقف مهما هان ، فها هو ذا لا يشايع ابن عمه لأنه لا يستطيع أن يقطع بصحة دعواه ، كما أنه لا يحب أن يخزيه ولذلك يجعل الأمر فى حكم الممكن فحسب ويؤكد بأنه شق عدداً عظيما من هاتيك الأخشاب ؛ ويعجب الناس بمثل جديد لصدقه وأمانته واستقامة طبعه ، وهو عندهم منذ عرفوه أيب الأمين ، ولكن لقبه الجديد أشهى

إلى نفوسهم وأجل وقعاً فى قلوبهم ؛ فما هو إلا أن سمعه الناس حتى ألفوه كأنهم عرفوه من قديم ، وما كاد ينقضى أسبوع على النطق به حتى ذاع فى البلاد أمره فما يذكر الناس أبراهام إلا بقولهم شاق الأخشاب ..

وأثر هذا الاسم أثراً بعيداً فى نفوس الناس ، وازداد وضوحاً فى نفوسهم ما كان يحمله اسم أبراهام من معنى إلى تلك النفوس فهو من الشعب بل ومن أعماق طبقاته وبذلك فهو رمز لإرادة الأمة ، وفى اختياره للرياسة تأكيد لرغبة محببة إلى النفوس ألا وهى أن الناس جميعاً سواسية فلا يصح أن يتفاضلوا إلا بالمكارم .

وما كان يدور بخلد أبراهام وهو يشق تلك الخشبات فى الغابة منذ نحو ثلاثين سنة ليشترى بثمن الآلاف منها سروالا أنها سوف تجدى عليه مثل هذه الجدوى؛ وما كان يدرى أن ابن عمه يملك له هذا الصنيع الذى يصغر حياله كل صنيع ..

كان الجمهوريون يتخذون الأهبة لمؤتمرهم العام فى مدينة شيكاغو ؛ فلندعهم حتى ننظر ماذا كان من أمر الديموقراطيين فى هذه السنة المشهودة ..

كان الحزب الديموقراطى قد هان على الناس أمره وذلك بانقسامه وتنازع رجاله ، ففريق من أهل الجنوب يكرهون اليوم دوجلاس لما كان منه أيام مجادلته لنكولن ؛ أو لم يصرح بأن لكل ولاية الحق كل الحق أن تقضى على الرق فيها متى شاءت ذلك فوقع بتصريحه هذا فى حبائل خصمه ؟ ثم إن فريقاً من الديموقراطيين فى الشمال قد كرهوا منه معارضته الرئيس بيو كانون فى دستور كنساس حتى لقد فكر بعض الجمهوريين فى ضمه إلى حزبهم ، وإنه ليجنى اليوم ثمار غرسه وهل كان له أن يجنى من الشوك العنب ؟ لذلك فشل الديموقراطيون إذ حاولوا أن يجمعوا أمرهم على رجل ، وانفض مؤتمرهم الذى عقد فى شهر أبريل فى مدينة تشارلستون والخلاف بين الشماليين من رجال الحزب على أشده إذ كان يريد أهل الشمال من الديموقراطيين أن ينعقد الأجماع على دوجلاس ؛ وتعددت بعد ذلك مؤتمرات الديموقراطيين ولكن ظلت قلوبهم شتى ؛ وانتهى الأمر أخيراً بأن انقسموا فريقين اتفق أحدهما على دوجلاس واتفق الآخر على بركنريدج ، وكان هذا الانقسام فى صفوف الديموقراطيين من أكبر أسباب ضعفهم وفشلهم ...

ونعود إلى الجمهوريين فنقول إنهم كانوا يعدون العدة لمؤتمرهم العام وقد اختاروا

له مدينة شيكاغو وكان الرأى السائد أن سيوارد هو الفائز بترشيح الحزب إياه ؛ وكانت أكثر الصحف فى الشرق تكاد تجزم بهذا ؛ وكان سيوارد واثقاً من ذلك ولهذا لم يكترث لما يشاع عن شهرة لنكولن ومحبة الناس إياه لأنه كان يعتقد أنه مهما يكن من أمره فلن يصل إلى مطاولته فهو رجل الحزب وزعيمه الحقيق .

وفى شهر مايو احتشد فى شيكاغو أربعون ألفاً من الجمهوريين ليشهدوا هذا المؤتمر العظيم ، وجاء من نيويورك عدد كبير من أنصار سيوارد من خاصة الناس ومن عامتهم ، وجاء من إلينوى عدد مثله من أصحاب لنكولن ومحبيه ...

وانعقد المؤتمر من رجالات الحزب وزعمائه من كل ولاية ولم يحضره لنكولن بل ظل فى سبرنجفيلد ينتظر أنباءه ، وضاق مكان الاجتماع بشهود المؤتمر وضاق بهم الطريق أمامه ...

وتدارس المؤتمرون طويلا فى المبادىء أولا فلم تخرج عما أوضحه أبراهام فى خطبه وأحاديثه فالمؤتمرون لا يقرون انتشار الرق بعد اليوم ويحبون أن ينقرض فيذهب إلى غير عودة ؛ وتقدم مندوب من أهايو يدعى رجدِنْج فاقترح أن يضيف المؤتمر إلى قراره تلك المادة من مواد إعلان استقلال أمريكا التى تشير إلى أن الناس ولدوا أحراراً ؛ وخاف بعض رجال المؤتمر أن تحمل هذه العبارة على التطرف فى مسألة الرق فيظن بعض الناس أن الجمهوريين قد باتوا من حزب التحرير بالقوة ، ولذلك أوشكوا أن يرفضوا الاقتراح ؛ حتى نهض من المؤتمرين رجل فصيح هو جورج كيرْتِس فحمل بفصاحته المؤتمر على قبوله ودوت جنبات المكان بالتصفيق الشديد وجاوبه الناس خارج المؤتمر بتصفيق مثله ...

وجاء بعد ذلك دور الترشيح فنهض أحد مندوبى نيويورك وقدم اسم وليم سيوارد ؛ ونهض على إثره أحد مندوبى إلينوى وقدم اسم أبراهام لنكولن ، ثم ذكرت أسماء خمسة أشخاص غيرهما قدم كلا منهم مندوب ؛ ولكن الحماسة والتصفيق كانا لسيوارد ولنكولن فحسب ...

وتأهب مندوبو الصحف ليدونوا ما يريدون تدوينه أثناء الانتخاب وكثر عددهم فى القاعة ونشط أصحاب سيوارد جيئة وذهاباً كما نشط أصحاب لنكولن ؛ وجلس على سطح القاعة رجل ظل يرقب من نافذة فيها ليعلن النتيجة للمجتمعين

خارجها متى أعلنت ؛ وتأهب المكلفون بالرسائل البرقية من جانب الصحف فى طول البلاد وعرضها ليسرعوا إلى مكاتب البريد ليبرقوا لجرائدهم ... وبدأ الانتخاب والناس عالقة أنفاسهم وكأن عليهم الطير مما سكنوا ...

والقوم خارج القاعة يموج بعضهم فى بعض وهم يتساءلون لمن يكون النصر ، فيؤكد هذا أن النصر لسيوارد فى إشارة حازمة ولهجة جازمة فيقبل عليه جماعة منهم فرحين ؛ ويصيح ذاك بل النصر لفالق الأخشاب فيتهافت عليه كثيرون ...

وكان إبراهام أثناء ذلك جالساً فى قاعة أحد أصحابه من رجال الصحافة فى سبرنجفيلد ، وكان القلق يساوره أحياناً فهو يقول لصاحبه « إنى اعتقد يا صديقى أنى سأعود ثانية إلى المحاماة وأعمل عملى فى القانون » ثم يعاوده الأمل حيناً ويخالجه الشك حيناً كما يحدث عادة فى مثل هذه الأحوال إذ ينتظر المرء عاقبة أمر يهمه ، وأى أمر أهم من ذلك الذى كان يتوقع أبراهام عاقبته ؟ إنه اليوم فى مفترق الطرق من حياته فإما إلى رسالته وإما إلى حرفته ...

وطال به الانتظار حتى كاد أن يسأم فلينصرف إلى القراءة ، وكان ديوان شعر لبيرنز هذا الذى يقلب صفحاته ، وكان يقرأ كما يقرأ المرء فى مثل تلك اللحظات بعينيه أكثر منه بعقله ؛ ثم يدع الكتاب حيناً ليفكر وليتنازع فؤاده الشك واليقين

والمؤتمر منصرف إلى عمله فى شيكاغو يفتتح فى تاريخ البلاد فصلا جديداً سوف يترتب عليه كل ما يليه من فصول ...

وتعلن نتيجة الدفعة الأولى للولايات فإذا سيوارد يزيد على أبراهام بسبعين صوتاً وصوت فيهتف أنصار سيوارد ويتصايحون ويكتئب أصحاب إبراهام ؛ ثم تعلن الدفعة الثانية فإذا أبراهام لم يبق بينه وبين سيوارد سوى ثلاثة أصوات ، ويسود الصمت فى جنبات المؤتمر ؛ وشخصت الأبصار وخفقت القلوب وتأهب رجال الصحافة لتلقى النبأ الأخير فى الدفعة القادمة القول الفصل ؛ وما هى إلا لحظة ثم يرتفع صوت باسم لنكولن فتهب فى القاعة عاصفة هائلة من الهتاف والتصفيق يجاوبها خارجها عاصفة أشد منها قوة وأطول أمداً إذ يظل الناس يتعانقون ويتصايحون ويقذفون بقبعاتهم فى الهواء ويتواثبون ويرقصون زهاء ربع الساعة كأنما مسهم طائف من الجنون ...

وأبراهام فى غرفة صاحبه فى سبرنجفيلد يوجس خيفة فى نفسه طوراً ويثق فى

النصر طوراً وحوله جماعة من أنصاره ينتظرون كما ينتظر ؛ وبينما هم كذلك إذ أقبل شاب من مكتب البرق يحمل رسالة يطفر بها كما يطفر العصفور من شدة فرحه وهو يهتف باسم أبراهام ويقبل عليه بالنبأ السار ثم يهيب بالحاضرين أن يهتفوا ثلاث مرات لأيب الأمين رئيس الولايات القبل . .

ويقبل على أبراهام صحابته وفى مآقيهم دموع الفرح وعلى ألسنتهم ما لا يفى بالتعبير عما فى قلوبهم من معان وهو منشرح الصدر مثلج الفؤاد ولكنه واقف بينهم معقود اللسان لا يدرى ماذا يقول ، لأنه لا يجد من الكلام ما يفصح عما فى نفسه ، وبعد لحظة يقول لهم « إن امرأة صغيرة قصيرة هنالك فى بيتنا يسرها أن تعلم هذا النبأ » ، يقول ذلك ويمضى مسرعاً إلى مارى فيفضى إليها بأجل وأبهج ما انفرجت عنه أمامها شفتاه .

وجاء وفد من قبل الحزب ينبئه رسمياً بظفره بترشيح الحزب إياه ، وتلقى أبراهام وزوجته الوفد فى دارهما ، وقد أعدت مارى العدة لهذا اللقاء فعنيت قبل كل شىء بما ينبغى أن يحرص عليه زوجها فيما يتصل بملابسه وفيما يتصل بقواعد المائدة وما إلى ذلك مما يليق بمن سوف يكون فى غده رئيس الولايات المتحدة ، وقطع أبراهام على نفسه العهد ضاحكا أن يكون كما تحب ؛ ثم أعدت مارى من ألوان الطعام ما تكرم به الضيوف ؛ وأرسل بعض أصحاب أبراهام إليه وإلى زوجته زجاجات خمر كى يشرب منها رجال الوفد ، ولكن أبراهام ردها إليهم جميعاً معتذراً بأنه لا يشرب الخمر ولا تدخل الخمر بيته فلا محل لأن يقدمها لضيوفه ..

وأعجب رجال الوفد بالرئيس المنتظر فما برحوا داره إلا وقد ارتبطت قلوبهم بقلب ذلك الرجل العظيم فهم وإن رأوه بسيطاً فى كل شىء حتى لا يختلف فى شىء عن عامة الناس يحسون أن فيه ما يرفعه درجات فوق الناس ويستبشرون به وينقلبون إلى حزبهم فرحين .

ويكتب أبراهام رده ولكن قبل أن يرسله إلى الحزب يذهب إلى معلم من معلمى المدينة فيرجو منه أن يقرأ كتابه ليرى إن كان خالياً من الخطأ النحوى فأنه كما يقول للمعلم غير متمكن من النحو ، فيقع المعلم على غلطة فيصلحها ويذكر القاعدة لرئيس الغد فينصت كما ينصت التلميذ ، وينطلق أبراهام بكتابه وإنه ليسأل نفسه لم لم يتعلم النحو ويتقنه كما تعلم القراءة وأتقنها أيام كان يشق بفأسه الأخشاب .

لبث أبراهام نحو أربعة أشهر فى سبرنجفيلد ينتظر موعد الانتخاب للرياسة ؛ وأقام فى المدينة هذه المدة فما عهد عليه أحد من أهلها أنه تغير أدنى تغير عما كان عليه ، فهو فى الناس فرد منهم وإن كان بسبيل أن يذهب عما قريب إلى البيت الأبيض

وظلت سبرنجفيلد أياماً فى ابتهاج ومرح وأبراهام يلقى الوفود فى داره خافضاً لهم جناحه باذلا من الود والحب أكثر مما يبذلون وهم معجبون برجلهم الذى هو اليوم مناط آمالهم وموضع مجلتهم يعجبون منه بكل شىء وبخاصـة ذلك التواضع الذى يبدو الآن رائع الجلال باهر الجمال .

وكان أبراهام فى تلك الأيام كثير الصمت يطيل التأمل والتفكر أحياناً أكثر مما كان يفعل من قبل ؛ ولقد أحاط الناس بداره ليلة مجىء ذلك الوفد وطلبوا إليه أن يخطبهم فأطل عليهم بعـد إلحاح منهم فقال وهو الخطيب الذى يفيض كما يفيض السيل « أى مواطنى ! توجد لحظات فى حياة كل سياسى يكون خير ما يفعل فيها أن يحتفظ بشفتيه مضمومتين ؛ وإنى أحسب أن مثل تلك اللحظات قد حانت الآن بالنسبة إلىّ » ولم يزد على هذه الكلمة شيئاً على الرغم من تحمس الناس لسماعه . .

ولمـا ضاقت بالوفود داره جعل لقاء الناس فى قاعة من قاعات مقر الحكم فى المدينة ، لا يرد عن مجلسه أحداً ولا يأخذ الحيطة من أحد ، فإذا سأله شخص عن أمر فى السياسة ناقشه فى هدوء أو أعطاه نسخة من مجموعة خطبه ؛ وهو يذهب بنفسه إلى مكتب البريد فيحضر رسائله المتعددة التى تأتيه من كل فج فيفضها ويقرؤها ويرد على ما يتطلب الرد إما بيده أو بيد كاتب اتخذه له منذ قريب

وظل أياماً طويلة يلقى أخلاطاً من الناس فمن معجبين بشخصه محبين له إلى مستطلعين يحبون أن يروا أبراهام لنكولن ذلك الذى اختاره الجمهوريون وآثروه على سيوارد ، إلى صحفيين يريدون أن يوافوا صحفهم بكل ما يستطيعون من نبأ عن ذلك الرجل الذى يشغل الحديث عنه أذهان الناس ويملأ مجالسهم فى طول

البلاد وعرضها ؛ وكم كان يبتسم ابن الغابة ابتسامة السخرية من غرور الحياة إذ تقع عيناه فى صحيفة على مثل قول أحد الصحفيين : إنه لا يعيش كما يظن بعض الناس عيشة الأوساط أو أقل منهم ، فأن له بيتاً جميلا ، وإنه يرتدى ملابس جيدة التفصيل ، وإن امرأته تتكلم الفرنسية فى طلاقة ، وإن له ابناً فى جامعة هارفارد .

ولبث فى سبرنجفيلد لا يأبه لما يتقول عليه أعداؤه ويرتاح لما يثنى به عليه أولياؤه ، وقد وقع فى نفسه أحسن وقع ما كتبه سيوارد عنه ، فقد طلبت إليه إحدى صحف نيويورك أن يكتب كلمة عن أبراهام ليعرفه لمن يجهله من الناس فأن كثيراً من الولايات الشرقية لا يعلمون عنه إلا اليسير ، وضرب سيوارد مثلا طيباً فكتب يثنى على إبراهام ويصف خلاله ويهنىء البلاد باختيار حزبه إياه ويتمنى له الفوز فى المعركة الأخيرة .

ووقع فى نفسه كذلك موقعاً طيباً ما سمعه عن دوجلاس خصمه العنيد فقد قال دوجلاس عند ما علم باختيار حزبه إياه إن الحزب قد اختار فى الحق رجلا قوياً جد قوى أميناً حق أمين ، وقال يصفه لأحد أصدقائه « إنه من أقدر الرجال فى الأمة كلها »

وما فتئت الكتب تلقى إليه من أنحاء البلاد تحمل إليه التأييد والأعجاب وإن كان بينها عدد كربه جاءه من خصومه ينطق بكراهتهم إياه ويسمعه تهديدهم ونذرهم .

ومن أجمل ما جاءه من الكتب وأعجبها كتاب جاءه من بنت صغيرة تستفهمه فيه عن أسرته وتطلب إليه أن يطلق لحيته ؛ ولقد رد عليها إبراهام بكتاب قال فيه « أى فتاتى الصغيرة العزيزة : تلقيت كتابك الجدير جداً بالقبول المؤرخ فى ١٥ أكتوبر سنة ١٨٦٠ ، وإنى لآسف أن أرانى مضطراً إلى إخبارك أنه ليس لى ابنة ؛ إن لى ثلاثة بنين عمر الأول سبعة عشر عاماً والثانى تسعة والثالث سبعة ، ومن هؤلاء وأمهم معهم تتألف أسرتى كلها . أما عن إطلاق لحيتى أفلا ترين ، ولم تكن لى من قبل لحية ، أنى إذا أطلقتها الآن إنما آتى بذلك ما يعد ضرباً من التكلف السخيف ؟ ... هذا وإنى لك الصديق الوفى المخلص ؛ ا . لنكولن »

وسخط الناس فى الجنوب على اختيار رجال حزبه إياه ، وأصابهم من ذلك

كرب شديد وضيق وراحت صحفهم تناله بفاحش الهجاء ؛ فهو تارة الجمهورى الأسود ، وآونة فالق الأخشاب الجاهل الذى هو بسبيل أن يفلق الاتحاد ، وأحياناً الرجل الذى لا يحسن إلا النكات الخشنة السفة وطوراً الشبيه بالغورلا ؛ وهو يقابل ذلك كله بالصبر الجميل مترفعاً ترفع الكرام عن جهل اللئام .

ولم يحدث منذ نشأة الولايات المتحدة أن قامت العداوة والبغضاء بين أهل الجنوب وأهل الشمال كما قامت بينهما عقب اختيار الجمهوريين أبراهام لنكولن .

وهبت من الجنوب الشائعات بالنذر ، فلقد ازدادت الدعوة إلى الانسحاب من الاتحاد ، وإلى إعلان التمرد والعصيان إذا قدر أن ينتخب لنكولن رئيساً للولايات ؛ ونمى إليه فيما نمى من الأنباء أن أهل الجنوب يطاردون بالقوة كل من يدعو إلى تحرير العبيد فى ولاياتهم ؛ وكتبت صحف الجنوب تندد بدعاة التحرير من أهل الشمال ، وقد غاظ الجنوبيين أن ينظر خصومهم إلى الرق نظرة خلقية إذ أنهم بذلك يعرضون بهم ويريدون أن يقولوا إنهم قوم بعيدون عن الإنسانية ؛ وأخذت تلك الصحف الجنوبية تنكر على الشماليين ما يزعمون لأنفسهم من نبل فهم فى رأيها قوم يتظاهرون بالسمو فى حين أنهم أجلاف ليس فيهم إلا كل متكلف كثير الادعاء .

على أن أعظم ما أزعج أبراهام يومئذ ما أفضى به إليه قائد من القواد من أنهم فى الجنوب يعدون معدات القتال ! لقد ارتاع أبراهام لسماع ذلك وأحس بميل شديد إلى معرفة كل شيء ولكنه يشعر ولم ينتخب للرياسة بعد ، أن ليس له أن يسترسل فيما هو فيه من استطلاع فيطلب إلى محدثه أن يتبين قبل أن يزيده علماً ، فإذا لم يكن فى الأفضاء بما يعلم خيانة فليفض به وهو يترك له تقدير ذلك .

ولم يقتصر الأمر على الجنوب فإن فى الشمال قوماً يخيفهم أن ينتخب أبراهام ويرون أن المسألة لم تعد مسألة الرق فحسب بل هى اليوم مسألة الاتحاد وهل يظل قائماً أم ينهار بناؤه ؛ وإنهم ليخافون ما تنذر به الأيام فهاهم أولاء بعض المدينين من تجار الجنوب يرفضون أن يدفعوا ما عليهم لدائنيهم من أهل الشمال ، والأسعار فى جميع عروض التجارة آخذة فى الارتفاع ، وكثير من الناس يكرهون أن يسمعوا ما يقال عن الرق ويضيقون بقضيته ذرعاً حتى لقد فض

فريق من أهل بوستن بالقوة اجتماعاً عقده بعض أعداء الرق ؛ وبعض ضباط الجيش يعلنون فى غير حرج أنه إذا انتخب لنكولن رئيساً للاتحاد فسوف يتخلون عن مناصبهم ويذهبون إلى الولايات الجنوبية ...

ولا يخفى كثير من كبراء الجمهوريين أنفسهم مخاوفهم من اختيار لنكولن فى مؤتمر شيكاغو ، ويرون فى ذلك نذراً سوداء تقض مضاجعهم وتقلق بالهم ؛ كتب أحدهم فى ذلك يقول « أذكر إذ وقعت عيناى لأول مرة على ذلك النبأ مكتوباً على لافتة انتخابية فى أحد شوارع فيلادلفيا أنى أحسست لحظة بألم جثمانى شديد ، وكان حالى يومئذ حال من أصيب بضربة قوية فوق رأسه ، ثم خانتنى قوتى وشعرت أن قضيتنا قد منيت بفشل لا رجاء معه »

وكان نفر من الجمهوريين فى الولايات الشرقية يرون أن سيوارد قد ذهب ضحية الغفلة والجهل ، وأنه أحق من أبراهام بالرياسة وذهبوا فى ذلك إلى حد أنهم نصحوا له أن يتجاهل قرار مؤتمر شيكاغو ويتقدم لمنافسة أبراهام فى معركة الانتخاب ولكنه رفض أن يستمع إلى ذلك .

وبات أنصار أبراهام من الجمهوريين موضع استهزاء الجنوبيين وسخطهم ؛ فهم أجراء حقيرون وهم قوم لا يدرون معنى الاجتماع وهم سذج بلهاء مخبولون ، وإن الواحد منهم فى أحسن حالاته لا يصلح لأن يكون نداً لخادم من خدم سيد من أهل الجنوب .

وتصل أنباء هاتيك النذر جميعاً إلى أبراهام وهو فى سبرنجفيلد فينكدر لها خاطره ولكنه ينتظر ما عسى أن تأتى به الأيام ؛ ولكم استمع إلى نذر العاصفة فى الغابة وهو فى كوخه ، ولكم أنصت إلى دويها وهى هوجاء مجنونة تحطم الفروع وتقتلع الجذوع، فما مثله من ينخلع فؤاده من عاصفة وإن كانت اليوم تنذر بالنار والدم ؛ إنه يكرهها ولكنه ليس يحس تلقاءها شيئاً من الخوف .

الرئيس أبراهام لنكولن !

تأهبت البلاد فى شهر أكتوبر من عام ١٨٦٠ للمعركة الانتخابية ، وما من أمريكى ذى صلة ولو قليلة بالسياسة إلا وكان يدرك ما كانت تنطوى عليه تلك المعركة يومئذ من خطورة بالغة ؛ ولعله لم يسبق فى تاريخ الاتحاد أن عظم اهتمام الناس بما عسى أن تكون نتيجة المعركة كاهتمامهم بذلك فى عامهم هذا ، فأنه إما أن يبقى بناء الاتحاد وإما أن ينصدع فأذا هو اتحادان ..

وأخذ كل حزب يسمى سميه وينشر فى البلاد ما وسعه من أساليب الدعوة، وأخذ اسم فالق الأخشاب ينتشر فى طول البلاد وعرضها ، وأخذت صور هاتيك الأخشاب تظهر فوق الصناديق والملب وغلايين الطباق ، وصار الناس يتغنون بأغنيات تدور حول النجار فالق الأخشاب ؛ ووضعت قطعتان من هاتيك الأخشاب فى مقر الحزب فى نيويورك على أنها من صنع أبراهام نفسه ؛ كما ادعى ناد من الأندية السياسية أن لديه المعول الذى استعمله فى فلق الأخشاب فتى الغابة أبراهام لنكولن.

وعظمت حماسة الناس فى الولايات الناقمة على الرق حتى ما ينهض لوصفها كلام ، ودوت هذه الحماسة فى الاتحاد كله ، وتألفت فرق من المتحمسين كانت تطوف فى البلاد تحمل المشاعل أثناء الليل والأعلام فى وضح النهار وكانت تحمل لوحات عليها اسم لنكولن ولوحات أخرى رسمت على كل منها عين مفتوحة حدقتها إلى أقصى ما يمكن أن تفتح ، وسميت هذه الفرق باسم « المقل الساهرة اليقظة »

وسارت فرق غيرها من الجمهوريين فى مظاهراتها تحمل قطع الأخشاب ، أو تحمل مثالا مصغراً للأكواخ التى درج فى أشباهها أول ما درج مرشح الجمهوريين ابن الأحراج أبراهام لنكولن ..

ونشط أصحاب لنكولن من ذوى المكانة يدعون له ويعملون على فوزه بكل ما فى طوقهم من الوسائل ومن هؤلاء زميله هرندن ، ولندع هرندن يقص علينا بعض الذى حدث قال « لقد فرح الجمهوريون بالمعركة ووضعوا أيديهم فى أيدى دعاة التحرير ومشوا جميعاً صوب النصر متأثرين بما توجه عبارة لنكولن : إنه ينبغى

أن يوقف اتساع نطاق الرق فى المستقبل ويجب أن يوضع الرق بحيث يطمئن الرأى العام إلى أنه مقضى عليه فى النهاية بالفناء .

ولما حميت المعركة واشتدت تقدمت بخدماتى فألقيت عدداً من الخطب فى بعض مراكز الولاية ؛ وأذكر ذات يوم وأنا ألقى خطبة فى بيترسبرج وقد قاربت موضعاً حماسياً منها أن جاءنى رجل قد تقطعت من الجرى أنفاسه وناولنى كتاباً ؛ ولقد ارتعت أول الأمر وفزعت من أن يكون به أنباء عن حادث وقع لأسرتى ؛ ولكن كان ارتياحى عظيما إذ تلوته ولقد جهرت بتلاوته ، وكان كتاباً من صاحبى لنكولن ينبئنى فيه أنه يحق لى أن أغتبط فقد باتت أهايو وبنسلفانيا وإنديانا جمهورية ، وكان خط الرسالة ملتوياً بعض الالتواء مما يدل على أن لنكولن كان مضطرباً لايملك أعصابه وقت كتابتها . . وقد سببت تلاوة هذه الرسالة كثيراً من المرج ، وبعثت فى السامعين حماسة شديدة حتى لقد نسوا أن هناك خطيباً يخطبهم ، وخرجوا من القاعة هاتفين صائحين حتى ما استطعت بعد ذلك أن أتم خطابى »

وكان لنكولن أثناء المعركة التى بدأت فى أول شهر أكتوبر ينتظر ما عسى أن تأتى به ، وهو فى سبرنجفيلد لايبرحها ؛ وكان يلقى الناس ورجال الصحافة أثناء النهار فى قاعة من قاعات مقر الحكومة فى المدينة وقد اتخذ له كاتباً يرد على رسائله كما ذكرنا ؛ أما فى الليل فكثيراً ما كان يختار الجلوس فى مكتبه ومكتب زميله هرندن حيث يوافيه عدد من صحابته الأدنين فيخلص إليهم من مشاغل المعركة ويجلسون هناك جلسات هادئة يذكر صاحبه هرندن أنها كانت من أجمل ما احتفظ به هو وخلانه من ذكريات صاحبهم العظيم

وظل الرجل العظيم على عادته يذهب بنفسه إلى مكتب البريد فيأتى برسائله ، ويجلس فى قاعة لا يتخذ له حاجباً ولا يوصد بابه فى وجه أحد على الرغم مما لقيه من كتب سوداء تنذره بالويل ؛ وكانت بين يديه مئات من مجموعة خطبه يعطيها لمن يسأله آراءه السياسية قائلا فى رفق ودماثة « كأنك يا صاحبى لم تقرأ خطبى ، إذا فدونك مجموعة منها ففيها تجد آرائى »

وهو لا يضيق بزائريه مهما كثر عددهم اللهم إلا فئة لا يرتاح إليهم ولكن أدبه يجبره على أن يكتم عنهم ضيقه منهم، وهؤلاء هم الذين يظهرون الزلفى ويكشفون عما يبتغون من خير على يد الرئيس المنتظر إما بالتلميح وإما بالتصريح، لا يعنيهم إلا أشخاصهم؛ وكان يزدرى الرئيس المنتظر هذه الطائفة ولكن خبرته بالدنيا ومعرفته بطباع الناس كانت تخفف أحياناً من موجدته عليهم حتى ليكون أقرب إلى الرثاء لهم منه إلى مجافاتهم وبغضهم.

وأمسك أبراهام عن الخطابة أثناء المعركة فقد جرى العرف ألا يخطب فى الناس داعيا لنفسه من يرشح للرياسة، وكان خيراً له ما فعل فلقد بين للناس من قبل آراءه فليدعها على ما هى عليه بينة سهلة لا غموض فيها ولا التواء، ولقد أوحى إلى كاتبه نيكولى أن يكتفى بإرسال نسخة من خطبه إلى كل من يكتب إليه يسأله آراءه السياسية، مشفوعة بكتاب مؤداه أنه بينما يتلقى كتباً من بعض الناس يسألونه رأيه فى بعض مسائل السياسة إذا به فى الوقت نفسه يتلقى كتباً غيرها يرجو فيها مرسلوها منه ألا يدلى بآرائه بعد أن بينها من قبل فقد وضحت تلك الآراء عندما اختاره حزبه وينبغى تجنب ماعسى أن يشيع الاضطراب فى المعركة الانتخابية الدائرة، وبهذا يخلص أبراهام من الحرج فلا هو أهمل الرد على سائليه ولا هو زاد مشاغله بإرسال آرائه السياسية إلى كل سائل

وكان ينتقل أحياناً إلى بعض جهات المدينة ليشهد حفلا أقامه محبوه للدعوة له وقد رآه الناس ذات مرة يمشى بين جموعهم على قدميه إلى مكان الاجتماع وقد اشتد الحر فكان يرتدى سترة خفيفة حال لون صبغتها قليلا وكان يضع فوق رأسه قبعة تغضنت بعض التغضن من جانبيها وهو هو لنكولن الذى عرفوه واحداً منهم يحيى هذا ويبتسم لذاك ويهش لهؤلاء ويذكر الجميع بأسمائهم ويطرق برأسه إذ يهتفون باسمه متحمسين، فما يحب أن يزهى.

على أن هذا الرجل وإن كان التواضع من شيمه لا يحب أن يظهر له أحد شيئاً يفهم منه عدم الاكتراث له، كما لا يحب أن يجبهه أحد بالخشن من القول؛ وهو حتى فى مثل هذه المواقف يأبى إلا أن يظل دمثاً مهذباً ولكنه يخرج من الحرج فى كياسة وظرف وقد ألقى فى نفس المخطىء ما يشيع فيها الخجل ويحملها فى رفق

هو أبلغ من المنيف على الاحتشام والتأدب ؛ ومن ذلك أنه بينما كان ذات يوم يتحدث واقفاً إلى بعض الرجال تقدم شخص بادى الغلظة وجلس على كرسى لنكولن وكان هو الكرسى الوحيد الخالى فلمحه أبراهام وبعد أن أتم حديثه التفت إليه يكامه ثم مد يده إليه مسلماً وهو على خطوتين بحيث لا يستطيع ذلك الشخص مصافحته إلا إذا نهض من مكانه واتجه لنكولن إلى الكرسى فى هدوء فجلس وترك ذلك الرجل يعانى الخجل والارتباك ، وهكذا يأبى الرئيس المرتقب إلا أن يحرص على دماثته دون أن يسهو عن مكانته .

وعمل خصوم لنكولن على إسقاطه ماوسعهم العمل لايدعون فرية إلا ألصقوها به مهما افتضح أمرهم فهم لا يتناهون عن منكر فعلوه ، بل إنهم ليزدادون عدواناً وإنما كأن بينهم وبينه ترة .

ومن أكبر ما كدره يومئذ موقف رجال الدين فى سبرنجفيلد ، فقد حمل إليه أنصاره ذات يوم قائمة بأسماء مريديه فى المدينة ، فنظر فى أسماء رجال الدين فلم يجد إلا ثلاثة منهم وهم ثلاثة وعشرون فبدت أمارات الأسف والألم على محياه على الرغم من أنه يرى فى القائمة ما يشبه الأجماع على محبته ولعل هذا الأجماع هو الذى أبرز موقف رجال الدين حياله فقال معقباً على ذلك الموقف « يعلم هؤلاء الناس حق العلم أنى أنصر الحرية وأن خصومى ينصرون الرق ، ومع هذا فإنهم وهذا الكتاب فى أيديهم — وهو الأنجيل قد أخرجه من جيبه — هذا الكتاب التى لا تعيش الأغلال الأنسانية فى ضوئه لحظة ، أقول إنهم مع هذا يريدون أن ينحوا أصواتهم خصمى ؛ إنى لست أفهم ذلك أبداً ؛ إنى أعلم أن الله حق وأنه يكره الظلم والاستعباد وإنى أرى العاصفه مقبلة وأرى يد الله فيها ، فأذا كان قد قدر لى موضعاً فيها وعملا وذلك ما أظنه واقعاً فانى أعتقد أنى على أهبة ؛ إنى لست شيئاً مذكوراً ولكن الحق هو كل شىء ؛ وإنى لأعلم أنى على الحق لأنى أعلم ان الحرية هى من الحق وأن المسيح يدعو إليها . ولقد أخبرتهم أن البيت المنقسم بعضه على بعض لا يمكنه أن يتماسك وإن المسيح وإن العقل ليقولان مثلما أقول رلسوف يعلمون ذلك ؛ وما يبالى دوجلاس نصر الرق أم خذل ولكن الله يبالى ذلك والإنسانية وإنى لأباليه وسوف لا أخذل ما دام الله فى عونى ؛ وقد لا يقدر لى أن أرى الخاتمة ولكنها آتية

واسوف تكون مبررة لما أقول ، ويومئذ سيرى هؤلاء الناس أنهم لم يقرأوا الأنجيل كما ينبغى أن يقرأ » وسكت أبراهام لحظة ثم أضاف إلى ذلك فى لهجة شديدة قوله « إنى أفكر فى هذه المسألة أعنى مسألة الرق أكثر مما أفكر فى أية مسألة أخرى ، ولقد فعلت ذلك منذ سنين » .

ولم يك منافسوا لنكولن ضعاف الجانب كما قد يخيل إلى المرء بالنظر إلى قوة الحزب الجمهورى وحسب المرء أن فيهم دوجلاس ؛ ولقد خرج دوجلاس على العرف وخاض المعركة بنفسه يخطب الناس أينما حل ويحمل فى صرامة على الجمهوريين وأنصارهم من دعاة القضاء على الرق لا يفرق بينهم ويرميهم جميعاً بأنهم قاضون بسياستهم الطائشة على بناء الاتحاد ؛ وكان فى تلك الخطب الملتهبة يرمى آخر ما فى جعبته من سهام ؛ ولكنها إن دلت على حماسته ونشاطه ، فأن خروجه على العرف إنما يدل على أنه يفعل فعل اليائس الذى يخاف أن تفلته وسيلة ، وكان كلامه يدور حول فكرة مؤداها أنه أسلم من فى الميدان جانباً لأنه لا يسلك مسلك لنكولن فى محاربة الرق ولا مسلك بركنردج فى التمسك به ؛ ولكن الأمة كانت فى الحق قد سئمت هذه السياسة وأصبح الأحساس العام هو الوصول إلى حل لتلك المشكلة فاما بقاء الرق وإما فناؤه .

وكان اهل الجنوب يسخطون على دوجلاس منذ أن أوقعه أبراهام فى الشرك إذ سأله وهما فى صراعهما الطويل أإذا أرادت ولاية أن تقضى على الرق فهل تفعل ذلك فى غير حرج ؟ ورد دوجلاس على ذلك بقوله نعم تفعل ذلك فى غير حرج فأغضب الجنوبيين ورضى بالعاجلة وهى الظفر بمقعد فى مجلس الشيوخ حتى جاءت الآجلة وهى الرياسة فتبين له سوء ما فعل ، ولقد فطن لنكولن إلى ما سوف يكون لقوله من أثر منذ قال وتنبأ بهذا الأثر وأظهر أصحابه عليه كما بينا ذلك فى موضعه.

وزاد موقف دوجلاس ضعفاً على ضعف انقسام الديموقراطيين كما أسلفنا فأن كثيرين منهم يظاهرون بركنردج وعلى الأخص فى الجنوب ، بينما أجمع الجمهوريون أمرهم على رجل واحد هو لنكولن .

وكان فى الميدان منافس آخر هو بل التف حوله أنصار حزب جديد عرف باسم حزب الاتحاد الدستورى وهو حزب ينكر إثارة مشكلة الرق ويدعو إلى الحرص

على كيان الاتحاد وفق مبادىء الدستور .

وشملت المعركة أمريكا كلها فما مر بالبلاد فى تاريخها الحر معركة كان لها من الخطر مثل ما لهذه المعركة الدائرة ؛ ورددت الألسن اسم أبراهام لنكولن فى فى الشمال والجنوب والشرق والغرب على نحو لم يسلف بمثله الزمن لاسم آخر ؛ وكان لنكولن عند أنصاره الرجل الذى جاء على قدر من الله ليمسك البناء أن ينهار فهو المتمم لما فعل وشنطون ، وكان عزاؤهم فى المحنة التى تهدد البلاد أن الأقدار قد هيأت لها هذا الرجل ؛ وكان عند خصومه هو المحنة التى يخافون فلئن أصبح الرئيس فلسوف يكون للجنوب رئيس غيره ؛ ومن هنا يستطيع أن يتصور المرء مبلغ ما كان لهذه المعركة من عظيم الخطر ومبلغ ما شغل الأذهان من أنبائها وضوضائها وما ملأ البلاد من مظاهر نشاطها وجلبتها .

وجاء يوم الفصل وهو اليوم السادس من شهر نوفمبر ، وترقب الناس النبأ العظيم فإذا هو فوز فالق الأخشاب ؛ وأصبح لنكولن الخليفة الخامس عشر للرئيس وشنطون المعظم بطل الاستقلال ؛ وكأنما أرادت الأقدار أن تقرن اسمه باسم وشنطون فى تاريخ بلاده فلئن كان هذا قد أقام الصرح فعلى أبراهام اليوم أن أن يمسك بنيانه أن يخر من القواعد .

وكان نجاح أبراهام محققاً قبل يوم الفصل بما كان لحزبه من جاه ونفوذ فى أهل الشمال وهم أحكم سياسة من أهل الجنوب ؛ وذلك فضلا عن اتحاد كلمة هذا الحزب بينما كان يتنازع الديموقراطيون كما رأينا كأن بينهم عداوة .

حصل لنكولن على قرابة مليونى صوت من عدد أصوات الناخبين جميعاً وكانوا نحو أربعة ملايين ونصف مليون رجل ؛ وقد زاد على دوجلاس أقوى منافسيه بنحو أربعمائة صوت ، وحصل النافسان الآخران مجتمعين على نحو مليون من الأصوات .

وأما باعتبار مندوبى الولايات وهم الذين ينتخبهم الناس فى كل ولاية لينتخبوا بدورهم الرئيس حسب قواعد الدستور فقد ظفر لنكولن منهم وكان عددهم ثلاثمائة رجل وثلاثة ، بمائة وثمانين هم الذين اجتمع فيهم المليونان ، وظفر دوجلاس باثنى عشر رجلا فحسب وهم الذين اجتمع فيهم المليون ونصف المليون وظفر بركنردج

باثنتين وسبعين وبل بتسع وثلاثين .

ومما هو جدير بالملاحظة أن لنكولن لم يظفر بمندوب واحد من خمس عشر ولاية ؛ وفى عشر ولايات لم ينل صوتاً عاماً واحداً ؛ ولقد ظفر بأغلبية المندوبين فى ولايات الشمال الثمانى عشرة ما عدا نيوجرسى حيث تمادلت الأصوات فيها بينه وبين دوجلاس ؛ ولم ينل إجماع المندوبين إلا فى ولاية مسورى .

وراح خصوم أبراهام يعيرونه بهذا الفوز إذ كانوا لا يعدونه فوزاً إلا إذا نظر إليه باعتبار ما ظفر به من أصوات المندوبين ؛ فأذا نظر إليه باعتبار أصوات الشعب فأن لنكولن لم يفز إلا بأقل من النصف .

ولكن أصحابه لا يعبأون بهذا الكلام وعندهم أن العبرة بعدد أصوات المندوبين لا بما يكون وراء هذه الأصوات من أعداد تقل أو تكثر حسب إقبال الناس على الانتخاب ؛ ولقد نال لنكولن من أصوات المندوبين ما قلما ظفر بمثله رئيس قبله إذا قيس ذلك إلى ما ناله كل من منافسيه وبخاصة دوجلاس ذا الخطر والمكانة

كان على أبراهام أن يقضى أربعة أشهر أخر قبل أن يحتفل بتسلمه أزمة الحكم فقضاها فى سبر نجفيلد بينما كان الرئيس بوكانون يكمل مدته بقضاء تلك الأشهر فى البيت الأبيض فى وشنطون .

ولبث أبراهام فى سبرنجفيلد يلقى زائريه كل يوم وعشى كعادته فى الطرقات بين الناس لا يجعـل بينه وبينهم كلفة ولا يتخذ من دونهم حجاباً ، يحييهم فيدعوهم بأسمائهم ويردون فيدعونه بأحب أسمائه إليه ، فنهم من يناديه إيب العجوز ومنهم من يقولها مجردة من النعوت وتبدو إيب العجوز يومئذ أقرب النعوت منه وأعلقها به ، فأن على محياه لـكآبة شديدة هى من أثر ما يهجس فى نفسه ، وإنه اليوم لـكثير التأمل والإطراق لا يسمع الناس من أقاصيصه ما كانوا قبل يسمعون ، ولا يشهدون من عذوبة روحه ما كانوا يشهدون ...

أما امرأته فرحة طروب لا تملك نفسها من الزهو إذ تقف إلى جانب بعلها فى شرفة الدار وهما يطلان على الجماهير الهاتفة ، وإن كانت لتـكره منه وتتبرم بهذا الوجوم وهذا الصمت ، وإن كانت لتنـكر عليه ما يظهر فيه من ملابس وبخاصة قبعته التى ألحت عليه وما تفتأ تلح أن يستبدل بها أخرى جديدة فلا يطيع

وحق له أن ييتئس وأن يرتاع فما تزال تترامى إليه الشائعات والأنباء المزعجات فهذه صحيفة من صحف الجنوب تعلن نبأ اختياره للرياسة تحت عنوان « أخبار خارجية » ، وهذا حاكم كارولينا الجنوبية يتناول المعول فيهدم أول حجر من بناء الاتحاد ، فقد استقال أعضاء مجلس الشيوخ من هذه الولاية وانسحبوا من وشنطون ، وأخذ ذلك الحاكم يعد ما استطاع من معدات الحرب وتذيع صحفه فى صراحة أن قد صار الاتحاد أثراً بعـد عين ؛ وإنه ليسعى بالتفرقة ويحرض الولايات الجنوبية على الانسحاب من الاتحاد بعد أن أعلن بلسان المجلس التشريعى فى ولايته أن لاصلة اليوم لهذه الولاية بالاتحاد ؛ وأخذ يقيم لولايته حكومة مستقلة وإنه ليدور بعينيه فى هذه المحنة باحثاً عمن عسى أن يشد أزره من الرجال

فيرى والأسى يرمض فؤاده أن كثيراً من رجال حزبه لا يرون رأيه فهم يميلون إلى مصالحة أهل الجنوب وكان على رأس القائلين بذلك سيوارد نفسه ...

ولكن أبراهام يعلن إليهم فى ثبات عجيب أن مصالحة أهل الجنوب معناه التهاون فى المبادىء والتسليم بانتشار الرق والاعتراف بحقهم فى اتباع القوة وفى الانسحاب من الاتحاد وهو لا يأمن أن يعودوا إلى مثل ذلك فى أى وقت ؛ ويسمع أصحابه ذلك الكلام ويعقلونه ولكنهم خائفون وإنهم ليحملونه كل ما عساه أن ينجم بعد ذلك من مصائب ...

والنذر لا تنى تأتى من الجنوب بما يقلق المضاجع ويزعج النفوس ؛ فهاهى ذى ست ولايات أخرى تنسحب من الاتحاد وتنضم إلى كارولينا الجنوبية فتؤلف من بينها تحالفاً وتجعل له حكومة يرأسها جفرسن دافز ... وهكذا يقع ما طالما تخوف أبراهام أن يقع ؛ ففى البلاد اليوم حكومتان ؛ وينهار البناء على هذا النحو حجراً بعد حجر والرئيس الجديد ما زال فى سبرنجفيلد يشهد ما تفعل العاصفة

ويحمل البريد إلى أبراهام كل يوم آلافاً من الرسائل ، بينها نوع تنفر نفسه منه كل النفور وإن كان لا يجزع ولا يرتاع ، نوع ملؤه الوعيد والسباب وتفصيل صور الموت التى تنتظره إن هو مضى فيما هو فيه وأصر على عناده ؛ وهو يطوى تلك الرسائل ليلقى بها فى النار مخافة أن تقع عين امرأته على ما يتوج الكثير منها من صور الخناجر وأسلحة الموت ...

ويتطلع أبراهام فى هذا الهول إلى وشنطون ليرى ما عسى أن يفعله بوكانون الرئيس القائم ؛ ولكن هذا الرجل يسلك مسلكا عجيباً فهو يتراخى ويتهاون ويدع الأمر كله للرئيس القادم فما هى إلا أيام حتى يأوى إلى عزلته ، وليته يحافظ على الحال كما هى ، إذاً لخفت تبعته وقل وزره ، ولكنه يدع أنصار الجنوب يفعلون ما يشاءون ويعدون ما يستطيعون من قوة ومن عتاد الحرب ؛ ثم يزيد فداحة الخطب بتصريح له خطير مؤداه أنه وإن لم يك للولاية حق الانسحاب من الاتحاد فليس لحكومة الاتحاد حق ردها إليه بالقوة إذا هى انسحبت ؛ ويكون بوكانون بتصريحه هذا كمن يلقى بالحطب على النار حين يجدر به أن يلقى عليها الماء !

وتشيع الخيانة فى وزرائه فيرسل بعضهم الرجال والمال إلى الولايات الجنوبية

ويستقيلون من مناصبهم ؛ ومن ذلك ما فعله وزير الحرب إذ أرسل أكثر رجال الجيش إلى الجنوب كما أرسل إلى هناك ما استطاع إرساله من العتاد والمؤن ؛ وكذلك ما فعله وزير المال إذ أرسل ما وسعه إرساله من مال الخزانة العامة إلى الجنوب حتى أوشكت أن تصبح خالية ؛ وما فعله وزير الشئون الداخلية إذ عمل على سحب الجند من بعض المواقع الهامة وتسليمها إلى أهل الجنوب ... وهكذا يبيت الأمر فوضى حتى لكأن البلاد بغير حكومة ؛ وليس أدل على مبلغ هذه الفوضى من كلمة قالها أحد الشيوخ من ولاية كارولينا الشمالية يومئذ ، فقد حدث وزير الشئون الداخلية هذا الشيخ قائلا له إنه انتدب ليعمل على أن تنسحب كارولينا الشمالية من الاتحاد وفهم الشيخ أن ذلك معناه أن الوزير استقال حتى يكون له أن يفعل ذلك ؛ ولكن ما كان أعظم دهشة الشيخ إذ نفى الوزير استقالته قائلا إن الرئيس بوكانون يريده على أن يبقى حتى اليوم الرابع من شهر مارس ، وتساءل الشيخ في دهشة ، أيعلم بوكانون ماذا يصنع الوزير في كارولينا الشمالية ؟ وأجاب الوزير أنه يعلم ذلك فصاح الشيخ قائلا « لم أعلم من قبل أن حاكما يرسل عضواً من أعضاء وزارته ليصنع ثورة ضد حكومته »

وتقدم أحد الوزراء إلى بوكانون ساخطاً يعلن له احتجاجه فلما أصاخ إليه فقال له ذلك الوزير الأمين « إن واجبي كناصحك الشرعي هو أن أنبئك أنه ليس لك من حق في أن تسلم شيئاً مما هو من أملاك الدولة ولا أن تدع أعداءك يأخذون جيشها وسفنها ، وإن ما سلكه وزير الأمور الداخلية في هذا الشأن لهو من الخيانة ولسوف يشركك ومن كان له يد في هذا ، فيما ينطوي عليه ذلك الفعل من معنى » . ثم ناوله الوزير استقالته ...

ويشتد عدوان أهل الجنوب ، وقد اتخذ الاتحاد الجديد هناك دستوراً جديداً يقر الرق ويعلن أنه أمر مشروع من وجهة الدين ومن وجهة الخلق وكذلك من وجهة النظام الاجتماعي ... ويعظم بذلك هياج العاصفة ويشتد دويها ...

وأبراهام في سبرنجفيلد كالسنديانة العظيمة لا تهز العاصفة إلا فروعها ... يخوفه سيوارد عاقبة الأمر فلا يخاف ولا يلين ؛ ويسخط بعض أهل الشمال أنفسهم على أبراهام وينكرون عناده وإصراره على موقفه من الرق فلا يحجم ولا يتراجع ؛

قال ذات مرة لرجل يحاوره « إذهب إلى شاطىء النهر وخذ معك غربالا متنياً فاملأه بالحصى ، فسترى بعد هزات قوية أن الرمل وصغيرات الحصى تنفذ من الثقوب وتتوارى عن الأعين إذ تضيع على الأرض ، وتبقى فى الغربال القطع التى تزيد عنها حجماً إذ أنها لا تنفذ من بين الخيوط ... وبعد هزات أخرى متكررة يتبين لك أنه من بين القطع الباقية فى الغربال تصل كبرياتها إلى القمة ، وهكذا فأنه إذا لم يكن من الحرب بد ، وأن هذه الحرب سوف تهز البلاد من وسطها إلى جوانبها فأنك ستجد صغار الرجال يتوارون عن الأنظار فى هزاتها ، بينما ترتكز الكتل على قواعد ثابتة ويرتقى أكابر الرجال إلى القمة ، ومن بين هؤلاء يبرز أعظمهم فيكون منه قائد القوم فى الصراع القائم . . » .

هذا هو العزم الذى لا يعرف التردد ، ولكن من وراء هذا العزم نفساً شاعرة وقلباً عطوفاً وطبعاً ينفر من الشر ؛ وما كانت هموم نفسه إلا مما يريد أن يدفعه عن بلاده من شر وبيل يوشك أن يملأها من بعد أمنها خوفاً ؛ أما عن نفسه فهو لا يبالى أن يذوق الموت بعد أن جمع للجهاد عزمه وجعل لقضية الاتحاد همه .

وها هو ذا قد وصل فى بلاده إلى القمة فهل ابتغى من وراء ذلك جاهاً أو تلهى بالعرض عن الجوهر ؟ هل تنفس الصعداء واستكان إلى الدعة وجعل من المنصب متعة وغروراً ؟ كلا فها هو ذا يجعل من وصوله إلى هذه المرتبة مبدأ مرحلة جديدة فى جهاده المرير ... وإنه ليحس أنه هالك فى الجهاد لا محالة ، ففى نفسه من المعانى ما يشير إلى ما سوف يلقاه من خطوب وويلات ؛ تحدث هذا الصنديد الجلد إلى صديق له بعد فوزه بالرياسة بسنوات يصف ما كان يهجس فى خاطره عقب ذلك الفوز فذكر أنه نظر ذات مرة يومئذ وقد جلس متعباً على مقعد إلى مرآة أمامه فرأى فيها لوجهه صورتين فوثب فى مكانه يستوثق من ذلك فامحت الرؤيا ولكنها عادت كما كانت حين عاد فجلس ؛ وكانت إحدى الصورتين تخالف الأخرى فى أنها تبدو مصفارة مخيفة ، ولقد أوجس أبراهام فى نفسه خيفة ؛ ولم يكن خوفه مما رأى فى ذاته بل كان لما انبعث منه من معان فى نفسه ولقد تكرر ذلك المنظر بعد أيام ثم انقطع على رغم محاولاته أمام المرآة ؛ أما امرأته فأنها فسرت ذلك بأنه سيختار للرياسة مرة أخرى ثم يموت فى تلك المرة ! يا لله ما أعجب نبوءات هذه المرأة ...

هكذا كان أبراهام يحس ما يخبئه له الغد من مكروه ولذلك فهو يقدم على علم بما ينتظره فلا يتهيب ولا ينكص وإنما يحذر ويتدبر أن تصيب بلاده دائرة ...

وظل يمنى نفسه أن يثوب أهل الجنوب إلى رشدهم وأن تخشع للحق قلوبهم ، ولكنهم فى شطط من عنفهم وغرورهم ، فهاهى ذى الأنباء تأتى بجديد من كيدهم ؛ وبيان ذلك أنه كانت لحكومة الاتحاد حصون فى الولايات الساحلية ، بها جند تحميها وكان من تلك الحصون فى كارولينا حصنان أهمهما حصن سمتر فأرادت كارولينا أن تستولى على الحصنين لتتم سيادتها فلم تفلح إلا فى أحدهما ، وكان ذلك عقب إعلان انفصالها .

واحتمى الجند فى حصن سمتر وأرسلوا إلى الرئيس بوكانون أن يمدهم بالمون والذخيرة ، فلم يستطع بوكانون أن يصم أذنيه عن هذا الطلب وأرسل سفينة تحمل المؤونة والرجال ولكن أهل كارولينا أطلقوا النار عليها فى ميناء شارلستون وأجبروها على الرحيل ؛ وطلبت حكومة الاتحاد الجنوبى تسليم حصن سمتر فرفضت الحامية بقيادة أندرسون أن تسلمه فضرب عليه الحصار ، وبات فى الواقع أهل الشمال وأهل الجنوب فى حرب .

وعاد سيوارد يلح على أبراهام أن يتفق أهل الشمال وأهل الجنوب على شروط تخفف من غضبهم فرفض أبراهام ذلك وأعلن أنه مصر على الرفض مهما يكن من الأمر ... ولما يئس سيوارد من إقناعه عرض عليه أن يزحف على العاصمة فى جيش من المتطوعين ويأخذ بيده زمام الأمور من بوكانون قبل أن يستفحل الشر فرفض أبراهام أن يفعل ذلك لما فيه من خروج على الدستور .

وازداد الموقف شدة حين ترامى إلى سمع لنكولن أن كثيراً من الناس يودون لو ينسحب ويدع تقرير الأمور إلى رئيس غيره يختار ... ولو أن رجلا غيره كان فى موقف مثل موقفه هذا لخارت عزيمته وانكسرت نفسه ، ولكنه ما وهن ولا استكان وما زادته الشدائد إلا صبراً وعزماً ولا المحن إلا رغبة فى النضال والجـــلاد ...

وظل فى سبرنجفيلد يعد الأيام بل يعد الساعات وفى مسمعيه بل فى أعماق نفسه دوى العاصفة ، ولكنه لا يستطيع اليوم أن يفعل شيئاً ، الأمر الذى يؤلمه

ويكربه ؛ قال ذات ليلة لأحد أصحابه وقد جلس إليه يحدثه ويسرى عنه « إنى أرحب أن أفقد من عمرى من السنين ما يساوى عدده ذينك الشهرين الباقيين لى هنا كى أتسلم مقاليد منصبي وأقسم اليمين الآن » ولما سأله صاحبه لم ذلك أجاب بقوله « لأن كل ساعة تمر على هنا تزيد تلك المصاعب التى انتدبت لمواجهتها ؛ وليس تفعل الحكومة الحاضرة شيئاً لمقاومة هذا الاتجاه نحو الانهيار ؛ وأنا الذى دعيت لكى أضطلع بهذه التبعة الخطيرة يتحتم على أن أبقى هنا لا أعمل شيئاً ... وإن كل يوم يمر إنما يزيد فى حرج الموقف وصعوبته » .

على أنه يحاول أن يفعل شيئاً وهو فى سبرنجفيلد ؛ فإن له صديقاً من أهل الجنوب ألا وهو ألكسندر استيفن زميله فى الكونجرس ، ذلك الديموقراطى الذى ألقى خطاباً ذات يوم فى صدد حرب المكسيك دمعت له عينا صاحبه وأشار إلى شدة إعجابه به فيما كتب يومئذ إلى صديقه هرندن ؛ ولقد ظلت صلته وثيقة بهذا الديموقراطى منذ أن عرفه قبل اثنى عشرة سنة ...

ولقد قرأ لنكولن بعد انتخابه بشهر خطبتين لصديقه الجنوبى جاء فيهما أن اختيار لنكولن عمل دستورى ، وأن الثورة خطة غير مضمونة وإذا وقعت الحرب فقد تؤدى إلى القضاء على الرق . وكان صوت ستيفن نذيراً لأهل الجنوب وسرعان ما ذاع فى الأمة كلها وكان وقعه عظيما فى نفس لنكولن ، فكتب إليه أبراهام يسأله أن يرسل إليه الخطبتين فرد عليه ستيفن يعتذر بأنه لم يحتفظ بنصيهما وجاء فى رده قوله « إن الأمة فى خطر عظيم حقاً ولم يقع قط على كاهل رجل من التبعات ما هو أعظم مما يقع على كاهلك فى هذه الأزمة القائمة » .

وكتب إليه لنكولن فى كياسة وحسن سياسة يقول « هل يعتنق الناس فى الجنوب الخوف حقاً مما عسى أن يؤدى إليه قيام حكومة من الجمهوريين من تدخل فى شؤون الرقيق أو تدخل فى شؤونهم هم فيما هو من الرق بسبب ؟ إذا كان الأمر كذلك فأنى أود أن أؤكد لك وقد كنت صديقى ذات مرة ولست كما أرجو حتى اليوم من عدوى أن هذه المخاوف لا تقوم على شىء ، لن يكون الجنوب اليوم فى هذه الحال أقل أمناً مما كان فى عهد وشنطون ، وإنى أظن أن هذه المخاوف لا تتفق والقضية القائمة ، إنكم ترون أن الرق صواب وينبغى أن يتسع نطاقه

ونحن نرى أنه خطأ وينبغى أن يمنع اتساعه وهذا هو الاحتكاك ، إنه حقاً هو الخلاف الوحيد الملموس بيننا وبينكم »

ولكن ستيفن الذى طالما ذهب مذهب صاحبه فيما مضى فى سبيل الإنسانية وإن اختلفا من الوجهة الحزبية ، ما لبث اليوم أن انساق فى تيار الجنوب حتى لقد أصبح نائب الرئيس فى الاتحاد الجنوبى وعدم لنكولن فى هذه المحنة معونة رجل كان يرجو على يديه أن تضيق هوة الخلاف بين شقى الأمة .

ويشتد ضيق الرئيس الجديد وهو لا يستطيع أن يفعل شيئاً ، وكلما لمح له ما يأمل فيه أن يكون معيناً له فى أمره سعى إليه ولو بدا أنه غير ذى خطر ، ها هو ذا يعلم أن جريلى الصحفى الذى طالما تنكر له من قبل يمر بالمدينة ويقيم بفندق من فنادقها فلا يستنكف الرئيس أن يذهب إليه بنفسه وقد رأى منه أنه لم يطلب مقابلته ، وقد كان خليقاً أن يغضب لقعود هذا الصحفى عن السعى إليه وهو اليوم رئيس الولايات المتحدة ؛ ويمضى الرئيس إلى الفندق فيقابل جريلى ويحاول أن يقنعه بأن يسدى إلى الأمة صنيعاً لا ينسى بدعوة أهل الجنوب إلى ارشد وتأييد قضية الرئيس الجديد بقلمه وبما له من صيت ومكانة ، ولكن جريلى لا يقتنع . ويخرج الرئيس من عنده وعلامات الأسف على محياه ...

وأخذ الرئيس يختار مجلس وزرائه ، وقد قرب موعد سفره إلى واشنطون ليحتفل بتسلمه أزمة الحكم ، ووقع اختياره أول ما وقع على سيوارد وقد وقف إلى جانب أبراهام بعد أن رأى من ثباته وعزمه مالم يتعلق به من قبل وهمه ، ورضى سيوارد بادىء الرأى أن يعمل معه فى منصب يعادل منصب وزير الشؤون الخارجية فى الحكومات الحالية ، يضاف إلى ذلك أنه كاتم سره ومستشاره وحامل أختامه . وأخذ أبراهام يبحث عن غيره ممن يأنس فيهم الكفاية فى مثل هاتيك الشدة .

وكان قد كتب إليه تشيس أحد منافسيه من الجمهوريين عقب فوزه يهنئه ويشير إلى عظم العبء الملقى على عاتقه ويرجو له التوفيق فاختاره لنكولن أحد وزرائه وقبل هذا بعد أن تدبر فى الأمر ثلاثة أشهر .

وقال الرئيس ذات يوم لبعض جلسائه لو أنه استطاع أن يؤلف مجلس وزرائه من المحامين الذين كانوا يصحبونه فى إحدى جولاته القضائية لأمكن أن يتجنب

الحرب فقال أحد الجالسين ولكن أكثرهم كانوا ديمقراطيين فأجاب الرئيس « لأن أعمل مع ديمقراطيين أعرفهم خير لى من العمل مع جمهوريين أنا فى جهل من أمرهم » ...

وكان يشغل الرئيس فى تلك الأيام طالبو المناصب ومتصيدوها ممن يعشون بالزلفى بين يدى كل رئيس جديد وقد ضاق بهم فندق المدينة ، والرئيس يصغى لكل قادم إليه لا يتأفف ولا يضيق به ذرعه مهما ألح ولج فى إلحاحه حتى ليعجب أصدقاؤه من طول صبره وعظيم دماثته ؛ ويظهرون له ألمهم وضجرهم فيبتسم قائلا إنه لا يستطيع أن يعنف ذاحاجة وإنه وقد نشأ بين عامة الناس لا يسعه الأفلات منهم أو التكره لهم ...

ولكن الرئيس لا يعد أحداً على حساب الصالح العام ، ومهما يكن من طول صبره فهو لا يعدو أن يصرف الطالبين بالحسنى أو يعد من يستحق بأجابة مطلبه متى جاء وقت ذلك ، ولا يحب أن يحيل أحداً على مرؤوسيه من الموظفين تخلصا منه لأن فى هذا التواء لا يتفق مع طبعه .

ويعلن الرئيس أنه لن يبعد عن منصبه أحداً ممن يخالفونه فى السياسة بل إنه ليذهب إلى أبعد من ذلك فيبدى رغبته فى أن يضع فى بعض المناصب فريقاً ممن كانوا خصوماً للحزب الجمهورى إبان المركة ! بل إنه ليود لو جعل من وزرائه رجلين من أهل الجنوب .

ويعجب الناس من أمره هذا كل العجب ، فقد جرى العرف أن يختار كل رئيس أعوانه فى الحكم من مؤيديه وأن ينأى بجانبه عن مخالفيه فى الرأى وخصومه فى السياسة .

وقابل ذات يوم صديقه القديم سبيد ، ذلك الرجل الذى آواه عنده يوم أن دخل سبرنجفيلد يريد أن يحترف المحاماة ومتاعه فى جوالق يحمله على ذراعه ولا يجد له مسكناً ، والذى توثقت بينه وبين لنكولن عرى الصداقة والمحبة منذ ذلك اليوم؛ ويسأله الرئيس ضاحكا عن حاله فيفطن سبيد إلى غرضه فيقول له « أيها الرئيس
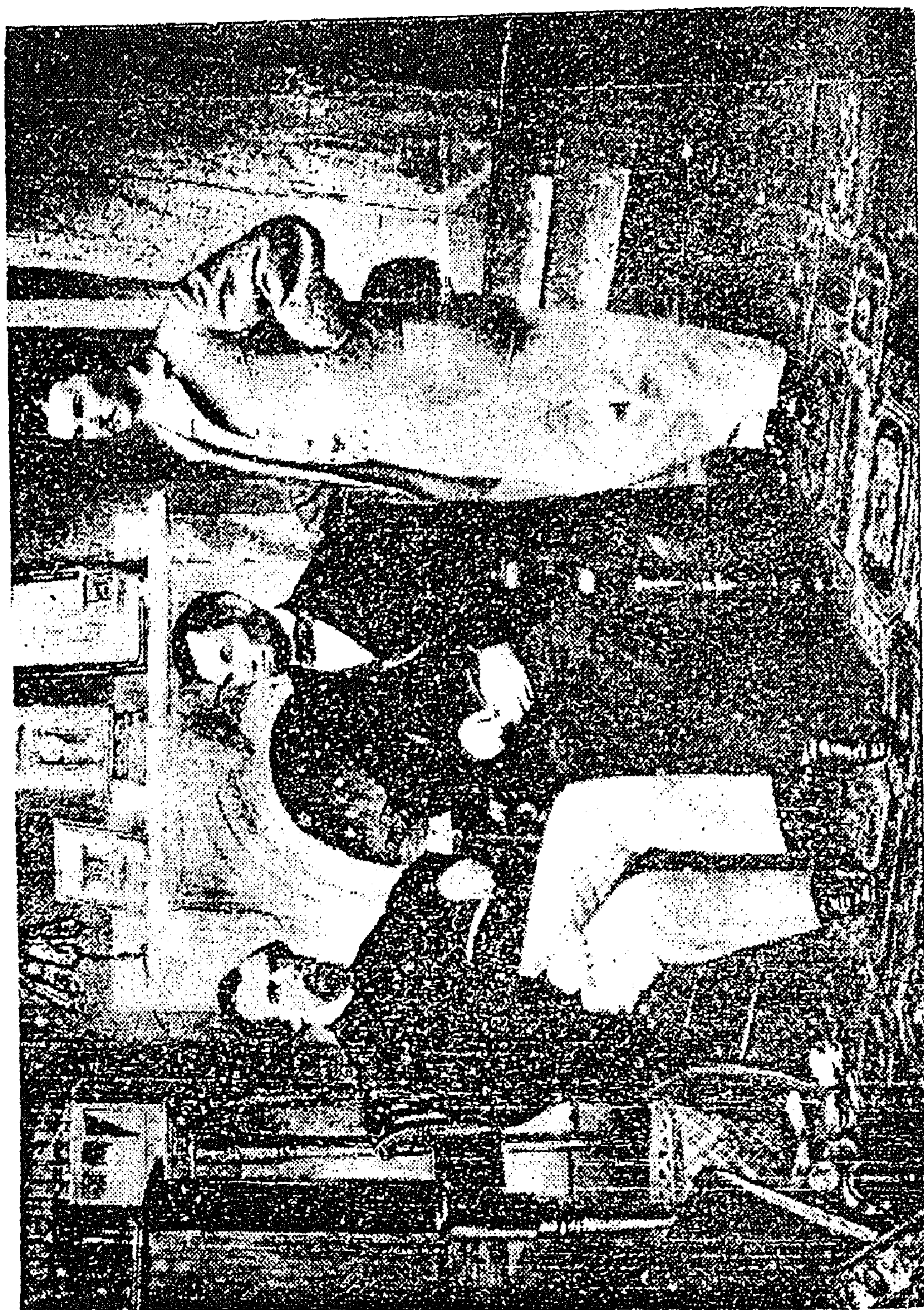
يخيل إلى أنى أفطن إلى ما تريد أن تقول ، إنى بخير ولك شكرى فما أظن أنى فى حاجة إلى أى منصب تريد أن تقدمه إلى »

وتندى عينا الرجل العظيم ويبتهج قلبه فها هو ذا سبيد يقدم دليلا جديداً على صدق محبته ونزاهة صداقته ...

وقرب يوم الرحيل ودوى العاصفة ملء نفسه ، لكنه كلما أخطر بباله عظم ما هو يسبيل أن يضطلع به ازداد عزما ويقيناً ، وما أندر ما غاب عن باله هذا العبء الجسيم الذى قل مثله فيما تمتحن به بطولة الرجال .

جال إبراهام جولة فى البلاد التى قضى فيها صدر شبابه ، وزار من لا يزالون أحياء من أهلها وحج إلى قبر والده وأوصى بأن يعنى به ، وكأنما كان يطوف بهاتيك الجهات طواف مودع لها لن تراها بعد عيناه أبداً ، فهل كان يحدثه بذلك قلبـــه ؟

وكان ممن رآهم فى تلك الجهات زوج أبيه وقد عانقته عناق الوداع وفى وجهها أمارات الخوف وإنها لتدعو الله أن ينجيه من كيد أعدائه . وكذلك فعلت زوج آرمسترنج وقد قال لها ضاحكا « إنهم إذا قتلونى فلن أذوق الموت مرة ثانية » ..

وكان الشيوخ الذين رأوه فى صدر شبابه يضحكون فيما بينهم فرحين برؤيته ذاكرين قصصه وأحاديثه ونكاته المذبة ؛ يتحدثون عن ذلك الفتى القوى الطويل القامة الذى كان يقطع الأشجار فى مهارة ويسحب أزمة الثيران فى قوة وخفة حركة ، ويعجبون وهو اليوم فى نحو الثانية والخمسين من عمره كيف تغير حاله كل هذا التغير حتى غدا الرئيس لنكولن وهم لم يعرفوه إلا باسم إيب لنكولن .

ولما أزف يوم الرحيل لاحظ أهل المدينة على وجهه ما يبدو على وجه من يوشك أن يرحل عن وطن اشتد حبه له وعظم تعلقه به ؛ ولقد زاده هذا نحولا على نحوله وهماً على همه ؛ وكذلك اشتد أسف الناس فهم لايدرون كيف يصبرون على رحيله عنهم ولقد كان لصغارهم الأب العطوف الرءوف ولكبارهم الصديق الوفى والناصح الأمين ، ولكنهم يتأسون عن فراقه بما باتوا يأملونه من خير للبلاد جميعاً على يديه ...

ويعتكف أبراهام قبل رحيله ليكتب الخطبة التى يلقيها فى وشنطون غداة تسلمه أزمة الحكم ، ويطلع على خطب بعض الرؤساء الذين خلوا من قبله مثل جاكسون ووبستر كما يضع أمامه دستور الولايات المتحدة ؛ ويقول هرندن إن صاحبه هو الذى أعد تلك الخطابة وحده وفى هذه الشهادة ما يقضى على

ما ذكره بعض حاسديه من أن لزميله الفضل فى صوغها قال هرندن « لم أكتب له قط سطراً واحداً ولم يسألنى مرة أن أفعل ذلك ... لقد كان يستشيرنى فيما يتصل بالأسلوب أو باستعمال لفظ أو عبارة ، وكنت إذا طلبت إليه أن يغير كلمة يحس أنها تعبر خير تعبير عن شعوره لا يطيعنى ولا يتحول عن رأيه »

وذهب فى مساء ليلته الأخيرة بالمدينة إلى مكتبه حيث كان ينتظره صديقه هرندن ، ولندع هرندن يقص علينا حديث تلك الليلة قال « حضر لنكولن إلى المكتب ليفحص بعض الأوراق وليشاورنى فى بعض المسائل القانونية التى كان لا يزال مهتما بها ؛ وكان قد أشار إلى فى بعض مناسبات سالفة أنه سوف يأتى إلى المكتب ليحدثنى حديثاً طويلا ، على حد تعبيره ، وقد نظرنا فى السجلات ، ورسمنا ما نعمله لأتمام ما لم يتم من المسائل ... وبعد أن فرغنا من هذه الأمور ذهب إلى حيث جلس على تلك الأريكة القديمة ، أريكة مكتبنا التى اضطررنا أن نسندها إلى الحائط وقد تطاول عليها العهد ؛ وقد رفع وجهه ونظر فى السقف لحظات دون أن يتكلم أحدنا ؛ ثم ما لبث أن قطع الصمت قائلا « بيلى ، وإنه ليدعونى دائماً بهذا الاسم ، كم سنة قضيناها ها هنا معاً ؟ وأجبته قضينا ما يزيد عن ست عشرة سنة ؛ فسألنى هل كانت بيننا قط كلمة شديدة طوال هذه المدة ؟ فأجبته فى حماسة كلا ؛ ثم أخذ يستعيد من الماضى بعض حوادث عهده الأول بالمحاماة ... ثم قام لجمع عدداً من الكتب وبعض الأوراق التى أراد أن يأخذها معه وتهيأ ليخرج ، ولكن قبل أن يبرح المكان طلب إلى طلباً غريباً وذلك أن تبقى اللافتة التى تحمل اسمى واسمه حيث هى قائلا دعها معلقة هنا لا تتحول عن موضعها ودع أصحاب القضايا يفهمون أن انتخاب رئيس لا يغير شيئاً من مكتب لنكولن وهرندن ، وإذا قدر لى أن أعيش فسأعود ثانية ويومئذ نزاول عملنا فى المحاماة كأن لم يحدث شىء ؛ ثم تلكأ لنكولن قليلا كما لو كان ذلك ليلقى آخر نظرة على تلك الأشياء القديمة من حوله ، ثم خرج من الباب إلى الدهليز الضيق ، وصاحبته حتى قرار السلم ، وقد تحدث فى طريقه عن المكاره التى تحيط بمنصب الرئيس قائلا : إنى منذ الآن يحيط بى السأم من ولاية المنصب ، وإنى لأرتعد كلما ذكرت ما ينتظرنى من عمل فى غدى ؛ وقال إن ما يخالجه من أسى على فراقه ما ألف من الناس والأشياء

أعمق مما يستطيع أن يتخيل بعض الناس ؛ وكان هذا الأسى أكثر وضوحاً فى موقفه هذا لما كان يهجس فى نفسه من شعور يلح عليه بأنه سوف لا يعود حياً ؛ وعارضته فى هذه الفكرة التى لا تتفق وما يرسمه رئيس من مثل أعلى ذاع فى الناس ، ولكنه رد فى سرعة قائلا ولكنها تتمشى مع فلسفتى ... ثم شد على يدى فى اهتمام وقال فى حماسة : إلى اللقاء ؛ واختفى شخصه فى الشارع ولم يعد بعد ذلك إلى المكتب أبداً » .

وكان لنكولن قد أجر بيته ، ووضع متاعه عند جار من جيرانه ؛ وكان يقيم هذه الليلة فى فندق المدينة وهناك أخذ يعد حقائبه بنفسه ويحزم ما يريد أن يحمل معه من المتاع بيده حتى فرغ من ذلك فكتب على تلك الحقائب بخطه « أبراهام لنكولن بالبيت الأبيض بوشنطون » ؛ ثم أوى إلى مضجعه فنام .

وأسفر الصبح فركب وجماعة من أصدقائه مركبة أقلتهم إلى المحطة ، وقد تلاقى هناك جمع كبير من أهل المدينة جاءوا يحيونه ، فما رآهم حتى وقف فى مؤخرة العربة وأطل عليهم وقد شحب لونه وتبادر دمعه فقال « أى أصدقائى ، لن يستطيع أى رجل لم يكن فى مثل موقفى هذا أن يدرك مبلغ ما يخالجنى من حزن لدى هذا الرحيل . إنى مدين بكل شىء لهذا البلد ولكرم أهله ؛ ولقد لبثت فيه من عمرى ربع قرن ودرجت فيه من شاب إلى رجل مسن ... هنا ولد أبنائى وهنا دفن واحد منهم ؛ وها أنذا أرحل ولست أدرى ما إذا كنت عائداً إليكم بعد اليوم ... أرحل وأمامى عمل هو أعظم من ذلك الذى ألقى على كاهل وشنطون ، ولا نجاح لى ما لم أصب معونة الله الذى كان معه أبداً ... ولئن ظفرت بهذه المعونة فلن أخيب ، فلنأمل فى حسن المنقلب ، مخلصين واثقين فى الله الذى هو معى ومعكم ، والذى يكون منه الخير فى كل مكان ؛ وإنى إذ أكلكم إلى عنايته — كما آمل أن تكلونى إليها فى صلواتكم — أقرئكم وداعاً حاراً » .

وانطلق القطار يمشى الهوينا وهم ينشدون للرئيس نشيداً كانوا أعدوه ، وقطرات المطر تنزل على رؤوسهم الحاسرة كأنها دموع منصبة من السماء وهو فى مؤخرة العربة ينظر إليهم خلال دموعه ، ولكم التقت ساعتئذ قطرات السماء بما فاض من المآقى حتى غاب القطار وغاب فى مؤخرة العربة شخص الرئيس ... ورحل أبراهام ليعود بعد

جهاد شديد ومراس فأذا هو شهيد تذرف الدموع عليه أمة بأسرها .

ذهب أبراهام ليواجه العاصفة وإنه ليراها اليوم عاصفة دونها تلك العواصف التى طالما هبت فى الغابة هوجاء عاتية ، فزعزعت باسقات الدوح وشمشت كثيفات الألفاف وأفزعت الرجال والدواب ... إنه يراها اليوم عاصفة من عمل الإنسان لا من عمل الطبيعة ، وما أهول ما يفعل بنو الإنسان حين ينسون إنسانيتهم فتستيقظ فيهم غرائزهم التى دبت فيهم أول ما دبوا على هذه الأرض ...

رحل « الرجل القادم من الغرب » كما اعتاد أن يسميه أهل العاصمة وغيرهم من أهل المدن الشرقية السابقة فى المدنية ؛ وتقدم الربان ليقود السفينة ودوى الأنواء فى مسمعيه .

وقضى فى رحيله إلى العاصمة اثنى عشر يوماً . وعلم الناس بهذا الرحيل ، فكانوا يلقونه فى المدن التى يمر بها مرحبين ، وقد تلاقت جموعهم على نحو لم تشهده البلاد من قبل ، فما فى الناس إلا من ملكه حب الاستطلاع ؛ وكثير منهم كانت تدفعهم المحبة إلى هذا اللقاء ...

وكان قد عقد النية على أن يظل صامتاً إلا ما يكون من تحية يرد بها على ما كان يلقاه من تحيات ؛ ولكن إصرار الناس فى كل مكان على أن يسمعوا حديثه جعله يتحلل مما اعتزم ، ثم إنه رأى أن هذه كانت آخر فرصة يتحدث فيها إلى عامة الناس وهم الذين يعول عليهم ويطمع أن يتخذ منهم ظهيراً فيما هو مقدم عليه من كفاح .

وكانت له فى خطبه أثناء ذلك المسير خطة رشيدة فقليلا ما كان يبرم أمراً ، أو يقطع فى المسائل القائمة برأى ؛ وإنما كان يشرح الأمور حتى تستبين ، ثم يتساءل عن أوجه الصواب تاركا الناس يتدبرون حتى تأتيهم البينة ، تتمثل ذلك فى مثل قوله فى أنديانا بولس : « أى مواطنى ، لست بمبرم أمراً إنما ألقى عليكم أسئلة لتتدبروها ... » .

ولقد تكلم فى هذه المدينة فأشار إلى ما كان يجرى على الألسن يومئذ حول الاتحاد فى رد الولايات الخارجة عليه بالقوة ؛ ولقد عد أنصار الجنوب ذلك العمل عدواناً ؛ فتساءل الرئيس : هل يكون فى الأمر عدوان إذا لجأت حكومة الاتحاد

إلى المحافظة على ما تملك هناك من عقار ، أو إذا حافظت على سبل مواصلاتها وحرصت على جباية المال المقرر على البضائع المستوردة ؟

واستقبل أبراهام فى سنسناتى استقبالا لم تر هذه المدينة لأحد من قبل نظيراً له ؛ وتزاحم الناس عليه يريدون رؤيته وباتت المدينة فى مثل فرحة العيد ففيها الأنوار الوضاءة والأناشيد الصداحة والجموع الغفيرة المستبشرة ، وفيها ما هو أسمى من سمات العيد هذه ، ألا وهو الحب الصادق تفيض به القلوب ...

ومر بحدود كنطكى وهى ولاية من ولايات الرق تشتد فيها الدعوة إلى الانسحاب من الاتحاد وهى تلك الولاية التى نشأ فيها أول ما نشأ فقال يوجه الكلام إلى أهلها « أى مواطنى أهل كنطكى هل لى أن أدعوكم بما أدعوكم به ؟ إنى فى موقفى الجديد لا أجد حادثاً ولا أحس ميلا يدعونى أن أغير كلة من هذا ، فاذا لم تنته الأمور إلى الخير فثقوا أن الخطأ فى ذلك لا يكون خطئى ... » .

وفى بتسبرج أفصح عن سروره إذ كان استقباله استقبالا شعبياً لا أثر للحزبية فيه ثم قال « إذا لم تجتمع كلتنا الآن لننجى سفينة الاتحاد القديمة الطيبة فى رحلتها هذه فلن يكون ثمة من فرصة بعدها لقيادتها إلى رحلة غيرها » .

وفى محطة من المحطات الصغيرة وقف لنكولن بعد أن قرت حماسة المستقبلين فقال إنه يذكر أن كتاباً جاءه من فتاة هذه بلدتها تسأله فيه أن يطلق لحيته ، ولقد فعل كما أشارت فهو ذو لحية اليوم كما يراه الناس ، ثم عبر عن رغبته فى رؤية تلك الفتاة إن كانت حاضرة ، فبرزت من بين الجموع تلك الفتاة ومشت على استحياء حتى وصلت إلى الرئيس فقبلها قبلة على جبينها والناس بذلك معجبون فرحون .

وفى ألبنى عاصمة ولاية نيويورك العظيمة كانت حفاوة الناس به شديدة ؛ وكذلك كان شأنه فى مدينة نيويورك التى سبق أن زارها لأول مرة من قبل ليخطب الناس فأصاب من النجاح ما سلفت الأشارة إليه ...

ووقف فى ترنتن على مقربة من ميادين القتال التى سالت فيها دماء الثورة غداة حرب الاستقلال فأخذه جلال الموقف وهزته روعة الذكرى فجرى لسانه بما اختلج فى نفسه قال « إنى لأرجو أن تسامحونى إذا ذكرت فى هذه المناسبة أنى فى أيام طفولتى وفى مستهل عهدى بالقراءة قد تناولت كتاباً صغيراً يدعى حياة وشنطون

تأليف وعز ؛ وإنى أتذكر كل ما جاء فيه عن ميادين القتال وعن مواقف النضال من أجل الحريات فى هذه البلاد ، ولكن ما من حادثة تركت فى نفسى من أثر مثل ما تركه موقف النضال هنا فى ترنتن ونيوجرسى » وبعد أن أشار إلى بعض الحوادث قال : « وإنى لأذكر الآن أنى فكرت يومئذ ولما أزل غلاماً صغيراً أنه لابد أن يكون أمراً غير عادى ذلك الذى كافح من أجله هؤلاء الناس ؛ وإنى لأحس رغبة ملحة قوية أن أرى هذا الذى كافحوا من أجله وأرى شيئاً آخر هو أعظم من الاستقلال القومى ، شيئاً ينطوى على وعد للناس جميعاً فى هذا العالم فى كل ما هو آت من العصور ... أقول إنى شديد التطلع أن أرى الوحدة والدستور وحرية الناس بحيث تصبح أبدية مقترنة بتلك الفكرة الأصلية التى من أجلها قام الكفاح ، ولسوف أكون جد سعيد إذا أصبحتُ الأداةَ المتواضعة فى يد القوى العلى وأيدى هؤلاء الذين يكادون أن يكونوا شعبه المصطفى ، للعمل على أن يدوم ذلك الذى انبعث من أجله ذلكم النضال العظيم » .

وكان الكتاب الذى يشير إليه لنكولن فى هذه الذكرى هو بعينه ذلك الكتاب الذى أعاره إياه أحد معارفه والذى بللته قطرات المطر فأصابته ببعض العطب ، وتركت الصبي الفقير فى حال شديدة من الغم حتى لقد سار يحمله إلى إلى صاحبه وهو شديد الحيرة ، فلما جاءه عرض عليه أن يأجره عنده بما يساوى ثمن الكتاب ؛ ذلك هو الكتاب الذى قرأ فيه الغلام النجار فى الغابة حياة وشنطون العظيم ، ولم يك يدور بخلده أنه سيجلس يوماً حيث كان يجلس وشنطون ويسدى إلى بنى قومه وإلى الإنسانية جميعاً من صنيعه ما لو شهده ذلك البطل العظيم لتمنى لو كان مما قدمت يداه فوق ما قدمتا ...

واستأنف الرئيس لنكولن ومن معه سيرهم إلى العاصمة حتى وصلوا فيلادلفيا ؛ وهناك علم أن فريقاً من بنى جنسه يأتمرون به ليقتلوه !.. سمع ابراهام أن أمامه الخطر يوشك أن يحدق به ؛ وما كان ابراهام بدعاً من العظماء ، فكم من أماثل خلوا من قبله لاقوا مثلما يلاقى اليوم من عنت ودبر لهم مثلما يدبر له ، فما وهنوا ولا انصرفوا عن وجهتهم حتى أدركوا الغاية أو أدركهم الموت .

وارتاب لنكولن أول الأمر ؛ فما كان يظن أن أحداً تحدثه نفسه بأتيان هذا

العمل ، ولكن جاءه رسول من صديقه سيوارد ينبئه أن قائد الجيش حدثه أن مكيدة تدبر له ، وأن عليه أن يحذر حتى لا يكون ضحية للغادرين ... فلما سمع لنكولن هذا لم يعد يرتاب وبات على حذر وإن لم تأخذه خيفة .

وكانت لفلادلفيا وهي المدينة التي كتب الثوار فيها وثيقة الاستقلال وصاحوا صيحة الحرية منزلة عظيمة فى نفسه وفى نفس كل أمريكي من أنصار الحريه ، وكان أبراهام قد رضي أن يخطب الناس فى تلك القاعة التاريخية التي ولدت فى ساحتها الحرية ، وكأنما توافقت الذكريات لتزيد من جلال الموقف فقد تصادف أن كان ذلك اليوم هو يوم ميلاد الزعيم وشنطون ، ورغب الناس أن يرفع العلم على القاعة الزعيم لنكولن ، وقبل لنكولن مغتبطاً مرحباً كما قبل أن يخطب الناس مساء ذلك اليوم فى مدينة هرسبرج وكانت تقع غير بعيد من فيلادلفيا .

وخشي أصحاب أبراهام أن يفتك به المجرمون فى زحمة الناس فى ذلك اليوم المشهود فى أى من المدينتين ، وأشاروا عليه أن يقتصد فى الاتصال بالناس فيفوت على الغادرين مقصدهم ، ولكنه أبى إلا أن يفي بوعده ولو كان فى ذلك هلاكه ...

ورفع أبراهام العلم فى فيلادلفيا وكان موفقاً فى ذلك ، فقد صعد فى ثبات إلى حيث يقوم العمود الذى يثبت فيه العلم فشد الحبل فانبسط العلم ورف ، وصفق الناس واستبشروا وهم ساعتئذ جموع خلفها جموع إلى غاية ما يذهب فيهم البصر ، وكلهم يحيون الرئيس فى حماسة وغبطة .

وخطب فى القاعة التاريخية فأفصح عن شيء من سياسته على غير ما جرى عليه فى خطبه السالفة ، قال « كثيراً ما سألت نفسي ما ذلك المبدأ أو ما تلك الفكرة التي حفظت الاتحاد هذا الزمن الطويل ؟ إنها لم تك مجرد انفصال المستعمرات عن الأرض الأصلية ، ولكنها كانت تلك العاطفة التي ولدت الحرية لا لهذه الأمة فحسب ولكن للناس جميعاً فى كل عصر مقبل كما أرجو ؛ إنها كانت تلك العاطفة التي بشرت أنه متى حان الوقت المناسب رفع العبء عن كواهل الناس جميعاً ومنح كل امرىء فرصة بقدر ما يمنح أخوه ... تلك هى العاطفة التي انطوى عليها إعلان الاستقلال ؛ والآن إنى أسائلكم يا أصدقائى هل يتسنى خلاص هذه البلاد على هذا الأساس ؟ إذا أمكن ذلك فإنى أعد نفسي إن استطعت أن أساعد

على خلاصها من أسعد الناس فى هذا العالم ؛ أما إن كان من المستحيل إلا أن يضحى بهذا المبدأ فأنى أفضل أن أقتل هنا على أن أضحى به ... والآن أرى أنه ليس ثمة من ضرورة إلى سفك الدماء والحرب ؛ ليس ثمة ضرورة إليها ؛ وإنى لا أميل إلى اتجاه كهذا ؛ وأضيف إلى ذلك أنه لن تقوم حرب إلا إذا أجبرت الحكومة عليها ، ولن تلجأ الحكومة إلى القوة إلا إذا شهر فى وجهها سلاح القوة ... أى أصدقائى ! هذه كلمات جاءت على غير ترتيب سابق ألبتة فأنا لم أك أتوقع قبل وصولى أنى سوف أدعى إلى الكلام هنا ؛ لم أك أحسب إلا أنى سأرفع العلم فحسب ؛ وعلى ذلك فربما كانت كلمتى هذه ينقصها الحرص ولكنى لم أقل إلا ما أريد أن أعيش عليه وما أريد — إذا كانت هذه مشيئة الله — أن أموت عليه ».

وذهب لنكولن فى المساء إلى هرسبرج وخطب الناس كما وعد ، وكانت بلتيمور هى المدينة التى اعتزم المجرمون أن يقتلوه فيها وهى فى طريقه إلى العاصمة ؛ فعاد لنكولن إلى فيلادلفيا قبل الوعد المضروب ، وركب ومن معه قطاراً عادياً كان قد استبقى بناء على إشارة قادمة ليحمل « طرداً » هاماً إلى وشنطون ، وترك لنكولن القطار الخاص الذى كان معداً لسفره ، فمر ببلتيمور قبل الموعد المعروف ففوت بذلك على الكائدين كيدهم فكانوا هم المكيدين ...

وفى الساعة السادسة من صباح اليوم التالى بلغ الرجل القادم من الغرب ومن معه وشنطون فدخل المدينة على حين غفلة من أهلها اللهم خلا سيوارد ورجلا آخر كانا على علم بمقدمه فلقياه ... وركب لنكولن إلى فندق لينتظر بضعة أيام حتى يحتفل بتسلمه أزمة الحكم .

دخل الزعيم لنكولن عاصمة البلاد فى مثل تلك الساعة المبكرة وفى مثل تلك الحال المتواضعة ليجلس فى كرسى الرياسة الذى جلس فيه من قبل وشنطون ؛ دخل ليحمل العبء وليبدأ فى حياته مرحلة من الجهاد والجلاد دونها كل ما سلف من جهاد وجلاد ...

أقام لنكولن فى الفندق ينتظر يوم الاحتفال ، وإنه ليحس أنه كالغريب فى هذه المدينة العظيمة ، ولقد كان كثير من أهلها يتوقعون قبل وصوله أن تصلهم الأنباء عن مقتله فى الطريق ؛ فلما فوت على الماكرين قصدهم ودخل المدينة ولم تزل عافية أصاب المؤتمرين به كمد وغم ؛ ولكن هل فاتت الفرصة فلا سبيل لهم إليه بعدها ؟ كلا ... فما يزال الكائدون يتربصون به حتى لقد سرت فى الناس إشاعة قوية أنه لن يحتفل بالرئيس الجديد ؛ وأنه راجع إلى سبرنجفيلد قبل ذلك اليوم حيا أو ميتاً ...

وكانت المدينة إلى أهل الجنوب أكثر ميلا منها إلى أهل الشمال ؛ وكان سادتها وكبراؤها ممن يقتنون العبيد ويتمسكون بنظام العبيد ؛ وكانت تقع عين القادم إلى المدينة على العبيد رائحين غادين ؛ ولقد كان هذا منظراً تنفر منه عينا لنكولن وهو يطل من الفندق على المدينة ؛ وكان ذوو النفوذ من أهلها يكرهون الجمهوريين ولا يشيرون إليهم إلا بقولهم الجمهوريين السود ... لذلك أحس إبراهام أنه فى جو غير جوه كالنبات نقل إلى حيث لا يجدى معه رى ولا ينفع غذاء ...

وجلس إبراهام يفكر ويتدبر ... فإذا امتد إلى الحاضر فكره رأى كيف تشيع الفتنة ، وكيف يستفحل الشر ، وكيف يزلزل بناء الاتحاد حتى لينهار حجراً بعد حجر ؛ وإذا استشرفت للمستقبل نفسه ... رأى ظلمات فوقها ظلمات ... فالحرب كما يبدو له واقعة لا محالة ، ما لم يحدث ما ليس فى حسبان أحد ، وهى إذا شبت نارها واستعرت اكتوى بسعيرها أبناء الوطن الواحد وأصحاب المصلحة الواحدة ؛ إنها حرب سوف تكون بين نصفى شعب لن يكون بقاؤه وسعادته إلا فى اتحاد كلمته والتئام شمله ...

وليت الفتنة اقتصرت على الناس ولم تمتد إلى الحكومة ، إذاً لكانت أهون على الرئيس وعلى الشعب ، فها هى ذى كما رأينا قد اندست حتى تغلغلت فى وحدات الجيش والبحرية والسادة المسؤولين من رجال الدولة ؛ ولقد وقف بكانان حائراً

لا يدرى ما يأخذ مما يدع ، حتى لم يعد فى إمكانه أن يحسم الشر ، فكان وجوده حتى ذلك اليوم على رأس الحكومة شراً على شر ...

ولكن إبراهام لم يك من طراز باكانان ، وحسبه عزمه المصمم الجبار فى هذا الموقف الرهيب ، هذا إلى إخلاصه وكراهته للعدوان ويقينه الذى لا يداخله شك ولا يحوم حوله شىء مما ينسج الباطل من وهم ، وما يصور من ريبة ...

ولقد أشفق من لم يكونوا يعرفونه ، بل لقد جزع بعض الناس من أن تلقى أزمة الحكم فى مثل هذه الظروف فى يدى رجل هو فى زعمهم لم تحسن يداه أن تقبضا على شىء غير المعول ؛ وعجبوا أن تترك الأمور للرجل القادم من الغرب ، لذلك المحامى الذى كان من قبل يخطط الأرض ويوزع البريد ، والذى نشأ بين الأحراج وغا كما ينمو وحشى النبات ؛ وسخط أعداؤه ممن لا يجهلون مقدرته ، واشتد بهم الغيظ ألا يجلس فى كرسى الرياسة يومئذ إلا هذا الجمهورى الأسود ، كما شاء لهم حنقهم أن ينعتوه ، هذا الذى يعد كما زعمون فى الجمهوريين كبيرهم الذى علمهم ما يلوكونه من عبارات تؤذى الأسماع وتحز القلوب وتقبض الصدور!

أما الذين عرفوا لنكولن وخبروا خلاله ، فما خالطهم شك فى أنه الرجل الذى ليس غيره فى الرجال تكون على يده السلامة ويتم الخلاص ؛ والحق لقد خلقت الحوادث هذه الأزمة ، وخلقت فى الوقت نفسه الرجل الذى ينهض لها ، والذى لا يقوى على حمل أعبائها سواه ؛ ولو لم يكن فى أمريكا يومئذ ذلك الرجل الذى أخرجته أحراجها لتغير تاريخها باتخاذه وجهة غير التى سار فيها ...

وإنا لنرى فى إبراهام أحد الأفذاذ الذين يبرهنون بأعمالهم على فساد الرأى القائل بأن الظروف هى التى تكون العظماء ؛ فهذا رجل نجم عن أبوين فقيرين ، ودرج بين أحراج الغابة وألفافها ، فلما واجه الحياة وأخذ يعول نفسه راح يشق طريقه فى زحمتها ومفاوزها كما كان يشق طريقه بين الأدغال ، ولا عاصم له مما كان يحيط به إلا عزيمته وفتوته ...

راح إبراهام يستقبل الحياة ويمشى فى مناكبها ، وكأن الظروف كلها من عدوه ؛ فما زال يغالب الظروف وتغالبه ويعركها وتعركه ، حتى بلغ موضع الرياسة فى قومه دون أن يستمد العون مرة من أحد ، أو أن تكون له وسيلة من جاه

أو مال أو حظوة عند ذى قوة ، أو غير هذا وذاك مما يبتغى به الناس الوسائل إلى ما يطمحون إليه من غايات ...

ولما أن بلغ هذا الوضع كانت البلاد تتوثب فيها الفتنة ويتحفز الشر ، فكانت الظروف يومئذ كأسوأ ما تكون الظروف ؛ ولكنه على الرغم من ذلك سار إلى غايته غير خائف ولا وان ولا منصرف عن وجهته إلى وجهة غيرها حتى عقد له النصر وتم له أداء رسالته

وكيف لعمرى تخلق الظروف العظماء ؟ وكيف يسمى عظيما ذلك الذى تخدمه الظروف فلا يكون له من فضل إلا ما يجيء عن طريق المصادفة ؟ ألا إن العظيم الحق هو الذى تخاصمه الظروف فينجح على الرغم مما تكيد به الظروف ، وتتجهم له الأيام فيقدم على العظائم على الرغم من تجهم الأيام ، وتعترضه الصعاب الشداد ، فلا تثنى عزيمته أشد الصعاب ؛ بذلك تكون الظروف هى التى تخلق العظماء ، فيكون الرجل الذى يظهر عليها ويظفر على الرغم منها هو العظيم ، ويكون فى ذلك كالدر تظهر النار حقيقة جوهره .

لبث إبراهام فى الفندق ينتظر حتى يتخلى له باكانان الشيخ عن قيادة السفينة ؛ وكان إبراهام يستمع إلى دوى العاصفة يزداد يوماً بعد يوم ، فيتلفت فلا يرى حوله غير سيوارد ؛ ولكن سيوارد لا يلبث أن يدب بينه وبين صاحبه خلاف شديد ، فلقد كبر على سيوارد ألا يشاوره إبراهام فى الخطبة التى أعدها ليوم الاحتفال ، وكان قد كتبها قبل أن يسافر من سبرنجفيلد ...

وعلم إبراهام بالأمر فألقى بالخطبة بين يدى صاحبه ، فاقترح عليه سيوارد أن يغير فيها أشياء وأن يضيف إليها أشياء ، فلم ير إبراهام رأيه ؛ على أنه قبل أن يضيف إلى الخطبة خاتمة كتبها سيوارد وتناولها إبراهام بالتغيير ليلتئم أسلوبها مع أسلوب الخطبة ؛ وظن إبراهام أنه أرضى بذلك صديقه ... ولكنه فوجئ فى اليوم السابق ليوم الاحتفال بكتاب من عند صاحبه ينبئه فيه أنه يتحلل من وعده الذى سبق أن قطعه على نفسه بالاشتراك معه فى الحكم ! وطوى إبراهام الكتاب متألماً مكتئباً ... ألا ما أشد عنت الأيام ! حتى سيوارد ذلك الذى ليس غيره ترجى منه المعونة تكون من جانبه العقبات ؟

وأشرقت شمس اليوم الرابع من مارس عام ١٨٦١ ، وكان يوماً من أيام الربيع طلق المحيا رخى النسائم ، فخرج الناس يشهدون موكب الرئيس الجديد ؛ وكان موكب الاحتفال بولاية الرئيس من أعظم ما تهتم به البلاد ؛ وهو فى هذه المرة أجل قدراً منه فى كل ما سلف من الأيام ؛ وذلك لما كان يحيط بولاية إبراهام من معان تجيش بها نفوس الخصوم والأنصار !

وقضى إبراهام صباح ذلك اليوم يقرأ خطبته ويهذبها بالحذف والأضافة ، حتى متع النهار فجاء الرئيس باكانان فى عربة إلى الفندق ، فركب إلى جانبه إبراهام والناس على جانبى الطريق إلى الكابتول ، تقع أعينهم على الرجلين ، فهذا هو الرئيس القديم يشيع فى رأسه الشيب ، ويبدو على بدنه ومحياه الهزال من أثر السنين ، ومن أثر ما حمل من عبء أوشك أن يلقيه عن كاهله وقد أربى اليوم على السبعين .. وهذا هو الرئيس الجديد يبدو فتياً قوياً وهو يومئذ فى الثانية والخمسين ؛ هذا هو الرجل القادم من الغرب ! هذا هو ابن الغابة ! تملأ الأعين قامته الطويلة التى تلوح أكثر طولا إلى جانب صاحبه الشيخ الضئيل الجرم ؛ وهو يرتدى اليوم حلة ما ارتدى مثلها من قبل ، حلة ارتضتها له مارى وهيأتها لذلك اليوم ، ثم هو يقبض على عصا جميلة أنيقة بيده الضخمة التى أكسبها فى صدر أيامه حمل المعول كبرها وخشونتها .

وضاقت بالناس الطرقات ؛ وكان رجال الشرطة قد أبعدوا الجموع قليلا عن حافتى الطوارين ، وقد أمرهم كبيرهم ألا يسمحوا بأى عبث بالنظام مهما خيل إليهم أنه تافه ؛ وكان كبير الشرطة يخاف أن تمتد أيدى الآثمين إلى الرئيس بالعدوان ، إذ كانت الإشاعات قد اتخذت مجراها فى كل سبيل ، وملأ الهمس بها الآذان ووجفت من هول ما تتصور الجريمة قلوبُ الكثيرين من المخلصين .

وبلغ الرئيس مكان الاحتفال ، وهو مرتفع أعد لهذا الغرض ، وقد امتلأت الساحة المحيطة به بجموع من الناس حتى ما تتسع لقدم ... وكان على مقربة من المكان تمثال وشنطون المنحوت من الرمر الأبيض يتلألأ فى ضوء الشمس وتنبعث منه معانى العظمة والبطولة والحرية والفداء ...

ووقف الرئيس لنكولن يوجه الكلام للشعب جميعاً لأول مرة ؛ وقف

ابن الأحراج أمام هاتيك الجموع ثبت الجنان ، مستوى القامة ، مرفوع الهامة ، وألقى نظرة أمامه على علية القوم من الشيوخ والأعيان ورجال الجيش ورجال الدين والقضاة وغيرهم وغيرهم ، ثم مد بصره في الجموع وقد سكنت ريحهم قتهيأ للكلام ... ولكن ماذا عراه ؟ لقد وقف يمسك بإحدى يديه قبعته وبالأخرى عصاه فكيف يمسك الورق ليتلو منه خطبته ؟ ها هو ذا يسند العصا إلى الحاجز الخشبي أمامه فأين يضع القبعة ؟ لقد أوشك أن يقع في ورطة وأوشك أن يثير ضحك الخصوم بحيرته ؛ ولكن ها هو ذا رجل يثب من مكانه وكان يجلس منه في سمت بصره فيأخذ القبعة من يده ، ومن هو ذلك الرجل ؟ إنه دوجلاس خصمه القديم ومنافسه بالأمس ذو البأس الشديد ...

وكان دعاة الانسحاب من أنصار الجنوب يأملون أن يتهدد لنكولن الولايات الجنوبية ويتوعدها فيشتد بذلك الهياج في تلك الولايات ويتعذر بعدها أن يجنح أهلها للسلم ، ولكن لنكولن خيب ظنونهم وزادهم بحكمته وحصافته ويقظته وبعد نظره غماً على غم ...

كانت خطبته خير مثال للاعتدال في غير تفريط ، وللتواضع في غير استخزاء أو استسلام ، وللتحذير في غير إثارة أو استفزاز ، وللمرونة في غير رياء أو التواء ، وللعدالة في غير جفاء أو عداء ، كما كانت كالسلسل العذب سهولة لفظ وفصاحة عبارة ، هذا إلى ما امتازت به من نصوع البرهان ومتانة الحجة واستقامة المنطق وبراعة السياق ودقة الألمام بالموضوع والأحاطة به من أقطاره جميعاً ، وحسن التفطن إلى ما كان يشغل يومئذ الأذهان

وكان الخطيب رنان الصوت ، قوى الجرس ، حسن الأشارات بيديه ، على محياه الجد والهيبة والعزم ، وفي كلاته حرارة الأيمان وقوة اليقين وصدق الأخلاص، ولذلك كانت عباراته تنفذ إلى قلوب أنصاره وخصومه على السواء ؛ وإن كان خصومه ليكرهون فوزه ويتكرون مبادئه ...

قال يشير إلى مخاوف أهل الجنوب « يظهر أن المخاوف تنتشر في الولايات الجنوبية ، ومبعثها أن قبولهم حكم الجمهوريين من شأنه أن يعرض أملاكهم وسلامتهم وأمنهم على أشخاصهم للمخاطر؛ ألا إنه ليس ثمة من سبب معقول لهذه

المخاوف ، بل لقد قامت بينهم أقوى شهادة على نقيض ذلك ، وكانت دائماً تحت أسماعهم وأبصارهم ، إنها كانت توجد فى كل خطبة من خطب محدثكم الآن ، وإنى لأقتبس من إحدى تلك الخطب إذ أقول أنه ليس لى من غرض مباشر أو غير مباشر للتدخل فى نظام الرق فى الولايات التى يقوم فيها هذا النظام ؛ وإنى لأعتقد أنه ليس من حقى أن أفعل ذلك وأن الذين رشحونى وانتخبونى إنما فعلوا ذلك وهم على أتم علم بأنى كثيراً ما صرحت بمثل هذا ، وما تزحزحت مرة عما قلت »

ولم يقف الرئيس فى اعتداله عند هذا الحد ، بل لقد ذهب إلى التصريح بأن العبد الآبق إلى الولايات الحرة لا تمنح له الحرية ، ولقد أشفق كثير من أنصاره من هـذا التصريح ، ولـكن لنكولن يستند فى ذلك إلى مبادىء الحزب التى لا يمنح بمقتضاها العبد حريته إلا إذا ذهب مع سـيده غير آبق إلى ولاية حرة فأقام فيها .

وتكلم لنكولن عن انسحاب الولايات من الاتحاد فقال « لن يخول القانون لأية ولاية حق الانسحاب ... ثم أردف قائلا إن القسم الذى أقسمه على المحافظة على الدستور يجعل لزاماً عليه أن يؤدى واجبه فيعمل على أن يكون قانون الولايات المتحدة نافذاً فى جميع الولايات ، واختتم الحديث فى هذا الموضوع بقوله « إنى واثق من أنكم لن تحملوا على التهديد كلامى ، بل إنها كلمة الاتحاد يعلن أنه سوف يحمى بناءه ويدعمه على أساس من الدستور وهو إذ يفعل ذلك لا يرى ثمة حاجة إلى سفك الدماء أو العنف ، وسوف لا يكون شىء من هذا إلا إذا أجبرت عليه السلطة القومية » ...

وأشار إلى الوحدة من الوجهة العضوية فقال إن نصف الشعب لا يستطيع أن يقوم بغير النصف الآخر ، وإذا كان فى الدستور عيب فمن الممكن إصلاحه بمؤتمر يجتمع فيه ممثلو الشعب . فإذا رأى الشعب الانفصال حقاً لـكل ولاية فله رأيه وليفعل كما يرى ، أما هو فما يملك من قوة إلا ما منحه الشعب .

وتكلم عن الداعين إلى الثورة فقال إنه لا مبرر للثورة إلا إذا لجأت الأغلبية إلى الطغيان ؛ ومثـل هذا المبرر لا وجود له ، وإن الانسحاب معناه الفوضى ولا نتيجة للفوضى إلا الاستبداد ...

واختتم لنكولن خطبته بتلك العبارة التى اقترحها سيوارد وتناولها هو بالتعديل قال « لسنا أعداء بل نحن أصدقاء ، ويجب الا نكون أعداء ؛ ولو أن الغضب قد جذب حبال مودتنا إلا أنه يجب الا يقطعها ؛ وإن الأناشيد الخفية التى ترن فى الذاكرة منبعثة من كل ميدان من ميادين القتال ومن كل قبر من قبور الوطنيين إلى كل قلب حى وإلى جانب كل موقد فى هذه البلاد العريضة ، لتزيد جوقة الاتحاد إذا ما مسها ثانية وحى من طبيعتنا ، كما نثق أنه واقع » .

وأقسم أبراهام وعيناه على الأنجيل ؛ وتولى صيغة القسم القاضى تين ، صاحب قضية دردسكوت الشهيرة وكان يومئذ القاضى الأعلى للبلاد . وبعد أن أدى أبراهام القسم على أن يحترم الدستور ويحافظ على قوانين البلاد سار إلى البيت الأبيض ؛ وكان أول عمل له عقب وصوله أن تناول القلم فكتب إلى سيوارد الكتاب الآتى :—

« سيدى العزيز : تسلمت رقعتك المؤرخة اليوم الثانى من الشهر الحالى ، والتى تسألنى فيها أن أقبل انسحابك من الاشتراك معى فى إدارة شؤون الحكم ؛ ولقد كانت رقعتك هذه سبباً لأعظم القلق عندى إيلاماً ؛ وإنى لأشعر أنى مضطر إلى أن أرجو منك أن تلغى هذا الانسحاب . إن الصالح العام ليدعوك أن تفعل هذا ، وإن شعورى الشخصى ليتجه فى قوة نفس الاتجاه ؛ أرجو أن تتدبر فى الأمر وأن يصلنى رد منك فى الساعة التاسعة من صباح الغد ... خادمك المطيع : أبراهام »

جلس أبراهام ينتظر رد سيوارد بصبر فارغ وفؤاد قلق ، فأنه ليعجب كيف يقف منه صاحبه مثل هذا الموقف ؛ على أنه لن يحجم عن مواجهة العاصفة وحده مهما بلغ من شدتها ، وإن كان ليرجو بينه وبين نفسه أن يظل سيوارد إلى جانبه فى تلك الشدة التى تطيش فى مثلها أحلام الرجال وإن كانت تزن الجبال ...

يود أبراهام أن يستعين بصاحبه فهو واثق من كفايته مطمئن إلى إخلاصه .. وما بال الرئيس تزداد سحابة الهم كدرة على محياه حتى ليبدو للأعين كمن أخذته غاشية من حزن أليم ؟ ما باله طويل الإطراق كثير الصمت ، لا يستمع إلى حديث زوجته إلا قليلا ولا يشاطرها جذلها ومرحها ولا يشاركها فيما دب فى قلبها من الزهو عما باتا يتقلبان فيه من نعمة ويحظيان به من جاه ؟

إنما يكرب الرئيس ما آلت إليه حال بلاده ، فما به خوف أو تردد وما هو عن بذل روحه بضنين ، وإنه ليحزنه أن يكون بنو قومه بعضهم لبعض عدوا فى غير موجب لذلك ، وهم فى عماية عن الحق من تبلبل أفكارهم وتسلط العناد على نفوسهم ، وما له إلى هديهم بالتى هى أحسن ، حيلة ...

ورضى سيوارد آخر الأمر أن يعمل مع أبراهام ؛ وقد كان سيوارد قليل الثقة فى كفاية صاحبه فى إدارة أمور الحكم لأنه لم يسبق له أن شغل منصباً إدارياً قبل هذا المنصب الخطير ، ولذلك كان يطمع سيوارد أن تكون له السلطة فعلا وتكون للرئيس الرياسة فحسب ؛ وبهذه الروح بدأ العمل مع صاحبه ...

واختار لنكولن رجالا للحكومة كون منهم مجلسه ومن أشهر هؤلاء تشيس وكان من أعظمهم كفاية بعد سيوارد غير أنه لوحظ على الرئيس أن أربعة من رجال مجلسه كانوا من منافسيه فى الرياسة ، مما يخشى معه أن ينسوا الصالح العام وأن يعمل كل منهم على توطيد مكانته توطئه للانتخاب القادم ، ولكن لنكولن رد على ذلك بما أملاه عليه بعد نظره ، فلكل من هؤلاء شيعة وأعوان ، وكل منهم يمثل ولاية من الولايات الشمالية ، هذا إلى ما يعلمه من كفايتهم ، وإنه ليركن إليهم مطمئناً إلى وطنيتهم قائلا إن الوقت عصيب فما يظن أن أحداً تحدثه نفسه أن يعمل لصالحه الشخصى فى ظروف كتلك الظروف ...

ولما جلس لنكولن بينهم حول المنضدة عرف كيف يؤلف بين قلوبهم وكيف يحملهم على احترامه وعلى محبته ثم على الإذعان له والتسليم بالتفوق ؛ ولقد باتوا جميعاً يعجبون كيف يدبر الأمور كما يرون ويلمسون رجل لم يعهد إليه مثل هذا العمل من قبل ، ولولا أنهم جميعاً يعرفونه ما صدقوا أن هذه أول مرة يضطلع فيها بمثل هذا العمل ...

رأوه يخفض لهم جناحه ويبسط مودته ويوسع صدره ؛ يستمع لآرائهم جميعاً ولا يتكلم حتى يفرغوا من أقوالهم ، فإذا أعجبه رأى قبله مغتبطاً ، وإذا خالف أحداً فى رأيه أظهر له فى دماثة سبب مخالفته إياه مع شدة الحرص على احترام شخصية من يخالفه وإظهار الاستعداد للاقتناع إذا استطاع محدثه أن يزيده إيضاحاً أو يسوق له الجديد من الحجج ...

وعرفوا خلاله من كثب ، فأعجبوا بأدبه وعذوبة روحه ونقاء سريرته وطيبة قلبه ؛ ولمسوا شجاعته فى الحق ، وأنسوا نكرانه لذاته ونسيانه كل شيء إلا رسالته التي يستمد منهم العون فى أدائها ؛ وبلوا بأنفسهم صبره فى الشدائد وعزيمته إذا هو بما اقتنع بصوابه ؛ وتبينوا حصافته وأناته وبعد نظره ، وبهرهم فوق هذا ذهنه الصافى ومنطقه المستقيم ، وأعجبتهم فصاحته وفطنته ، تلك الخلال التى جعلته أقدر الناس فيهم على أن يفصح عن آرائه لمن يستمع إليه ، وأن يتبين ما يأخذ مما يدع فى كل ما يعرض له من الأمور مهما تعقدت على غيره والتوت الأمور ...

ولقد عد كثير من المؤرخين إدارة لنكولن مجلسه على هذه الصورة مظهراً قويا من مظاهر عظمته وناحية بارزة من نواحى نجاحه ، وسلكوه بها فى ثبت كبار الساسة فى تاريخ الأمم ، ولا عجب فإنه ليندر أن نجد فى سجل الأيام مجلساً حكومياً شعر أعضاؤه بمثل ما شعر به أعضاء هذا المجلس من معانى الاحترام نحو رئيسهم ، لا يستثنى منهم أحد حتى سيوارد ذلك الذى كان يدل أول الأمر بتجاربه ودرايته بأساليب الحكم والسياسة فإنه ما لبث أن اعترف فى نبل وكرم نفس أن صاحبه أقدر على ذلك المنصب وأجدر به منه ...

لنکولن و مجلس وزرائہ
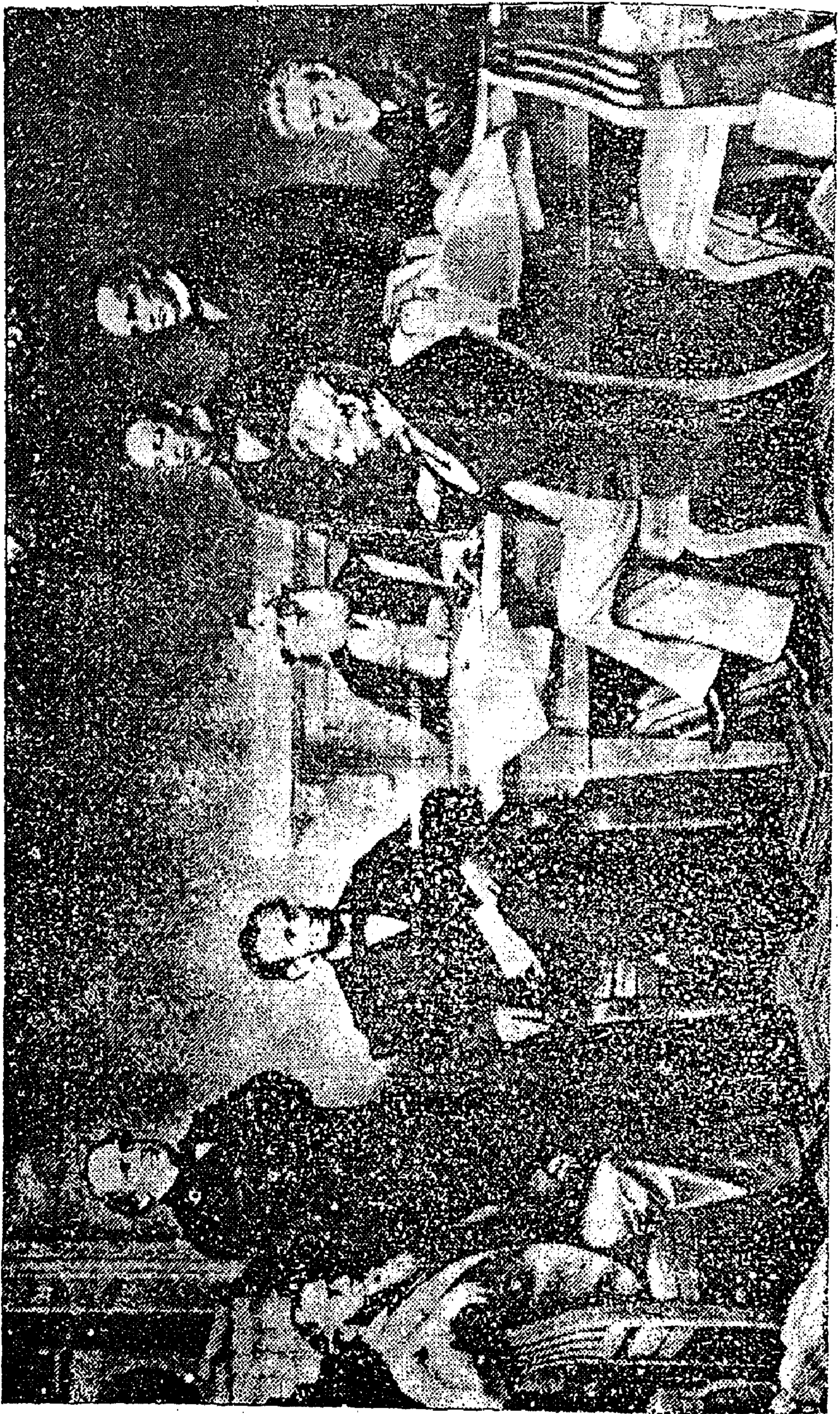
كان أول ما تلقاه الرئيس من البريد فى صباح اليوم التالى لتسلمه العمل خطاباً من الجنرال أندرسون فى حصن سمتر ينبئه فيه أنه ما لم يصل مدد إلى الحصن فأنه لا يقوى على الدفاع عنه أكثر من أسبوع

وكان أهل الجنوب وأهل الشمال على اتفاق ألا يهاجم أنصار الانسحاب الحصن إلا إذا رأوا من أهل الشمال ما يبرر ذلك ؛ وماذا عسى أن يفعل الرئيس إذاً ؟ أيترك حامية الحصن بلا مدد أم يرسل المدد فيتحدى بذلك أهل الجنوب ؟ إن عليه أن يختار بين أمرين أحلاهما مر ...

لذلك أخذ الرئيس يتدبر عله يجد مخرجاً ، وهو على عادته طويل الأناة لايخطو خطوة قبل أن يحسب لكل أمر حساباً . ولكن سيوارد يضيق ذرعاً بهذه الأناة وينصح للرئيس أن يأمر بأخلاء الحصن ، وكذلك يشير عليه سكت رأس جنده؛ وهو لا يرى ما يريان فالمسألة دقيقة شائكة ؛ أو ليس التخلى عن الحصن معناه الاعتراف ضمناً لأهل الجنوب بصواب دعوتهم إلى الانسحاب ؟ ثم أليس فى ذلك خروج على ما أعلن الرئيس فى خطبة الاحتفال ؟ وهو إن أرسل المدد إلى الحصن ألا يعتبر عمله هذا تحدياً للثائرين فيكون بذلك هو الذى خطا أول خطوة نحو الحرب ، الأمر الذى يحرص أشد الحرص أن يتجنبه ؟ إذاً فلا بد من الروية والتدبر والصبر ...

وجاء رجلان من الجنوب إلى العاصمة الشمالية كممثلين لدولة أجنبية يطلبان أن يفاوضا لنكولن على هذا الأساس ، ولكنه رفض أن يلقاهما ولم يفعل أكثر من أن يرسل إلى كل منهما نسخة من خطبته ... ولقد طلب إليه بعض الناس أن يحبسهما على أنهما خارجان على القانون ولكنه رفض أن يفعل ذلك حتى لا تزداد الفتنة . . . وبقى الرجلان فى العاصمة يجممان الأنباء ويرسلانها إلى أهل الجنوب ...

والصحف تهيب بالرئيس أن يأتى عملا ، ولكنه صامت يفكر . . .
والرأى العام يغلى كالمرجل حتى لقد أطلق بعض الناس ألسنتهم فيه بالسوء من القول ، فهو غر جبان متورط لا رأى له ولا بصيرة ولا حزم ، إلى غير ذلك مما باتت تنوشه به الألسن

وتفرق الناس فى الشمال شيعاً ، فنهم من يرى وجوب الحرب ، ومنهم من لا يرضى إلا المسالمة والاتفاق ، وأكثر هؤلاء من التجار والصناع الذين لا يستغنون عن الجنوب ؛ ومنهم من يتذمر ويتبرم ولكنه لا يرى شيئاً ولا يحس غير القلق والخوف ، والرئيس لا يجيب إلا بقوله « إذا أخلى أندرسون حصن سمتر فسيكون على أنا أن أخلى البيت الأبيض »

ويهتدى ابن الأحراج بعد طول روية إلى رأى فيه دليل قوى على حنكته السياسية حتى لكأنه مارس السياسة طول حياته ، وذلك أنه يزمع أن يرسل القوت فحسب إلى الحصن ، وحجته أن ذلك عمل إنسانى لا عدوان فيه ، فإذا قبل الثائرون هذا حلت المشكلة ؛ أما إذا قابلوا ذلك بالقوة فعليهم اثم ما يفعلون فهم بذلك يكونون بادىء العدوان ومشعلى نار الحرب ... ولأهل الشمال بعد ذلك أن يدفعوا عن أنفسهم العدوان إن كانت فى نفوسهم حمية وفى رؤوسهم نخوة الرجال ...

وتسير السفن محملة بالقوت ، بعد أن يرسل الرئيس نبأ عنها إلى قائد الثوار حول الحصن ، ولكن القائد لا يكاد يبصر السفن من بعد ، حتى يطلق النار على الحصن فيسقط علم الاتحاد وتنسحب الحامية بعد دفاع مجيد . .

ووثب أهل الشمال للنبأ وثبة واحدة فلا خلاف بينهم بعد ذلك ولا تنازع ، وما فيهم إلا من يريد الدفاع عن الاتحاد ورد الأهانة التى لحقت العلم الذى طالما خفق على رأس وشنطون وجنوده البواسل غداة حرب الاستقلال ...

وما حدث فى تاريخ أمريكا كله أن تحمس الشعب إلى الدعوة للجهاد كما تحمس أهل الشمال يومئذ فلقد كان الشيوخ قبل الشباب يريدون خوض غمار الحرب ، ولم يتخلف النساء ولم يقعدن عن شحذ العزائم واستنهاض الهمم وإن لم تكن هناك حاجة إلى سعيهن ... أما الشباب البواسل فقد استحبوا الموت

على الحياة فساروا مغتبطين يطرحون نفوسهم تحت الثنايا كأنما يسيرون إلى نزهة لا إلى مثل عذاب الجحيم . .

وهكذا تقع الحرب بين نصفى شعب واحد ؛ ولقد كان الرئيس أكثر الناس فى الشعب جميعاً تألما وكان قلبه الأنسانى الكبير يكاد يتفطر ، ولكن ما الحيلة وهو يرى بناء الاتحاد أمام عينيه ينهار حجراً بعد حجر ؟

وكان الموقف قبل وصول المتطوعين إلى العاصمة أشد ما يكون هولا وخطراً ، فلم يكن لدى لنكولن سوى ثلاثة آلاف ، ولن يستطيع هؤلاء الدفاع عن العاصمة مهما يكن من استماتتهم وشجاعتهم ؛ لذلك سرى الخوف فى المدينة وأيقن أهلها أنها واقعة فى يد الأعداء لا محالة . .

والرئيس يرتقب قدوم المتطوعين لأنقاذ المدينة من الخطر المحدق بها ؛ وأخذ ذلك الخطر تشتد وطأته تبعاً لمسلك الولايات المحايدة وبخاصة فرجينيا ، إذ كانت تلك الولايات تقف من النزاع موقفاً مبهماً ظن من أجله أنها تلتزم الحيدة وإن كانت فى الواقع لتنزع إلى أهل الجنوب ؛ وكانت فرجينيا أقربها موقعاً من وشنطون لا يفصلها عنها إلا نهر ضيق ، فأن هى أعلنت انضمامها إلى الاتحاد الجنوبى بات العدو بذلك على أبواب أهل الشمال ، بل وأصبح البيت الأبيض على مرأى من الجند ؛ لذلك شاع فى الناس أن الجند عما قريب سيعبرون النهر فيستولون على مركز الحكومة ويسوقون لنكولن ومجلسه أسرى بين أيديهم . .

وامتلأت العاصمة بالفزع حين تهامس الناس أن الانفصاليين كما كان يسمى أهل الجنوب يريدون إحداث فتنة فيها وإحراقها ليضعوا الرئيس بين نارين ، ثم حين أخرجت الحكومة النساء والأطفال والمرضى والضعفاء من المدينة .

وتزايد القلق وعظم الهول واشتد بالناس الكرب ، والرئيس يسأل عن المتطوعين فلا يجد جواباً شافياً من أحد ؛ ولن يزال فى ترقبه وقلقه ، يذرع ردهات البيت الأبيض جيئة وذهاباً وهو مطرق يتفكر ، ويسأل موظفيه فلا يظفر منهم إلا بتقليب الأكف والصمت ؛ وينزل الرئيس إلى الشارع وما يزال يمشى حتى يصل إلى مقر جنده فيسألهم عما إذا كان لديهم نبأ عن المتطوعين ومتى يصلون فلا يجد عندهم شيئاً ، ويحس الرجل بحرج بالغ ويرى أنه فى أشد ما عرف

من محنة حتى يومه هـذا ويبلغ به الضجر أن يصيح قائلا « بدأت أعتقد أن لا شمال هناك » !

ويصل إلى العاصمة بعد بضعة أيام قطار يهرول الناس إلى المحطة على صوت صفيره ، فتقع أعينهم على أول فرقة من فرق المتطوعين وهى فرقة نيويورك ، وتعظم حماسة الجميع فيتصايحون ويرددون الأناشيد ؛ وينتعش الأمل فى النفوس وهى ترتقب وصول فرق أخرى

ويبحث الرئيس عن القائد الذى يكل إليه أمر هذه الحرب فلايجد خيرا من قائد يدعى لى ، وكان يومئذ غائباً فى فرجينيا وقد حدثه الثقاة أنه الرجل الذى ينهض بهذا العبء فى ساعة العسرة هذه ؛ ولـكن لى رفض قيادة الجيش فيجزع لنكولن ويكتئب ، ويصور القائد سكت للرئيس الخسارة بقوله إن رفض لى أشد ضرراً مما لو فقد الشمال عشرين ألف رجل .

ويستقيل لى من منصبه وقد انسحبت فرجينيا من الاتحاد وإن لم تنضم بعد إلى الجنوبيين ؛ ويوضع لى على رأس جنود فرجينيا للدفاع عنها وسوف لا يلبث إلا قليلا حتى يصبح القائد العام للجيوش الجنوبية وقد انضمت فرجينيا إلى الاتحاد الجنوبى ونقلت إلى عاصمتها رتشمند حكومة دافز .

وبينما كان يبحث الرئيس عن قائد غيره ينذره أهل بلتيمور عاصمة مارى لاند وهم الذين تآمروا من قبل على قتله أنهم لا يسمحون بمرور جند من ولايتهم لأنهم محايدون ؛ ويتعجب الرئيس قائلا إنه لابد من المدد ولا يستطيع الجنود أن يطيروا فوق مارى لاند ولا أن يزحفوا تحت أرضها فكيف يمنعهم أهلها أن يمروا خلالها ؟

وينقض أهل بلتيمور بعد ذلك على فرقة قادمة من مساشوست، كانت من أقوى الفرق وأعظمها نظاماً ، فيقتلون عدداً منها ويجرحون عدداً ، ويحمل الجرحى على محفات إلى وشنطون ، فتلهب جراحهم حماسة القوم وتثير حميتهم وتزيد بأسهم ...

ولم يكتف الثوار فى بلتيمور بما فعلوا فحطموا الجسور التى تصلهم بالشمال والغرب ، وعطلوا خطوط الحديد المؤدية إلى وشنطون ... ولـكن أحد القواد البواسل الموالين للرئيس لنكولن خرج من وشنطون على رأس فريق من المتطوعين وباغت المدينة ليلا وقبض على كثير من الثوار وقتل نفراً منهم ففت ذلك فى عضدهم

ثم أعلنت ولاية مارى لاند وقد خضعت عاصمتها على هذا النحو انضمامها صراحة إلى الاتحاد ؛ وكانت هذه الخطوة من جانب المتطوعين أولى خطواتهم الموفقة .

وأعلن الرئيس لنكولن الحصار البحرى على موانى الاتحاد الجنوبى ليقطع الصلة بينها وبين العالم ، ثم أهاب بالولايات الخاضعة له أن تمده بمدد جديد من المتطوعين ، فما لبثت أن أمدته بما طلب ، حتى لقد غصت وشنطون بهؤلاء المستبسلين الذين أراد لنكولن أن يستميض بحماستهم عما يعوزهم من التدريب والنظام .

وفى تلك الأيام العصيبة نرى دوجلاس خصم لنكولن القديم يسعى إلى البيت الأبيض ويقابل الرئيس ويفضى إليه بأعجابه بما انتهج من خطة ، ويعده أن يظل إلى جانبه خادماً لقضية الاتحاد ، وتتوثق عرى المودة بين الرجلين ؛ ويستأذن الرئيس صديقه الجديد أن يذيع فى الناس هذا النبأ ، فيأذن دوجلاس مغتبطاً بعد أن يقرأ ما أعد للنشر ؛ ويقابل الجمهوريون هذا النبأ بالابتهاج ، ويشعرون بقوة جديدة يظفر بها أهل الشمال ...

ولا ينى دوجلاس يدافع عن الرئيس وسياسته ، يخطب الناس فى المدن يستحثهم إلى البذل والتضحية ؛ ولايفتأ يضع بين يدى الرئيس من نصحه ومشورته ما يحرص الرئيس على الانتفاع به .

ولكن يد الموت لا تمهل دوجلاس أكثر من شهرين فيلقى حتفه ! ويتلقى لنكولن نبأ الفجيعة فيذرف الدمع السخين ويشتد به الغم حتى يرمض فؤاده ...

ولقد امتدت يد الموت قبل دوجلاس إلى شاب مجاهد كان أول أمره يعمل فى مكتب لنكولن أيام كان يحترف المحاماة ؛ ولقد أعجب لنكولن بذكاء هذا الشاب وملك قلبه شدة محبته له ، فلما سار الرئيس إلى العاصمة سار معه ؛ ولما تحرجت الأمور، برز هذا الشاب الباسل الذى يجمع الفرق ويدربها ويعدها للنضال ... إلى أن كان ذات يوم فأرسله لنكولن إلى ضفة النهر المواجهة للعاصمة ليحتل المرتفعات هناك . .

ثم إن هذا الشاب وكان يدعى إلزورث ذهب على رأس جنده فاحتل الأماكن المعينة ، وهناك بصر بعلم من أعلام الثوار يخفق على جدار فندق فى مدينة صغيرة

تسمى الأسكندرية فتسلق الحائط فى بسالة عجيبة وانتزع العلم من موضعه ، وبينما هو نازل من أعلى الجدار إذ أصابته رصاصة فانكب على وجهه ، وتدفق الدم من قلبه على هذا العلم ، فكانت ميتته هذه ميتة بطل ، تركت فى نفوس أصحابه ما لا يتركه النصر فى معركة حامية ... ولا تسل عما أصاب الرئيس يومئذ من كم وحسرة ؛ لقد حزن على هذا البطل كما كان يحزن لو أن الميت كان وحيده ؛ وجاءت بعده منية دوجلاس فكانت المنيتان فاتحة الكوارث فى هذا النضال العظيم ...

كانت أولى المعارك الكبيرة معركة حدثت فى فرجينيا بعد ثلاثة أشهر من سقوط حصن سمتر عرفت باسم بول رن ؛ وبيان خبرها أن جنود الاتحاد التقوا بجموع الثائرين ، وكانت الحماسة والاستبسال هى كل ما لدى هؤلاء المتطوعين من عدة ، وكان لأهل الجنوب وإن كان معظمهم من المتطوعين كذلك ، قواد مدربون كانوا قبل ذلك فى الجيش النظامى للبلاد وتسللوا منه إلى الجنوب حيث تفرقت الكلمة !

وبدا أول الأمر أن النصر فى جانب الشماليين ، ولكن موجتهم ما لبثت أن انحسرت ، ثم ولوا بعدها هاربين على صورة منكرة ، تبعث على الرثاء حتى لقد قيل إن بعض الفارين لم يقفوا عن العدْو حتى دخلوا منازلهم فى وشنطون .

ودخلت فلول المنهزمين المدينة فى حال شديدة من الذعر والهلع ، وطافت بالناس الشائعات أن المدينة واقعة لا محالة فى أيدى الجنوبيين ، فألقى الرعب فى قلوب السكان وبخاصة حينما وقعت أعينهم على أكثر من ألف من الجرحى ، وحينما علموا أنه قد قتل فى هذا اللقاء الأول خمسون وأربعمائة ...

ولو أن أهل الجنوب تقدموا غداة انتصارهم لأخذوا المدينة ، ما فى ذلك شك ، ولكنهم نكصوا ورضوا من الغنيمة بفرار خصومهم على هذا النحو ، وحسبوا أنهم بعد ذلك أحرار فيما يفعلون فلا خوف عليهم من أهل الشمال ؛ ثم إنهم قد خيل إليهم أن عدد أعدائهم يبلغ خمسين ألفاً أو يزيدون ، مع أنهم لم يتجاوزوا ثمانية عشر ألفاً ...

وكثيراً ما يكون التاريخ فى تطوره رهيناً بحادث صغير ، ومن أروع الأمثلة

على ذلك وقوف أهل الجنوب عن الزحف على وشنطون ؛ ولو أنهم فعلوا لكان للولايات المتحدة وجود غير هذا الوجود ، وتاريخ غير هذا التاريخ ...

وكذلك كان يتغير وجه التاريخ لو أن القنوط يومئذ تمكن من نفوس الناس ولولا أن كان على رأسهم إبراهام لذهبت ريحهم وخارت عزائمهم وتفرقت كلمتهم فلقد صمد ذلك الصنديد للنبأ كشأنه فى كل ما مر به من الحادثات ، ولئن ابتأس للهزيمة وتحسر على الفشل فى أول لقاء علق عليه الكثير من آماله ، فإنه صبر وصمم ألا ينى عن الجهاد مهما بلغ من هول الجهاد ...

وسرعان ما سرت روح ابن الغابة فى الناس ، فعادت إليهم ثقتهم بأنفسهم وازدادوا حماسة على حماسة فما يقر لهم قرار بعد اليوم حتى يغسلوا عن أنفسهم هذه الإهانة الجديدة وينصرون حقهم على باطل أعدائهم .

ولقد استطاعت قوة الشماليين البحرية بعد ذلك أن تستولى على حصنين بالساحل فى موانىء أهل الجنوب ، كما استطاع القائد ما كايلان أن يفصل بقوته البرية الجزء الغربى من فرجينيا عن جزئها الشرقى ويضمه إلى الاتحاد ؛ وكان أكثر أهله ممن يرفضون الانسحاب من الاتحاد فكان ذلك رداً على الهزيمة فى معركة بول رن ...

وكان لنكولن قد دعا الكونجرس ليشاور ممثلى الأمة فى الأمر وليطلعهم على الموقف من جميع نواحيه ولقد بعث إلى الكونجرس برسالة كانت من خير ما كتب من الرسائل ، تناول فيها كل ما يهم الناس يومئذ معرفته .

بدأ لنكولن يسرد الحوادث حتى انتهى إلى موقف أهل الجنوب ، فذكر أنهم وضعوا البلاد بين أمرين : فإما الحرب وإما تفكك الاتحاد .. ثم قال إن الأمر لا يقف عند هذه الولايات المتحدة ، بل إنه ليتمداها إلى مبدأ عام هو مبلغ نجاح الحكومات الديموقراطية القائمة على إرادة الشعب .

ولقد كان لنكولن جد موفق فى إشارته هذه إلى ذلك المبدأ العام ، كان كان يصدر فى ذلك عن طبع ، فهو من أشد أنصار الحرية ومن كبار العاملين على تقرير سـيادة الشعب . .

وتكلم الرئيس عن الولايات الوسطى التى تظاهرت بالحياد فقال « إنها تقيم

سداً لا يجوز اختراقه على الحد الفاصل بيننا ، ومع ذلك فليس هو بالسد الذى لا يخترق ، فأنها تحت ستار الحياد تغل أيدى رجال الاتحاد بينما هى تبيح الطريق فى غير تحرج للأمداد ترسل من بينهم إلى الثوار ، الأمر الذى ما كانت تستطيع فعله أمام عدو صريح »

ورد الرئيس على دعوى جفرسون دافيز زعيم الولايات الجنوبية الذى يقول إن مبدأ الانسحاب حق يبيح القانون الحرب من أجله ؛ ولقد عد الرئيس هذه الدعوى من لغو الكلام قال : « إن الستار الذى يستترون وراءه وهو أن ذلك الحق المزعوم لا يستعمل إلا مع وجود مبرر عادل ، بلغ من التفاهة حداً لا يستحق معه أية ملاحظة ، وهم سيكونون الحكم فى عدالة ذلك المبرر أو عدم عدالته »

وكان رد الرئيس على جفرسون من الخطوات التى ارتاح لها أهل الشمال ، فلقد أشفقوا أن تجد مزاعم جفرسون سبيلها إلى قلوب الأغرار والأغفال .

ثم أهاب الرئيس بالكونجرس أن يمده بالمال والرجال فهو فى حاجة إلى أربعمائة مليون من الدولارات وأربعمائة ألف من الرجال ؛ وسرعان ما أجابه الكونجرس إلى ما طلب فى حماسة جعلته يزيد المدد فى المال والرجال عما طلبه الرئيس ...

وأيقن الناس فى طول البلاد وعرضها ، وقد رأوا من صلابة الرئيس وعزمه ما رأوا ، أن الحرب سيطول أمرها ، فتألفت فى البلاد كلها جماعات للنجدة حتى لكأنما نسى الناس أحوالهم الخاصة فليس ما يشغل أذهانهم ويستدعى جدهم ونشاطهم إلا هذه الحرب .

ولقد تغلغلت تلك الروح فى جميع الطبقات ، الكوخ والقصر فى ذلك سواء والقرية الحقيرة لا تفترق فيه عن المدينة العظيمة ، وأصبح النشيد الذى يتردد على كل لسان ذلك الذى جعل مطلعه « نحن قادمون إليك يا أبانا إبراهام ... ستة آلاف من الأشداء .. نحن قادمون ؛ »

والرئيس لا يعرف الراحة ولا يذوق طعمها ؛ يصل إلى ديوانه فى الصباح الباكر قبل أن يطرق البيت الأبيض أحد ، ويظل هناك حتى يهبط الليل فيقضى طرفاً منه بين أوراقه . وامرأته تضيق بذلك وتعلن إليه غضبها ، ولكنه فى شغل عنها بما هو فيه من عظيمات الأمور ، وأنى له فى مثل ذلك الموقف بلحظة من هدوء البال .

هكذا وقفت أمة واحدة فئتين تقتتلان ، فهنا الوحدة والحرية ، وهنالك الفرقة والعبودية ، وهنا وهناك من مظاهر الحماسة والتضحية ما يضيع فى ضجيجه وصخبه صوت الحق ويتبدد دعاء الإنسانية . وكانت الدماء التى تجرى على الأرض دماء شعب واحد فمن كل قاتل ومقتول صورة جديدة لقابيل وأخيه هابيل

كان البيض فى الشمال يبلغون قرابة عشرين مليونا ، وكانت عندهم الصناعة والتجارة الخارجية ، وكانوا يعتقدون أنهم يدافعون عن حق ويناضلون فى سبيل غاية ترخص لها الأموال والأنفس فهم يمسكون بناء الوحدة الذى أقامه أجدادهم الأولون

وكان اعتمادهم فى الحرب على المتطوعين الذين تمتلىء قلوبهم حماسة وإن كانت تعوزهم الخبرة بفنون الحرب وأساليب القتال ، كما كان لأسطولهم بأس وأثر قوى فى مغالبة أهل الجنوب ومضايقتهم .

ولكن هؤلاء الشماليين كانوا فى حاجة إلى مهرة القواد الذين يمشون إلى النصر من أقرب سبله ، ولقد ظل لنكولن زمنا ليس بالقصير يبحث عن نفر من القواد يركن إليهم ويطمئن إلى كفايتهم حتى كاد اليأس يشيع فى النفوس لولا ما كان من صدق عزمه وبعد همته .

وكان البيض فى الجنوب لا يزيدون عن خمسة ملايين ، ولكنهم كانوا أوفر عدة بما تسرب إليهم على أيدى بعض وزراء بكانان منذ انتخب للرياسة لنكولن وكذلك كانوا أكثر مالا .

وكانوا قد اتخذوا الأهبة للكفاح فأعدوا ما استطاعوا من قوة ودربوا جنودهم منذ أن انتخب إبراهام ، فى حين لم يتأهب الشماليون ولم يدربوا أحداً

وكانت أهم ميزة امتاز بها أهل الجنوب وجود عدد من أكفأ القواد على رأس جيشهم ، ومن هؤلاء لى الذى انحاز مع ولاية فرجينيا إلى الجنوبيين بعد أن انسحبت هذه الولاية من الاتحاد .

وكان يطمع الجنوبيون أن تدب الفرقة بين الشماليين فتذهب ريحهم ويفشلوا وكذلك كانوا يطمعون أن يقع ما ليس فى حساب أحد فتتدخل فى الحرب قوة أجنبية ، وأقرب الدول إلى التدخل إنجلترة ، وذلك لأن حصار الشماليين موانى الجنوب يمنع وصول مزروعاته وخاماته إليها ...

ما كان للرئيس أن يركن إلى الراحة ولو شيئاً قليلا حتى يؤدى رسالته ؛ لذلك فهو يجعل للعمل وقته جميعاً لا يكاد يدعه لحظة ؛ وكان له فى جهاده الأكبر خير عون من عافيته وقوة بدنه ، فلقد بنته الغاية كما تبنى دوحاتها العظيمة كأنما كانت تهيئه لهذه العظائم ...

وكثيراً ما كان يستعين على همه بالضحك وبما يأخذه الجاهلون بحقيقة أمره على أنه ضرب من اللهو وعدم المبالاة ، وما كان إلا تعلة يمسك بها نفسه أن تذهب حسرات ... كان مرحه وضحكه وما يسرد فى أحلك الساعات من نكاته وأقاصيصه تجلد القوى يستكبر أن يذعن للهم ، ويحب أن يوحى القوة والأمل إلى كل من يرونه !

ولم تكن الحرب وحدها هى كل ما يحمل الرئيس من عبء ، فلقد كان له ممن يعملون معه من الرجال ، كما كان له من اختلاف الأحزاب وتبلبل الرأى العام أثقال فوق أثقاله ...

وهناك فوق ذلك موقف الولايات الوسطى التى عرفت باسم المحايدة ، فكان يخشى الرئيس أن تنضم إلى الاتحاد الجنوبى فتزيدهم قوة وعزماً ؛ ولن تكون تلك القوة فى الوقت نفسه إلا خسراناً لأهل الشمال .

ثم هناك موقف أوروبا من هذا النزاع ... وهو أمر له خطره ، يحسب الرئيس له ألف حساب ، وإن كان سيوارد لا يرى له أول الأمر ما يراه الرئيس من خطر ...

***

لم يترك الناس رئيسهم كى يتفرغ لقضيتهم الكبرى ؛ فقد راح الكثيرون منهم يطرقون بابه يرجونه ويسألونه إلحافاً ... فهذا ممن ساعدوا الحزب الجمهورى يطلب من طريق خفى أن يكافأ على خدماته ، وذاك يطلب وظيفة يأكل من راتبه فيها ، أو يدفع إليه ظلامة ، أو يوصيه بقريب له ، أو يشتكى إليه حاكماً من الحكام!

جانب من حجرة الرئيس فى البيت الأبيض
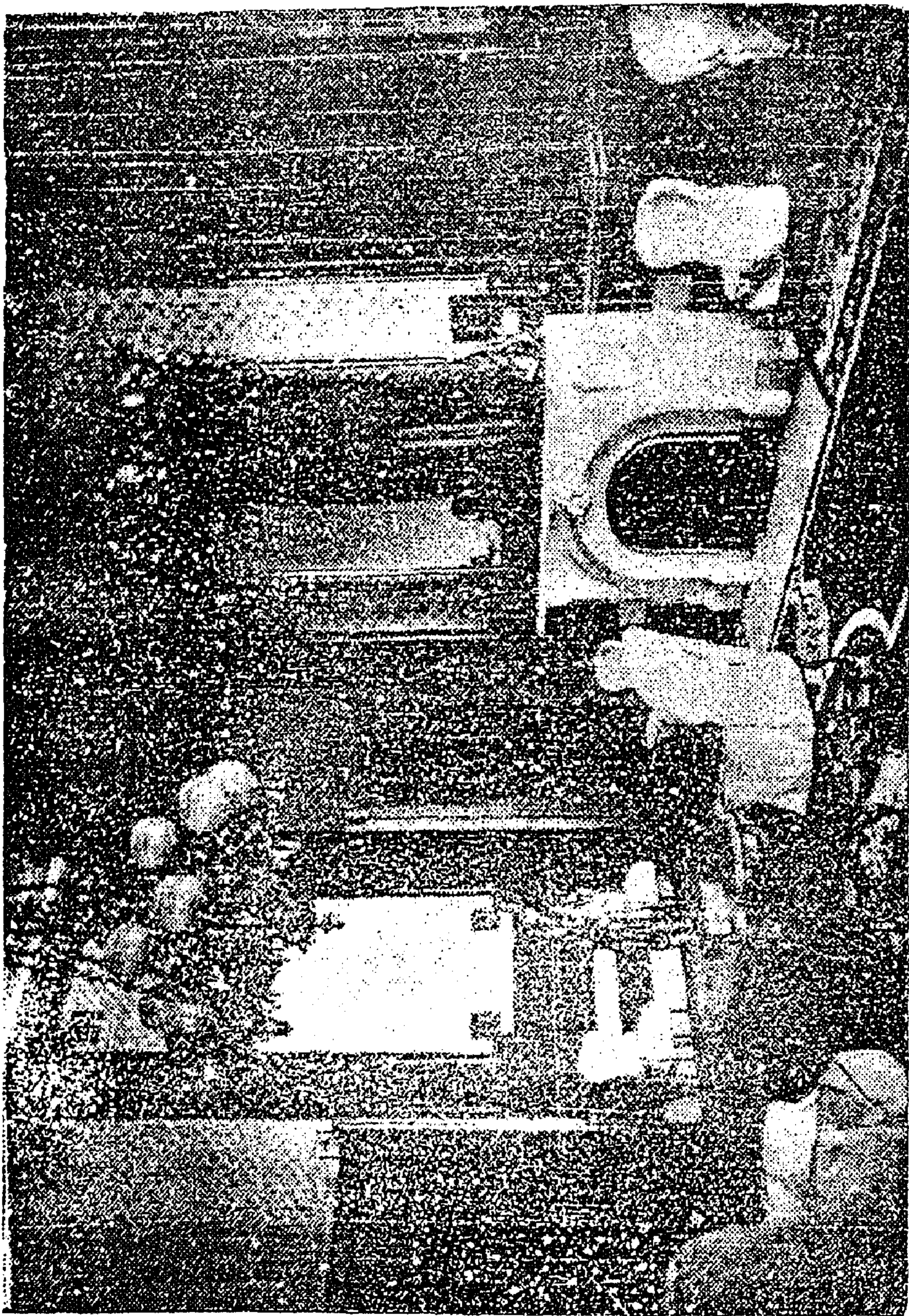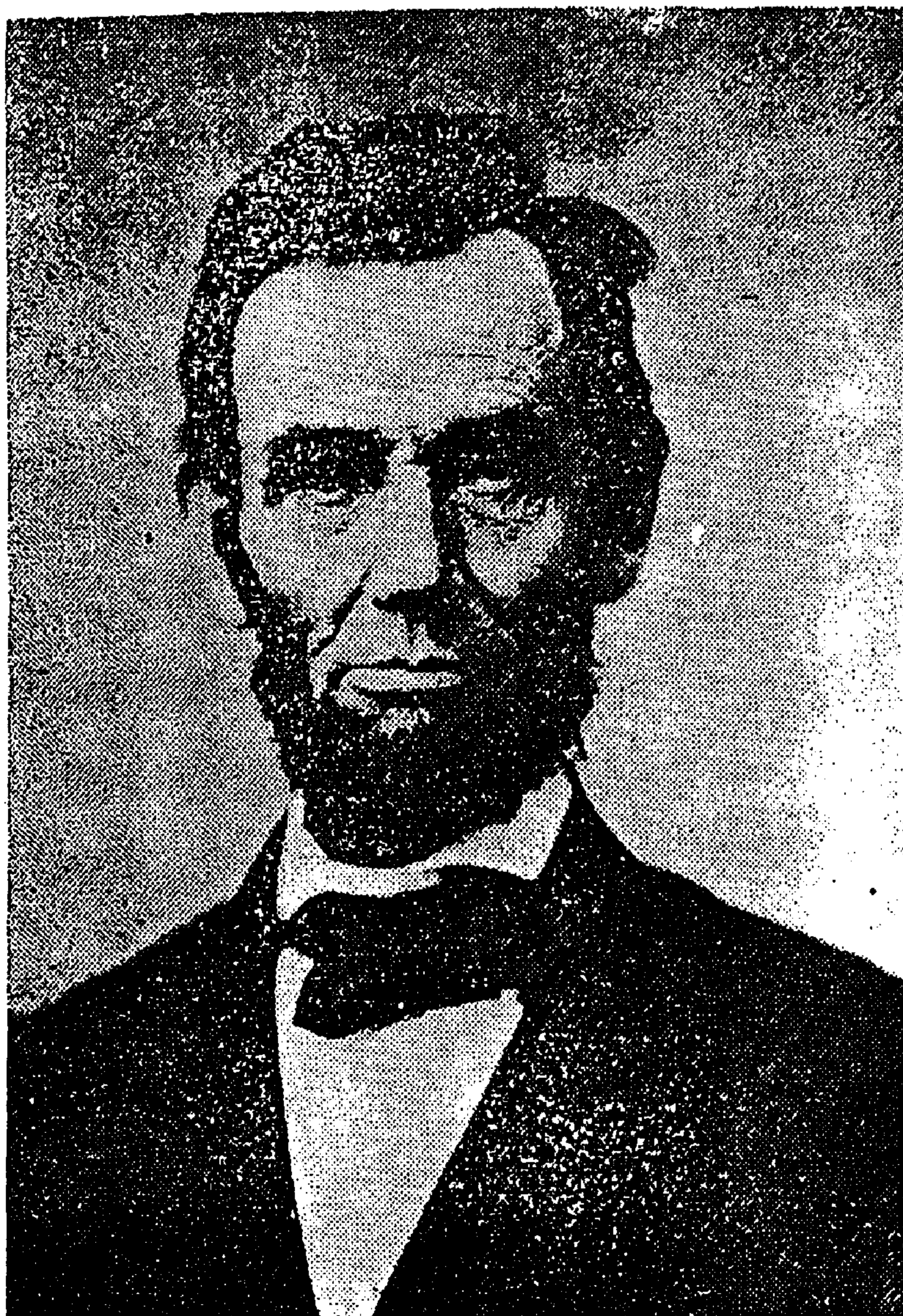
الرئيس إبراهام لنكولن

والموظفون فى البيت الأبيض يعجبون من هذا الرئيس الجديد الذى لا يجعل كبير فرق بين قاعة الحكم هناك وبين حجرة مكتبه فى سبرنجفيلد !

وقد جعل الرئيس للناس يومين كل أسبوع يلقاهم فيهما ، لا يوصد بابه فى وجه أحد ، وإنه ليستمع إلى كل ذى حاجة ، فإن استطاع أن يعينه على أمره دون أن يجور على القانون ، فعل ذلك فى غير تردد أو تكره ؛ وكثيراً ما كان يجعل الرحمة فوق العدل ، إذا رأى نفسه بين أن يعدل فيقسو أو يرحم فيميل بعض الميل ، ولكنه فى ذلك لا يسىء إلى الخلق أو يتهاون فى قاعدة جوهرية ، وحاشاه أن يفعل ذلك أو ما هو دونه ...

ولن يضيق صدره أبداً بذوى الحاجات لديه ، مع أنهم كانوا يلقونه على السلم ، أو يقفون أمام غرفته صفوفاً خلف صفوف ، بل كثيراً ما كانوا يستوقفونه فى الطريق ويزحمونه ! وهو من الكاظمين الغيظ ، ولن يستطيع قلبه الإنسانى الكبير أن ينهر السائل فيزيده بؤساً على بؤسه ، وهو الذى عرف اليتم منذ حداثته ، وذاق الشقاء ألواناً ...

على أنه مهما بلغ من رحمته وبره بالمساكين ، يعرف أساليب الماكرين إذا مكروا ، فلا ينخدع بما يقولون ، وإنما يصرفهم بالحسنى وإلا فبشىء من الشدة يشبه التأنيب ويراد به الزجر ... دخل عليه رجل كسرت ساقه يسأله معاشاً إذ قد كسرت فى الحرب رجله ... فسأله الرئيس : أيحمل أية شهادة أو دليلا على صدق دعواه ؟ ... ولكن الرجل لم يكن يحمل شيئاً ! فصاح به الرئيس قائلا : « ماذا ؟ ليس لديك أية أوراق ، أو أية شهادات ، أو أى شىء يرينا كيف فقدت رجلك ... فليت شعرى ... كيف أتبين أنك لم تفقدها فى فخ وقعت فيه وقد سطوت على بستان جارك ؟ ! »

ويعجب القائمون على أمر الحكومة كيف يطيق الرئيس — وقد ملأت وقته الأحداث الجسام — أن يلقى هؤلاء الناس ، ويستمع إلى مثل هذه الأمور الصغيرة ، وكان جديراً به أن يكلها إلى غيره ؟ ولكن ... أليس هو من الناس ؟ أليس خادم الجميع قبل أن يكون رئيس الجميع ؟ وهل يغير المنصب ما فطرت عليه نفسه الكريمة من كريم الخصال ؟ !

ها هو ذا النجار الذى خرج من الغابة ، تراه فى البيت الأبيض ولم يزل هو هو ، وداعة فى قوة ، وتواضع فى عزة ، ورقة فى وقار ... ومن وراء ذلك قلب تسع رحمته شكوى الناس جميعاً ، قلب لا يتهنأ ولا يفرح إلا إذا صنع المعروف وأولى الجميل ، فأفرح القلوب وأدخل عليها الهناءة ...

وما كان أعظم الرئيس إذ ينزل إلى الشارع فى الصباح الباكر فيستوقف أحد المارة قائلا : « نعم صباحك يا صاحبى ... ألم يصادفك أحد باعة الصحف ؟ إن صادفك أحدهم فأرجو منك أن ترسله إلىّ » ... وقد يعرف هذا أن الذى يرجوه هو الرئيس إبراهام لنكولن ... فيرد تحيته بقوله : « سعد صباحك يا أبانا إبراهام » أو « طاب يومك يا أبا الناس » ! وينطلق الرجل وفى نفسه كل معانى الإجلال للرئيس العظيم ...

أما الرئيس فيعود لا إلى جناح إقامته وأسرته فى البيت الأبيض ، ولكن إلى جناح عمله فى الناحية الجنوبية والصحيفة فى يده ، فما يفرغ من قراءتها حتى يشمر عن ساعديه قبل أن يحضر الموظفون ، فيقرأ كثيراً من الأوراق ، ويقطع برأى فى بعض المسائل ...

وما كان أعظم الرئيس وأجمل تواضعه حين كان يلقى فى الطريق إلى حجرة الرياسة ، أو إلى مقر أسرته ، أحد معارفه ممن لاقاهم قبل فى مضطرب الحياة ، فيصافحه فى حماسة ، ويناديه باسمه ، ثم يضع يده على كتفه ، ويقف وإياه ويضحك من فرط سروره ، إذ يسأله عن حاله وحال أسرته ... ولقد يأخذه معه إلى قاعة الرياسة ، فيذكر له الأيام الماضية ، حتى ما يشعر الرجل أنه بين يدى رئيس الولايات المتحدة ، فهذا الرئيس يقول له : « أتذكر إذ كنا ببلدة كيت وأنا أطوف بالبريد حين وقع لنا كيت وكيت ؟ » أو يقول : « أتذكر حين كنت أسحب الأبقار فى الغابة وأتيتنى ففعلنا كيت وكيت ؟ » أو يقول : « أتذكر حين كنت أترافع فى كيت وكيت من القضايا ، وحين كنت ترشدنى وتعيننى على أمرى وتنصح لى ؟ »

وما كان أعظم الرئيس وأنبله حين كان الفقراء يستوقفونه فى الطريق ، فيقف ليستمع إليهم وليكلمهم كأنه أحدهم ، فلا ترفع ولا كبرياء ولا غلظة ...

ولن يستنكف الرئيس أن يطيل الحديث أحياناً عله يستطيع أن يكفكف بكلامه شيئاً من دموعهم ، ويخفف بالعطف عليهم بعض آلامهم ... ولئن كانت له حيلة إلى إجابتهم إلى ما سألوا ، فما هو عن ذلك بضنين ...

ولقد كان ينكر عليه مسلكه هذا بعض موظفى البيت الأبيض ... ولكنهم حين كانوا يزعمون أنه لا يليق بمن كان فى مثل مركزه كان يغيب عنهم أنه لا مسلك غيره لمن كان له مثل قلبه ... على أنهم لم يلبثوا أن أكبروا الرئيس وأعجبوا بخلاله ، وأصبحوا لا يرون أى مأخذ عليه ، وأصبح من المناظر المألوفة عندهم أن يدخل أحدهم ببطاقة للرئيس ، فيراه ينهض بنفسه إلى خارج الحجرة يلقى مرسلها مرحباً ضاحكا ، أو أن يروه يأتى بنفسه إلى الحاجب فينهره حين يسمعه يمنع طالبى الدخول عليه . .

أما الوزراء وكبار الموظفين وقواد الجيش ، فقد تعودوا أن يروا الرئيس يسعى إليهم أحياناً بدل أن يدعوهم إليه ... وكثيراً ما كان يلتفت الواحد منهم ، فإذا حاجبه مقبل يعلن إليه أن الرئيس على السلم ، أو فى الردهة فى طريقه إليه ...

ويدخل الرئيس فيجلس إلى مرؤوسه يستفهمه عما يريد وينصت إليه ، فأن كلمه مرؤوسه فى أمر فنى كلام الأخصائى ، لا يستنكف الرئيس أن يستوضحه وكأنه منه التلميذ حيال أستاذه ؛ ويعجب المرؤوسون من هذا الرجل الذى لا يدعى أبداً العلم فى أمر يجهله ، والذى يفهم ما يبين له فى فطنة وسرعة .

***

أما أبهة المنصب والتمتع فيه بالحياة الدنيا وزينتها ، فقد ترك الرئيس ذلك كله لزوجه ، لعزوفه عن ذلك بطبعه أولا ثم لانشغاله بما هو فيه من عظائم ما عرف تاريخ قومه مثلها قط ...

وكانت مارى تضيق منه بانصرافه عنها إلى ما كان يشغل البلاد كلها ، ولا تزال تعنف عليه وتغلظ له وهما فى البيت الأبيض كما كانت تفعل ذلك وهما سبرنجفيلد ، وإنه لأهون عليه أن يقابل ما يقابل من عواصف هذه الحرب الأهلية ، من أن يقابل عاصفة من حربها الأهلية الداخلية ...

وكانت مارى تضيق أكبر الضيق بهذه الحرب التى تعصف بالبلاد لأنها

حرمتها كثيراً مما كانت تتمنى إقامته من الحفلات والولائم ، فما يجدر كما يقول الرئيس أن تنصب معالم الفرح والموت يتخطف أبناء الأمة فى الحرب الدائرة ...

لهذا كانت تتطلع مارى إلى اليوم الذى تضع فيه الحرب أوزارها لتنصرف إلى ما منت به نفسها أعواماً طويلة من الولائم والحفلات ، فلقد أصبح حلمها القديم بالبيت الأبيض حقيقة واقعة ، ولكن أف لهذه الحرب التى تكدر عليها صفوها كثيراً ، وأخوف ما تخافه أن تنقضى السنوات الأربع والحرب قائمة تحول بينها وبين ما تشتهى .

وتجد مارى نفسها وسط مظاهر الجاه والأبهة ، وتحس أنها ملكة ينقصها التاج إذ تنتقل فى ردهات القصر وأفنائه وحجراته ، وإذ تنظر إلى أثاثه ورياشه وما فيه من خدم وحراس وحجاب ووصيفات لها يتبعنها ويتقدمنها أينما سارت ؛ وتكره مارى ألا يعبأ زوجها بهذا كلما وجهت الحديث إليه ولقد يغيظها معابثاً فيذكر الغابة وحياة الغابة حتى لتهتاج وتوشك أن تصرخ فيدعها لتوه فيما هى فيه من أبهة وزينة ويذهب ليلاقى القواد والوزراء ...

ويدع لها زوجها أحياناً أن تمتع نفسها بشىء من الولائم والحفلات فى بعض المناسبات القومية فأنها تستتر وراء هذه المناسبات وتأخذ ما تحب من متع الحياة ؛ ويقرأ بعلها ما تلغط به صحف خصومه فيخفى فى نفسه ما لا يحب أو ما لا يجرؤ أن يبديه لها من العتب والملامة ...

وكان يؤلم الرئيس ويكاد يفقده صبره ، أن يعلم أن مارى تتدخل فيما ليس من شؤونها فتتصل بالوزراء تشفع لفلان أو تطلب تعيين فلان فى أحد المناصب أو ترقيته وبخاصة ذوى قرباها الذين أغدقت عليهم النعمة ومدت لهم أسباب الجاه .

كانت مارى تحب الملق وتطرب لعبارات الأطراء والثناء يزجيها إليها فى غير خجل أو اقتصاد طلاب الحاجات ، وسرعان ما كانت تعنى بأمرهم وتيسر لهم ما صعب عليهم من المسائل فى دواوين الحكومة وكان يندس بين هؤلاء بعض المتجسسين الذين اتخذوا الملق وسيلة إلى جمع الأنباء ...

ولم يكن يعلم لنكولن إلا بالقليل مما تصنع فلا يفعل فى أكثر الأحيان أكثر من أن يبسط أمامها الصحف التى تعيب عليه ضعفه وتعيب على زوجته تدخلها فى
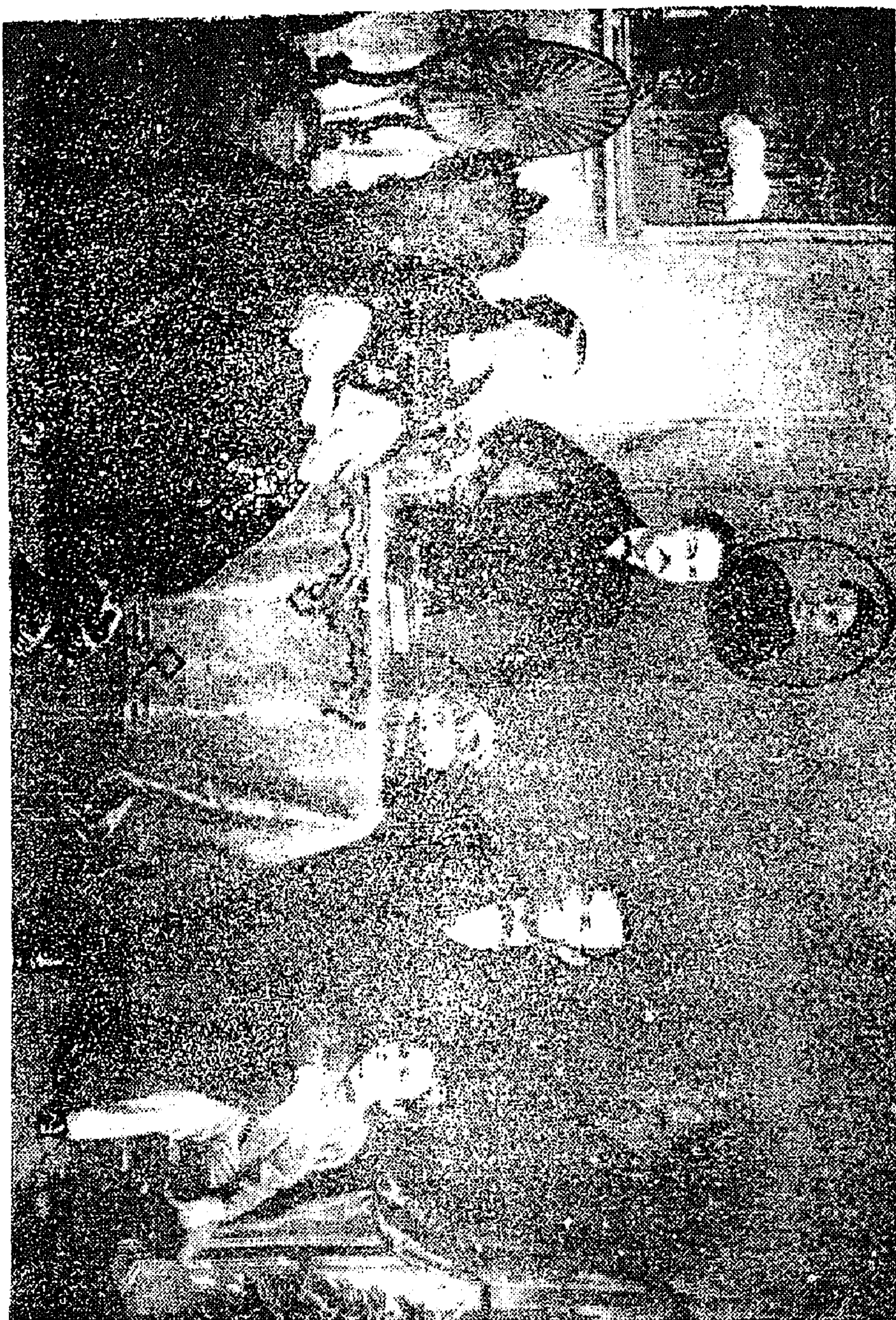
الرئيس وأسرته فى البيت الأبيض

شؤون الدولة ؛ ولقد يغلظ لها فى القول أحياناً فما يكاد يفعل حتى يجن جنونها فيغادرها حتى يذهب عنها الغضب ...

بهذا وبغيره مما تفعل مارى حرم لنكولن من أسباب الراحة والعزاء ما كان حرياً أن يجده بين يدى زوجته ...

وكان لنكولن يطلب العزاء بعض الوقت فى الجلوس إلى إبنيه ومداعبتهما ؛ وكان لأبراهام عند مجيئه إلى البيت الأبيض ثلاثة بنين : روبرت وكان فى الثامنة عشرة ، وكان أبوه لايلقاه إلا قليلا لوجوده فى جامعة هارفارد حيث كان يدرس القانون وولى وكان فوق العاشرة بقليل ؛ وتوماس أوتاد كما كان يسمى فى البيت ، وكان فى نحو الثامنة

وكان يتسلل لنكولن أحياناً إلى حيث يشهد بعض المسرحيات ، وكان يحرص أن يذهب بصفته الشخصية فى بساطة ودعة فليس معه إلا بعض الخلان ...

ولقد يكون له فى الوسيقى بعض ما يخفف همه ، وفى الكتب مسلاة له أحياناً إذا خاف من وساوس النفس وأوهامها فى ساعات الفراغ إن كان ثمة له من فراغ ..

جنون العاصفة !

لم يكد يمضى ثلاثة أشهر على اشتعال نار هذه الحرب الأهلية التى انبعثت شرارتها الأولى فى الثانى عشر من شهر أبريل سنة ١٨٦١ حتى ماجت وشنطون بالمتطوعين وأصبحت المدينة معسكراً عظيما ..

ولكن الرئيس يعوزه القواد .. وإنه ليطيل التفكير فيمن عساهم يصلحون للقيادة فى هذا النضال الهائل . . لقد كان على رأس القوات سكوت وهو شيخ كبير ناهز الخامسة والسبعين ، والموقف يتطلب قائداً فتياً يبث من روحه فى قلوب جنده ويمشى بهم إلى النصر ... ألا بئس ما يفعل لى لقد رفض ما عرض عليه ثم انضم إلى الثائرين وأصبح أكبر قوادهم .

فكر الرئيس وتدبر ، وأخذ يقلب الأمر على وجوهه والرأى العام من حوله يزيد موقفه صعوبة فلكل حزب رأى ولكل جماعة فكرة ، وللحكام الولايات آراؤهم وإلا توقفوا عن إرسال الجنود ...

والرئيس يتمنى أن يهيء له الناس بسكوتهم أن يختار قواده على أساس الكفاية ولكنهم لا يفعلون وهو لا يستطيع أن يغضب هاتيك الجهات فى مثل هذه الظروف القاسية ، بينما هو لا يستطيع كذلك أن يرضيهم جميعاً ...

ويستعرض الرئيس الموقف الحربى فيجد القائد ماكيلان قد وفق فى أعماله فى فرجينيا الغربية . ويسمع الثناء عليه من جهات كثيرة حتى لقد سماه بعض الناس نابليون الجديد ... ولذلك يدعوه الرئيس إليه ويعينه قائداً عاماً للقوات فى فرجينيا ...

وتتجه الأنظار كلها إلى القائد ماكيلان فهو شاب فى الرابعة والثلاثين ، وفيه كثير من الصفات التى تحمل الناس على محبته ، فله حسن السمت وهيبة الطلعة وروح الشباب ، وله من صغر جرمه ما يشبه به نابليون ، وكذلك له من صفات نابليون بريق عينيه وما يبدو من مضاء عزيمته وتوقد حماسته . .

وسرعان ما تعظم شهرته حتى يجرى اسمه على الألسن جميعاً ؛ وكم له فى الحياة

من أشباه ممن قامت شهرتهم على أوهام الجماعات ... ولكن لعل الأيام تثبت جدارته ، فأن الأعين والقلوب متفقه على الأعجاب به ...

على أن للشباب نزعاته ونزواته ، فهذا القائد يدل بجاهه من أول الأمر ، ومرد ذلك إلى أنه بات يعتقد أنه الرجل الوحيد الذى يستطيع أن ينقذ البلاد مما هى فيه ... وشايعه فى هذا الزعم كثير من الناس حتى بعض الوزراء ، فلقد عظمت ثقة هؤلاء فيه حتى ليميلون إلى جانبه أحياناً إذا هو رأى من الأمر مالا يراه الرئيس ... والرئيس يتذرع بالصبر ويتغاضى عن ذلك فى سبيل ما يعقد من الآمال على ما عسى أن يأتى به ذلك الشاب ..

وأخذ القائد الشاب يدرب مائتى ألف رجل على حدود فرجينيا ، وقام بذلك العمل على خير ما يرجى ولكنه أطال التدريب وأطاله حتى تسرب الملل إلى الرأى العام فضاق بما يفعل ، فأن الناس كانوا يستعجلون الزحف ؛ وكذلك ضاق الرئيس ذرعاً ، ولكن ما كليلان يعد الناس أنه يستعد لحركة عظمى سوف تطفىء نار الثورة ..

وشاع فى الناس أسم قائد آخر هو فريمونت ، أول مرشحى الحزب الجمهورى للرياسة عند نشأته ولقد كانت له جهود محمودة فى الجهات الغربية يومئذ وكان لهذا الرجل قبل ذلك فى الناس منزلته وخطره ، وله فى قلوب الساسة وأولى الرأى نفوذ كبير ..

ولن يقل فريمونت عن ما كليلان اعتزازاً وترفعاً ، فهو يحيط نفسه بفرقة من الحرس ، ويرقى بعض الجند دون أن يرجع إلى الرئيس الذى هو بحكم منصبه القائد الأعلى لقوات الدولة .. وكذلك يتباطأ فريمونت فى الرد على البريد القادم من العاصمة .. ولن يقف أمره عند ذلك ، بل تأتى الأنباء أن فريمونت ينوى إقامة اتحاد ثالث فى الجهات الشمالية الغربية ! ..

ولكن الرئيس لا يصدق هذه الشائعات ، فهو واثق قبل كل شىء من إخلاص الرجلين لقضية الاتحاد وإلا فما كان ليضعهما حيث وضع مهما يكن من الأمر ..

وأحاط فريمونت نفسه أول الأمر بجو من الكتمان ، ولكنه مالبث أن أذاع

قراراً خطيراً اهتز له الرئيس وتبرم منه وضاق به ، وذلك أن القائد أنذر أهل ولاية مسورى فى آخر شهر أغسطس سنة ١٨٦١ ، أى بعد قيام الحرب بنحو أربعة أشهر أنه منفذٌ قانون الحرب فى الولاية ، ولذلك فهو يحدد منطقة فيها يجعلها محرمة ، فيعدم كل من يحمل السلاح فيها ضد حكومة الاتحاد ؛ وكذلك يعلن القائد أن كل من تحدثه نفسه بالثورة من أهل الولاية جميعاً يكون جزاؤه مصادرة أملاكه وتحرير عبيده إن كان له عبيد . .

ارتاع لنكولن للقرار وتربد وجهه وأوشك أن ينفد صبره ، وكان يلاحظ من رآوه ساعة أن علم به علامات الهم الشديد على محياه ، ولكنهم رأوا كذلك أمارات العزم والصلابة ودلائل الحزم والثبات . . .

انزعج الرئيس لأثارة مسألة العبيد فى تلك الآونة ، فلقد جعل المبدأ الذى قامت عليه هذه الحرب من أول الأمر المحافظة على الاتحاد ، حتى تكون قضية دستورية لا عيب فيها ، وبذلك تجد سبيلها إلى القلوب ، وتستنهض الهمم بما تثيره عدالتها من حماسة ، ولا تدع سبيلا لأحد أن يتهم أهل الشمال بأنهم أوقدوا نار الحرب من أجل أغراضهم وبدافع عواطفهم فى مسألة الرق . . . وكذلك كان يتحاشى الرئيس إثارة تلك المسألة حتى لا تثور الولايات المحايدة وتنضم إلى أهل الجنوب ، ويفقد الرئيس بذلك كل أمل فى ضمها إلى جانبه ، ومن تلك الولايات مسورى نفسها ، فقد كان فيها كثيرون ممن يقتنون العبيد ، وأهم منها وأعظم خطراً كانت ولاية كنطكى التى ينتمى إليها الرئيس منذ نشأته ؛ ولقد بذل الرئيس كل ما فى وسعه للمحافظة على مودة أهلها لتنضم إلى جانبه أو لتبقى على الأقل محايدة ، فلموقعها الجغرافى فى هذه الحرب شأن أى شأن . . .

ولكن هذه السياسة الرشيدة العاقلة التى جرى عليها الرئيس ما لبثت أن طاح بها ذلك القرار الطائش فسرعان ما هاجت الخواطر فى تلك الولايات المحايدة ، وسرعان ما جزع كثير ممن يسلمون بنظام الرق من أهل الولايات الشمالية . . .

وعظم خطر هذا القرار حتى أصبح نقطة تحول جديد فى الموقف كله . ونظر الرئيس فأذا هو تلقاء عاصفة شديدة من هياج الرأى العام ، فأن دعاة التحرير وأعداء نظام الرق ما لبثوا أن هتفوا بالقائد الجرىء الحازم ، وراحوا يمتدحون خطته بقدر

ما أخذوا يعيبون على الرئيس تردده بل وخوره كما كانوا يزعمون !

وانطلقت الصحف تدعو الرئيس أن يقر فريمونت وأن يحذو حذوه فيعلن قراراً عاماً ينطبق على الولايات الثائرة جميعاً ؛ ولما وجدوا منه الأعراض والغضب ، عصفت برؤوسهم النزوات حتى لقد راح بعضهم يدعون إلى إرغام الرئيس على اعتزال منصبه ووضع فريمونت مكانه ...

ويتطلع الرئيس بعينيه الواسعتين فإذا بوادر الفرقة والتنازع تكاد تقضى على قضية البلاد وإذا العاصفة تشتد وتشتد ؛ وإذا هو تلقاء أمر لا يقل خطراً عن الحرب الدائرة ...

ولكنه الرجل الذى لم يعرف الفزع يوماً ما ... وهل يذكر أنه خاف العاصفة مرة حين كانت تنطلق مدوية عاتية فتهتز لها أرجاء الغابة ، وتكاد تجتث من شدتها عظيمات الدوح ؟ كلا . بل كان يقف منها موقف المتفرج ، ذلك الموقف الذى ما كان يطيقه صبي فى مثل سنه إلا إذا كان مثله من بنى الأحراج الذين ألفوا ملاقاة العواصف ...

لم يتردد الرئيس فى العمل على إبطال قرار فريمونت على الرغم مما بدا له من تحمس الرأى العام له ، ومظاهرته إياه فيه على نحو ما بينا ؛ ولقد كان من أبرز خلال أبراهام أنه كان لا يعرف التردد أو النكول إذا عقد النية على أمر اقتنع بصوابه ووثق من مقدرته على الاضطلاع به ؛ وما جرب عليه من عملوا معه أنه صمم قط على رأى ثم انصرف عنه ، وذلك أنه كان لا يصمم إلا عن بينة وطول أناة وحسن مشاورة ، فإذا عزم أذعن له مرؤوسوه طوعاً أو كرهاً فما لهم من ذلك بد.

وتصرف لنكولن تصرف السياسى الحكيم ، فكتب إلى فريمونت يشير عليه بأن يعدل قراره بنفسه وأن يظهر للناس أنه يفعل ذلك من تلقاء نفسه ؛ ولكن فريمونت لم يذعن لذلك وكبر عليه أن يتراجع ...

ولم ير الرئيس بداً من أن يعلن قراراً يلغى به قرار فريمونت غير عابىء بدوى العاصفة فى مسمعيه وفى نفسه ، ولا وجل من تصايح الصائحين من دعاة التحرير .

وبذلك العمل الخطير الحازم قضى الرئيس على سبب خطير من أسباب التنابذ والفرقة ، وكسب بذلك وقوف ولاية كنطكى إلى جانبه ...

وما كان أبراهام كما تقول عليه خصومه ومخالفوه فى الرأى من أنصاره متخذاً بما فعل سبيلا رجعية ؛ كلا... إنما هى السياسة الحكيمة تقضى عليه ألا ينتكب الطريق التى رسمها منذ شبت الحرب ، ألا وهى جعل المحافظة على الوحدة أساس هذا الصراع القوى ؛ أما مسألة العبيد فما هو عنها بغافل وإنما يؤثر الأناة حتى تتهيأ الفرصة ...

***

هذا ما كان من أمر فريمونت ؛ أما ماكليلان فلقد ظل يدرب جيشه على حدود فرجينيا وهو لا يفتأ يرسل إلى الرئيس يطلب فرقاً جديدة ، ولا يفتأ يتبرم بأى استفهام يأتيه من قبل الرئيس عما هو عسى أن يفعله ؛ ولقد كان هذا القائد يكره من الحكومة ما يعده تدخلا فى شؤونه ، بل لقد كان يزدرى أعضاء مجلس الوزراء ويرميهم بالغباء أو كما يقول فى تهكم « إنى أشاهد أكبر نوع من الأوز فى هذا المجلس » .

ولقد بلغ به الذهاب بنفسه حداً جعل الناس يظنون به الظنون حتى ليحسبونه يتطلع إلى الرياسة ، فهو ينتظر لا يعمل عملا حتى تواتيه الفرصة إلى انقلاب يأتى به على غرة .

ولكن الرئيس على الرغم من تلكؤ ماكليلان يعينه قائداً عاماً للقوات بعد أن يترك سكوت العمل لكبر سنه ...

ولا يقف صلف ماكليلان عند حد ، فانظر كيف بلغ به الشطط كل مبلغ ، فلقد ذهب الرئيس إليه مرة يستنبئه عن أمر ، فتركه القائد لحظة قبل أن يلقاه !. وشاع ذلك فى الناس وأشارت إليه الصحف ، واجتمعت الآراء على استنكاره ، ولكن الرئيس العظيم لم يعبأ بما حدث فما كان أبراهام بالذى تلهيه الأمور الشخصية عما هو فيه ، ولم يزد على أن رد على فعل القائد بقوله « إنى لأمسك لماكليلان زمام جواده إذا هو جاءنى بنصر » .

ولم يفطن الناس إلى حصافة ابن الغابة وبعد نظره وعمق سياسته فأنه يدع القائد المدل الذى افتتن به الناس ويصابره حتى يعلم الناس حقيقة أمره ، فأن سار إلى النصر فذلك ما يبغى الرئيس ويبغى الناس ، وإن قعد عن ذلك وتبين أنه فى

مسلكه لم يكن إلا متلكئاً ، نبذه الناس وخلعه الرئيس فى غير ضجة ...

وحدث بعد ذلك أن ذهب الرئيس ومعه كبير وزرائه إلى مقر القائد فلم يجداه فجلسا ينتظران حتى رجع؛ وأنبأه بعض الجند بانتظارهما إياه ، ولكنه بدل أن يخف للقائهما صعد إلى غرفته وأرسل إليهما رسالة يأسف فيها لعدم استطاعته أن يراهما ، معتلا بأنه متعب ! واستشاط سيوارد من ذلك غضباً ، ولكن الرئيس راح يهون الأمر ... على أنه كف بعدها عن زيارة ذلك القائد المدل بنفسه ...

***

وعادت العاصفة تهب من ناحية أخرى ، وقدر على الرئيس أن يجد عنتاً جديداً من الرى العام ، فقد راح الناس يأخذون عليه مسالك القول والعمل فى مسألة جديدة كانت نتيجة لما أدت إليه الحوادث بين حكومة الاتحاد الشمالى وبين الحكومة الأنجليزية ...

كان يخشى لنكولن أن تسوء العلاقات بين حكومته وبين إنجلترة إذ كانت الأنباء تنذر بذلك ؛ فكثير من رجال الحكومة الأنجليزية كانوا يرون أن تعترف حكومتهم بالاتحاد الجنوبى كحكومة مستقلة حتى يتسنى لأنجلترة أن تدخل سفنها الموانىء الجنوبية وبخاصة موانىء القطن ، دون أن يكون فى ذلك تصادم مع قرار الحصار المضروب عليها من الشماليين ... وأخذت الحكومة الأنجليزية تدعو إلى ذلك وتلح فى الدعوة غير عابئة بما ينطوى عليه ذلك من تحد لأهل الشمال .

واشتد غضب حكومة الاتحاد الشمالى بقدر ما عظم فرح الجنوبيين ، إذ كان كل فريق ينظر باهتمام شديد إلى ما عسى أن يحدث من جانب إنجلترة ... وبلغ من استياء سيوارد أنه كتب احتجاجاً عنيفاً إلى الحكومة الأنجليزية لم يخفف من عنفه ما أدخله عليه الرئيس من تعديل ، فلقد كان يحرص الرئيس أشد الحرص على أن يفوت على الجنوبيين ما يأملونه من انضمام إنجلترة إليهم ...

وفى هذا المأزق الشديد يأتى أحد القواد البحريين من الشمال عملا تزداد به الأمور تحرجاً ، حتى ليحسب الناس أن الحرب واقعة بين إنجلترة والولايات الشمالية ما من ذلك بد ...

وبيان ذلك أن القائد البحرى ولكس داهم سفينة إنجليزية كانت تحمل

رسولين من قبل الولايات الثائرة أحدهما إلى إنجلترة والثانى إلى فرنسا ليسعيا سعيهما لدى الحكومتين الأنجليزية والفرنسية كى تأخذا بيد الاتحاد الجنوبى ... وأرغم ولكس الرسولين على النزول من السفينة وأسرهما على الرغم من احتجاج قائدها ...

ووصلت الأنباء إلى وشنطون فراح الناس يعلنون إعجابهم بولكس ويثنون على عمله ، وما لبثت أن انهالت عليه رسائل الأعجاب والثناء ، ولقد أثنى عليه فيمن أثنوا المجلس التشريعى نفسه ، وكثير من الزعماء ورجال الصحافة .. وهكذا ينحاز الرأى العام إلى ولكس كما انحاز إلى فريمونت من قبل ، لتزداد الأمور بذلك تعقداً وخطراً ...

أما عن موقع النبأ فى إنجلتره فلك أن تتصور مبلغ ما أثار من سخط واستنكار فى ظروف كتلك التى نتحدث عنها .. وكذلك كان للنبأ فى فرنسا موقعه الشديد وأثره السيء ...

اعتبرت إنجلترة هذا العمل من جانب القائد ولكس إهانة للعلم البريطانى الذى كان يخفق فى سارية تلك الجارية التى كانت تحمل الرسولين ، وأسرعت لندن فأرسلت احتجاجها إلى وشنطون وأنذرتها أنها تقابل العدوان بمثله إلا أن تتلق الترضية الكافية ! ، ولن ترضى إنجلترة بأقل من إطلاق الرسولين وعدم التعرض لهما أينما اتجها ثم الاعتذار عما حدث ..

عندئذ اشتد هياج الولايات الشمالية ورأت فى إنذار إنجلترة إياها على هذه الصورة معانى الأذلال وسوء النية وقبح استغلال الحادث ؛ وأصر الناس على المقاومة مهما يكن ثمنها ؛ وأمدت إنجلترة حامية كندة ، وأخذت الولايات تزيد فى قوة ثغورها الشمالية ... ودوت العاصفة فى أذنى الرئيس وفى نفسه من جديد ، فلن يرضى الناس إلا بإعلان الحرب ...

على أن بعض العقلاء استطاعوا أن يطيلوا الوقت المحدد للإنذار بضعة أيام ، عل أهل الولايات وخصومهم فى إنجلترة يجدون حلا تحقن به الدماء .

وأخذ الوقت يتصرم ، ولكن أهل الولايات مصرون على موقفهم لا يثنيهم عنه شيء ! ورئيسهم ووزراؤه يتفكرون فى هذا الخطر الداهم ، وكان سيوارد

يميل إلى خوض غمار الحرب ضد هؤلاء الأنجليز الذين تنطوى قلوبهم على الحقد والحنق منذ خلعت الولايات الأمريكية نير إنجلترة فى عزة وإباء ...

وهكذا يجد لنكولن نفسه فى شدة ما مثلها شدة ... فهو بين أن يجارى الرأى العام وبذلك يجر على البلاد حرباً خارجية طاحنة تأتى مع الحرب الداخلية القائمة فى وقت واحد ، أو يطلق الرسولين ويقضى على أسباب الخلاف بينه وبين إنجلترة وبذلك يجنب البلاد خطراً محدقاً ، وإن تعرض بعدها للوم اللائمين وسخط الساخطين واتهامات المبطلين ...

ولكنه لنكولن الذى لا يعرف الخور والذى لا يطيش فى الملمات صوابه ؛ إنه الرجل الذى تزداد عزيمته مضاء بقدر ما تزداد الحادثات عنفاً وخطراً ، والذى تزداد قناته صلابة كلما ازدادت الخطوب فداحة والأعباء ثقلا واستفحالا . .

عقد إبراهام مجلس وزرائه وأخذ يناقش الأعضاء ويناقشونه ، وهو من أول الأمر لا يؤمن بعدالة ما فعله ولكس ، وبعد جهد استطاع أن يحمل المجلس على قبول رأيه ، ثم أعلن بعدها فى شجاعة وحزم إطلاق الرسولين ! . . وأجاب على إنذار الحكومة الأنجليزية برسالة متينة جاءت دليلا قوياً على حكمته وبعد نظره ، رسالة احتفظ فيها بكرامة بلاده وعزة قومه ، وجنبها بها فى الوقت نفسه خطراً ما كان أغناها عنه يومئذ .

ذكر لنكولن فى رده على الحكومة الأنجليزية أنه إنما يعتذر عما حدث لأنه يتنافى مع مبادىء أمريكا نفسها ، ولئن كان ما فعله ولكس عدواناً فأن حمل إنجلترة رسولين من الجنوبيين فى سفينة من سفنها عمل فيه معنى العدوان وذلك لأنه خروج على مبادىء الحياد .

وما كان لأنجلترة أمام هذا المنطق القوى وهذا العمل المنطوى على الشجاعة والكياسة إلا أن تبدى ارتياحها وإن كانت لتخفى غيظها من إفلات الفرصة التى كانت تؤدى بها إلى محاربة الولايات الشمالية . . وقلما واتت إنجلترة فرصة لتمكين المياه إلا عكرتها لأنها تحسن الصيد فى الماء العكر ...

ولكن الرئيس لقى فى بلاده من السخط والاستياء ما لم يكن يقوى على مواجهته غيره ولو كان فى مكانه غيره لخيف على مكانته فى القلوب أن تتزعزع ؛ فلقد أخذ

يرتاب فيه حتى أشد أنصاره تحمساً له ، أما المبطلون فقد وجدوا فرصة يصفون فيها عمله بالجبن والخور ..

ولكنه بينه بين نفسه يعتقد أنه أسدى صنيعاً إلى قومه لا يدركه إلا العقلاء الذين لا يجعلون للعواطف فى كل وقت سلطاناً على أعمالهم .. قال مرة يرد على الساخطين « لقد حاربنا بريطانيا العظمى مرة لأنها فعلت عين ما فعله الكابتن ولكس ، فإذا ما رأينا إنجلترة تحتج على هذا الفعل وتطلب إخلاء سبيل الرسولين فواجبنا ألا نخرج على مبادئنا التى ترجع إلى عام ١٨١٢؟ يجب أن نطلق هذين السجينين وحسبنا حرباً واحدة فى وقت واحد »

ومضى الرئيس بعدها يؤدى للإنسانية وللوطن رسالته ، وإننا لنرى هذا الجبار الذى درج من بين الأحراج والأدغال يحمل العبء وحده فى الواقع ... بل إنه كما ذكرنا ليلاقى مما يفعل كثير من أكابر رجاله أعباء تضاف إلى أعبائه ، ولكنه معود حمل الأعباء ومواجهة الأنواء ...

وإنه ليسأل نفسه : ألم يأن لهؤلاء الرجال أن يعملوا كما تحتم الظروف ؟ وماذا كان يضير فريمونت لو أنه رجع إليه ؟ ثم ماذا كان يضير ما كليلان لو أنه خفض جناحه وألان جانبه وأخذ الأمور بالشورى .. ؟

على أن العاصفة لا تهدأ فى جهة إلا لتنبعث من جهة أخرى ، فهاهوذا قائد آخر يفعل مثل مافعل فريمونت أو أشد منه ، وذلك هو هنتر الذى كانت له القيادة فى كارولينا الجنوبية ..

كان هنتر أكثر جرأة من فريمونت أو على الأصح أكثر نزقاً ، فلقد أعلن أن العبيد فى فرجينيا وفلوريدا وكارولينا الجنوبية أحرار بعد اليوم إلى الأبد ...

وهال الرئيس هذه الخطوة البالغة الجرأة ، فلم يسعه إلا أن يعجل بنقض هذا القرار فى غير مجاملة أو هوادة ، فلقد كان هنتر خليقاً أن يعتبر بما كان من أمر صاحبه فريمونت وكان مما أعلنه الرئيس قوله « إن حكومة الولايات المتحدة لم تمنح القائد هنتر ولا أى قائد أو شخص سواه من السلطان ما يعلن معه تحرير العبيد فى أية ولاية من الولايات ، وإن هذا الإعلان المزعوم سواء أكان حقيقياً أم زائفاً ، هو إعلان باطل » ..

ولكن الرئيس لا يكاد ينتهي من نزق إلا ليواجه نزقاً غيره ، وما يذكر ابن النابة أنه شهد في مجاهل الأرض حيث نبت ونما عاصفة متعددة نواحي المبوب كهذه العاصفة التي يواجهها ، فهاهي ذي تنذر بهبة جديدة وذلك أن وزير حربيته نفسه ، كامرون ، يرسل رسالة إلى بعض الضباط شبيهة بما أعلن فريمونت وصاحبه هنتر أ . ولولا أن تدارك الرئيس الأمر لأحدثت من سوء الأثر ما يصعب بعد علاجه ؛ فلقد أبرق إلى مكاتب البريد لترد نسخ تلك الرسالة المطبوعة وحال بذلك دون وصولها إلى وجهاتها . .

ألا ليت هؤلاء يفطنون إلى أن رئيسهم أشد عداوة منهم للرق ، وأنه يتمنى بينه وبين نفسه لو قضى عليه بكلمة يحبسها في نفسه وإنه لأكثر منهم تحرقاً إلى ساعة إعلانها .

بدأ العام الجديد أى عام ١٨٦٢ وقد مضى على قيام الحرب نحو ثمانية أشهر ولا يزال ماكليلان حيث هو لا يعمل أكثر من تدريب جنده ، ولا ينفك يطلب فرقاً جديدة وقد بلغ السأم بالرئيس وبالناس كل مبلغ من تردده وتلكؤه ؛ ولكن الناس لا يزالون يعلقون عليه أكبر الآمال ...

وحق لأهل الولايات الشمالية أن يضيقوا بهذا الركود ،ولولا أن جاءتهم أنباء بشيء من التوفيق صادفه أحد قوادهم وهو القائد جرانت فى جنوبى كنطكى لأوبق أرواحهم هذا الركود .. فقد استطاع هذا القائد الذى سوف يلتمع اسمه شيئاً فشيئاً حتى يصبح بطل هذه الحرب ، أن يأخذ عنوة حصنين من حصون الجنوبيين وأن يرغمهم على التراجع فى شهر فبراير ...

ولما أن يئس الرئيس من ماكليلان .. رأى أن الموقف يقضى عليه أن يدرس فنون الحرب والتعبئة ! أليس هو بحكم مركزه القائد الأعلى للقوات البرية والبحرية ؟ وإذاً فعليه أن يتعلم فن الحرب اليوم كما تعلم مسح الأرض من قبل وتخطيطها وكما تعلم القانون حتى حذقه ، بل كما تعلم القراءة والكتابة قبل ذلك جميعاً وهو يشق الأخشاب فى مطارح الغابة ..

شمر الرئيس عن ساعده وراح يدرس ويتعلم لا ينى ولا يكل ساعات طويلة من النهار وساعات من الليل؛ الخريطة مبسوطة أمامه ، ومعلموه الحربيون يتناوبون تعليمه الواحد بعد الآخر حتى فهم بعض الفهم وأصبح له شىء من الرأى ! يا عجباً لهذا العبقرى الجبار الذى يحمل فوق كتفيه ما كان ينوء بحمله أطلس أو آخيل.

واستطاع الرئيس بعد زمن أن يدلى للقواد برأى فى فنهم ، ولكنه كان حذراً يعرض الفكرة ويترك القطع للقائد الذى أرسلت إليه .. ولقد كتب ذات مرة إلى أحدهم برأيه ثم شدد عليه ألا يتقيد به قائلا إنه يلومه أكبر اللوم إن تحيز له أو تردد فى العمل بما تمليه عليه خبرته إذا كان ذلك الرأى لا يتفق وهذ الخبرة . .

على أنه يكتب لماكليلان نفسه ذات مرة يشير عليه بما يجب أن يعمل فى خطة

رسمها على أســاس من الفن ، ولما رد ماكليلان عليه برفض تلك الخطة لم يقره الرئيس ، وعاد فكتب إليه يسأله أسئلة تدل على فهم دقيق وإلمام شامل ، ودعاه إلى أن يجيب على تلك الأسئلة الفنية إجابة صريحة نزيهة ، وهو مستعد بعدها أن يقره ، ثم تحاكما إلى إخصائيين ، فما زال الرئيس يدلى لهم بحججه ويريهم أن خطته أضمن وأسلم من خطة القائد ماكليلان ، ولـكنهم آخر الأمر أقروا خطة القائد ، ولم يسع الرئيس إلا أن يذعن وإن كان لا يزال يرى وجاهة آرائه ..

وتعجب ماكليلان وتعجب الناس معه من هذا المحامى الذى يدلى برأى فى الخطط الحربية كأنه من أصحاب الحروب وممن لهم بفنونها خبرة ؛ وما عرف عنه أنه شهد حرباً من قبل ، اللهم خلا تلك المعركة الصغيرة التى اشـترك فيها وهو فى صدر شبابه ضد الصقر الأسود ..

ولـكن الذين يؤمنون بسر العبقرية لم يروا فى الأمر عجباً ؛ وكذلك كان الذين تربطهم بالرئيس صلة من كثب ، والذين رأوا رجاحة عقله وسلامة منطقه وقوة لقانته . ومن ذا الذى يقول إن الـكتب هى التى أوحت إلى نوابغ العالم فى شتى مناحى الحياة ما أتوا به من المعجزات . ؟ إنما يسير هؤلاء على نهج من فطرتهم وعلى هدى من نور عبقريتهم . .

وهل التوت الأمور على ذلك الرجل فى السياسة ولم تكن له بأسبابها من قبل صلة ؟ أو لم يحمل الذين أشفقوا أول الأمر من رياسته على الأعجاب به ثم على محبته والأجلال له ؟ وإذا كان هذا شأنه فى السياسة ولم يتعلمها فلم لا يكون كذلك فى أمور الحرب وقد استعان بالأخصائيين فى تعرف مداخلها بادىء الرأى ؟

أخذت الأزمة تشتد فى الميادين ، وذلك بتوالى الهزائم على أهل الشمال إذ كان هؤلاء ينقصهم القادة القادرون ، ولولا أن كان لهم لنكولن فى كرسى الرياسة يومئذ لحاق بهم الفناء ؛ ولقد شهد الذين تتبعوا أطوار هذه الحرب حتى نهايتها أن النصر فيها كان مرده إلى شخص الرئيس وقوة يقينه ، فلقد كان وحده جيشاً مقاتلاً ، وكان وهو رجل أمته وحده أمة فى رجل !

وظل ماكليلان على حاله يدرب جنده ويطلب المزيد من الفرق ، والرئيس صابر لا ينفد صبره وإن أوشك أن ينفد صبر الناس ، فلقد باتوا جميعاً يستعجلونه

بالزحف على رتشمند عاصمة الجنوبيين......

ومع أن الرئيس أمره بهذا الزحف فى نهاية شهر يناير سنة ١٨٦٢ أى بعد نحو تسعة أشهر منذ بدأت الحرب فأنه لبث فى مكانه حتى شهر مارس ؛ ثم أخذ يتحرك ولكن فى حذر وبطء ، مما دعا الرئيس أن يطلب إلى وزير الحرب أن يستحثه لأنه أوشك أن ينفد صبره عليه ، ولكن ما كان أعظم دهشتهما إذ كتب إليهما ذلك القائد يطلب المزيد من الرجال لأن العدو متكاثر أمامه ..

* * *

وفى مثل هاتيك الظروف التى كانت تتطلب من الرئيس ما أشرنا إليه من صبر وجهد ، يأبى القدر إلا أن يصوب إليه سهماً يصمى مهجته ، ويوشك أن يذهب بلبه ويزعزع فؤاده ، فقد غالت المنية إبنه ولى ، ولقد كان مع أخيه يواسيان الجند فى مستشفى من مستشفيات الحرب فسرت إليهما العدوى ولم يقو الصغير على المرض فذوى كما تذوى الريحانة الغضة ...

لقد ارتاع الرئيس ووهى جلده أمام هذه المصيبة ، ورأى الناس ذلك الجبل الشامخ يتمايل ويتخاذل من الوهن ولا يستطيع أن يخفى عن الناس جزعه وحزنه ، وإنه ليجهش كما يجهش الصبى وفى عينيه حزن وحسرة وفى وجهه كدرة وصفرة ؛ قال لمن حوله ذات مرة « لقد أذهلتنى هذه الضربة ، ولقد أطلعتنى على ضعفى فى صورة لم أر مثلها من قبل » وقال لصديق له بعد ذلك « ألم تر فى منامك ذات مرة صديقاً عزيزاً عليك ، وشعرت أنك تنعم بلقاء حلو مع هذا الصديق فى حين أنه كان يمازج شعورك هذا شعور آخر حزين بأن ذلك اللقاء لم يكن حقيقة ؟ ... هذا يا صاحبى هو حالى ، فعلى هذه الصورة أحلم بلقاء ولدى ولى » ... وعلم من الممرضة أنها فقدت زوجها وولديها فسألها هذا الطود الذى يحمل أعباء قومه كيف تحملت هاتيك المصائب ؟ فأجابته أنها تحملت ضربات الدهر ضربة ضربة وأنها تثق فى رحمة الله فمنه تستمد العزاء والسلوان ... وهنا يجيبها الرجل العظيم الشديد البأس أنه سيحاول أن يتعلم منها الصبر ، وأنه لم ييأس من رحمة الله وأن الله سوف يهبه العزاء ، ثم يردف قائلا « أعنى لو كان لى مثل إيمان الأطفال ، هذا الإيمان الذى تتحدثين عنه ، وسوف يعدنى الله به » ... ويعود فيعبر عن

الرئیس الحزین

مبلغ حزنه بقوله « إنها أعظم محنة لاقيتها فى حياتى . لم كان هذا ! ؟ . . . لم كان هذا . . . ؟ »

* * *

أجاب الرئيس ما كيلان إلى ما طلب وأمده بالرجال لكيلا يكون للقائد حجة عليه ، فلقد كان يَشيع فى الناس من أول الأمر أن عدم تحرك القائد إنما يرجع إلى أن الحكومة تضن عليه بالمال والرجال ... ولقد كتب إليه الرئيس كتاباً كان مما جاء فيه قوله « أحسب أن القوات التى سيرت إليك قد بلغتك ؛ وإذا كان الأمر كذلك فأنك الآن فى الوقت الذى ينبغى أن تضرب فيه ضربة ؛ إن العدو يكسب بتأخرك » .

ولم يسع القائد إلا أن يصرح فى رسالة له أنه واثق بعد ذلك من النتيجة ، وأنه آخذ من فوره فى الزحف ، ولكنه فى الوقت نفسه راح يشتكى من المطر المطال والمسالك الوعرة فكان هذا جهد ما فعل .

ولم ير الرئيس بداً من أن يبرق إليه فى الخامس والعشرين من مايو يقول : « أظن أنه قد أزف الوقت لكى تهاجم رتشمند أو تدع هذا العمل جانباً وتأتى للدفاع عن وشنطون نفسها »

وكأنما أراد ما كيلان فى ذلك الوقت أن يكيد للرئيس أو كأنما أراد أن يخلق مشاكل جديدة يتخذ منها علة لهذا الجمود ، فكتب إليه ينتقد الموقف الحربى كله فى جميع الميادين ، بل إنه لم يقتصر على شئون الحرب فراح ينتقد الحكومة فى جميع شئونها ..

وتقدم القائد بعد ذلك إلى رتشمند تقدماً بطيئاً وذلك فى شهر يونيو ، وكان معه من الرجال والعتاد ما كان حرياً أن يكسب به معركة كبرى كما أجمع النقدة فيما بعد ، ولكن نابليون الجديد ما كاد يتصل بطلائع الجنوبيين حتى أزمع الارتداد بعد سبعة أيام فى قتال غير شديد ؛ ولقد هيأ بهذا التردد للجنوبيين أن يرسلوا المدد إلى جيش لهم كان فى طريقه إلى وشنطون يريد تهديدها .

وتلقى وزير الحرب من ما كيلان رسالة فيها دليل يأسه وحيرته قال « لو أتيح لى عشرة آلاف أخرى لاستطعت أن أكسب معركة كبيرة فى غد ؛ ينبغى

ألا تمدنى الحكومة مسئولا ؛ وإنها لن تستطيع ذلك .. إذا أنا نجيت هذا الجيش فإنى أقول لك فى بساطة إنى فى ذلك لن أدين لك بشيء من الشكر ، لا ولا لأى شخص فى وشنطون ، فلقد بذلتم قصارى جهدكم فى تضحيته »

وكان قائد الثوار الكبير ، لى ، فى ذلك الوقت يزحف على وشنطون ، وكان على الدفاع عنها بوب أحد قواد الشمال ومعه ثمانية وثلاثون ألفاً من الرجال ؛ ولكن جيش لى كان أكثر عددا وأشد بأساً ؛ وتبين أن خير وسيلة لرد لى عن وجهته أن يبادر ما كليلان بالزحف على رتشمند لا أن يتباطأ ويتراجع كما فعل ..

ولما يئس الرئيس منه فى هذا السبيل عاد فأرسل إليه يدعوه لحماية العاصمة ، وهو لا يدعوه فى لهجة الأمر كما كان عسياً أن يفعل غيره من الرؤساء ، مخافة أن يغضب القائد فى هذا الوقت العصيب ؛ والناس يعجبون من تردد ما كيلان بقدر ما يعجبون من ضبط الرئيس نفسه على هذه الصورة ، وطول صبره فى موقف لو طاش فيه حلم الحليم لكان له عن طيشه العذر كل العذر ؛ ولن يفوت الرئيس أن يضحك ليهون الأمر على نفسه وعلى الناس فيقول ذات مرة لمن حوله « إذا لم يكن القائد ما كليلان فى حاجة إلى جيش بوتوماك فأنى أرجو منه أن يعيرنى إياه فترة من الزمن »

ورد ما كليلان على الرئيس يقول إنه سوف يجيبه إلى ما طلب « إذا رأى الظروف تسمح به » وكان ذلك فى شهر أغسطس ..

وعاد الرئيس فكتب يطلب إليه القدوم بكل ما فى وسعه من سرعة . وأوفد إليه القائد هاليك يستحثه ولكنه لم يأبه لذلك كله ولم يصل إلا بعد قرابة شهر من هذه الدعوة ..

وكان أمراً طبيعياً أن تنزل الهزيمة بالقائد بوب وأن تبيت وشنطون معرضة للسقوط ؛ ولقد عاود الذعر هذه المدينة على نحو ما حدث غداة الهزيمة فى معركة بول رن ، بل لقد كان الموقف يومئذ أشد هولا ؛ إذ اختلفت وجهات النظر فى مجلس الوزراء واحتدم الجدل فى المجلس التشريعى ، وارتفعت الأصوات بطلب عقد الصلح مع الجنوبيين ، الأمر الذى خيف منه أن يؤدى إلى انحلال العزائم ..

ولكن لنكولن وحده بقى على عزمه وثباته يعالج الموقف بالصبر والحزم

ويهيب بالرجال ألا يتخاذلوا وينكصوا على أعقابهم ...

ولقد كان للناس من هذا الصبر وهذا الثبات مثل ما يكون من النصر فى معركة ، وبذلك قل فزعهم وعادت الثقة إلى نفوسهم ووقفوا إلى جانب رجلهم.

ثم إن الرئيس ضم عدداً من الجيوش بعضها إلى بعض وجعل منها جيشاً جديداً وضمه تحت قيادة ماكليلان ، وطلب إليه أن يقابل لى بهذا المدد الهائل الذى زاد عن مائتى ألف ، ولكن ماكليلان لم يفعل ، فأصاب أهل الشمال هزائم أخرى فى أكثر من جهة .

ولقد كانت هذه السنة الثانية للحرب أسوأ الأيام التى مرت بالرئيس فى حياته كلها ، وأى شىء أكثر سوءاً من الهزيمة والخذلان ؟ وإن الرئيس ليخشى أن تنحل العزائم وتخور القوى ، وبخاصة حين أحس الناس أن الحرب لابد أن يطول أمدها ويشتد سعيرها ، وها هو ذا تهامس الأمهات بدأ يصل إلى مسمعيه ، وليته كان تهامس الأمهات فحسب ، فأن كثيراً من الرجال قد أخذوا يبدون تململهم وتذمرهم ويعلنون عن رغبتهم فى وضع حد لهذه المحنة القومية .

وكان مما يكرب الرئيس ويوجع نفسه أن كثيراً من الناس كانوا يلومونه ويردون سبب الهزائم إليه ، ويغفلون عما كان يفعل قواده وبخاصة ماكليلان ، ذلك الذى كانت محبته والثقة به من أخطاء الجماعات وأوهامها .

رجحت كفة الجنوبيين فى البر ولكنهم فى البحر كانوا أذلة ، وذلك أنهم لم يكن لهم مثل ما كان للشماليين من الجاريات المواخر فيه ؛ ولقد استطاع أحد القواد البحريين وهو فراجت أن يسير فى أبريل بسفنه إلى نيو أورليانز فيصليها من ناره ويأخذها عنوة ؛ وكان انتصاره هذا وإذلاله أهل الجنوب على هذا النحو، مما خفف على الشماليين بعض ما راحوا يلاقونه فى البر من هوان وذلة . ولسوف تكون هذه القوة البحرية فى النهاية عاملا من أهم عوامل النصر ، الأمر الذى لم يفطن إليه أهل الجنوب إلا بعد فوات الفرصة .

وظل الرئيس لنكولن فى محنة قومه ثبت الجنان حتى لتتزعزع الجبال ولا يتزعزع ، ولكنه كان مع ذلك رؤوفاً عطوفاً يكره الحرب ويتألم منها أكثر مما يتألم الناس جميعاً ، ويتمنى أكثر مما يتمنى غيره أن تضع أوزارها فى أقرب

وقت . ولذلك كان ينكر على المتشددين تشددهم ولايقر أحداً على قسوة أو يطاوعه في صرامة ، فأذا أنس الرئيس من محدثه غلظة على العدو تجهم وأشاح عنه فى حين أنه كان يقبل على من يطلب إليه اللين والمغفرة ، وهو يقول له وللناس جميعاً أنه يمقت تلك الحرب من أعماق قلبه وإنه ما دخلها إلا وهو موقن أنه شر لابد منه ، وما أراد بها إلا أن تكون علاجاً لمعضلة باتت تهدد كيان بلاده . أما أن تكون انتقاماً وعلواً فى الأرض واستكباراً فليس هو من ذلك فى شيء...

وكثيراً ما كان يصدر من الأوامر ما يتعجب منه القواد ولا يشايعونه فيه وإن نفذوا ما يأمر به . قدموا إليه فى تلك الأيام ورقة بشأن شاب كانت عليه الحراسة ووجد نائماً فى الخطوط، ليوقع عليها بإعدامه حسب قوانين الحرب ، فنظر الرئيس فى الورقة ملياً ثم أمر فأحضر ذلك الشاب ، وكان اسمه وليم سكت ، ونظر إليه الرئيس وقال له : لن ينجيك إلا الصدق فقل الحق : هل نمت فى الخطوط؟ وما سبب نومك ؟ فقال الفتى : أجل نمت أيها الرئيس فلم تكن على النوبة تلك الليلة ، ولكنى وجدت صاحب النوبه ينتفض من الحمى وهو من بلد قريب إلى بلدى فحملت السلاح عنه لأحرس الخطوط ، فغلبنى النوم وقد كانت على النوبة الليلة السالفة فقضيتها ساهراً ، وعلى ذلك فلم أستطع السهر ليلتين متتاليتين ؛ وسأله الرئيس عن بلده وعن بلد صاحبه ، فعرف البلدين وذكر طوافه بهما أيام كان يعمل فى البريد ؛ ثم سأل الرئيس القواد عن بعض ما جاء فى كلام وليم ، وأمسك القلم فصاح به الفتى : من فضلك ... من فضلك أيها الرئيس لا تقتلنى ... لا تقتلنى ، فنظر إليه الرئيس وقال : لن أقتلك وإنما أرسلك إلى الخطوط لتجاهد مع المجاهدين ؛ ونظر الفتى إلى الرئيس والدموع فى مقلتيه فقال له لنكولن : ولكنى أتقاضاك ديناً على هذا فماذا تصنع لسداد هذا الدين ؟ فاضطرب الفتى ولم يفطن إلى ما يريد الرئيس ثم قال فى تلعثم وارتباك : لست أدرى ما إذا كان لدينا ما يكفى من المال لأداء هذا الدين ، فنحن فقراء ، على أن لدينا قليلا منه اقتصدناه ، ويستطيع أبى أن يبيع مزرعته ، وربما مد إلينا الأصدقاء يد العون فنجمع بذلك ألفين أو ثلاثة آلاف من الفرنكات ، فإذا انتظرت .. وضحك الرئيس وزاد عطفه على هذا الفتى ولم يتنكره له لجهله أو ينهره على غباوته وقال له فى رفق : كلا يا بنى فأن دينى عظيم وليس

لنکولن و ماکیلان
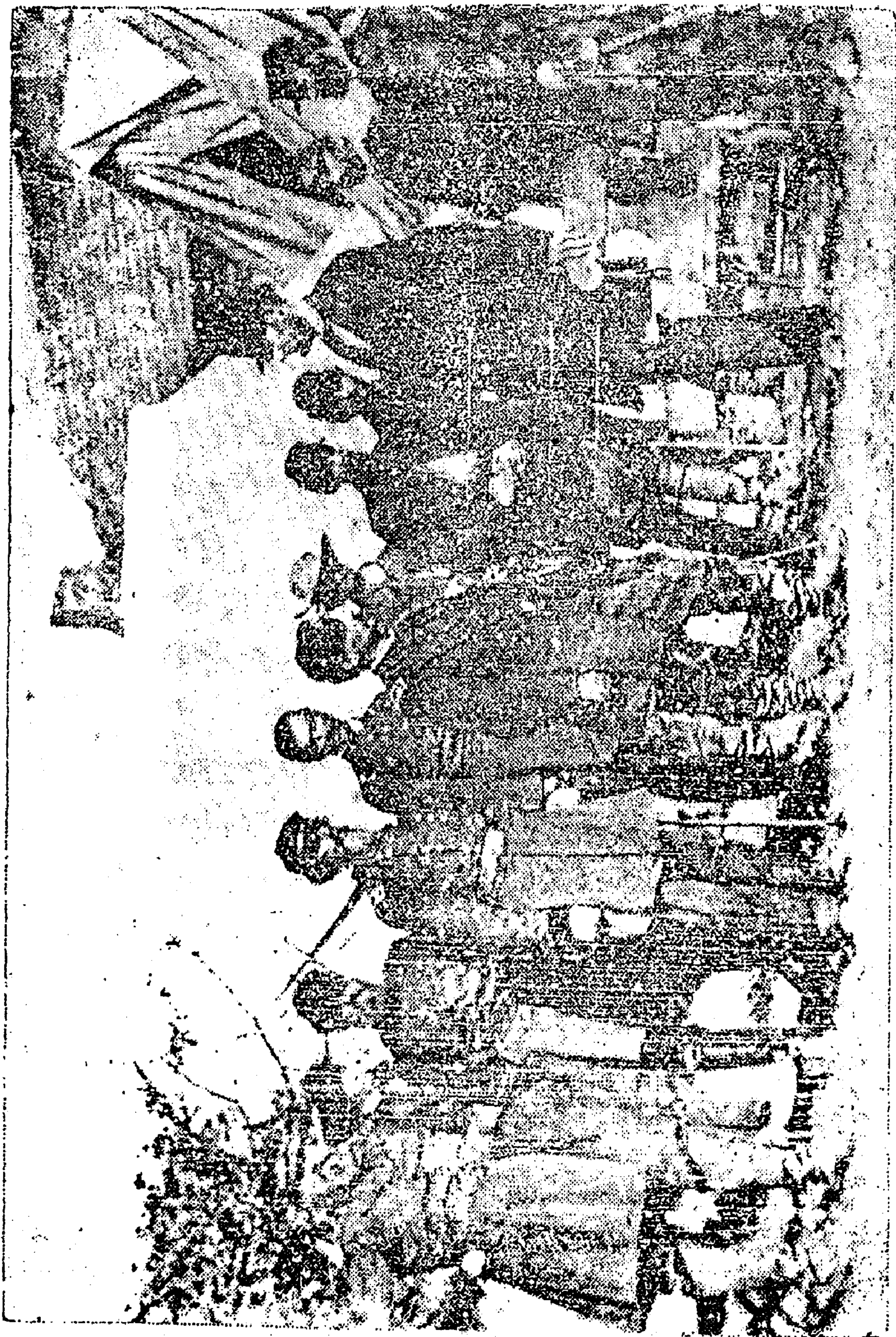
وليس أداؤه فى طوق أسرتك ولا مزرعتك ولا أصحابك ، وإنما هناك شخص واحد يملك أن يؤدى هذا الدين وذلك هو وليم سكت ، فأذا أدى وليم واجبه على خير مايؤدى الجندى واجبه واستطاع عند موته أن يقول لقد وفيت بوعدى للرئيس لنكولن فعند ذاك يؤدى ما عليه من دين . . وأدى الفتى التحية ومضى إلى الخطوط؛ واحتج القواد فقال الرئيس مغضباً : أيكون جزاء مروءته الأعدام؟ إنى لاجلد لى أن أفكر أننى ألقى الله ودم هذا الشاب المسكين على يدى . . وهكذا يأبى الرئيس أن يتقيد بقوانين الحرب وما يستمد قوانينه إلا من قواعد الأنسانية . .

ونظر الرئيس بعد ذلك بأيام فى أسماء القتلى فوقعت عيناه على اسم وليم سكت فاكفهر وجهه وسأل كيف مات فأخبر أنه كان يهجم هجوماً شديداً على العدو بهر القواد جميعاً وما زال فى هجومه حتى صرعته رصاصة ، ووجد أصحابه ورقة علقها على صدره وقد كتب عليها ليحمى الله الرئيس أبراهام لنكولن .. وما سمع الرئيس ذلك حتى أسرع إلى حجرة قريبة ، ودخل عليه بعض قواده بعد حين فوجدوه يبكى !

وعفا الرئيس مرة أخرى عن ضابط تأخر عن المعركة لأنه ذهب للقاء خطيبته ؛ ولما احتج القواد قال لهم الرئيس ضاحكا ، عفوت عنه لأنى أفعل فعله لو كنت فى مثل سنة !

وحمل إليه البريد فيما حمل من الكتب كتاباً من سيدة تقول إنها أرسلت إلى ابنها كتباً كثيرة فلم يرد عليها ، فأن يكن مات فى سبيل وطنه ، وإن كان لا يزال حياً فأنها تحب أن يكتب إليها ؛ وإنها لتلجأ إلى الرئيس إذ لم تبق لديها حيلة ... وشكت الأم من غلظة ابنها إن كان حياً وشرحت للرئيس كيف ربته بعد موت أبيه حتى تخرج ضابطاً فى المدرسة الحربية ..

والرئيس خير من يدرك بقلبه الأنسانى الكبير كيف تكون حال أم فى هذا الموقف ، فأرسل إلى قائد الفرقة التى خدمتها الأم فى كتابها يأمر بأرسال هذا الضابط إلى البيت الأبيض فى غير إبطاء ؛ ولما حضر الفتى أدخلوه على الرئيس فحيا ووقف أمام مكتبه دهشاً ، فقال له الرئيس فى شىء من العنف : قص على

يا فتى كيف تعلمت بعد وفاة أبيك ولا تخف عنى شيئاً إن كنت من الصادقين .
فقص الفتى عليه قصته كما جاءت فى كتاب أمه ، وقاطعه الرئيس يصحح له واقعة فقال : وماذا بعتم أيضاً غير متاع البيت وكان بيعه شديداً على نفس أمك ؟ وتفكر الفتى وقال فى شىء من الخجل : بعنا ساعة أبى .. ونظر الرئيس إليه بعد أن فرغ من قصته ، ثم قال هل جاءتك فى الصفوف كتب من أمك ؟ وقال الفتى أجل جاءتنى .. وتنكره له الرئيس وعبس ووضع يديه على جانبى صدره تحت ياقة حلته وهى عادته حين يغضب ، وقال : أيكون جزاء أمك على ما فعلت هذا العقوق فلا ترد على كتبها ؟ وأراد الفتى أن يعتذر فقاطعه الرئيس قائلا : إجلس على هذا الكرسى وناوله بيده ورقة لمح الفتى فى زاويتها العليا كلمة البيت الأبيض ، مكتب الرئيس ، وأعطاه الرئيس ريشته ومحبرته وقال له : اكتب كتاباً لأمك ، ومشى الرئيس إلى النافذة فأطل منها وهو يردد شعراً لشكسبير أوله : « اعصفى يا ريح الغرب الهوجاء فلست أقسى من قلبٍ منكر » ... وتناول الرئيس الكتاب فأعطاه إلى من يلقيه بالبريد وقال للضابط : كن باراً بأمك لتكون باراً بوطنك ولم يشأ أن يظل عنيفاً عليه وهو يحارب من أجل قضية البلاد فربت على كتفه فى رفق وهو يصرفه ..

ولقد كان أبراهام يتلقى الأنباء عن عدد القتلى والجرحى وهو أكثر الناس إشفاقاً وجزعاً ، ولقد كان يسأل عن عدد من صرع من الفريقين المتحاربين لا من أهل الشمال فحسب ، فيحزن لهؤلاء وهؤلاء جميعاً كأبناء أمة واحدة ..

وكثيراً ما كان يذرف الرئيس الدمع على ما يصيب رجاله فى تلك الحرب الهائلة ؛ ذهب ذات مرة إلى مقر أحد الجيوش فعلم بموت صديق له كان من جلسائه فى سبر نجفيلد ، فأسرع إلى العودة مضطرباً ويداه على صدره كأنما يمسكه أن يتصدع ، وعيناه تفيضان ، وعلى وجهه شحوب وكدرة ، وإنه ليسير بين الجنود لا يلتفت إلى تحياتهم فلا يردها من شدة الغم وتكاد لا تقوى على حمله رجلاه ..

وكان لا يفتأ يقرأ شكسبير ، فى مآسيه صدى لنفسه الحزينة وعزاء لها ؛ على أن عينيه تغمان ذات مرة على تساؤل أم ولهى فى إحدى هذه المآسى تقول «لقد سمعتك أيها الأب الكاردينال تذكر أننا سنرى أصدقاءنا فى السماء ونعرفهم،

ولئن كان هذا حقاً فلسوف أرى ابنى ثانية » ... فانظر إلى هذا الرجل القوى يضع الكتاب ويكب بوجهه على كفيه فيملأهما من روافد دمعه ..

ذلك هو الربان الذى قدر عليه أن يكتوى فؤاده بنار هذه الحرب الطاحنة ، وإنه ليحس كل ضربة أو طعنة فيها موجهة إليه قبل غيره .. ولكن من كان يقوى غيره على حمل هذه الأهوال والصبر على مكاره هذا النضال ؟

فى هذه السنة الثانية للقتال أى سنة ١٨٦٢ ، بينما كانت الحرب تتأجج نارها ويتفجر بركانها، وتتوثب فى البر والبحر شياطينها ، اشتدت الدعوة إلى حل معضلة الرق ، وارتفعت الأصوات من كل جانب بوجوب إعلان قرار التحرير ؛ ونشطت الصحف والمجلات تطالب الرئيس أن يخطو هذه الخطوة ، وانهالت على الرئيس الكتب يحبذ فيها أصحابها أن يقطع العقدة فذلك أيسر من حلها ...

ووقع الرئيس على كلمة عظم تأثيرها فى نفسه وتدبر فيها طويلا وهى قول أحد الكتاب المؤرخين « إن هذه الحرب الأهلية هى الأداة التى سخرها الله لاقتلاع جذور العبودية ، وإن أعقابنا سوف لا يرضون عن نتيجتها إلا إذا كان مما تحدثه الحرب ازدياد عدد الولايات الحرة ؛ هذا ما يتوقعه الجميع ، وهذا هو الأمل الذى تنشده جميع الأحزاب » ...

وكتب جريلى فى صحيفته نيويورك تريبيون يدعو الرئيس إلى العمل ؛ وكانت عبارته صارمة أخذ فيها على الرئيس تردده ، واختتمها فى لهجة أقرب إلى الأمر منها إلى الرجاء أن يعلن تحرير العبيد ...

وأرجف المرجفون أن نابليون الثالث سوف يتدخل إلى جانب الجنوبيين ، فإذا أعلن التحرير اكتسبت قضية الشماليين معنى يقدره أحرار أوروبا وبهذا يحجم نابليون عن التدخل ...

والرئيس يتدبر فى هذا كله ، ولكن المحافظة على الاتحاد لا زالت عنده أساس هذا الصراع القائم؛ ولو كانت جيوشه ظافرة لجازله أن يقدم على هذا العمل فكيف والفشل يلاحق الشماليين فى كل جهة وما كيلان فى موضعه لا يريد أن يتحرك ؟..

لذلك يؤثر الرئيس التريث والصبر ؛ وكان يقول فى نفسه دائماً منذ أوائل تلك السنة الثانية : ألا ليت ما كيلان يخطو خطوة نحو النصر ... وكلما اشتدت

الدعوة إلى التحرير اشتد تألم الرئيس من هذا القائد الذى لا يريد أن يعمل شيئاً ، إلا أن يطلب المزيد من الجند كما بينا ...

وعجب الناس أن رأوا الرئيس يرد بنفسه على جريلى وذلك فى صحيفته ومما جاء فى رد الرئيس قوله : « إذا كان فى الناس من لا يحافظون على الوحدة إلا أن يحافظوا على الرق فأنى لست منهم ، وإذا كان فيهم من لا يحافظون على الوحدة إلا أن يقضوا على الرق فأنى لست منهم ؛ إن غرضى الأسمى هو أن أحفظ بناء الاتحاد وليس هو أن أحفظ العبودية أو أن أقضى عليها ... فأذا تسنى لى أن أنقذ الاتحاد دون أن أحرر عبداً واحداً فعلت ذلك ، وإذا كان فى وسعى أن أنقذه بتحرير جميع العبيد فعلت ذلك ... وإذا استطعت أن أحافظ عليه بتحرير بعض العبيد وترك البعض فعلت ذلك أيضاً »

الحق أن الرئيس لم يغفل يوماً عن مسألة العبيد ، ولم ينس ذلك النظام المنكر البغيض الذى نشأ على مقته وازدرائه والذى طالما تمنى أن تنجو البلاد من آثامه . ولـكنه كان يحرص ألا تفسد مسألة العبيد عليه قضية الحرب ..

ولم يهمل الرئيس مسألة الرق كل الأهمال ، وإنما سار فيها بقدر ففى أوائل تلك السنة الثانية للحرب أرسل فى السادس من شهر مارس إلى الـكونجرس مقترحاً مؤداه أن يصدر ذلك المجلس قراراً به تعوض الولايات التى تقضى على الرق فيها تعويضاً مادياً عادلا .. وأصدر المجلس هذا القرار ولـكن الولايات المحايدة عارضته ورفضته وهى المقصودة به قبل غيرها ؛ ودعا الرئيس ممثليها وحاول إقناعهم ولـكنهم لم يقتنعوا فنيت الفكرة بالفشل ولم يفد الرئيس منها إلا تعرضه لنقد هذه الولايات ولومها ، ثم للوم دعاة التحرير من جهة أخرى لأنهم رأوا فى الفكرة تردداً وتقاعداً وهم لا يقنعون بأقل من التحرير الـكامل فى غير تراجع أو تحفظ

وفى شهر أبريل أصدر الـكونجرس قراراً بتحرير العبيد فى العاصمة وما حولها؛ ولما وقع لنـكولن على هذا القرار قال « عندما تقدمت باقتراح إلى الـكونجرس سنة ١٨٤٩ للقضاء على الرق فى هذه العاصمة ولم أكد أجد من يستمع إلى ذلك الاقتراح ، لم أكن أحلم أنه سوف يتحقق بهذه السرعة » ..

ودعا الرئيس ممثلى الولايات المحايدة إلى مؤتمر فى آخر يوليو وحاول أن يقنعهم

بقبول التعويض ولـكنهم أعرضوا عنه وأصروا على عنادهم ..

وظلت الدعوة إلى التحرير تشتد يوماً بعد يوم وظل الرئيس يتدبر ويقلب الأمر على وجوهه .. ولقد كان من أجل مواهبه كما ذكرنا أنه كان يتبين الأمور على حقيقتها مهما التوت عليه سبلها ، واختلطت وشائجها ثم يسدد خطاه على هدى مما يرى دون أن تفوته صغيرة أو كبيرة مما تقع عليه عيناه ..

كان يخشى الرئيس أن يُغضب التحرير الشامل العاجل الولايات المحايدة فتنضم إلى الاتحاد الجنوبى وكان يعد ذلك والحرب قائمة كارثة عظيمة ، ثم إنه يخشى أن يتهم أنه ما أثار هذه الحرب الضروس إلا من أجل القضاء على الرق مع أن الدستور يقره .. وهو لم يخض غمار هذه الحرب إلا للمحافظة على الاتحاد ..

وإذا أقدم الرئيس على التحرير خرج بذلك على الدستور وهو الحريص على مبادئه ، العامل منذ اشتغاله بالسياسة على المحافظة عليه وتقديسه ..

ولـكن الرئيس يرى للمسألة وجوها أخرى فالتحرير فى ذاته هو العمل الأنسانى الجليل الذى طالما تاقت نفسه إليه منذ حداثته وقد كان الرق أبغض شىء إلى نفسه ... وهو فى الوقت نفسه يرى أن تحرير العبيد سوف يدعوهم إلى التمرد على سادتهم فى الجنوب فتضعف شوكة هؤلاء السادة فى الحرب ، هذا إلى ما يرجى من رفضهم العمل فى فلاحة الأرض بعد تحريرهم فيضطر البيض إلى العمل مكانهم فتتضاءل جيوشهم وتضعف مواردهم ؛ فضلا عن أن التحرير من شأنه أن يكسب الرئيس وحكومته عطف الأحرار فى أوروبا فلا تناوئه بالتدخل فى هذه الحرب .. وأما عن الدستور فالتحرير ضرورة تدعو إليها الضرورة الحربية ولن يجد الرئيس صعوبة كبيرة فى حمل ممثلى الأمة على تعديله فيما يتصل بهذا الأمر ..

وتفكر الرئيس وأطال التفكر ، وكلما مر يوم ازداد ميله إلى التحرير وبعد عن تردده .. ولـكن شيئاً واحداً لا يزال يقوى ميله إلى التريث وذلك هو الموقف الحربى وما فيه من خذلان وضعف وجمود من جانب ماكليلان حتى صيف هذا العام الثانى للحرب ، عام المحنة والخوف ..

ولـكن دعوة التحرير تشتد ، وكلما بلغت مسامع الرئيس هزت نفسه إلى هذه الخطوة الأنسانية الـكبرى فيـكاد ينسى كل اعتبار غيرها ؛ وانك لتجد

ما يهجس فى نفسه واضحاً فى هذه العبارة التى كتبها بخط يده « إنى بطبيعتى أمقت الرق ، وإذا لم يكن الرق خطأ فما فى الدنيا من خطأ قط ، ولست أذكر لحظة لم أفكر فيها هذا التفكير وأشعر هذا الشعور ، ولكنى فى الوقت نفسه لم أذهب إلى أن الرياسة أكسبتنى حقاً لا يُدفع أن أعمل رسمياً وفق هذا التفكر وهذا الشعور ؛ لقد كان هذا القسم الذى أقسمته ينطوى على أن أحافظ على دستور الولايات المتحدة وأن أحميه وأن أدافع عنه ؛ وما كنت لأشغل هذا المنصب بدون قسم ؛ وما اتجهت قط إلى أنى أؤدى القسم الذى به أصل إلى السلطة ثم أقضى على هذا القسم أثناء استعمالى هذه السلطة ؛ وكذلك كنت أفطن إلى أنه فى الأحوال الدنية العادية يمنعنى هذا القسم من أن يكون لمجرد اعتبارى الخلقى تجاه الرق أثر عملى فى مسلكى. أكان من الممكن أن أفقد الأمة وأحافظ على الدستور ؟ إن القوانين العامة تقضى بأن أحمى حياتى وساقى ولكن الساق يضحى بها فى العادة لأنقاذ الحياة ؛ ولن يتمشى مع العقل أن يضحى بالحياة لأنقاذ الساق . وشعرت بأن بعض الأجراءات وإن عدت غير دستورية فى مواقف أخرى إلا أنها تجد ما يبررها من حيث أنها لابد منها للمحافظة على الدستور وذلك بالمحافظة على الاتحاد ذاته »

وتبين الرئيس موقفه فأخذ يتحفز ويستجمع قوته ليقدم ، ثم عزم وصمم فليس من الأقدام بد ، وليس لما عسى أن يلقاه من معارضة أى وزن عنده .. ومتى عقد أبراهام النية على أمر ثم تخاذل عنه أو تهاون فى العمل على إنفاذه ؟

صمم الرئيس أن يضرب الضربة التى طالما تمنى أن يضربها .. أجل ... أراد أبراهام لنكولن اليوم أن يضمن تاريخ البلاد بل وتاريخ الانسانية أجل عمل قام به ألا وهو تحرير العبيد فى أمريكا ، وإنه لن يحجم اليوم أن يعلن رسمياً فى مجال واسع ما أنكره قبل عام من فريمونت وهنتر ، ولن يتردد أن يأخذ بما رفض من قبل مهما يكن من غرابته وهو كفيل أن يوضح للناس قضيته وأن يحمله على قبول حجته ..

وفى الثانى والعشرين من شهر يوليو دعا الرئيس إليه مجلس الوزراء ، ولم يكن يعلم أحد منهم الغرض من الاجتماع ، ولما اكتمل عقدهم ، نظروا فأذا على وجه الرئيس من أمارات الجد ما لا عهد لهم بمثله حتى فى أخطر ما سلف من المواقف

وأخرج الرئيس من جيبه ورقة طلب إليهم أن يستمعوا إلى ماجاء فيها ، وراح يتلوها فى حزم وثبات « أنا أبراهام لنيكولن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية والقائد الأعلى للقوات البرية والبحرية للاتحاد .. » وأنصت الوزراء فأذا به يتلو عليهم قرار التحرير ..

وتعجب الوزراء ونظر بعضهم إلى بعض ، فهذا الرئيس لم يدعهم ليشاورهم ولكن ليملى إليهم ما عقد عزمه عليه ؛ وقطع سيوارد الصمت بأن رجا من الرئيس أن يرجىء إعلان ذلك إلى حين ، فأنه إن فعل اليوم والحرب على ما هى عليه والشماليون يلاقون الهزائم عد ذلك ضرباً من اليأس وأخذ على أنه خطوة مهزوم مستضعف ..

وتدبر لنكولن فى قول سيوارد فرأى وجاهته ثم وافق على التأجيل على ألا ينكص على عقبيه إذا ظفر الشماليون بأول انتصار لهم ؛ لأنه يرى تأييداً لكلام سيوراد أن التحرير والشماليون فى ضعفهم معناه « آخر صرخة فى الهروب »

وطوى الرئيس ورقته ثم وضعها فى قمطره حتى يظفر الشمال بأول انتصار ، وللمرء أن يدرك مبلغ ما كان لما عسى أن يأتى به ما كليلان يومذاك من خطر ..

ووقع فى نفس الرئيس أسوأ وقع ماحل بالشماليين من الهزائم فى شهر أغسطس على نحو ما بينا حين كان جيش الجنوبيين يزحف إلى وشنطون بقيادة لى ...

***

وتحرك ما كليلان آخر الأمر فى سبتمبر ؛ والتحم الجيشان : جيش لى وجيش ما كليلان فى أنتيتام وحمى القتال وتوالى بين الجيشين الجزر والمد ، ولم يقو الجنوبيون على مواصلة القتال فانسحبوا من المعركة انسحاباً يشبه الهزيمة ، وكان ذلك فى اليوم السابع عشر من شهر سبتمبر ، وعدت أنتيتام أولى المعارك التى تبشر بالنصر فهى وإن لم تكن نصراً كما يكون النصر قد بثت العزم فى نفوس الشماليين وأوحت إليهم أنهم إن عملوا فسيظفرون بالجنوبيين ...

وفى الثانى والعشرين من هذا الشهر دعا الرئيس الوزراء إلى الاجتماع ، ولما اكتمل جمعهم كان فى يد الرئيس كتاب فلم يشأ أن يلقيه دون أن يقرأ عليهم منه قصة أعجبته ، وكان يضحك أثناء قراءته والوزراء يضحكون إلا ستانتون ، فقد كان يضيق بكثير مما يفعله الرئيس وبما يأتيه من ضروب المزاح وهو لا يدرى أن

المحـــرر
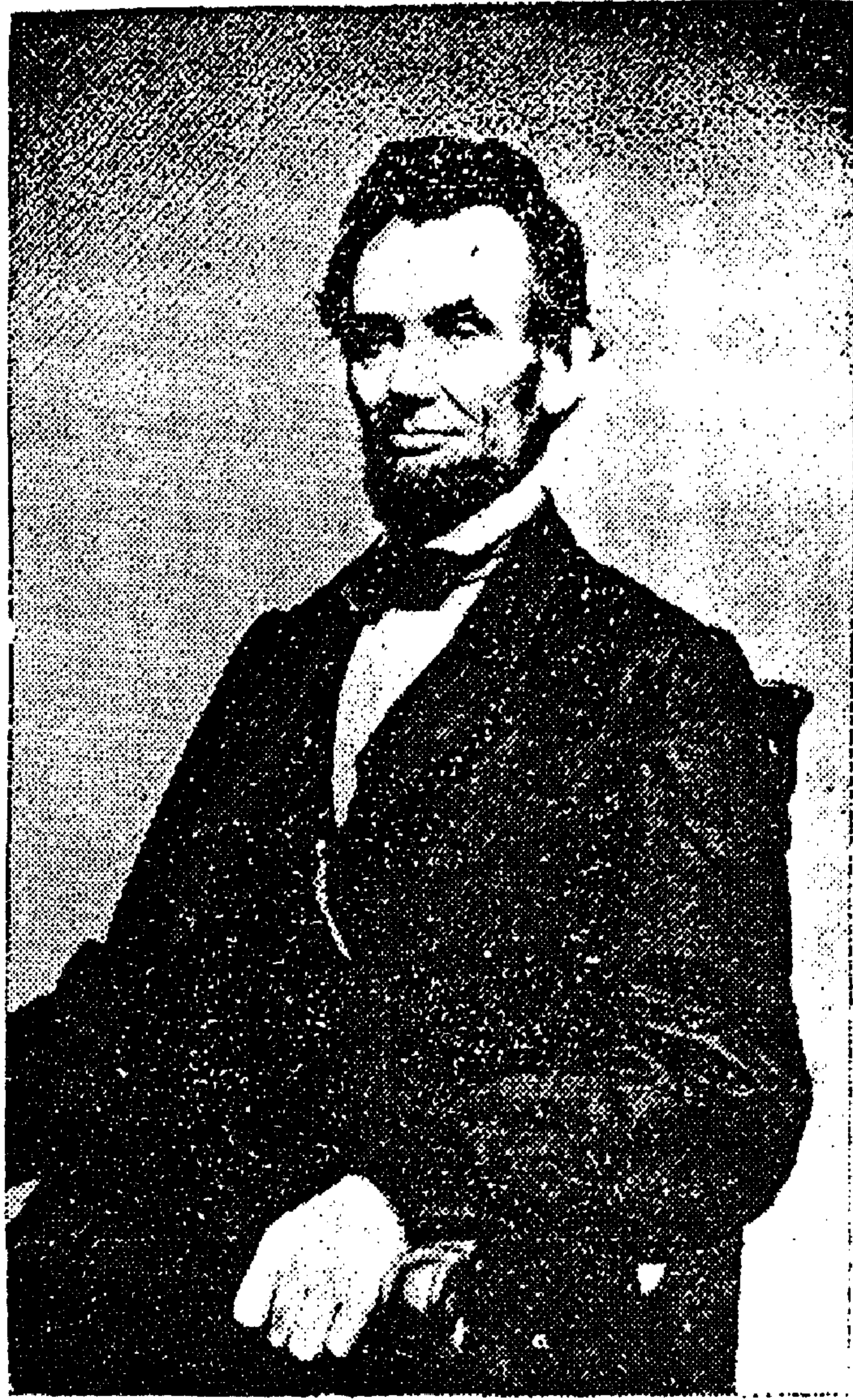
مثل هذا الرجل فى شدة كهذه الشدة أحوج ما يكون إلى أن يرفه عن نفسه ويخفف عنها بعض ما بها ، وإلا فكيف كان يستطيع أن ينهض بذلك الحمل الذى يؤود حمله الجبال ؟

ولما فرغ الرئيس من تلاوة القصة غامت أسارير وجهه ، وبدت عليه أمارات الجد ودلائل الاهتمام والحزم ، وأخرج من جيبه تلك الورقة التى كتب عليها بخط يده قرار التحرير .

أعلن الرئيس أن العبيد فى الولايات الأمريكية جميعاً أحرار منذ اليوم الأول من السنة الجديدة سنة ١٨٦٣ ، وذلك لكى يتيح فرصة للولايات المتمسكة بالرق حتى ذلك التاريخ ؛ وأعلن أن الحكومة ستعين كل عبد على بلوغ حريته وأنها ستعوض الولايات الموالية عما تطلقهم من العبيد ...

بهذا الأعلان ضرب الرق الضربة القاضية وأتيح لذلك الفتى الطويل النحيل الذى وقف فى صدر شبابه ذات مرة فى مدينة نيو أوليانز يشهد سوق العبيد أن يحقق ما اعتزمه يومئذ حين تهدد أن يضرب بشدة إذا أتيح له أن يضرب هذا الرق البغيض ... وصح حلم طالما منى به أبراهام نفسه ، ورأى ذلك النجار الذى خرج من الغابة أن معوله اليوم يهوى على الظلم فيقتلعه من جذوره ، فها هو ذا يعلن باسم حكومة هو رئيسها أن لا عبودية بعد اليوم المحدد ، وأن الشعب الأمريكى كله شعب حر وأن أمريكا دولة حرة وأمة حرة ...

أعلن الرئيس كلمته وأدى ورسالته ، وشهد ابن الغابة اليوم الذى ينطق فيه باسم الشعب فى أمر طالما شغل بال الأحرار فى هذا الشعب ، ورأى العالم نوعاً جديداً من الحركات الكبرى تضاف إلى سجله وينتقل بها التاريخ من فصل إلى فصل ...

وهزت البلاد من أعماقها فرحة عظيمة وراح أعداء الرق يعلنون عن ابتهاجهم بالزينات ينصبونها والليالى يقيمونها ويملأونها بأفراحهم ومظاهر حبورهم ...

وانهالت على الرئيس رسائل التهنئة وبرقيات الأعجاب يحملها البريد والبرق من أمريكا ومن خارج أمريكا .. فلقد تلفتت أوروبا تنظر ما تفعله الدنيا الجديدة

للمرة الثانية من أجل الحرية ، فهذه الدنيا التى ولدت الديموقراطية فى القرن الماضى تئد العبودية فى هذا القرن ، وتضع اسم رجلها وهدية أحرارها لتكون إلى جانب اسم بطلها ومحررها وشنطون الذى انتزع لها استقلالها بحد السيف من الغاصبين من أعدائها ...

والرئيس خافض الجناح لا يعرف الزهو كما لا يعرف الخور ، يتلقى تهانى المهنئين وإعجاب المعجبين فى سكون وتواضع ، وإنه ليحس أنه لا يزال بينه وبين يوم الراحة جهاد وجلاد مظهرهما هذه الحرب التى ما فتىء يزداد سعيرها .
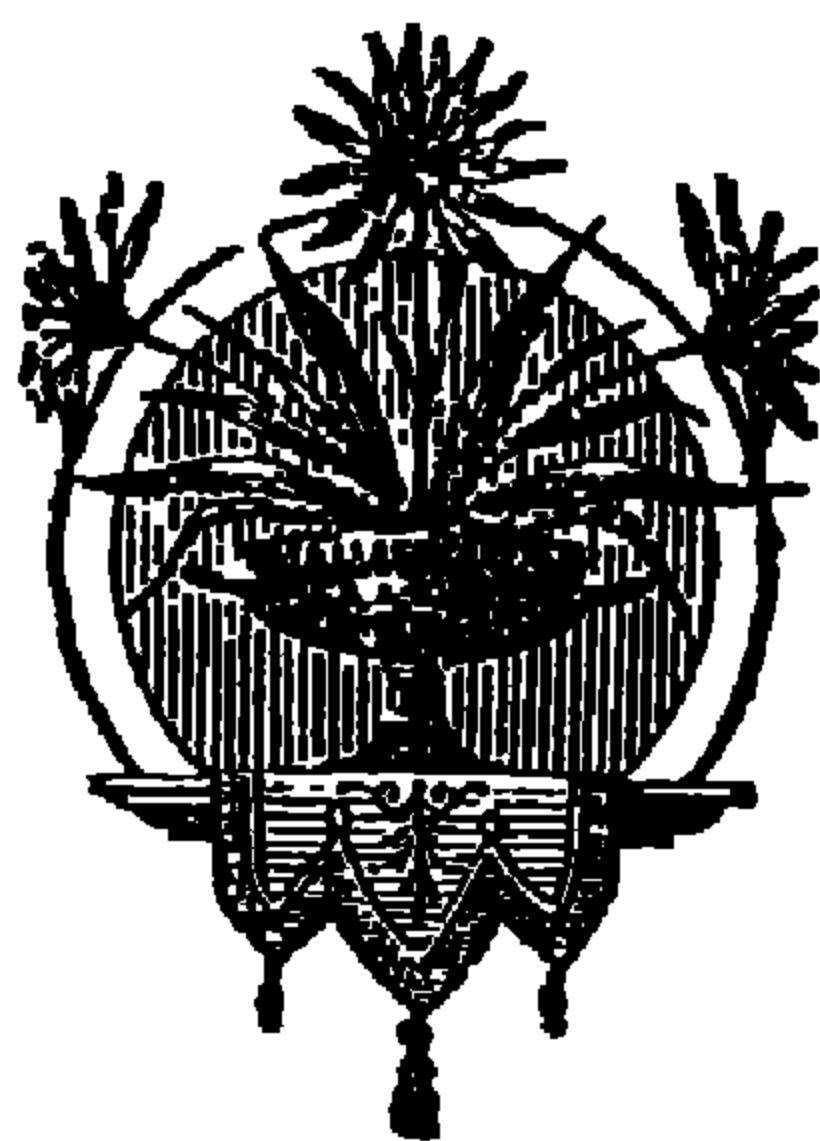
اضطر لى أن يعبر نهر بوتوماك متراجعاً ، فكان على ما كليلان ألا يضيع هذه الفرصة فيتعقب الجيش المتراجع ويمركه فى تراجعه ويوقع به هزيمة تفت فى عضده ، ولكنه قعد دون ذلك على الرغم من إلحاح الرئيس عليه أن يفعل ، وراح يطلب المدد من جديد !

وعادت شئون الحرب تكرب نفس الرئيس ، فقد كان عليه وعلى رجال حكومته بعد قرار التحرير أن يبذلوا قصارى جهدهم ليضعوا حداً لتلك الحرب ، فأنه لو أتيح النصر لأهل الجنوب كان معنى ذلك القضاء على كل شيء ، إذ تصبح الحرية مجرد أمنية ، وتصير الوحدة ضرباً من الوهم ...

وبات يكرب نفس الرئيس شيء آخر ، فأن الحزب الديموقراطى فى الشمال بعد أن فرغ الناس من حماستهم لقرار التحرير ، أخذ يندد بسياسة الرئيس وأخذت صحف الديموقراطيين تكرر القول أن الجند يبذلون دماءهم من أجل شيء واحد هو حرمان الجنوبيين من مِلكٍ يبيحه لهم الدستور ...

أما الجنوبيون فما برحت صحفهم تتهكم على قرار التحرير ، وتعلن أن البيض لم ينصرف منهم واحد عن القتال ، فأن السود يعملون فى الحقول هادئين ، وفى هذا أكبر دليل على أنهم ما كانوا فى حاجة إلى أحد يحررهم .

على أن لنكولان لا يعبأ بقول الجنوبيين فما يسكت العبيد إلا من الخوف ، فها هم أولاء يفرون ألوفاً من جيوش الجنوبيين حيث يلوذون بجيش الشمال ليعملوا تحت راية مسيحهم كما كانوا يسمون الرئيس لنكولن الذى منحهم الحرية والذى جعلهم ناسا من الناس ... ولكم كان من أقبح الظلم أن يساق هؤلاء العبيد إلى القتال ليقتلوا قوماً يحاربون ليحرروهم ، وكثيراً ما كان يوضع هؤلاء السود بحيث تحصدهم المدافع فيكونون بذلك دريئة لسادتهم الجنوبيين !

وأخذ يتبين السر فيما يبدو من مسلك ما كليلان ، فقد جاءه رسول من الديموقراطيين قبيل معركة أنتيتام يعرض عليه ترشيح الحزب إياه للرياسة فى

انتخاب سنة ١٨٦٤ ! وكتب ما كيلان عقب المعركة يقبل هذا الترشيح .

وراح الجمهوريون يذيعون أن ما كيلان يسلك فى الحرب مسلك الموادة ليرضى الجنوبيين ، وقالوا إن ذلك لا يبعد كثيراً عن تهمة الخيانة العظمى !

وتدبر الرئيس فى الأمر ، ولم يعد يطيق صبراً على تكاؤ ما كيلان ؛ وأخذت تصدر منه عبارات تعبر عما فى نفسه نحو القائد ومن ذلك قوله « حقاً إن ما كيلان لا يريد أن يحطم جيش العدو » ... ومن ذلك أيضاً ما كان منه ذات مرة وقد كان يبيت فى المعسكر إذ سأل ذات صباح وهو يستقبل الشمس المشرقة قائلا : ما هذا كله ؟ فلما أجابه أحد القواد : إن هذا هو جيش بوتوماك ، صاح قائلا : كلا إنه الحرس الخاص للجنرال ما كيلان ...

جمع الرئيس عزمه على أمر ... وظل نحو خمسة أسابيع يستحث ما كيلان على العمل ، ولما لم يجد ذلك أصدر الرئيس فى شهر نوفبر أمره بعزل ما كيلان من قيادة جيش بوتوماك ووضع مكانه القائد بيرنسيد !

* * *

راح أهل الشمال يعلقون الآمال على تغيير القيادة ، ففى أنفسهم أن ما حل بهم من الهزائم فيما سلف إنما يرجع إلى سوء تدبير ما كيلان ...

ولكن فى الجيش عدداً كبيراً من الجند قد آلمهم أن يفارقهم قائدهم أو أن يحال بينهم وبينه على هذه الصورة ، لذلك لم يحسنوا لقاء القائد الجديد ، أو لم يشعروا تحت رايته بما كانوا يشعرون تحت راية ما كيلان من حماسة ...

وزحف القائد الجديد على رأس جيش ليحتل فردريك سبرج على الضفة الأخرى للنهر ، حيث كان رابط لى قائد الجنوبيين العظيم ؛ ووقف القائد الشمالى تجاه خصمه يفصل بينهما نهر بوتوماك ؛ وقف ينتظر أن توافيه إليه هناك تلك المعابر المتنقلة التى لابد له منها ليعبر النهر ، ولكن المعابر وصلته متأخرة فاستطاع خصمه القوى أن يحصن المرتفعات حول المكان ، فلما أخذ يعبر النهر هو وجنوده انصبت عليهم النيران الحامية من كل صوب ، ونظر القائد فاذا كثير من جنده حوله صرعى ، لا يقل قتلاهم عن الجرحى ، فكان لابد أن يتراجع ؛ وكانت هزيمة جديدة تضاف إلى سلسلة الهزائم فى هذا العام المشؤوم ...

وحمل الجرحى إلى وشنطون فضاقت بهم المستشفيات ، حتى لقد حول عدد كبير من الكنائس وغيرها من الأبنية إلى أمكنة للجرحى ، وطافت النذر بالمدينة وانعقدت فيها سحب الهم مركومة سوداء وأخذت الناس غاشية من الحزن ورجفة من الذعر ، زاغت لها الأبصار وبلغت القلوب الحناجر !

وأخذت الأنظار تتجه إلى البيت الأبيض وليس فيها من معانى الأمل بقدر ما فيها من معانى اللوم والغيظ ، وكأنما كانت ترف حوله أرواح القتلى فتلبسه كآبة وتشيع فيه ما يكرب النفوس ويؤلم الصدور . وأخذ يظهر فى العاصمة حزب جديد يرمى إلى وضع حد لهذه الحرب بأية وسيلة ، وألقى الرئيس نفسه بين تصايح المتصايحين ، فهنا من ينادون بوضع حد لهذه المحنة ، وهنا من يطلبون إعادة ماكليلان إلى القيادة والسير فى الحرب ولكن فى سرعة وحمية وإقدام ، وغير هؤلاء وهؤلاء قوم يطالبون بتغيير القواد والبحث عما يكفل النجاح من وسائل جديدة ؛ وقوم آخرون خيل إليهم أن الفرصة قد سنحت لهم لأعلان رأيهم فى مسألة تحرير العبيد وكانوا يرون ألا يمس ذلك النظام بما يغير من أصوله وعلى الرئيس أن يراجع نفسه قبل حلول اليوم الأول من العام الجديد وهو يوم التحرير ...

وترامى إلى الناس فضلا عن مزعجات الحرب وشائعاتها أن المجلس التشريعى منقسم بعضه على بعض ، وأن مجلس الوزراء نفسه قد فشا الخلاف فى أعضائه ؛ ورأى الناس مما يشاع ويذاع أنهم على حافة الكارثة !

ولكن السنديانة ثابتة وقد جن جنون العاصفة ، لا تنال الريح العاتية شيئاً من ثبوت أصلها وسموق فرعها ، أو لم يك فى الغابة منبتها وكان فيها غذاؤها وريها؟

أجل إن رجلا واحداً هو الذى بقى أمام هذه الشدة رابط الجأش ، فقد وقف ابراهام عزيزاً لا يهون ، صلباً لا يلين ، بصيراً لا يطيش حلمه ، أميناً لا يخون العهد الذى قطعه على نفسه ، مؤمناً لن يقعد حتى يتم رسالته أو يموت فى سبيلها ؛ وكان موقف الرئيس هذا كل ما بقى للقضية من عناصر القوة — وأية قوة أعظم وأبقى من هذه القوة ؟ وليت شعرى ماذا كان يحدث لو لم يكن على رأس البلاد هذا الذى درج من بين أدغالها ؟ أجل ماذا كان يحدث فى هذه الظروف لولا هذا

الصبر العظيم من جانب الرئيس ، وأى صبر أعظم وأجل من صبر هذا الطود الراسخ الأشم ؟

وكان من قواد الحرب يومئذ قائد يدعى هوكر وقد كان يلى بيرنسيد فى المرتبة وكانت بينه وبين هالك المستشار الحربى للرئيس بغضاء وشحناء ، فراح يذيع فى الجند أن البلاد أشد ما تكون حاجة إلى ديكتاتور يقضى على المنازعات ، ويرغم الأحزاب على أن تحبس هذرها وتدفن خلافها ، وأن الجيش لن يقوده إلى النصر إلا مثل ذلك الرجل الذى يقبض بيـــد قوية على أزمة الأمور فى الدولة وفى الميادين جميعاً !

ولقد ذاعت أفكار هوكر حتى لقد اجترأ ضابط كبير أن يعلن « أن الجيش وعلى رأسه ماك الصغير يستطيع أن يطهر الكونجرس والبيت الأبيض » ... قالها فى غير تحرج وإن كان قد قبض عليه من أجلها ...

وكتب لنكولن إلى هوكر يعاتبه ويحذره العاقبة وقد عينه فى الوقت نفسه قائداً لجيش فرجينيا ونجد فى كتابه إليه شيئاً من تهكمه قال « لقد علمت علماً يحملنى على أن أصدق ما قلته حديثاً ألا وهو أن الجيش والحكومة فى حاجة إلى ديكتاتور ، ولقد عينتك لا بسبب هذا القول بالضرورة ، وإنما على الرغم منه ؛ إن القواد الذين يكسبون نجاحاً هم وحدهم الذين يقيمون الديكتاتوريين ؛ وغاية ما أرجوه منك الآن هو النجاح الحربى ، أما الديكتاتورية فدعنى أنا أجازف فى هذا السبيل . إنك لن تستطيع ، لا ولن يستطيع نابليون نفسه أن يرجع بخير من جيش هذه هى روحه ، ألا حذار من التعجل ... ولكن أقدم فى نشاط وحمية لا تخبو ، واكسب لنا النصر »

***

انقضى العام الثانى لهذه الحرب الهائلة ، وقد لاقى الشماليون ما لاقوا من الهزائم ، ولقى الرئيس من عنت الظروف والرجال ما لاقى ..

وحل العام الثالث فلقى الرئيس وفود المهنئين بالعام الجديد وباليوم الذى حل فيه موعد التحرير؛ ويجد الناس على وجه الرئيس من أمارات الجهد ما تأخذهم به من أجله الرأفة كل الرأفة ؛ ففى هذا الوجه كآبة وكدرة وفى صفحته سمرة عجيبة

تخالطها صفرة حتى لـكأنهم منه حيال رجل غيره ، وما يرون وجهه الذى ألفوه إلا حين يشرق بنكتة أو بنادرة مما يسرى به عن نفسه . .

والرئيس مشغول أكثر وقته بالحرب ، يتفكر ويطيل التفكير ، ويسأل نفسه ماذا عسى أن يفعل هوكر وما نصيب القضية فى عامها الثالث . .

وكان يزور الرئيس ميدان القتال على نهر بوتوماك فيقضى بين الجند أسبوعاً أو أسبوعين فى خيمة ، لعل فى قربه من الجند ما يذهب عنه شيئاً مما يساوره من قلق

وفى شهر أبريل تحرك جيش بوتوماك ، ولـكنه ما لبث فى شهر مايو أن هزم هزيمة منكرة فى شانزلو رزفيل ، بعد أن أبلى فى المعركة بلاء حسناً أول الأمر . . ثم انقطعت أنباء الجيش عن العاصمة بعد هذه الهزيمة حتى بات الناس فى حيرة شديدة . . ورضى لنكولن من الغنيمة بأوبة الجيش وتمنى لو عاد إلى موضعه الأول ليمنع الطريق إلى العاصمة ... ووصلت إليه بعد حين رسالة من القيادة أن الجيش قد عاد إلى موضعه ؛ وقرأ الرئيس الرسالة فتندت جفونه ، وهو يقول لمن حوله ماذا عسى أن يقول الشعب ؟ ماذا عسى أن يقول الشعب ؟ واشتد به الغم حتى ما يفلح كلام فى الترفيه عنه ...

وركب الرئيس وجماعة من صحبه زورقاً بخارياً إلى حيث يرابط الجيش ، فاستطلع القائد واستفهمه عن سبب الهزيمة ثم رجع إلى المدينة وقد عقد النية على أمر ...

أعلن الرئيس ما يشبه الأحكام العرفية ، فحد من حرية الصحافة ومن حرية القول ، وأنذر من يعمل على عرقلة قضية الاتحاد بتقديمه إلى المحاكم العسكرية لتنظر فى أمره ؛ ولم يعبأ الرئيس بالانتقاد الشديد يوجه إليه من كل جانب ، فلقد كان مستنداً إلى أحكام الدستور الذى يخول له أن يتخذ عند الخطر ما تتطلبه مصالح البلاد من أحكام ...

وحل الورق محل الذهب والفضة فى المعاملة إذ كانت الحكومة فى حاجة إلى المال لتنفق منه على هذه الحرب الضروس ولقد التجأت من أجلها إلى القرض . .

وعمت الضائقة حتى شملت الناس جميعاً ، وهكذا ظهر للناس أن العام الجديد أشد هولا مما سبقه . .

ولـكن هذه السياسة المنيفة لم تأت بالغرض منها ، فلقد وجد أعداء الحرب وأعداء القضية فيها فرصة لنشر آرائهم ، وسرعان ما تألفت فى نواح كثيرة من البلاد جمعيات سرية تعمل على مقاومة الرئيس وحكومته بكل ما يمكن من الوسائل.

وجهر فريق من ذوى الرأى والمـكانة بمقاومتهم هذه السياسة ومن هؤلاء ولندجهام ، وهو نائب عن أهايو فى الـكونجرس ، ولقد أخذ هذا الرجل يعمل فى نشاط وقوة على معارضة كل مشروع فى المجلس يراد به نصرة قضية الحرب ، وفى خارج المجلس راح يسخر ويطلق لسانه فى الرئيس بكل فاحش من القول فتارة يسميه الملك لنـكولن، وتارة يضحك من « ذلك الرجل الذى يريد أن يخلق الحب بالقوة وأن ينمي شعور الأخاء بالحرب » ... وتطرف ذات مرة فهتف بسقوطه فى مجتمع احتشد فيه عدد ممن أعجبوا به من الديموقراطيين ...

وكان برنسيد يقود الجيش فى الجهات التى تقع فيها أهايو مدينة ذلك النائب العائب ؛ وأعلن القائد هناك أن كل شخص يعرقل قضية الحرب وقضية الاتحاد فجزاؤه أن يقدم إلى محكمة عسكرية لينال عقابه ... ورد ولندجهام على هذا بخطبة حماسية احتشد الناس فى تلك الولاية لسماعها ودعا الناس إلى رفض هذا القرار وعصيانه ؛ ولم يسع القائد إلا أن يقبض عليه ويسوقه إلى المحـكمة العسكرية فقضت بحبسه فى أحد الحصون هناك ..

وارتفعت الأصوات بالاحتجاج على هذا الفعل الذى يتجلى فيه كما زعموا ، خنق الحرية ، فغير لنـكولن حكم الحبس بالنفى إلى خارج مناطق النفوذ الشمالى ، وأرسل ذلك النائب المتمرد إلى الولايات الجنوبية فى خراسة نفر من الجند ...

تكاثفت السحب واكفهر الجو ، ولم يعد يرى الناس بصيصاً من نور الأمل ، فيئسوا من النصر ، وتحرجت الأمور حتى ما يعرف لنـكولن نفسه ماذا يفعل! .. ألا هل من قائد يكسب معركة واحدة فيعيد الرجاء إلى النفوس والأمن إلى الخواطر ، والعزم إلى القلوب ؟

إن هزيمة الشماليين فى شانزلو رزفيل ، كانت أقسى ما لاقوا من محن ، حتى لقد عد مايو وهو الشهر الذى وقعت فيه الهزيمة أشد الأيام هولا فى تاريخ هـذه الحرب الأهلية الـكبرى . ولقد كانت خسائر الشماليين فى تلك المعركة بعد ما ذاقوا

من الهزائم قبل مما يثبط الهمم ويحل الهزائم بينما خرج منها الجنوبيون ولم يخسروا كثيراً اللهم إلا مالحقهم من خسارة فادحة بموت قائدهم الكبير جاكسون الذى أودته رصاصة طائشة فى ظلمة الليل من يد أحد جنوده .

ها هوذا الرئيس يفكر ويدور بعينيه يتلمس القائد الذى يرجى على يديه النصر . ألا من له بهذا القائد ؟ من له بهذا القائد ... ؟ ولكن أين جرانت ؟ إنه ذلك الرجل ! ... إن قلب الرئيس ليلتفت إليه كأنما يلتفت عن إلهام ...

لقد برهن جرانت على كفايته فى بعض المواقع وإن لم تكن مواقع ذات بال ، ولكن حسبه النصر فيها على أى حال ، ولعله لا يتخلف عنه النصر إذا ألقيت على عاتقه القيادة فى المعارك الكبيرة ... إن الرئيس لا ينسى أنه استطاع أن يستولى على حصنى هنرى ودونلسن فى فبراير سنة ١٨٦٢ وهى سنة الكروب والهزائم ، واستطاع كذلك أن يحمل الجنوبيين على التراجع فى معركة حامية خاضها فى أبريل من تلك السنة .

وكان الرئيس لا يعرف جرانت معرفة شخصية ، ولكن هاتيك الانتصارات فى أوقات عز فيها النصر تنم عن كفاية ، وتدل على بطولة ، ألا إن قلب الرئيس ليحس أنه الرجل المرجو ، وإنه ليتحدث عنه حديث الواثق من كفايته كلما جاء ذكره ، وإن القواد ليلمسون أن الرئيس شديد الأقبال عليه وأنه ليبدو لهم أنه مرسل إليه عما قريب فمعطيه الراية ... ولذلك أخذ يدب الحسد فى بعض القلوب ، فبينما كان الرئيس يثنى عليه ذات مرة إذ قال بعض جلسائه إنه لا يكاد يفيق من السكر ، فاستمع إلى الرئيس الذى لا تفارقه النكتة أبداً ، قال لنكولن « أرجو أن تدلونى أى نوع من أنواع الويسكى يحب ذلك الرجل لأرسل منه برميلا كبيراً إلى كل قائد آخر » ...

وأيقن لنكولن وقد اتجه قلبه إلى جرانت أنه اهتدى إلى القائد الذى يكون فى ميدان القتال مثل هذا الرئيس فى البيت الأبيض ، رشيداً لا يزوغ بصره ، قويا لا يكل عزمه ، ثابتا لا يخف حلمه ، حكيما يعرف ما يأخذ مما يدع ، جريئاً مؤمنا يرى الحياة الحق أن يموت فى سبيل مبدئه ...

هكذا يفكر الرئيس أن يعطى جرانت لواء القيادة ، ولكنه يؤثر أن يتريث

قليلا ، كشأنه فى كل ما يفكر فيه من أمر ...

***

أراد الجنوبيون أن يهجموا هجوما قويا على العاصمة الشمالية فيضربوا الاتحاد الضربة الحاسمة ، فزحف قائدهم الكبير لى بجيشه وعبر نهر بوتوماك ، وسار حتى أصبح على خمسين ميلا أو نحوها من وشنطون فى مكان يدعى جتسبرج ، وهناك التقى به جيش الشماليين وكان على رأسه القائد ميد وقد جعله لنكولن قائداً لجيش بوتوماك لعله يصيب النجاح ...

ودارت فى هذا المكان معركة عنيفة دامت ثلاثة أيام ، وقد استبسل الفريقان فيها واستقتلوا وتوالى بينهما الجزر والمد ، وكأنما طاب لهم الموت فتسابقوا إليه جماعات ، وانتهى الصراع بانسحاب لى ولكن فى ثبات واطمئنان وكان ذلك فى اليوم الثالث من يوليو سنة ١٨٦٣ .

وعدت هذه المعركة التى سقط فيها أكثر من عشرين ألفا من الضحايا فاتحة الانتصارات الكبيرة لأهل الشمال فقد يئس لى من الزحف على عاصمتهم وأيقن أنهم قوة لا تغلب ، وسوف ينصرف بعدها عن الهجوم إلى الدفاع ...

وما أن وصل إلى وشنطون نبأ ارتداد لى مكرها حتى تدفق الناس إلى حيث يجلس الرئيس وهم من فرط ماقد سرهم من النبأ لا يدرون ما ذا يفعلون للتعبير عما فى نفوسهم نحو هذا الحصن الحصين وهذا العتاد المتين ...

ونام الرئيس ليلته ملء جفونه لأول مرة منذ قامت الحرب ؛ وفى اليوم التالى حمل إليه البرق رسالة من جرانت وكانت له القيادة على ضفاف المسيسبى ، وفض الرئيس البرقية وقلبه يخفق فأن له فى جرانت أملا ؛ وقرأ الرئيس فأذا جرانت ينبئه نبأ عظيما فقد سقطت فى يده فكسبرج . وكانت هذه المدينة لمناعتها ولأهمية موقعها تسمى جبل طارق الغرب ، إذ كانت مفتاح النهر إلى الجنوب ، ولقد جمع فيها أهل الجنوب مااستطاعوا من قوة وعدة ؛ وكان جرانت قد اتجه إليها منذ فاتحة ذلك العام ، وكان هو وجنوده يلقون النار الحامية من المدافعين عنها ، ولكنه لم يعبأ بما كان يلقى ، ولبث يعمل فى هدوء حتى أحكم الخطة فأحاط بالمدينة ؛ ثم أتى حاميتها من فوقهم ومن أسفل منهم ، وما زال بهم حتى أجبروا على التسليم

تاركين فى يده ثلاثين ألفاً من الأسرى وعدداً هائلا من البنادق والأسلحة ومقداراً كبيراً من المؤونة والزاد ...

ولا تسل عما فاض فى العاصمة الشمالية من مظاهر الجذل والحبور ، فلقد شعر الناس بقرب انكشاف الغمة والتمعت فى سمائهم بوارق الأمل فى النصر النهائى بعد هذا العذاب الشديد .

واشتدت العزائم الخائرة ، ورأى المستضعفون كما رأى الذين استكبروا ما كانوا قبل فى عمى عنه ؛ رأوا فضل الثبات والصبر فراحوا يتوبون إلى رئيسهم ويهنئونه بما صبر ...

والرئيس يشارك القوم جذلهم ، ولكن نشوة النصر لا تصرف عينيه عما هو فيه ، كالربان الماهر الحاذق لن يدير عينيه عن البحر إذا هو اجتاز جنادله ، ولن يزال محدقاً متيقظاً حتى تلقى السفينة مراسيها .

وكان في نفس الرئيس شيء يكاد ينسيه فرحة النصر ، وذلك أن ميد وقف فلم يتعقب لى عند انسحابه فسهل عليه بذلك عبور النهر إلى فرجينيا كما فعل ماكليلان فى موقف مشابه من قبل ... ولكن ميد كان يرى الجيش في حال من الأعياء يستحيل معها أى زحف مهما هان ، فلقد جاء نصره بشق الأنفس ... وأحس القائد المنتصر الحرج من موقف الرئيس حياله فطلب إليه أن يعفيه من القيادة ، فرد عليه الرئيس ملاطفاً فى صفح يشبه الاعتذار ..

وكأنما جاء انتصار الشماليين فى المعركتين على قدر من الظروف ، فلقد كانت تأتى الأنباء من خارج أمريكا بسوء موقف الحكومة الأنجليزية من قضية أهل الشمال ! تلك الحكومة التى كان يعتقد لنكولن أنها سوف تحمد له قضاءه على العبودية فأعلن قرار التحرير وفى نفسه هذا الرجاء ؛ ولشد ما آلمه بعدها أن يرى الحكومة تتذبذب وتلتوى ولا تخطو إلا على هدى من مصالحها المادية ..

على أنه كان مما يخفف وقع الجحود فى نفس الرئيس ما كانت تأتى به الأنباء من موقف فريق من أحرار الشمائل من الشعب الأنجليزى حياله ، فلقد علم أن اجتماعات عقدت فى ما نشستر ولندن هتف فيها باسم الرئيس هتافاً عالياً ، حتى لقد وقف الناس فى أحدها دقائق يلوحون بقبعاتهم فى الهواء عند ذكر اسمه ؛

وظل هذا شأن أحرار الأنجليز حتى بلغ انجلترة نبأ انتصاره فاستخزى الطامعون وذوو الأغراض من رجال الحكومة والبرلمان ، هؤلاء الذين كانوا يريدون أن يتخذوا من انتصار الجنوبيين ذريعة لأعلان اعترافهم بهم أمة مستقلة ، والذين بلغ بهم الحقد على لنكولن وحكومته أن جهزوا سفناً لمناوءة تجارة الشماليين فى المحيط وأرسلوا بعضها فعلا لهذا الغرض .

تلك هى نتائج الانتصار فى المعركتين وما كان له من أثر فى الداخل والخارج قال لنكولن حين قرأ رسالة جرانت « الآن يستطيع أبو المياه أن يذهب من جديد إلى البحر وليس فى سبيله عائق » .

واجتمع الناس فى حفل كبير عند موضع جتسبرج ليمجدوا ذكرى ضحاياها وطلبوا إلى الرئيس أن يخطبهم فى هذا الحفل المشهود فكان مما قاله « منذ سبعة وثمانين عاماً أقام آباؤنا فى هذه القارة أمة جديدة ، نشأت على الحرية وعلى ما نودى به من أن الناس خلقوا جميعاً متساوين ، ونحن الآن فى حرب أهلية هى بمثابة اختبار لنا ، لنرى هل تستطيع هذه الأمة أو أية أمة نشأت نشأتها أن تعيش طويلا ... ونحن نجتمع هنا لنمجد موضعاً منها نجعله مقراً أخيراً لهؤلاء الذين بذلوا أرواحهم كى تستطيع أمتهم أن تعيش ؛ وهذا عمل خليق بنا أن نعمله ، ولكنا لن نستطيع فى معنى أوسع من هذا ان نخلد أو نقدس هذه البقعة مهما فعلنا ... ذلك أن البواسل من الرجال سواء فى ذلك الأحياء والأموات الذين ناضلوا هنا قد خلدوها بما لا نستطيع أن نزيد عليه أو ننقص منه ، وإن العالم سوف لا يهتم كثيراً بما نقول وسوف لا يذكره طويلا ولكنه لن ينسى ما فعل هؤلاء .... » ثم زاد الرئيس على ذلك فقال « يجب أن نعقد العزم على ألا ندع هؤلاء يذهبون عبثاً ، وعلى أن تمنح هذه الأمة فى عناية الله مولداً جديداً ، هو مولد الحرية ، وعلى أن تكون حكومة الشعب التى قامت بأرادة الشعب لتعمل للشعب ، بحيث لا تزول أبداً من فوق هذه الأرض » .

هذا خطاب الرئيس الذى سمعه الناس فى تلك البقعة التى صبغتها دماء المجاهدين وقد وصلت كلماته إلى أعماق نفوسهم فهزتها هزاً ، ولم يتمالك الكثيرون أن يحبسوا دموعهم من فرط ما أحسوا .

ولاحظ المتصلون بالرئيس أن الشدائد قد نالت من جسده وإن لم تنل من عزمه ؛ ورأوا السنديانة يعشى إليها الذبول شيئاً فشيئاً حتى ليخافوا أن تذوى فتسقط ... أجل ، فزع الناس أن يروا أبراهام تتجمع وتتزايد فى وجهه الغضون والخطوط ، وأن يلمحوا فى صفحة هذا الوجه المحبوب أمارات الجهد ، وفى نظرات تلكما العينين البريئتين أثر السهر وطول العناء ؛ ولكن روحه أعظم من أن يتطرق إليها الوهن ... ذهب إليه أحد كبار السياسة فى أمر من أهم الأمور فأخذ الرئيس يقص عليه من قصصه ويضحك ضحكات عالية ، فلم يطق الرجل صبراً ووثب من مكانه قائلا وفى لهجته شدة وفى عبارته حدة « أيها الرئيس : إنى ما جئت هذا الصباح لأسمع قصصاً ... إن الوقت عصيب » ... ونظر إليه الرئيس نظرة عتب وقال له فى رزانة وأدب : « إجلس يا أشلى ... إنى أحترمك كرجل مخلص ذى حمية ... وإنه لن يبلغ اهتمامك بما نحن فيه أكثر مما بلغ اهتمامى الذى ما فارقنى منذ أن بدأت هذه الحرب ، وإنى لأقول لك الآن إنه لولا هذا الذى أتنفس به أحياناً عن نفسى لحاق بى الموت » ...

وسار العام الثالث إلى نهايته والبلاد يزداد أملها فى النجاح ، بعد أن كاد اليأس يعصف بالقضية كلها فيأتى عليها ، ولذلك كانت جتسبرج وفكسبرج صخرتى النجاة ، فها هى ذى نيويورك تنبعث منها بوادر فتنة ، لولا هذا النصر لجرف تيارها كل شىء ... وبيان هذه الفتنة أن حاكم ولاية نيويورك وكان من أكبر المنادين بوضع حد لهذه الحرب ما فتىء يحرض الناس حتى هبت ثورة عنيفة فى مدينة نيويورك اقترف فيها الشاغبون ودعاة الفوضى أفعالا منكرة وبالغوا فى تمردهم وعصيانهم حتى اضطرت الحكومة أن ترسل عليهم فريقاً من الجند فقضوا على الفتنة ؛ ومن غريب أمر هؤلاء العصاة أن قامت حركتهم التى دبروها من قبل عقب الانتصار فى جتسبرج وفكسبرج ... ولقد كانت تلك الحركة من مآسى هذا العام ، ولولا أن جاء النصر كما ذكرنا وأشرق نور الأمل فى ظلمات اليأس لجاز أن تمتد الفتنة فتأتى على كل شىء ...

افتتح العام الرابع والبلاد تتأهب للانتخاب ! فلقد قرب موعد الانتخاب للرياسة ، ورأى المخالفون الفرصة تواتيهم ليعلنوا ما فى نفوسهم نحو الرئيس لنكولن وسياسة حكومته ...

وظهرت فى الصحف ، وتواترت على الألسن أسماء مرشحين جدد لينافسوا الرئيس ، فأن الديموقراطيين كانوا يقدمون ماكيلان ، ذلك الذى انسحب من الحرب على نحو ما رأينا ، وكان بعض الجمهوريين يرشحون جرانت ؛ وبعضهم يميلون إلى تشيس وزير المالية وأيد هؤلاء جريلى الذي ما برح ينتقد الرئيس ويسدى له ما سماه نصحاً ؛ ورشح فريق فريمونت لهذا المنصب المعظم ...

ولبث الرئيس ساكناً مطمئناً إن خاف على شيء نخوفه على قضية الوحدة فحسب ، ومتى ذاق أبراهام طعم الراحة منذ أن ولى الرياسة ؟ ... كان يخشى أن يترك قيادة السفينة لربان غيره وهى لما تزل فى مهب الأنواء وفى مسالك الصخر ، ولو أنه كان موقناً من وجود غيره ليقودها ما تردد أن يكلها إليه ، فحسبه أن تصل إلى المرفأ ... وكثيراً ما كان يقول : إنه لو وجد فى الرجال من يحسن إدارة الأمور خيراً منه لتنازل له عن طيب خاطر ، بل لقبل ذلك مبتهجاً ، إذ يرى فيه وسيلة من وسائل النجاح ...

على أنه يترك الأمور للبلاد فلها القول الفصل ، قال لبعض جلسائه يوماً « إن انتخابى للرياسة مرة ثانية شرف عظيم كما أنه عبء عظيم ، وإنى لن أحفل منهما إذ قدر لى ذلك » ..

ولكن البلاد لم ترض عن رجلها بديلا ... وما لبث أن أدرك مخالفوه أنهم كانوا واهمين ، وكيف تتخلى البلاد عن ذلك الذى تدين بنجاحها له على الرغم مما يحيط بها من شدة ، ولماذا ينصرف عنه الناس ومكانته فى صميم قلوبهم ؟ ألأنه أبلى فأحسن البلاء وصبر فأوشك أن يجتنى من الصبر الظفر ، وسهر فلم يشك يوماً من السهر ؟ لقد كان الناس يدعونه بقولهم الأب أبراهام ، وكانوا يخاطبونه

فيقولون : يا أبانا ماذا ترى فى كيت وكيت ، وما كان أشد تأثره بهذا اللقب الذى أضافوه إلى ألقابه

ألا إن الناس ليحرصون على أبيهم هذا ، لا تدور أعينهم إلى غيره ، ولا تتسع قلوبهم لسواه ، فها هى ذى العرائض بترشيحه تترى على الحزب من أنحاء البلاد ومن ميادين القتال فى كثرة عظيمة تليق بجلال قدره وخطورة شأنه وعظيم ما قدمت يداه ..

***

ولندع حديث الانتخاب لنعود إلى الحرب وشؤونها .. وأول ما نذكره أن الرئيس قد اتفق مع الكونجرس على إسناد القيادة العليا للجيوش جميعاً إلى القائد جرانت . . ثم كتب إلى جرانت يدعوه إلى العاصمة فحضر إليها ، وتوجه إلى البيت الأبيض فلقيه الرئيس وأسمعه عبارات الأطراء والثناء ، ثم تلقى منه جرانت نبأ تعيينه فى منصبه الخطير ..

وكان لهذا القائد الذى بزغ نجمه كبير شبه بالرئيس فى نشأته وفى كثير من طباعه ، كلاهما واجه الحياة ولما يزل فى سن اللهو واللعب ، وكلاهما شق طريقه فيها بنفسه فكان كالنبتة القوية المستقيمة ، لا كتلك الألفاف التى لا تعرف من معنى النماء إلا أن تتسلق على غيرها وهى فى ذاتها هزيلة نحيلة . .

كان جندياً فى سنى يفاعته ، ثم انصرف عن الجندية إلى الزراعة حيناً ، ثم إلى التجارة بعد ذلك ، وظل بضع سنين حائراً يضرب فى الأرض فى طلب الرزق، ولو لم تقم هذه الحرب الأهلية ما وعى التاريخ عنه إلا بقدر ما يعى عن الآلاف غيره من البشر الذين يعبرون هذا الوجود وكأن لم يخلقوا ...

ولقد تزاحم الناس وتدافعوا بالمناكب حول البيت الأبيض وفى قاعته ليروا هذا القائد الذى تعلق عليه بعد زعيمهم الآمال .. ولقد علق جرانت على هذا اللقاء العظيم بقوله « هذه معركة أشد حراً مما شهدت فى الميادين من معارك »

وبعد أن درس القائد خططه المقبلة مع الزعيم ورجاله ، استأذن فى الرحيل ، فطلب إليه الرئيس أن يبقى قليلا ليحضر وليمة أعدتها زوجته له ولم يكن يعلم الرئيس بها من قبل ليدعوه إليها ، فاعتذر عن عدم قبوله بقوله « حسبى

ما لاقيته من تلك المظاهر أيها الزعيم » وفرح الزعيم أيما فرح بما يسمع فما يهدم الرجال شيء فى رأيه أكثر مما يهدمهم الغرور . .

ورحل جرانت إلى الميدان وقد زوده الرئيس بقوله : « أنت رجل همة وعزم ، ولست أريد وقد سرنى منك ما تقول أن أضيع وقتك أو أن أضع فى طريقك ما يعوقك وإذا كان فى طاقتى أى شىء يمكننى أن أمدك به فدعنى أعرف ذلك . . والآن سر فى عون الله على رأس جيش باسل وفى سبيل قضية عادلة »

***

برز جرانت إلى الميدان وفى نفسه من العزم بقدر ما فى فؤاده من الأمل ، وكأنما سرت عزمته إلى قواده وجنوده فما منهم إلا من وطد النفس على أن يخوض أهوال القتال إلى النصر ، ونبغ من هؤلاء البواسل قائدان صار لهما فى هذه الحرب خطر عظيم وهما شيرمان وشريدان . .

وزحف جرانت بجيشه فى مايو سنة ١٨٦٤ ، وكانت خطته أن يواصل الزحف ما وسعه القتال حتى يأتى رتشمند عاصمة الجنوبيين فيحصرها ، ولقد لازمه النصر فى هذا الهجوم على الرغم من مقاومة أعدائه وما زال يدفعهم أمامه حتى أصبح على مقربة من عاصمتهم ؛ وكانت تصل أنباء انتصاره إلى العاصمة فتهزها هزاً ، وكان الناس يجتمعون حول البيت الأبيض فيطل الرئيس عليهم ويخطبهم وقد سره أن ذهب عنهم الروع ..

وكذلك سار شيرمان مبتدئاً من الغرب ، وراح يدفع أعداءه أمامه ، وإنهم لينازعونه الأرض شبراً شبرا ويعركون جيشه عركا شديداً ، حتى واتاه النصر عليهم فى اليوم الثانى والعشرين من شهر يوليو فسقطت فى يده مدينة أتلنتا بعد أيام ، وهى موقع حصين ومركز حربى خطير ، وكان على رأس الجنوبيين فى تلك الجهة قائدهم هود ، وهو من ذوى البأس ، ولقد لم شمل جيشه وخاض الحرب مرة أخرى ولكنه ما لبث حتى عاودته الهزيمة .. وسر الرئيس وأصحابه أيما سرور بانهزام هود وجنوده فلقد كانوا يوجسون منه شراً ..

ونشط الشماليون فى البحر وضيقوا الخناق على أعدائهم وشدوا الوثاق فأذاقوهم

لباس الجوع والخوف ، وكانت سيطرة فراجت على البحر وثيقة ، فكان موقفه بذلك من أكبر عوامل النصر ..

وراح جرانت يبذل كل ما فى وسعه ليحيط بالقائد الكبير لى فأنه يدرك أن تطويقه خير وسيلة لهزيمته وإجباره على التسليم ؛ وكان يدرك جرانت أن عدته وجنده أوفر مما هو لدى عدوه منهما ولذلك عول أن يشد عليه الوثاق ..

وكان لنكولن وأصحابه يتلقون هاتيك الأنباء الطيبة فتطمئن نفوسهم ، ولكن الرئيس كان لا يفتأ يبدو مهموماً ضائق الصدر ، وكيف يطيق قلبه الكبير أن يعلم نبأ هاتيك الضحايا دون أن يتحرك ؟ لقد كان يجزع أشد الجزع لمرأى الأمهات والزوجات يقفن فى طريقه أو يتجمعن حول البيت الأبيض متسائلات ؛ وإنه ليسأل الله أن يجعل للناس من هذا البلاء مخرجاً ..

وبينما كان جرانت وشيرمان يروعان بجيشهما أهل الجنوب على هذه الصورة ، إذ زحف أحد قواد الجنوب ويدعى إرلى زحفاً مباغتاً على وشنطون حتى بات منها على سبعة أميال ! .. ولقد كان عمله هذا من أسوأ ما لاقته الدينة فى هذه الحرب، فما أقبح الخوف بعد الأمن وما أوجع الغم بعد الفرح ..

ولكن جرانت لم يلبث أن أرسل شريدان فأقصى العدو ورماه بهزيمة كبيرة وكان ذلك فى أوائل سبتمبر عقب سقوط أتلنتا بيوم واحد ...

ولندع جرانت وأصحابه فيما هم فيه من جهاد ونصر لننظر ماذا كان من أمر الانتخاب ...

* * *

لقد كان انتصار الجيوش على هذا النحو مما قضى على كيد الكائدين من خصوم الرئيس إذ كانت البلاد تتأهب لمعركة الرياسة ...

وكان الديموقراطيون يذيعون فى الناس أن من المصلحة العامة اختيار رئيس غير هذا الرئيس وراحوا يقولون إن الحكومة من الوجهة الحربية قد منيت بالفشل منذ قامت الحرب ولا محيص من أن يُتبع فى الحرب سياسة أقوى وأسرع من سياستها ، وتارة أخذوا يطالبون بمصالحة أهل الجنوب ووضع حد لهذا البلاء

وهم فى ذلك يرشحون ما كليلان للرياسة ، ولقد اختاره لذلك مؤتمرهم الذى انعقد فى شيكاغو فى أغسطس من ذلك العام .

وكان بعض الجمهوريين من حزب لنكولن يدعون إلى انتخاب رجل غيره ، إذ كانوا يزعمون أنه ابتعد عن مبادىء الحزب وعن روحه ؛ فهم يخالفونه فيما أعلن غداة تحرير العبيد من أن ذلك كان من أجل ضرورة حربية متجاهلين أنه كان يبرر بذلك تصادمه بالدستور الذى أباح الرق ، وهم يعيبون عليه مسلكه تجاه الولايات الوسطى وتجاه أهل الجنوب . . كما أنهم يقولون إن الحزب لا تسير على خير ما يرجى ...

وكان هؤلاء الجمهوريون يرشحون جرانت تارة وفريمونت تارة ، ولكن معظمهم كانوا يميلون إلى تشيس وزير المالية ، وكان تشيس هذا من أكفأ الرجال ، وكان الرئيس يحترم آراءه ويحرص على أن ينتفع بها كما كان يشهد له بالذكاء ويقر بفضله ... ولكن تشيس كان دائم الشكوى من الرئيس وكثيراً ما ضايقه بتقديم استقالاته من الوزارة ، وذلك أن تشيس كان ينفس على الرئيس منصبه ويعتقد أنه أحق به منه وأجدر ...

وما كان الرئيس كما أسلفنا يحرص على الحكم إلا أن يكون وسيلة لتحقيق غرضه ، قال ذات مرة يرد على الداعين إلى ترشيح جرانت « إذا كان الناس يعتقدون أن القائد جرانت فى منصبي يكون أسرع منى فى القضاء على الثورة فأنى أتخلى له عنه » .

وعلى الرغم من ذلك كان خصومه يدعون أنه حريص على الحكم مولع بالرياسة ، وكان من أقدر هؤلاء الخصوم وأنشطهم جريلي ، ذلك الذى طالما حرص الرئيس على مودته وعمل على إرضائه ... على أن الرئيس كان على علم بهذا كله فلم يعبأ به وذلك لأنه كان يجعل اعتماده على عامة الناس ، وهل اعتمد على غيرهم منذ كان يقطع الأشجار ويسحب الأبقار معهم فى الغابة ؟

وجاءت بعد ذلك أنباء انتصار جنده فكان ذلك أبلغ رد على ما يزعم المخالفون والخوارج ...

ولقد كان مؤيدو الرئيس من الجمهوريين أعز نفراً وأعلى فى البلاد صوتاً ،

وهؤلاء أجمعوا أمرهم على ترشيحه فى مؤتمرهم الذى عقدوه فى الثامن من يونيو سنة ١٨٦٤ ، وكانت حماستهم له جديرة به شديدة على كارهيه وخصومه ... وحمل إليه نبأ ذلك فتلقاه على عادته فى دعة قال « إنهم رشحونى لا لأنهم رأونى أعظم رجل فى أمريكا وأفضل رجل ، وإنما كان ذلك لأنهم لم يروا من الحكمة أن يغيروا الخيل أثناء عبورهم الماء ، ولأنهم رأوا بعد ذلك أنى لست فرساً بلغ من السوء مبلغاً لا يمكن معه استخدامه ولو فى مشقة أثناء محاولة ذلك العبور » ...

وكان المؤتمر قد عبر عن رغبته فى تعديل الدستور بحيث لا يكون من مواده ما يتضمن الاعتراف بالرق حتى لا يتعارض قرار التحرير مع نصوص الدستور ، ولقد وافق الرئيس على ذلك قائلا « إن مثل هذا التعديل المقترح يجيء خاتمة مناسبة ضرورية للنجاح النهائى لقضية الاتحاد ، وهذا وحده يقف رداً على كل محن وإن الذين يوافقون على الوحدة بلا شرط من الشماليين والجنوبيين يدركون خطورته ويتملون به ، فباسم الحرية والوحدة مجتمعتين دعونا نعمل لنكسبه صفة شرعية وأثراً عملياً » .

وسمع أن ولاية مارى لاند قد عدلت دستورها على هذا الأساس فعلا فاغتبط قائلا « إن ذلك يساوى عندى انتصارات كثيرة فى الميدان » .

وحسب جريلى أنه واجد غميزة أخرى فى سياسة الحرب فراح يندد بها ويتطاولها ويدعو إلى الصلح قائلا إن البلاد على شفا جرف هار وإن السلم على شروط معقولة خير من هذه الحرب التى ضجت البلاد منها ورزحت تحت أعبائها ؛ ومما ساقه فى هذا المجال قوله إنه على صلة بقوم من الجنوب يقبلون الصلح على أساس الوحدة والقضاء على الرق ؛ وهنا لم يتردد الرئيس أن يرسل إليه يقول إنه على استعداد أن يلتى أى رجل أو جماعة من الجنوب يفاوضونه على هذا الأساس على أن يكونوا مسؤولين وليكن جريلى شاهداً على ذلك ... وعاد جريلى مستخزياً وقد رأى أن الذين دعوه إلى السلم من الجنوبيين قوم لا أهمية لهم ...

وتطلبت الحرب عدداً جديداً من الرجال ، وأشفق أنصار لنكولن أن يدعو البلاد إلى رجال فى مثل هاتيك الظروف ، ولن هل كان مثله يحجم عن أمر يعتقد صوابه ، وبخاصة إذا كان هذا الأمر يتصل بالحرب بله الحرب تحت قيادة جرانت ؟

لم يحجم الرئيس ولم يتردد وأصدر أمره فى ثبات وجرأة ...

وجاء يوم الانتخاب فكان فوز الرئيس عظيما . قال وما أجمل ما قال « إنى أعرف قلبى ، وأرى غبطتى لايشوبها شائبة من الفوز الشخصى ، وإنى لا أعترض على بواعث أى شخص ضدى ؛ وليس مما يسرنى أن أظفر على أحد ، ولكنى أشكر الله على هذا البرهان الشاهد على اعتزام الناس أن يؤيدوا الحكومة الحرة وحقوق الأنسانية » .

وكان الداعون إلى السلم ينشرون مبدأهم فى العاصمة الشمالية حتى لقد أخذوا على الرئيس أنه يصم أذنه عن هذه الدعوة ... وحدث أن أرسل جفرسون دافز رسولا إلى السلم ويقترح عقد مؤتمر لتقرير ذلك . وكتب الرئيس لنكولن رداً حمله ذلك الرسول إلى جفرسون وفيه يوافق الرئيس على عقد المؤتمر ؛ واجتمع فى مركز قيادة القائد جرانت ثلاثة من قبل أهل الجنوب ، وناب عن الشماليين سيوارد ثم لحق بهم الرئيس ، وعرض الشماليون شروطهم فلم تحز قبولا لدى خصومهم ؛ ورأى الرئيس أن فى الأمر خداعاً وأنهم لا يبغون سوى أن يكسبوا الوقت بالمفاوضة ريثما يعدون ما يستطيعون من قوة ... ولذلك نراه ينصح لجرانت ألا يتهاون أو يخفف من وطأته ؛ وانفض المؤتمر ولم يصل إلى رأى ...

وفى اليوم الرابع من شهر مارس سنة ١٨٦٥ احتفلت وشنطون الاحتفال التقليدى بتسلم الرئيس أزمة الحكم ، وشهد وفد من السود هذا الحفل فكان بهذا أول حفل من نوعه فى تاريخ الولايات المتحدة ، وأطل الرئيس على القوم فراعهم ما مشى فى بدنه من سقم ونحول وما تجمع فى محياه الكريم من خطوط وغضون ، وبدا لهم كأنه شيخ فى السبعين وهو لم يتجاوز السادسة والخمسين ...

وأوضح الرئيس سياسته فى خطابه الرسمى ؛ وإنك لتجد هذه السياسة واضحة فى هذه العبارة التى اختتم بها هذا الخطاب ، قال « والآن فمن غير موجدة على أحد ، بل مع نية الأحسان للجميع والثبات على الحق كما يطلب الله أن نرى الحق ، دعونا نجاهد كى نفرغ من هذا العمل الذى نحن بصدده وأن نضمد جراحات الأمة وأن نعنى بهؤلاء الذين جاهدوا وبأراملهم وأيتامهم ، وأن نبذل قصارى جهدنا لنصل إلى السلام الدائم وأن نوزه بين أنفسنا وبين جميع الأمم » ...

فی ریاسته الثانیة

جعل الرئيس ينتظر أخبار الميادين ، وكثيراً ما كان يقضى الوقت الطويل في غرف البرق يترقب ويتوقع ... وكثيراً ما كان يشخص بنفسه إلى مراكز الجند فيزورها واحداً بعد الآخر ، ففي الحادي والعشرين من ديسمبر سنة ١٨٦٤ أخذ شيرمان مدينة سفانا عنوة فأبرق إلى الرئيس يقول « أرجو أن تسمح لى أن أقدم إليك مدينة سفانا هدية عيد الميلاد » ... واستمر شيرمان فى زحفه فاستولى على كولومبيا وشارلستون ، وما زال حتى دخل ولاية كارولينا الشمالية وأصبح على اتصال بجنود جرانت ، وبذلك أوشكت جنودهما أن تحيط بجيش الجنوبيين .

وكان جرانت يثخن فى أرض الجنوبيين لا يألوهم نزالا كأهول ما يكون النزال ، وكانت ضحاياه كثيرة يدمى لها قلب الرئيس ، ولكنه كان لا يلين ، وما لبث هو وأعوانه أن هزموا الجنوبيين فى كل مكان حتى لم يبق فى الميدان غير لى ...

وحاصر جرانت مدينة رتشنمد ، ودام حصاره لها طوال أشهر الصيف من سنة ١٨٦٤ وأشهر الشتاء من سنة ١٨٦٥ ؛ وفى السابع والعشرين من شهر مارس التقى لنكولن وجرانت وشيرمان على زورق فى نهر جيمس على مقربة من مركز القيادة وتداول ثلاثتهم فى الأمر ، ولشد ما تألم الرئيس أن علم أنه لا يزال دون النصر معركة حامية ، وراح يتساءل فى جزع : « ألا يمكن تجنب تلك المعركة ؟ ألا يمكن تجنب تلك المعركة ؟ »

وأمكن تجنب تلك المعركة كما تمنى الرئيس ، فلقد تمكن شيريدان وكان إلى ميسرة جرانت أن يقطع على لى آخر منفذ للهرب فتم لهما تطويقه ، وبات تسليمه أمراً لابد منه ...

وفى اليوم الثالث من شهر أبريل سنة ١٨٦٥ سقطت رتشنمد طروادة هذا الصراع المتصل الطويل .. وهيهات أن يصف الكلام مبلغ ما كان بالعاصمة من شعور الفرح والحبور .. لقد بات الناس وأفاقوا على مثل مظاهر العيد ؛ وأى عيد أجمل

من هذا الذى يُبَشر الناس فيه بقرب انفراج الغمة واتحاد الأمة ؟

وغادر جفرسون دافز والقائد لى مدينة رتشمند ، وأحرق الجيش المنسحب المستودعات وكل ما يمكن أن ينتفع به الفاتحون ، وشاعت الفوضى فى المدينة على صورة خيلت للناس أن جهنم فتحت أبوابها

وأرهف الناس آذانهم على صوت بعيد سمعوه ، صوت لا يكون مثله فى الجحيم فأذا هو لحن الجيش الجمهورى تعزف به موسيقاه ، وتقدم هذا الجيش وكان فى طليعته عدد ممن كانوا يسمون بالأمس الرقيق ، فدخل المدينة وأعاد فيها الأمن ، وعنى بالجرحى وأطفأ الحريق ...

وجاء القواد يدعون الرئيس لنكولن لتسلم المدينة التى حاربتها جيوشه خمسة أعوام ، وأنصت الرئيس إلى برنامج الاحتفال وكيف يتألف الموكب الرسمى ، وماذا يختار من الفرق لتسير فى طليعته وفى مؤخرته ومن هم القواد الذين يصحبون الرئيس ، وماذا يفعل الرئيس بالمدينة المفتوحة ، إلى آخر ما أعد القواد من مظاهر الزهو والأبهة ... وكان يخيل إليهم أن الرئيس يقرهم على ما يقولون ...

وقبل أن يحل اليوم الموعود قصد الرئيس المدينة وحده يمسك بيده يد ابنه الصغير تاد وعبر إليها النهر فى قارب حربى كان يرسو على مقربة منها ولم يُعلم أحداً ، فلا موكب ولا فيالق ولا شرطة يفسحون الطريق . .

ودخل الرئيس العظيم المدينة فى الصباح وفى يده يد تاد الصغير وهو يمشى على الأرض هوناً وليس فى وجهه زهو ولا تطاول ! ..

ورآه بعض السود وكانوا يكنسون الشوارع فعرفه أحدهم إذ كان يرى صورته فى إحدى الصحف فأشار إليه وإلى الصورة وأطلع زملاءه على الصورة قائلا هذا هو الرئيس .. وضحك الرئيس فأقبلوا عليه ومنهم من يضحك ومنهم من يبكى فمد إليهم يده مصافحاً فى تواضع ورفق وهم يلثمون يديه وأطراف ثوبه ويمسحون بأكفهم حلته كما لو كان أحد القديسين ...

وما أن شاع النبأ حتى هرع الناس من كل مكان يشهدون الرجل الذى دوت باسمه البلاد ، وتزاحموا حوله وهو بينهم رابط الجأش يبدو للأعين قوامه الطويل .. وأسرع بعض الشرطة والجند فحفوا به ..

وتلفت الرئيس فإذا جموع السود تتقاطر من كل صوب وهم يملأون الجو بهتافاتهم باسم مخلصهم ومحطم أغلالهم أبراهام لنكولن ، وكانوا من حوله يرقصون ويثبون فى الهواء لا يدرون ماذا يفعلون للتعبير عما فى نفوسهم نحو هذا المحرر الأعظم .. ثم تقدموا متزاحمين فتلاقوا على الأرض أمامه يقبلون قدميه ، وهو يرفعهم بيديه ويمسح بها على جباههم وأكتافهم والدموع تتساقط كبيرة ساخنة من عينيه الواسعتين فتجرى على محياه الكريم وتقطر بها لحيته ..

وحار الرئيس لحظة فلم يدر ماذا يقول وهو الذى ما عرف قبل عيا ولا حصراً، ثم ناداهم قائلا « أى أصدقائى المساكين : أنتم أحرار ... أحرار كهذا الهواء ... وإنكم لتستطيعون أن تطرحوا اسم العبودية وتطأوه بأقدامكم ، فأنكم لن تسمعوه بعد اليوم ... إن الحرية حقكم الذى منحكم إياه ربكم كما منح غيركم » ... وتألم الرئيس من أن يخروا سجداً على قدميه فقال « لا تسجدوا لى ، هذا ليس بصواب . إنما أنا رجل مثلكم ولا فرق بينى وبينكم إلا هذا المنصب وعما قريب أعود فأكون واحداً منكم ؛ يجب أن تسجدوا لله وحده وأن تشكروه على الحرية التى سوف تتمتعون بها منذ اليوم »

وعاد الرئيس إلى وشنطون وفى وجهه مثل ما يكون فى وجوه الأبرار الصالحين ، والناس حول ركابه جموع خلف جموع وهم يهتفون باسم الأب أبراهام بطل الحرية ومحطم الأصفاد ومعيد الوحدة إلى البلاد وحامى دستورها ورسول حاضرها إلى غدها ..

وفى اليوم التاسع من هذا الشهر المشهود وضعت الحرب الأهلية أوزارها فقد سلم لى سيفه للقائد جرانت علامة الهزيمة ، ولكن كان جرانت عظيما إذ أبى أن يتسلم السيف من خصمه قائلا : أبقه فى يمينك أو فى منطقتك فهذا أجدر موضع به ...

وتلقت العاصمة النبأ وتلقاه الرئيس وأحس الناس أول الأمر كأنما أفاقوا من حلم مخيف لا تزال فى نفوسهم مخاوفه ..

وتنفس أبراهام الصعداء ؛ وتنفس معه الناس وأحس ابن الأحراج بعد هذا الكفاح الطويل الشاق أن قد آن له أن يستريح بضعة أيام ... وتزاحم الناس
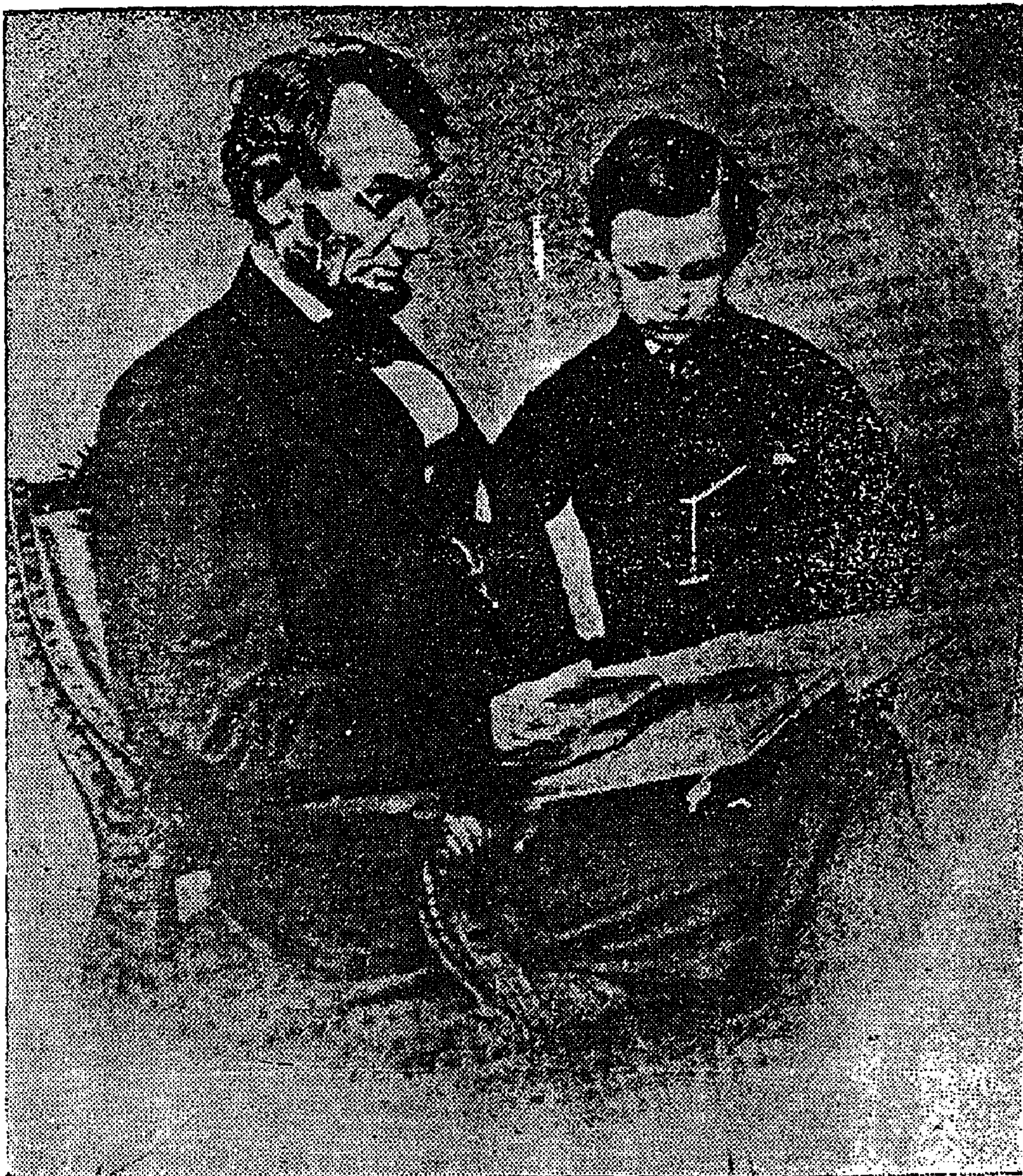
الرئيس وابنه تاد

حول البيت الأبيض وهم من فرط سرورهم يبدون كأنما طاف بهم طائف من الجنون ؛ وأطل عليهم الرئيس وهم يتصايحون ويتواثبون ويقذفون بقبعاتهم فى الهواء ؛ وعظمت حماسة هذا البحر الزاخر من الخلق زمناً طويلا ، وهم تحت شرفة الرئيس يموج بعضهم فى بعض ...

لم يدر الرئيس ماذا يقول وهو الخطيب الذى لم يعرف تاريخ بلاده نداً له ، وما زاد على أن مسح بيده الدموع المتحدرة من عينيه ، ثم طلب إلى الناس أن يهتفوا ثلاثاً بحياة القائد جرانت وجنوده وحياة القواد البحريين ورجالهم وأحنى للجموع رأسه الأشم ثم عاد إلى حجرته ..

وظلت العاصمة منذ هذا اليوم التاسع من أبريل ومظاهر الفرح تملأ جوانبها وتشيع فى البلاد ؛ وفى اليوم الرابع عشر كان على مجلس الوزراء أن ينعقد ظهراً وكان جرانت ممن سوف يشهدون الاجتماع ؛ وفى صباح هذا اليوم ظل الرئيس معتكفاً وقد اعتذر عن لقاء من طلبوا لقاءه ، وجلس يتحدث إلى ابنه الكبير روبرت وقد عاد من الميدان بصحبة جرانت ، وظل أبوه يختبر مدى استعداده بأسئلة ألقاها عليه وهو لم يجلس إليه منذ زمن طويل لتغيبه فى الجامعة ثم لذهابه من الجامعة إلى الميدان.

ولاحظ بعض المقربين إلى الرئيس أن التفاؤل فى المستقبل أخذ يملأ جوانب نفسه ، وأنه كان منشرح الصدر ضحوكا ، يقص عليهم أنه رأى حلماً لا يراه إلا قبيل العظيم السار من الأحداث ؛ ولقد رآه قبيل جتسبرج وفكسبرج وأنتيتام ، وهو حلم عجيب قوامه ركوب الماء فى قارب غريب لا يوصف ينطلق بالرئيس فى سرعة شديدة إلى شاطىء مظلم مجهول ولكن الرئيس يصحو قبل أن يبلغ الشاطىء . . ألا ليته يصحو قبل أن يصل به القارب مساء هذا اليوم إلى ذلك الشاطىء المخيف، فلقد أعد المجرمون الآثمون عدتهم وبيتوا كيدهم . .

واجتمع مجلس الوزراء ليرى ماذا تعمل الحكومة لإصلاح ما أفسدته الحرب وعارض الرئيس أشد المعارضة القائلين بالانتقام من الجنوب وصاح بهم « كفانا ما ضحينا من الأنفس ... يجب أن نعمل على شفاء الجراح كما يجب أن نطفىء فى قلوبنا السخائم إذا أردنا أن نقيم الوحدة والوفاق » . . ألا ليت المؤتمرين به سمعوه إذ يقول ذلك .. ألا ليتهم سمعوه ...
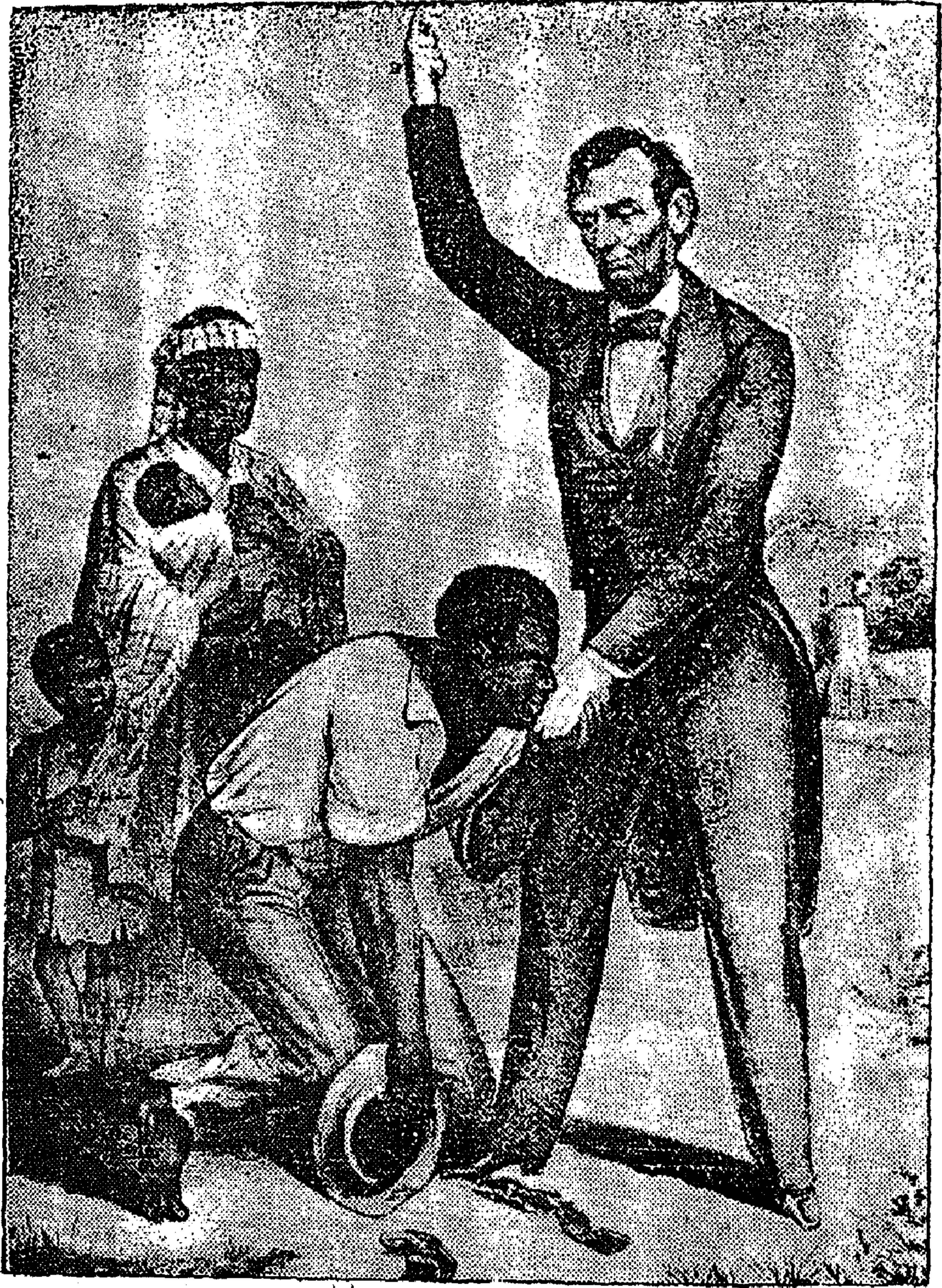
يجب أن تسجدوا لله

وركب الرئيس وزوجته فى نزهة عصر ذلك اليوم ، وكانت مارى فرحة بانتهاء الحرب ، تحدث نفسها بما تقيم غداً من ولائم ، وكانت تقول لزوجها إنها تعتزم بعد انتهاء مدة هـذه الرياسة الثانية أن تزور أوروبا فتقضى هناك سنة ، ويضحك لنـكولن قائلا : « أما أنا فسأزور كليفورنيا الجديدة والأصقاع الغربية »

ولمـا عادا لمح إبراهام وهو ينزل من العربة قوماً خارجين من البيت الأبيض ، فعرف بعضهم وهم من أصحابه القدماء من أهل إلينوى ، فناداهم من بعد وأشار إليهم بيده كما كان يفعل فى سبرنجفيلد قائلا : « هالو ... ارجعوا إلىّ أيها الرفاق ... مرحباً يا أصحابى ... » وفتح لهم ذراعيه وبسط كفه ، وإنهم ليعجبون أشد العجب أنه لايزال على عهدهم به ... ومشى الرئيس معهم إلى إحدى الحجرات وهو يضحك بينهم ويمزح كما كان يفعل بالأمس ، وسألهم عن أشخاص ممن يعرف ، ثم جلس بينهم يقص عليهم قصصاً مضحكة ويضحك ضحـكات مدوية ، وقد رفع بينه وبينهم الـكلفة كأنما يجلسون أمام دكان من دكاكين سبرنجفيلد ... وظل الرئيس يتلو نكاته ويضحك ملء نفسه ، ويضحك سامعوه ، وكلـا جاء الخادم يدعوه إلى الطعام صرفه بإشارة من يده وأخذ فى حديثه ، إلى أن جاءه ما يشبه الأمر من مارى فنهض ومد إليهم يده مودعاً ...

وفى المساء ذهب الرئيس وزوجته ليشهدا رواية تمثيلية فى المسرح ، وكانت الصحف قد نشرت اعتزامه الحضور ومعه القائد جرانت ، وتخلف القائد لأنه أراد السـفر ، فذهب مع الرئيس وزوجته ضابط وخطيبته وجلسا معهما فى المقصورة الخاصة ...

وما أطل الرئيس من مقصورته على الجمهور حتى دوت جنبات القاعة بالتصفيق والهتاف ، وأحنى الرئيس رأسه للجميع وجلس يشهد التمثيل ...

وانقضت ساعتان ، وتسلل إلى المقصورة فى منتصف الساعة الحادية عشرة الممثل ولـكس بوث رأس المؤامرة ليغتال الرئيس ؛ وكان على اتصال بنجار المسرح وكان هذا النجار عضواً فى المؤامرة ، فصنع له أثناء النهار ثقباً فى باب المقصورة لينظر منه ، وأعد له رتاجاً خشبياً لباب الردهة المؤدية إلى المقصورة من الداخل .

وحمل الحارس الواقف بباب الردهة الخارجى بطاقة من المجرم إلى الرئيس

تظاهر بها أنه رسول يحمل إليه نبأ ، وسمح له الرئيس بالدخول ، فأغلق من الداخل باب الردهة بذلك الرتاج الخشبي ؛ ونظر من الثقب ، ثم فتح الباب وأطلق رصاصة إلى رأس إبراهام ، وطعن الضابط بخنجره حين هم أن يمسكه ، وقفز إلى المسرح الذى طالما مثل أدواراً عليه ، ولكن ثوبه علق بخشبة العلم ، فهوى وانكسرت ساقه ، ووثب على الرغم من ذلك وخرج يعدو ، وكان شركاؤه قد أعدوا له حصاناً فهرب على ظهره عدواً ...

وحاول إبراهام أن ينهض فلم يستطع . . وخر على مقعده . . . وهوت السنديانة من هذه الضربة ، وطالما استعصت من قبل على الضربات !

وحمل الرئيس إلى بيت قريب من المسرح ، واجتمع حول سريره الوزراء ورجال الدولة وخاصة أصدقائه ، وهو لا يسمع ولا يعى شيئاً مما حوله ، وفى الساعة السابعة والدقيقة الثانية والعشرين من صباح اليوم التالى ، وهو الخامس عشر من شهر يوليو مات إبراهام لنكولن ! !

وساد فى الحجرة صمت رهيب كان يقطعه بكاء مارى ، ووقف ابنه روبرت مصفار الوجه على رأس سريره ، ثم قال الوزير ستانتون : « الآن أصبح إبراهام لنكولن ملكا للزمان ودخل فى التاريخ » !

وروعت العاصمة بالنبأ الفاجع ، وتلاقت أمة بيضها وسودها تحمل شهيدها الأكبر ومحررها العظيم إلى حيث يستريح راحته الأبدية ، وذهبوا بجثمان البطل إلى سبرنجفيلد فى قطار كبير مجلل بالسواد يقل مرافقى جثمانه من رجال الدولة ، وسار فى نفس الطريق الذى جاء منه إلى العاصمة قبل ذلك بأربع سنوات ، والناس اليوم على جانبيه يجهشون ويشهقون ، ولا يملكون غير الدمع فى هذا الخطب الفادح ... وكان السود أكثر الناس بكاء عليه وأشدهم خشوعاً وهم يطوفون بنعشه فى البيت الأبيض قبل نقله إلى سبرنجفيلد ... !

ودفن الرئيس إلى جانب ابنه الصغير ، ولما هموا بوضع تابوته فى التراب ، ارتفعت أصوات الناس جميعاً بضجة عظيمة من البكاء ، الكبراء والعامة فى ذلك سواء ، وانصرف السود وهم يرددون قولهم : « لقد رفع مسيحنا الجديد إلى السماء » !

ألا ليتهم حملوا ابن الغابة إلى الغابة ليدفن حيث نشأ وحيث شب ... !

الفهرس

من سلسلة ذاكرة الكتابة

سلسلة
ذاكرة الكتابة

الشاعر الأديب المؤرخ محمود الخفيف «1908 - 1961» هو واحد من ألمع الشخصيات الثقافية والفكرية فى مصر والعالم العربى فى القرن العشرين، وقد أصدرنا له فى سلسلة «ذاكرة الكتابة» من قبل كتابين رائعين عن «تولستوى» و«أحمد عرابى الزعيم المفترى عليه»، وهذا الكتاب الثالث الذى ننشره للخفيف، وموضوعه هو الزعيم الأمريكى الإنسانى «لنكولن» محرر العبيد وداعية المساواة بين الناس وصاحب المبادئ العالية التى دفع ثمنها عندما اغتاله أحد الأشرار وهو يشاهد مسرحية من المسرحيات. ومحمود الخفيف معروف بمدى عمقه فى البحث وإخلاصه فى الدراسة، بالإضافة إلى موهبته العالية فى التعبير والتحليل والتفكير، وهو ليس مؤرخاً خالصاً ولا أديباً خالصاً، ولكنه يمثل «المؤرخ الأديب» أو «المؤرخ الفنان» على أجمل صورة، محمود الخفيف إلى جانب دقته فى البحث وتنوع مصادره وغزارة معلوماته يبحث دائماً عن الجوانب الإنسانية ويلتفت إليها ويضعها تحت الأنظار، مما يجعله من أكثر الذين يستحقون صفة «المؤرخ الأديب» أو «المؤرخ الفنان»، مثله فى ذلك مثل «كارلايل» فى الأدب الإنجليزى ««ستيفان زفايج» النمساوى الذى كان يكتب بالألمانية وغيرهما، وهذا الكتاب الذى نقدمه وهو «ابراهام لنكولن - هدية الأحراج إلى عالم المدنية» هو الكتاب الذى أصدره الخفيف فى أواخر أربعينيات القرن الماضى، وهو دراسة ممتعة وشاملة عن زعيم كان يدعو للإخاء الإنسانى القائم على المبادئ العالية والأخلاق الرفيعة. وكلمة «الأحراج» الواردة فى العنوان تشير إلى الغابات والحياة البدائية التى خرج منها لنكولن ليصبح زعيماً من أكبر زعماء الحضارة والمدنية فى كل العصور.

الغلاف : أحمد اللباد
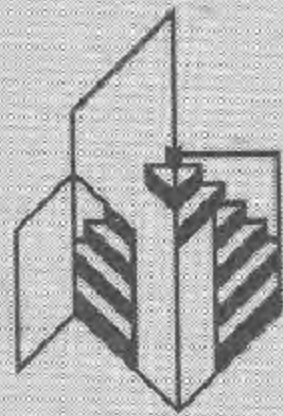
الهيئة العامة لقصور الثقافة

السعر: خمسة جنيهات